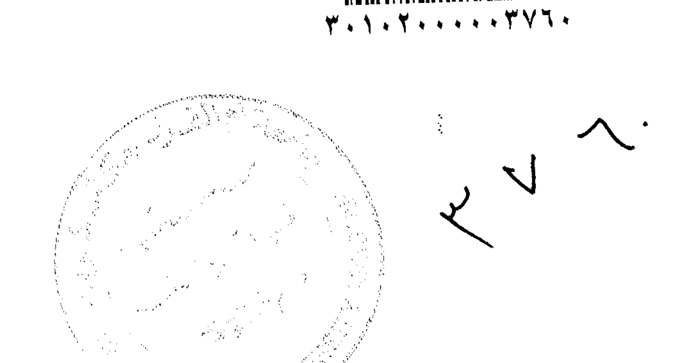
المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مركز الدراسات الإسلامية



الدروس المستفادة من

العقوبات الإلهية في القرآن الكريم

قبل الرسالة المحمدية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

في الدراسات الإسلامية

إعداد الطالب

عبد الهادي سعد هادي الشمراني

إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور

عبد الباسط إبراهيم بلبول

الجزء الثاني

العام الدراسي

١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م




الفصل الثالث

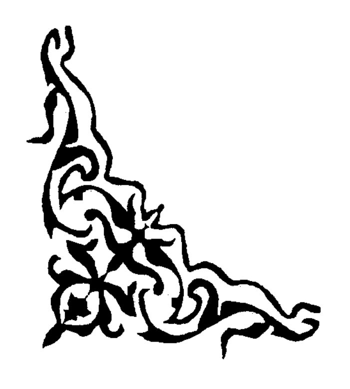
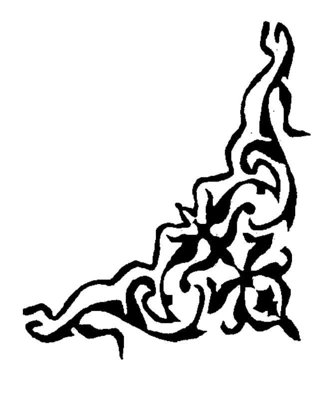
العقوبات الإلهية في عهد موسى عليه السلام

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عقوبة فرعون وقومه .

المبحث الثاني : عقوبات بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام .

المبحث الثالث : عقوبة قارون .

الفصل الثالث

العقوبات الإلهية في عهد موسى

تمهيد :

أوحى الله إلى موسى – عليه السلام – بعد رجوعه من مدين متجهاً إلى مصر (بلده الذي ولد فيه) ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص:٢٩] أي : لما قضى موسى الأجل المتفق عليه ، وهو ثماني سنين أو عشر ، وأنه اختار الأكمل منهما ، سار بأهله خارجا من مدين متجها إلى مصر ، فأبصر ناراً فقال لأهله : امكثوا هنا ، فإني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر عن الطريق من ضوئها ، أو ممن عندها ، أو جذوة من النار ، (أي : قطعة منها) لعلكم تصطلون (أي : تستدفئون بها)[١] .

وعند ذلك ناداه الله – تعالى – وعرفه به وأمره **أولاً** : بالاعتقاد بالوحدانية ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾[٢] [طه:١٤] وأمره **ثانياً** : بإخلاص العبادة له فقال : ﴿ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه:١٤] وأمره **ثالثاً** : بالإيمان باليوم الآخر فقال : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه:١٥] وهذه هي أسس رسالة الله الواحدة[٣] ، ثم أيده بمعجزتي العصا واليد وهو واقف مكانه قبل أن يأمره بتبليغ الرسالة ؛ ليعلم أنه لقي ربه حقاً هذا **أولاً** ، وليطمئن قلبه وهو ذاهب إلى فرعون ، **ثانياً** .

ثم أمره أن يذهب إلى فرعون ولا يخاف أحداً فإن كل شيء بيده ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه:٢٤] .

فاعتذر موسى بقتله لواحد منهم ، ويخاف إن ذهب أن يقتلوه ، ثم إن في لسانه

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٩٩) .

(٢) وفي سورة النمل ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آية:٩] وفي سورة القصص ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آية:٣٠] .

(٣) فالألوهية الواحدة قوام العقيدة وعليها تترتب العبادة ، وأما الساعة فهي الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل – انظر : (في ظلال القرآن) سيد قطب (٤/٢٣٣١) .

عيّاً أن لا يفهموا كلامه ويحب أن يرسل معه أخاه هارون ؛ لأنه أفصح كلاماً منه وليشتد به أزره . وهذا منه على سبيل الطلب لا الاعتراض[١] .

فاستجاب الله له كل ما طلب قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَـٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝٣٦ ﴾[٢] [طه:٢٥-٣٦] .

فزال الخوف عن موسى وحقق الله له ما طلب من نبوة أخيه هارون ؛ لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد[٣] .

واستجاب موسى للأمر الإلهي ، وتوجه هو وأخوه هارون إلى الطاغية فرعون ، فأبلغاه أمر الله وبيّنا له ما أيد الله به موسى من معجزات فطلبها ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات:٢٠] من معجزة العصا واليد[٤] ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ [النازعات:٢١] وطغى وتجبر وتولى وتكبر ، وزعم أنّ هذا سحرٌ يؤثر .

وبعدها أوحى الله لموسى أن يخرج بقومه هارباً بهم من بطش فرعون وقومه ، بعد أن بلغ ما أمر به ، فخرج فرعون وجنوده في أثره ، فنجى الله موسى وقومه من بطشه ، وأغرق الله فرعون وجنوده ، جزاء عتوه وعناده وظلمه .

---

(١) يقول سيد قطب : (إنه كان يشكو إلى ربه ما به من ضعف وقصور ، لا ليتنصل أو يعتذر عن التكليف ، ولكن ليطلب العون والمساعدة في هذا التكليف العسير) انظر : (في ظلال القرآن) (٢٥٨٩/٥) .

(٢) سورة طه آية (٢٥ : ٣٦) وفي سورة الشعراء يقول تعالى عن موسى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ ﴾ [الآيات:١٢-١٤] ، وفي سورة القصص قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ۝٣٥ ﴾ [الآيات:٣٣-٣٥].

(٣) (تفسير ابن كثير) (٤٠٠/٣) ؛ وانظر : (تفسير الكشاف) (٦٢/٣) .

(٤) أشرت إلى ذكر معجزة العصا واليد وكيفية التوفيق بينهما عند الحديث عن لطائف الآيات في سورة النازعات من هذا المبحث .

المبحث الأول

عقوبة فرعون وقومه

المطلب الأول : الآيات التي تحدثت عن عقوبات فرعون وقومه

أشارت بعض سور القرآن لعقوبة فرعون وقومه ، بينما فصلت سور أخرى عقوبتهم تفصيلا كاملا .

القسم الأول : السور التي أشارت إلى عقوبتهم .

أولا : سورة البقرة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٠] .

أشارت الآية إلى نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون ومن معه ؛ تذكيرا لهم بنعمة الله عليهم ؛ ليستعيدوا تصورها وكأنهم كانوا ينظرون إلى فرق البحر ، ونجاة بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام[1] .

ثانيا : سورة آل عمران ، قال تعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [آل عمران:١١] .

في هذه الآية تذكير لبني إسرائيل لمصير آل فرعون حيث أهلكهم بسبب ذنوبهم ونجى بني إسرائيل . ولكن هذا لا يمنحهم حقا خاصا إذا هم ضلوا وكفروا . فليس ببعيد على الله أن ينالوا ما نال آل فرعون[2] .

ثالثا : سورة الأنفال ، قال تعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنفال:٥٢-٥٤] .

في الآيات تذكير في صورة تحذير للمخاطبين من كفار قريش وغيرهم أن يشابهوا الظالمين من الأمم المكذبة كفرعون وقومه ، فينزل الله بهم من عقابه ما أنزل بأولئك الفاسقين[3] .

---

(١) انظر : (في ظلال القرآن) (٧١/١) .

(٢) نفس المصدر السابق (٣٧١/١) .

(٣) انظر : (تيسير الكريم الرحمن) (٢١٠/٢) .

رابعاً : سورة هود ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [هود:٩٦-٩٩] .

٥ في الآيات ذم لفرعون وقومه الذين أطاعوه ، مع وضوح ضلاله وفساده لخفة عقولهم كما قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزخرف:٥٤] ، ولهذا نفى الله عن فرعون ما أثبته لقومه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود:٩٧-٩٨] ، وهذا كالتعليل لنفي الرشاد عن أمر فرعون ؛

١٠ لأنه لو كان فيه رشد لما كان القائد لقومه وأتباعه إلى جهنم[1] .

وأتبعوا في هذه (أي : الدنيا) بدليل قوله تعالى عن قوم هود : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ [هود:٦٠] ، أي : جعلت تابعة لهم كما يتبع الظل صاحبه ، وهذا من الخزي الذي يلازمهم . وزيادة عليه يلعنهم اللاعنون من عباده ، كما بينها الله بقوله جل وعلا في الكفار عموماً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ

١٥ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة:١٦١] .

خامساً : سورة إبراهيم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم:٦] .

٢٠ أ – في الآيات أيضاً التذكير بنعم الله عليهم في إنجائه إياهم من فرعون في اليوم الذي يعرفونه .

ب – في سورة **البقرة** قال : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ [البقرة:٤٩] وقال في **الأعراف** : (**يقتلون**) بغير واو ، وقال في سورة **إبراهيم** هنا : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ [إبراهيم:٦] بالواو . فكيف ذلك ؟ والقصة واحدة .

٢٥ والجواب : أنه لما حذف الواو جعل التذبيح والتقتيل تفسيراً للعذاب وبياناً له ،

---

(١) انظر : (معارج الصعود إلى تفسير سورة هود) – لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ص"٢٣٧ ، ٢٣٨" ، ط دار المجتمع .

وحيث أثبتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب ؛ لأنه أوفى على بقية أنواعه وزاد عليها زيادة ظاهرة ، فعلى هذا يكون زيادة الواو أبلغ[1] .

سادسا : سورة **الإسراء** أشارت إلى عقوبة فرعون وقومه في قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ [الإسراء:١٠٣][2] .

٥ أ – فأراد أن يستفزهم : أي : يستخف موسى ومن معه ويخرجهم ؛ ليتمكن من استعباد الباقين مثلهم ، مثل قريش حين أرادوا أن يستفزوك من الأرض ليخرجوك منها للتمكن مما هم عليه من الكفر والعناد .

ب – في الآية تحذير لقريش[3] ، فمن أغرق فرعون وقومه جميعا قادر على إهلاكهم جميعا ، وهذه سنة الله فيمن عاند بعد أن رأى الخوارق وكفر النعمة وأفرط في

١٠ الغي بعد ظهور الحق[4] .

سابعا : سورة **الحج** ، **والفرقان** ، **العنكبوت** ، **ص** ، **ق** ، **القمر** ، **الحاقة** ، **المزمل** ، **البروج** ، **الفجر** .

جاءت الإشارة إليهم في معرض ذكر الأقوام المكذبين من قبلهم دون ذكر اسمهم .

قال تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾

١٥ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج:٤٢-٤٤] .

أما سورة الفرقان فقال فيها : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الفرقان:٣٥-٣٦] .

٢٠ أما سورة **العنكبوت** : فأشارت العنكبوت إلى عقوبة قوم فرعون ضمن تعداد قدرة الله في عقاب الأمم قبلهم في قوله تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ

---

(١) تفسير الرازي المسمى (بأنموذج جليل) ص"٢٣٩" .

(٢) سورة الإسراء آية رقم (١٠٣) .

(٣) لكون الآية جاءت بعد الآيات المتحدثة عن إنكارهم للبعث قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء:٩٨] .

(٤) نظم الدرر (١١/٥٢٨ ، ٥٢٩) .

ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

في قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ ﴾ [العنكبوت:٤٠] وهم قوم نوح ، وفرعون وقومه ، فقوم نوح أغرقوا بنزول المطر من السماء ، وتفجر عيون الأرض ، وفرعون ووزيره هامان وجنودهما أغرقوا في البحر في صبيحة واحدة ؛ فلم ينج منهم أحد[١] .

أما سورة (ص) فأشارت إلى فرعون صاحب الأهرام التي تقوم في الأرض كالأوتاد تذكيراً لقريش أيضاً في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾ [ص:١٢] وهي أول آية تذكر الأوتاد : إما لكثرة جنوده ، أو لأنه كان يعذب بها الناس .

أما سورة (ق) فأشارت إلى فرعون ضمن الأقوام الذين جادلوا في قضية البعث كما فعل المشركون القرشيون .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ ﴾ [ق:١٢-١٣] فأراد بفرعون هنا : قومه ؛ لأن المعطوف عليه قوم نوح .

أما سورة **الذاريات** فأشارت لمصرع فرعون وقومه إشارة سريعة دون عرض كيفية غرقه فقال سبحانه : ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠ ﴾ [الذاريات:٣٨-٤٠] .

ولا يطيل السياق هنا في عرض تفصيلات القصة ، فيمضي إلى نهايتها بقوله : ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات:٤٠] أي آت بما يلام عليه مما كان منه من طغيان ومن تكذيب[٢] .

فإن قلت : كيف وصف نبي الله يونس – صلوات الله عليه – بما وصف به فرعون في قوله تعالي : ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات:١٤٢] .

فالجواب : أن موجبات اللوم تختلف ، وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم ، فمرتكب الكبيرة ملوم على مقدارها ، وكذلك مقترف الصغيرة . ألا ترى إلى قوله

(١) انظر : (تفسير ابن جرير الطبري) (٣٧/٢٠) ، تفسير ابن كثير (٢٤/٣) .

(٢) في ظلال القرآن (٣٣٨٤/٦) .

تعالى : ﴿ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ ﴾ [هود:٥٩] ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ ﴾ [طه:١٢١] لأن الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة[1] .

أما سورة **القمر** : فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر:٤١-٤٢] .

كانت الإشارة فيهما زائدة على ما تقدم ؛ حيث بينت أن آل فرعون جاءتهم النذر ، وأعطوا الآيات الكثيرة فكذبوا بها ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

والإشارة إلى العزة والاقتدار تلقي ظلال الشدة في الأخذ ، وفيها تعريض بعزة فرعون واقتداره على البغي والظلم ، فقد ضاعت العزة الباطلة ، وسقط الاقتدار الموهوم ، وأخذه الله هو وآله أخذ عزيز حقا مقتدر صدقا . أخذهم أخذا شديدا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وغشم وبطش وجبروت[2] .

أما سورة **الحاقة** : فأشارت إلى عقوبتهم مع مجموعة المكذبين من قومه وقوم لوط في قوله سبحانه : ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾ [الحاقة:٩-١٠] .

وهذا السياق كما تراه يحمل فعال الذين جاءوا بالخاطئة (أي : الفعلة الخاطئة) وهنا إشارة بديعة حيث ذكر الله أنهم ﴿ عَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ [الحاقة:١٠] وهم عصوا رسلا متعددين ، ولكن حقيقتهم واحدة ، ورسالتهم في صميمها واحدة . فهم إذن رسول واحد يمثل حقيقة واحدة[3] .

فكانت النتيجة أن أخذهم الله أخذة شديدة زائدة في الشدة ؛ كما زادت قبائحهم في القبح[4] .

سورة **المزمل** : أشارت إلى عقوبة قوم فرعون في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾[5] [المزمل:١٥-١٦] .

---

(١) تفسير الكشاف (٤٠٣/٤) .
(٢) في ظلال القرآن (٣٤٣٥/٦) .
(٣) في ظلال القرآن (٣٦٧/٦) .
(٤) تفسير الكشاف (٦٠٠/٤) .
(٥) وبيلا يعني : الثقيل الغليظ ، ومنه قولهم : صار هذا وبالا عليه ، ويقال : كلأ وبيل وخم لا يستمرأ لثقله فأدت عاقبته إلى مكروه ، والوبيل العصا الضخمة ، ومنه الوابل للمطر العظيم - انظر : (تفسير الكشاف) (٦٤١/٤) ؛ تفسير الرازي (١٨٢/٣٠ ، ١٨٣) - وانظر : (لسان العرب) (٢٠١/١٥ ، ٢٠٢) مادة (وبل) .

في الآيات :

أ – الخطاب لأهل مكة ، والمقصود تهديدهم بالأخذ الوبيل المهلك .

ب – لسائل أن يسأل . لَمَ نكّر الرسول ثم عرّف ؟

والجواب : إن التقدير أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه ، فأخذناه أخذاً وبيلاً، فأرسلنا إليكم أيضاً رسولاً فعصيتم ذلك الرسول ؛ فلابد وأن نأخذكم أخذاً وبيلاً[١] .

ج – لم ذكر في هذا الموضع قصة موسى وفرعون على التعيين دون سائر الرسل والأمم ؟

والجواب : لأن أهل مكة ازدروا محمداً – عليه الصلاة والسلام – واستخفوا به لأنه ولد فيهم ، كما أن فرعون ازدرى موسى لأنه رباه وولد فيما بينهم ، وهو قوله : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾[٢] [الشعراء:١٨] .

أما سورة **البروج** فأشارت إلى عقوبتهم في قول الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [البروج:١٧-١٩] .

في الآيات :

١ – أشارت إلى قوة القوم واستعدادهم ، فسماهم بالجنود .

٢ – أشارت إلى فرعون من المتأخرين وثمود من المتقدمين دون تفصيل ، فأمرهم معلوم[٣] .

وأخيراً أشارت سورة الفجر إلى عقوبة فرعون وقومه في قول الله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر:١٠-١٤] .

في الآيات :

١ – في قول الله تعالى : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر:١٣] إشارة إلى ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعده لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به[٤] .

---

(١) التفسير الكبير (١٨٢/٣٠) .

(٢) نفس المصدر (١٨٣/٣٠) .

(٣) انظر : (في ظلال القرآن) (٣٨٧٦/٦) .

(٤) تفسير الكشاف (٧٤٨/٤) ؛ تفسير الرازي (١٦٨/٣١) . فائدة : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن عند الله أسواطاً كثيرة ، فأخذهم بسوط منها – انظر : (الكشاف) (٧٤٨/٤)؛ الرازي (١٦٨/٣١) .

٢- ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر:١٤] أي : بالعقاب لفرعون ولمن سار على شاكلتهم من الظلمة والطغاة المفسدين . لأنهم لا يفوتونه كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به(١) .

وعند ابن كثير في معناها : « يرصد خلقه فيما يعملون ، ويجازي كلاً بسعيه في الدنيا والأخرى ، وسيُعْرَضُ الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ويقابل كلاً بما يستحقه ، وهو المنزه عن الظلم والجور »(٢) .

ثامناً : سورة **المؤمنون** ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٩] .

في الآيات : -

١- بعث الله رسوله موسى - عليه السلام - وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات .

٢ - استكبار فرعون وقومه عن إتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشرين .

٣ - أهلك الله فرعون وقومه ؛ حيث أغرقهم في صبيحة يوم واحد أجمعين .

٤ - أنزل الله على موسى الكتاب وهو التوراة بعد ما قصم الله فرعون وقومه القبط ، ولم يهلك الله أمة بعامة بعد نزول التوراة(٣) .

تاسعاً : سورة الصافات : أشارت سورة الصافات إلى عقوبة فرعون وقومه في لمحة سريعة في تعرض امتنان الله على موسى وهارون عليهما السلام .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ

(١) انظر : (تفسير الكشاف) (٧٣٣/٤) .

(٢) تفسير ابن كثير (٥٤٣/٤) .

(٣) ذكرنا ذلك سابقاً عند الكلام في اختلاف العلماء في مكان أصحاب القرية لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ ﴾ [القصص:٤٣] الآية ، وانظر : (تفسير ابن كثير) (٤٠٢/٣) .

ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الصافات:١١٤-١٢٢] .

في الآيات : -

١ - إبراز منة الله عليهما باختيارهما واصطفائهما ونجاتهما وقومهما من الكرب العظيم .

٢ - نصرة الله لهما على فرعون وملإه وإعطائهما الكتاب الواضح المستبين وهدايتهما الصراط المستقيم .

٣ - إبقاء ذكرهما في الأجيال والقرون الآتية بعدهما .

٤ - التعقيب المتكرر في السورة لتقرير نوع الجزاء الذي يلقاه المحسنون[1] .

القسم الثاني : السور التي فصلت عقوبة فرعون وقومه

أولاً : سورة الأعراف :

تحدثت سورة الأعراف حديثاً تفصيلياً عن فرعون وقومه وموسى مع قومه وسنكتفي بذكر عقوبة فرعون وقومه هنا ، وسنرجئ الحديث عن عقوبة بني إسرائيل إلى حينه .

فبعد قصة قوم نوح وصالح ولوط وشعيب - عليهم السلام - أرسل الله موسى عليه السلام مؤيدا بالآيات البينات إلى فرعون وملئه ، ولكن إفسادهم في الأرض حال بينهم وبين الإيمان .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٩٩٧) .

﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٠٣-١٣٧] .

لطائف الآيات :

أولا : أرسل الله موسى – عليه السلام – إلى فرعون ليبلغه أمر الله مباشرة .

ثانيا : بيان سوء عاقبة المفسدين في الدنيا والآخرة .

ثالثا : اعتزاز موسى بتبليغ دعوة الحق ، وهو حريص على ألا يقول غيره ؛ لأنه

مهتم بمصلحة قومه .

رابعا : ذكر الله – تعالى – في هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر في سائر القصص ؛ لأجل أن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات سائر الأنبياء ، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام(١) .

خامسا : القصة تكشف لنا مواجهة موسى لفرعون وملئه ، وهذا يبين لنا كيف ينظر الطاغوت إلى هذا الدين ، وكأنه الخطر الوحيد على وجوده ، كما تبين كيف يدرك المؤمنون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت(٢) .

سادسا : بطانة فرعون يلصقون بموسى تهمة ما يسمى اليوم (بقلب نظام الحكم) ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف:١١٠] .

سابعا : إلهية فرعون المزعومة تستشير الملأ في شأن موسى(٣) .

ثامنا : السحرة كانوا جماعة من المأجورين الذين يبحثون عن المنافع المادية والسلطة الدنيوية ؛ في حين كان موسى داعية حق لا يريد من ورائها جزاء ولا شكورا ، بل كان كل همه عودة فرعون وقومه إلى جادة الصواب ، ثم فك العذاب عن قومه بني إسرائيل(٤) .

تاسعا : في قوله تعالى : ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١١٩] لم تنسب الغلبة لموسى – عليه السلام – لأن ذلك ليس من كسبه ولا من صنعه(٥) .

عاشرا : للسحر حقيقة وتأثير ، فالسحرة بسحرهم أثروا على أعين الناس حتى رأت الحبال والعصي ثعابين وحيات على خلاف ما هي عليه حقيقة .

الحادي عشر : إيمان السحرة لعلمهم أن ما جاء به موسى ليس سحرا من جنس سحرهم لأنهم أهله ، وإنما هو آية من الله خارقة تدل على صدق موسى ﷺ .

الثاني عشر : ثبات السحرة أمام التهديدات والاتهامات الفرعونية بأن هذا الأمر

(١) التفسير الكبير (الرازي) (١٨٩/١٤) .

(٢) انظر : (في ظلال القرآن) (١٣٣٠/٣) .

(٣) وهذه فضيحة كبرى لفرعون إذ نسى دعواه بالربوبية (أيسر التفاسير) (٦٢/٢) .

(٤) انظر : (في ظلال القرآن) (٢٥٩٥/٥) .

(٥) انظر : (تفسير المنار) (٦٩/٩) .

مخطط له من قبل ؛ كما قال فرعون هذه الأمة[1] : هذا أمر قضي بليل .

الثالث عشر : بطانة فرعون يعودون إلى إثارة فرعون ودفعه للبطش بموسى وقومه بقولهم : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف:١٢١] .

الرابع عشر : إحياء موسى الأمل في نفوس بني إسرائيل المنكسرة ، وذلك بتذكيرهم بقوة الله التي لا تقهر ، وأنه مع صبرهم وتقواهم سوف يهلك عدوهم - وهذه بشارة عظيمة تضاف لما قد رأوا بأعينهم من معجزات وآيات ظاهرات - .

الخامس عشر : ابتلى الله فرعون وقومه بمجموعة من العقوبات الإلهية لعلهم يذكرون فيتعظون وهي - السنين[2] ، ونقص الثمرات[3]، والطوفان[4] ، الجراد[5]، القمل[6] ، الضفادع[7] ، الدم[8] ، تتبع الواحدة منها الأخرى ، وتصدق اللاحقة منها السابقة .

السادس عشر : من طبيعة الإنسان الضعف ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨] فتراه حين نزول البلاء يفزع إلى الله بالدعاء والتضرع ، فإذا انكشف ما به نسي وعوده إلا من آمن وعمل صالحا .

السابع عشر : من سنن الله الثابتة إنزال العذاب بالمكذبين بعد إبلاغهم الحجة ، حيث قصم الله فرعون وقومه بإغراقهم جميعا في البحر فلم ينج منهم أحد .

---

(١) هو أبوجهل ، حينما قامت مجموعة من قريش يريدون تمزيق صحيفة المقاطعة المعلقة في الكعبة انظر : (سيرة ابن هشام) لأبي محمد : عبد الملك بن هشام ، (٣٩٩/١) ط دار التراث .

(٢) السنين / الجدب والقحط .

(٣) نقص الثمرات / الجوائح التي تصيبها فلا تصلح بعدها .

(٤) الطوفان / الفيضانات المفرقة .

(٥) الجراد / حشرة تأكل الزروع والثمار .

(٦) القمل / القمل المعروف أو السوس في الحبوب .

(٧) الضفادع / حيوان برمائي يوجد كثيرا في المياه والمستنقعات وأماكن الخصب .

(٨) الدم / دم الرعاف أو النزيف أو تحول الماء المشروب إلى دم عبيط في أوانيهم وأفواههم آية لموسى عليه السلام ، انظر لكل ذلك : (تفسير الرازي) (٢١٤/١٤ ، ٢١٨) ؛ معاني القرآن للزجاج (٣٦٨/٢ ، ٣٦٩) ؛ تفسير ابن كثير (٢٥٠/٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٢) ؛ تفسير الوسيط (٣٩٨/٢-٤٠٢) .

ثانيا : سورة يونس :

ثم تأتي سورة يونس لتذكر : تفصيلا معينا من عقوبة فرعون وقومه ، فتركز على أمرين عظيمين لم تذكرهما أي سورة أخرى وهما :

أولا : استجابة الله لدعاء موسى على فرعون وقومه .

ثانيا : اللحظات الأخيرة والحاسمة في حياة فرعون الطاغية .

الآيات قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس:٧٥-٩٢] .

لطائف الآيات غير ما سبق

أولا : كيف قال لهم موسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾ [يونس:٧٧] على طريق الاستفهام ، وهم إنما قالوا ذلك على طريق الإخبار والتحقيق المؤكد بـ (إن) ، و(اللام) لا على طريق الاستفهام ، وقال في الآية التي قبلها : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس:٧٦] .

والجواب : فيه إضمار تقديره : أتقولون للحق لما جاءكم إن هذا لسحر مبين . ثم قال (أسحر هذا) أنكر ما قالوه ، فالاستفهام من قول موسى - عليه الصلاة والسلام - لا مفعول لقولهم[1] .

ثانيا : السحر لا يؤثر على المسحور إلا بتقدير الله ؛ لأنه هو الصانع لكل شيء والمدبر لكل أمر ، ولا يمكن أن يجلب نفع أو يدفع ضر إلا بمشيئته ، وهذا الذي جعل موسى يقول للسحرة ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٨١] وهذه هي ثقة المؤمن بربه المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر وهو عمل غير صالح .

ثالثا : تفيد الآيات أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بني إسرائيل كانوا هم قلة من أتباع فرعون وكان يخشى من فتنتهم ، وردهم عن اتباع موسى خوفا من فرعون ، وتأثير كبار قومهم المقربين وذوي المصالح عند أصحاب السلطان ، فكان لابد من إرشادهم إلى التوكل على الله - تعالى - ذي القوة المتين ، وما سواها من القوى فباطل ، فكان الجواب ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[2] [يونس:٨٥-٨٦] .

رابعا : تذكر الآيات أن الله - تعالى - أمر موسى وقومه بالانحياز في مكان واحد استعدادا للخروج ، وأن يجعلوا بيوتهم مساجد يصلون فيها[3] .

---

(١) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص"١٩٩" .

(٢) في ظلال القرآن (١٨١٨/٣) .

(٣) تفسير الطبري (١٨٥/١٥) .

خامسا : فإن قيل : كيف نوع الخطاب في قولـه تعـالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٨٧] فثنى أولا ثم جمع ثم أفرد .

والجواب : خوطب أولا موسى وهارون أن يتبوءا لقومهما بيوتا ويختاراه للعبادة ، ثم سبق الخطاب علما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، ثم خص موسى – عليه الصلاة والسلام – بالبشارة تعظيما له عليه الصلاة والسلام[1] .

سادسا : الظلم ظلمات ، ونحن نرى موسى يدعو على فرعون وقومه بعد استنفاد جميع أنواع وسائل الدعوة ، فما كان من فرعون بعد كل هذه إلا أن بغى وزاد في الظلم والتجبر والطغيان ؛ فاستجاب الله دعوة موسى وأخيه هارون ، وأمرهما بالاستقامة وعدم التعجل في معاقبة الله للظالمين[2] .

سابعا : في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس:٨٩] أضافها إليهما ، والدعوة إنما صدرت من موسى – عليه الصلاة والسلام – فكيف ذلك ؟

والجواب : أن موسى – عليه السلام – كان يدعو ، وهارون يؤمن على دعائه ، والتأمين دعاء في المعنى ، فلهذا أضاف الدعاء إليهما .

فإن قيل : لو كان كذلك لقال تعالى (دعوتاكما)

والجواب : لما كانت الدعوة مصدرا اكتفى بذكرها في موضع الإفراد والتثنية والجمع بصيغة واحدة كسائر المصادر ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾[3] [البقرة:٧] .

(١) انظر : (تفسير الرازي) المسمى (أنموذج جليل) ص"١٩٩" .

(٢) قال القرطبي رحمه الله (٨/٣٧٥) : وقد استشكل بعض الناس هذه الآية : كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء إيمان قومهم ؟ والجواب : إنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن ؛ دليله قوله تعالى لنوح عليه السلام ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود:٣٦] وعند ذلك قال ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦] . والله أعلم .

(٣) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص"٢٠٠" .

ثامنا : وأخيرا تأتي اللحظات الحاسمة في حياة فرعون الطاغية ، حينما خرج موسى هاربا من ظلمه ، فيتبعهم بجنوده بغيا وعدوا ، فيشق الله البحر لموسى وقومه ويمن عليهم بالنجاة ويدخل فرعون وجنوده وراءهم ؛ فيطبق الله البحر عليهم ، فيدرك فرعون الغرق فيعلن إسلامه ، ولكن هيهات لقد حيل بينه وبين قول لا إله إلا الله ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٩١] لأن هذا إيمان وقت مشاهدة العذاب[1] لا يقبله الله ؛ لما جرى من سنته سبحانه في ذلك قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر:٨٤-٨٥] .

ثالثا : سورة طه :

قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤٤٦) .

﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا
بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى
﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ
تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا
لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ
ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ
مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ
لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ
ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ
﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ
فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى
نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ
تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾
فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ
قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ
مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا
خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ
مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ
أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ

﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه:٢٤-٨٢] .

لطائف الآيات غيرما سبق :

أولا : للسائل أن يسأل عن اختلاف المحكي من قول موسى - عليه السلام - حين بعث إلى فرعون مع اتحاد القضية في سورة طه ، الشعراء ، القصص ، وقد وقع في كل سورة منها ما ليس في الأخرى فكيف ذلك ؟

فمثلا : قوله تعالى في سورة **طه** : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٣٦] ومن قوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٠-١٤] .

وفي سورة **القصص** ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص:٣٢-٣٥] .

والجواب : إنه لاتوقف في أن قصة موسى - عليه السلام - كانت بالمعنى لاختلاف اللسانين (العربي والعبراني) والترادف فيما بين اللغتين في كل لفظتين يراد بهما معنى واحد غير مطرد ، إذا فلا إشكال[1] .

---

(١) يقول صاحب ملاك التأويل : (٨١٧/٢) وانظر : (٥٤٤/١) - نفس المصدر (إن المعنى قد يتوقف على الكمال على تعبيرين أو أكثر ، لاسيما مع ما في اللسان العربي من الاشتراك ، والعموم ، والخصوص ، والإطلاق ، والتقيد ، والحقيقة ، والمجاز ، وغير ذلك من عوارض الألفاظ ؛ فكيف ينكر اختلاف التعبيرين عن المعنى الواحد بألفاظ ، وعبارات مختلفة ، بل نقول : إنه لو كان المحكي قولا عربيا وحكي بالمعنى لما استنكر اختلاف العبارة فكيف مع اختلاف اللسانين . والحاصل من ⇦

ثانيا : موسى – عليه السلام – يطلب من الله في أول لقاء عددا من الأمور ليتقوى بها في منازلة فرعون هي :

أن يشرح صدره ، وييسر أمره ، ويحل عقدة من لسانه ، ويرسل معه أخاه هارون ليشد به أزره ، ويشركه في أمره ، فاستجاب الله دعاءه وأعطاه سؤله .

ثالثا : يمتن الله على موسى – عليه السلام – أن نجاه من قتل فرعون له وهو صغير ، ويمتن عليه **ثانية** بمحبته سبحانه له وجعله محبوبا لكل من يراه من أهل القلوب السليمة[1] ، وامتن عليه **ثالثة** أن نجاه من القتل بعد قتله للرجل القبطي ، وابتلاه بأنواع كثيرة من الابتلاءات ولبث سنين في أهل مدين ثم جاء على قدر[2] ليصطفيه الله بالرسالة كما قال الله ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه:٤١] .

رابعا : جاءت كلمة (لينا) في قوله تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤] لأول مرة ، ولم تذكر في السورتين السابقتين ؛ بل إنها لم تذكر كأمر من الله – تعالى – لنبي من الأنبياء قبل موسى عليه السلام ، لأن فرعون كان في غاية العتو والاستكبار ، فلابد من دعوتهما له بكلام رقيق لين سهل ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنفع[3] .

خامسا : مناقشة هادئة تبدأ بعد أن قال موسى وهارون لفرعون ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه:٤٧] .

= قول موسى في هذه السور الثلاث من سؤاله ربه شرح صدره، وتيسير أمره ، وإطلاق لسانه ، وتشكيه منه ، والتعاون بأخيه هارون عليهما السلام ، وخوفه ان يكذب ، وذكره ما تقدم منه من قتل القبطي ، على هذه القضيات السبع ؛ دار المحكي من كلامه عليه السلام ، وقد يرد في سورة منها بعض ذلك مما ليس في الأخرى ، ولم يتعارض شيء من ذلك – وانظر : تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"١٥٤" .

(١) عند تفسير قوله تعالى ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص:٩] أن امرأة فرعون قالت له ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ ، فقال فرعون : يكون لك ، فأما لي فلا حاجة لي فيه . انظر : (تفسير ابن كثير) (١٥٦/٣ ، ٣٩٣) .

(٢) قال مجاهد أي : على موعد ، وقال قتادة : على قدر الرسالة والنبوة .

(٣) انظر : (تفسير ابن كثير) (١٦١/٣) .

إنه البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه:٤٧] ليشعر من أول الأمر بأن هناك إلها هو ربه ، ثم إيضاح لرسالتهما ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه:٤٧] ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [طه:٤٧] ثم ترغيب واستمالة ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ [طه:٤٧] ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كي لا يثير كبرياءه وطغيانه ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[1] [طه:٤٨] .

وهذا الأسلوب الذي أرشدهم الله إليه أخذ بلب فرعون ومجامع فكره مما جعله يستمر في المناقشة ويثير الأسئلة ويرد عليه موسى وهكذا .

بينما السورتان السابقتان لا تثيران شيئا من ذلك .

سادسا : سرعة الرد وإلجام الخصم الحجة الدامغة مما يجعله يخرج عن طور المناقشة إلى أمور أخرى – جانبية – مما يوحي لنا أن الرسل – عليهم السلام – لا يريدون من وراء ذلك إلا هداية أقوامهم ، لا إعلام الخصم بقوة الفصاحة والبلاغة .

سابعا : اختيار الموعد والوقت الذي ضربه موسى لهم يدل على حسن تصرف ورجاحة عقل .

فالموعد يوم الزينة ، والوقت ضحى النهار .

يوم الزينة لأنه أكثر تجمعا للناس ، والوقت ضحى لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت . ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر ، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو وضوح الرؤية[2] .

ثامنا : في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه:٦٥] والسحر حرام ، فكيف أمرهم به مع عصمته ؟

والجواب : أنه لما كان إلقاؤهم سببا لظهور معجزته ، وصدق دعوى نبوته صار حسنا بهذا الاعتبار[3] ، بمعنى أن هذا الأمر قد جاء في ساعة لا بد فيها من معرفة ما عند الخصم من أدلة والرد عليه لما يناسبه[4] .

---

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٣٣٧) .

(٢) نفس المصدر (٤/٢٣٤٠) .

(٣) كشف المعاني لابن جماعة ص"٢٥٢" .

(٤) انظر : (تفسير الرازي) (٢٢/٨٢) .

تاسعا : في سورة يونس عرف كلمة السحر ، وفي سورة طه ذكر الساحر معرفا فما الفرق بينهما ؟

والجواب : في سورة (يونس) استفدنا معنى الاستغراق لجنس السحر كله وأنه باطل ، وفي سورة (طه) استفدنا معنى الاستغراق لجنس الساحر كله كذلك ، فالسحر سيبطل والساحر لا يفلح[1] .

ثم وحد كلمة ساحر و لم يجمع ؟ والجواب : أن القصد من هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد ، فلو جمع لقيل : إن المقصود هو العدد[2] .

عاشرا : في قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه:٧٠] يرد سؤال كيف قدم هارون على موسى ؟

والجواب : قدمه لتتناسب الفواصل[3] (أي رؤوس الآيات) ومثلها قوله تعالى ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء:٤٦] في الأعراف وسورة الشعراء لتكون الفاصلة فيها مساوية للفواصل قبلها .

وبإزاء ساجدين قوله ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ [طه:٧٠] في سورة **طه** . فهذا ونحوه مما يراعى في الفواصل ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴾ [الأحزاب:٦٦] ، ﴿ فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب:٦٧] فزيدت الألف لا للبدل من التنوين ، إذ لا تنوين مع الألف واللام ، وإنما للتوافق بينهما وبين الفواصل التي قبلها وبعدهما نحو (**تقتيلا**) و(**تبديلا**) و(**قريبا**) و(**سعيرا**) و(**نصيرا**) وبعدهما (**كبيرا**) و(**وجيها**) و(**سديدا**) و(**عظيما**) من سورة الأحزاب[4] .

الحادي عشر : قال تعالى ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] من سورة الأعراف ، ومثلها في سورة الشعراء[5] ، وهنا في سورة طه قال ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه:٧٠] فلم كررت « رب » في السورتين و لم تكرر في سورة طه؟ .

---

(١) ثم تراه بعدها نكر كلمة «سحر» أولا ثم عرف بعدها كأنه قال أن الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه – انظر : (تفسير الرازي) (٢٢/٨٥-٨٦) .

(٢) تفسير الرازي (٢٢/٨٥) .

(٣) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص"٣٢٨" وانظر : أيضا في (درة التنزيل) ص"١٥١" .

(٤) درة التنزيل ص"١٥١" ، البرهان في متشابه القرآن – للكرماني ص"١٩٨" .

(٥) سورة الشعراء آية (٤٧ ، ٤٨) .

والجواب : أنه إذا قيل : رب العالمين فقد دخل فيهم موسى وهارون وهما دعوا إلى رب العالمين – وذكر في السورتين (الأعراف ، الشعراء) ليدل بتخصيصهما بعد العموم على تصديقهما بما جاءآ به – عليهما الصلاة والسلام – عن الله تعالى . فكأنه قيل : آمنا برب العالمين وهو الذي يدعو إليه موسى وهارون .

وأما في سورة **طه** : فلم يذكر رب العالمين ؛ لأنه ما كان الكلام يتم به آية كما تم في السورتين ، فيكون مقطع الآية فاصلة مخالفة للفواصل التي بنيت عليها فواصل سورة **طه** فقوله تعالى ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه:٧٠] ، وربهما هو رب العالمين ، وكان القصد حكاية المعنى لا أداء اللفظ على جهته[١] .

الثاني عشر : في قوله تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأعراف:١٢٣] من سورة **الأعراف** ، وقال هنا في سورة طه وأيضا في سورة الشعراء ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه:٧١] و [الشعراء:٤٩] .

أظهر اسم فرعون في سورة **الأعراف** ، وأضمره في سورتي **طه والشعراء** فلماذا ؟ وسؤال آخر أيضا قال ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ [الأعراف:١٢٣] ، وفي السورتين قال ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ [طه:٧١] فما وجه الاختلاف في ذلك ؟

الجواب : أما عن إظهار الاسم في سورة **الأعراف** وإضماره في سورتي **طه والشعراء** أن الذكر العائد إلى فرعون بعد في سورة **الأعراف** ولم يبعد في سورتي **طه والشعراء** ؛ لأن فرعون مذكور في سورة طه في جملة قومه من قوله تعالى ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ [طه:٥٧] الآية إلى قوله تعالى ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ﴾ [طه:٥٢] الآية ومثله في سورة الشعراء فلما بعد في سورة الأعراف أعيد ذكره الظاهر[٢] .

وأما عن وجه الاختلاف في قوله (**آمنتم به**) ومرة (**آمنتم له**) أن الهاء في (**آمنتم به**) غير الهاء في (**آمنتم له**) وكل واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى . فالتي في آمنتم به تعود لرب العلمين ؛ لأنه تعالى حكى عنهم ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢١] وهو الذي دعا إليه موسى عليه السلام .

---

(١) درة التنزيل ص"١٥١،١٥٢" ، انظر : (البرهان في متشابه القرآن) ص"١٩٩" ط دار الوفاء .

(٢) درة التنزيل ص"١٥٢،١٥٣" . بتصرف .

وأما الهاء في آمنتم له فتعود لموسى – عليه السلام – والدليل : أنه جاء بعدها ، ففي السورتين ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [طه:٧١] فالهاء في (**إنه**) هي التي في (**آمنتم له**) ولا خلاف أن هذه لموسى عليه السلام .

وأما ما جاء بعد قوله (**آمنتم به**) قوله : إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة ، أي : إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العلمين وقع على تواطؤ منكم أخفيتموه لتستولوا على العباد والبلاد[1] .

الثالث عشر : إيمان السحرة في ذلك الموقف يدل على شجاعة نادرة قل أن تحدث أمام أي طاغية ، والعجب أن أحدا لم يجرؤ على الإيمان مثلهم في ذلك الموقف فكانوا رواد الطريق بحق .

الرابع عشر : في قوله تعالى ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه:٧١] وقبلها في سورة **الشعراء** أما في سورة **الأعراف** فقال ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ [الأعراف:١٢٤] فما سبب اختصاص **الأعراف** بثم وسورتي **طه** والشعراء بالواو ؟ .

والجواب : أن سورتي **طه والشعراء** هما أكثر اقتصاصا وبسطا من سورة **الأعراف** ، والواو .. يناسب ذلك ؛ لأنه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقا لما قبلها كالتعقيب الذي يفيده الفاء .

ويجوز أيضا أن يكون متراخيا عنه كالمهلة التي تفيده (ثم) لا بل يجوز أن يكون ما بعدها مقدما على ما قبلها ، ومجامعا لها ؛ إذ هي : موضوعة للجمع ولا ترتيب فيها ؛ فكانت الواو أشبه بهذين المكانين ، وثم تختص بأحد المواضع التي يصلح الواو لجميعها ، فلما كان مقتصرا على بعض ما وضعت له الواو استعملت حيث اختصرت الحال فاقترن بكل من المكانين ما كان أليق بالمقصود فيه[2] .

الخامس عشر : السحرة يتحدون فرعون بعد إيمانهم حين هددهم بقولهم ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ [طه:٧٢] فما معنى الواو هنا ؟

والجواب : أنها معطوفة على البينات ، فيكون المعنى : لن نختارك يا فرعون على ما جاءنا من البينات وما حصل لنا من الهدى . كما أننا لن نختارك على فاطرنا وخالقنا المستحق للعبادة والخضوع لا أنت .

---

(١) درة التنزيل ص"١٥٣" بتصرف .

(٢) نفس المصدر ص"١٥٥،١٥٦" .

أو أن الواو هنا للقسم فيكون معناها : أي : والذي فطرنا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات[1] .

السادس عشر : في قوله تعالى ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه:٧٩] مسألة ما فائدة قوله ﴿ وَمَا هَدَىٰ ﴾ وهو معلوم من قوله ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ ﴾ ؟

والجواب : التصريح بكذبه في قوله ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٢٩] والتهكم به .

السابع عشر : وأخيرا تصوير القرآن لتحدي سحرة فرعون له ، ووقوفهم في وجهه بقول كلمة الحق علانية دون خوف أو رهبة فسبحان مقلب القلوب!!! كانوا قبل قليل من إلقاء سحرهم يستجدون فرعون ، ويخضعون له ، ويطلبون الدنيا من يديه ، وفجأة تحولوا إلى مؤمنين يدافعون عن إيمانهم الذي خالطت بشاشته قلوبهم بقولهم : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه:٧٢] .

يقول صاحب الظلال : « إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تحنو لفرعون وتعد القربى منه مغنما يتسابق إليه المتسابقون ، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة ، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه »[2] .

رابعا : سورة الشعراء :

جاءت سورة **الشعراء** تحدثنا عن خبر موسى – عليه السلام – مع فرعون ، وقد لاحظنا من قبل أن سورة الأعراف ذكرت قصة موسى بعد ذكر قصص كثير من الأنبياء عليهم السلام .

فكان مشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصرا ، ومر بمشهد السحرة ونهايته سريعا ، بينما وسع في عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك وعرض آيات موسى مدة إقامته في مصر بعد المباراة قبل مشهد الغرق والنجاة ، ثم استطرد بعد ذلك مع بني إسرائيل إلى ما بعد مجاوزتهم للبحر في حلقات كثيرة واختصر هذا هنا فلم يشر إليه . بينما وسع في مشهد الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله تعالى .

---

(١) تفسير ابن كثير (١٦٧/٣) ؛ تفسير الرازي (٨٩/٢٢) .

(٢) في ظلال القرآن (٢٣٤٣/٤) .

وفي سورة **يونس** اختصر مشهد المواجهة ولم يعرض فيه آيتي العصا واليد ، وجاء مشهد المباراة مختصرا ، بينما توسع هنا في كليهما .

وفي سورة **طه** توسع في عرض مشهد المناجاة الأول بين موسى وربه ، ثم استطرد مع بني إسرائيل فصاحب بني إسرائيل في رحلتهم طويلا ، بينما لم يجاوز هنا غرق فرعون ونجاة موسى - عليه السلام - مع قومه .

ومع كل ذلك لا نجد تكرارا في عرض أي منها على كثرة ما عرضت في سور القرآن ، لأن هذا التنويع في اختيار المشاهد التي تعرض في الجانب المختار من كل مشهد وطريقة عرضه ، كل أولئك يجعلها جديدة في كل موضع[1] .

الآيات التي تحدثت عن عقوبتهم :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ

---

(١) انظر : في ظلال القرآن (٥/٢٥٨٨،٢٥٨٩) .

ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠-٦٨] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : في الآيات يأمر الله موسى بإتيان القوم الظالمين (**قوم فرعون**) بينما كان الأمر لموسى في سورتي **الأعراف ويونس** إلى فرعون وملائه .

ثم كان الإرسال في سورة **طه** إلى فرعون وحده ، وهذا التنوع الفريد لا نجده إلا في القرآن العزيز وبدون تكرار للقصة كما ذكرنا ذلك من قبل(١) .

ثانيا : الآيات تصف الحالة النفسية لموسى - عليه السلام - قبل الذهاب إلى فرعون ، فالخوف من التكذيب أولها - وما سيعتريه من ضيق الصدر ثانيها - وألا ينطلق لسانه ثالثها - ولهذه الأمور الثلاثة طلب من ربه أن يرسل إلى هارون ليكون معه يهون عليه ويشد أزره(٢) .

---

(١) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠-١١] عطف قوم فرعون ﴿ على القوم الظالمين ﴾ عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد - تفسير الرازي (١٢١/٢٤) .

(٢) انظر : (في ظلال القرآن) (٢٥٨٩/٥) .

قال الرازي : « اعلم أن الله – تعالى – لما أمر موسى – عليه السلام – بالذهاب إلى قوم فرعون طلب موسى – عليه السلام – أن يبعث معه هارون إليهم ، ثم ذكر الأمور الداعية له إلى ذلك السؤال ، وحاصلها أنه لو لم يكن هارون لاختلت المصلحة المطلوبة من بعثة موسى – عليه السلام – وذلك من وجهين[1] :

الأول : أن فرعون ربما كذبه ، والتكذيب سبب لضيق القلب ، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حبسة ، ومن المعلوم أن التأذي من التكذيب سبب لضيق القلب ، وضيق القلب سبب للحبسة ، فهذا السبب بدأ بخوف التكذيب ثم ثنى بضيق الصدر ، ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان . وأما هارون فهو أفصح مني لسانا ، وليس في حقه هذا المعنى ، فكان إرساله لائقا .

الثاني : أن لهم عندي ذنبا فأخاف أن يبادروا إلى قتلي ، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة ، وأما هارون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة .

ثالثا : في قوله تعالى ﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٦] فأفرد كلمة رسول وثنى في سورة **طه** بقوله سبحانه ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه:٤٧] فكيف ؟

والجواب : أن الرسول يكون بمعنى المرسل ، فتجوز تثنيته ، ويكون بمعنى الرسالة التي هي المصدر فيوصف به الواحد ، والاثنان ، والجماعة كما يوصف بسائر المصادر .

والدليل على أنه يكون بمعنى الرسالة قول الشاعر :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم   بسر ولا أرسلتهم برسول[2]

رابعا : في قوله تعالى ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء:٢٠] قالها معتذرا عن قتل القبطي ، والنبي لا يكون ضالا . فكيف ؟

والجواب من وجهين :

الأول : من المخطئين لأنه ما تعمد قتله ، كما يقال : ضل عن الطريق إذا عدل عن الصواب إلى الخطأ .

---

(١) انظر : (التفسير الكبير) (١٢٢/٢٤) ؛ وانظر : (في ظلال القرآن) (٢٥٨٩/٥) .

(٢) برسول : أي : برسالة انظر : تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٣٦٨" ، والبيت : لكثير عزة – انظر : (ديوانه) ص"٥٤" من قصيدة مطلعها :

« **ألا حييا ليلى أجد رحيلي   *   وآذن أصحابي غدا بقفول** »

قافية اللام . ط دار صادر وانظر : (خزانة الأدب) (٢٨٧/١٠) .

الثاني : من الناسين كقوله تعالى ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾[1] [البقرة:٢٨٢] .

خامسا : في قوله تعالى حينما سأل فرعون موسى ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣] لماذا لم يقل : ومن رب العلمين ؟

والجواب : أنه كان أعجمي القلب عن معرفة الله تعالى ؛ منكرا لوجوده ؛ فكيف ينكر عليه العدول عن (من) إلى (ما) ؟

وجواب آخر : أن (ما) تطلق على المميز أيضا ولا تختص بغير المميز قال الله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء:٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾[2] [الكافرون:٣] .

سادسا : في قوله تعالى : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢٤] علق موسى كونه تعالى رب السماوات والأرض وما بينهما على شرط كون فرعون وقومه موقنين ، وهذا الشرط منتف والربوبية ثابتة ، فكيف صح التعليق ؟

والجواب : أن معناه إن كنتم موقنين أن السماوات والأرض موجودة ، وهذا الشرط موجود .

سابعا : في آية ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ .

وفي آية ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الشعراء:٢٨].

فكيف مرة قال ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ وقال آخرا ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ؟

والجواب : أنه لاطفهم ولاينهم أولا ، فلما رأى عنادهم وإصرارهم خاشنهم ورد على قول فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء:٢٧] بقوله ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[3] .

ثامنا : في قوله تعالى ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء:٢٩] أليست (لأسجننك) أخصر ، فكيف عدل عنها ؟

---

(١) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٣٦٨" .

(٢) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٣٦٨" .

(٣) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٣٧٠" .

والجواب : كان مراده العهد ، فكأنه قال : لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم في سجني . وكان فرعون عليه اللعنة إذا سجن إنسانا طرحه في هوة عميقة جدا مظلمة وحده لا يبصر فيها ولا يسمع ، فكان ذلك أوجع من القتل وأشد نكاية[1] .

تاسعا : في قوله تعالى ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء:٣٤]

وقال في سورة الأعراف ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠] الآية .

فأخبر في الثانية أن قائل ذلك الملأ من قومه ، وفي الأولى أن فرعون هو القائل ذلك لملإه – فكيف يتوافق الخبران ؟

الجواب : أن يقال : إن قول الملإ فيما حكاه الله في سورة الأعراف قول فرعون ، ورؤساء قومه أدوا عنه ما كان من قوله إلى عامة أصحابه ، والدليل على ذلك قول العامة في جوابه ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ ، فكان هذا خطابا لفرعون و لم يكن للملإ إذ لو كان لهم لقيل أرجوه وأخاه ، وإذا كان كذلك لم يخالف ما قاله في سورة **الشعراء** من أنه قال للملإ حوله ليؤدوا إلى من بعد عنه .

فإن قيل : فكيف اختصت سورة **الشعراء** بما قال فرعون وسورة الأعراف بحكاية ما قال الملأ ؟

فالجواب : أن أول من رد قول موسى – عليه السلام – فرعون ثم مالأه عليه ملأه ، وهو ما حكاه الله – تعالى – في سورة **الشعراء** ، فاقتضى حاله حيث أخبر عنه بما قاله ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا...﴾ الآيات [الشعراء:١٨] إلى ذكر السحرة فقال فرعون للملإ حوله ما أدوه عنه إلى غيرهم .

وسورة **الشعراء** مكية كسورة **الأعراف** ، وترتيب الاقتصاص يقتضي أن يكون قبلها ، وفي سورة **الأعراف** أخبر عما أداه ملأه إلى الناس ، فكان قول فرعون للملإ حوله سابقا قول الملإ الذين أدوا إلى غيرهم[2] .

عاشرا : في قوله تعالى ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا

---

(١) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص (٣٧٠) ؛ وانظر : (تفسير البغوي) (١١١/٦) وعزاه للكلبي ؛ والكشاف (٣٠٨/٣،٣٠٩) ؛ تفسير القرطبي (٩٩/١٣) ؛ البحر المحيط (١٤/٧) .

(٢) درة التنزيل ص"١٤٥ ، ١٤٦" .

تَأۡمُرُونَ ﴾ [الشعراء:٣٥] . وقال في سورة **الأعراف** ﴿ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾ [الأعراف:١١٠] .

فزاد كلمة (بسحره) في الأولى مع أن القول واحد فلماذا اختلف ؟

والجواب : أنه لما أسند الفعل إلى فرعون في الآية الأولى وأنه قال للملأ من قومه ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴾ [الشعراء:٣٤] وكان أشدهم تجبرا وتمردا على الحق كان في قوله ﴿ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم ﴾ [الشعراء:٣٥] ذكر السبب الذي يصل به إلى الإخراج وهو بسحره ، فأشبع المقال بعد قوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴾ بأن ذكر أنه يريد إخراجكم بسحره .

وأما الموضع الذي لم يذكر فيه بسحره فهو ما حكي من قول الملإ في سورة **الشعراء** حيث قال ﴿ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ۝٣٥ ﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥] والملأ لم يبلغوا مبلغ فرعون في إبطال ما أورده موسى – عليه السلام – و لم يجفوا في الخطاب جفاه ، فتناولت الحكاية ما قاله فرعون على جهته بتكرير لفظ السحر من لفظه بعدما أخرجه في صفته حيث قال ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴾[1] .

الحادي عشر : في قوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الشعراء:٣٦] وفي سورة **الأعراف** قال ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الأعراف:١١١] فمرة قال (**وابعث**) ومرة قال (**وأرسل**) فلأي معنى اختلف اللفظان في الآيتين ؟

والجواب : أن (**بعث**) بمعنى : أرسل ، فاستعمل إحداهما مكان الأخرى[2] .

وعند ابن جماعة أن (**أرسل**) أكثر تفخيما من (**ابعث**) وأعلى رتبة لإشعاره بالفوقية .

ففي سورة **الأعراف** حكى قول الملأ لفرعون ، فناسب خطابهم له بما هو أعظم رتبة تفخيما له .

وفي سورة **الشعراء** : كان هو القائل لهم ، فناسب تنازله معهم ، ومشاورته لهم فقالوا له (وابعث)[3] .

(١) درة التنزيل ص"١٤٦ ، ١٤٧" .

(٢) أي : مترادفان كما في التحرير والتنوير (١٢٤/٩) .

(٣) كشف المعاني ص"١٨٦" . وانظر : (درة التنزيل) ص"١٤٨" .

الثاني عشر : في قوله تعالى ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٣٧] .

وفي سورة **الأعراف** ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف:١١٢] .

فمرة قال (سحار) ومرة قال (ساحر) فلماذا اختلف اللفظان ؟

الجواب : أنه تقدم في سورة **الشعراء** قوله تعالى ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء:٣٥] .

فلتقدم قولهم (بسحره) ناسب صيغة المبالغة أن يقال (سحار)[1] .

وقال صاحب التحرير والتنوير : « إن كلمة (سحار) مرادف للساحر في الاستعمال ؛ لأن صيغة فعال هنا للنسب دلالة على الصناعة مثل النجار والقصار ولذلك أتبع هنا وهنالك[2] بوصف (عليم) أي : قوي العلم بالسحر »[3] .

الثالث عشر : في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء:٤١] ، وفي سورة **الأعراف** قال ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الأعراف:١١٣] .

للسائل أن يقول : كيف جاز ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟... ﴾ وحق الكلام أن يكون في (**قالوا**) (واو) أو (فاء) نحو جاء السحرة فرعون فقالوا أئن لنا لأجرا أو (**وقالوا**) ؟

والجواب : أن يقال : لما تقدم في سورة **الشعراء** ما شرحه أكثر ، وما في سورة **الأعراف** أوجز وأخصر ، فكان قوله في **الأعراف** ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بمعنى ما كان بإزائه في سورة **الشعراء** ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ فلم يحتج في جواب (لما) إلى (فاء) ولا (واو) ، وكذلك في سورة الأعراف لما قصد هذا المعنى دل بحذف العاطف على هذا القصد فكأنه قال فلما جاء السحرة فرعون قالوا : إئن لنا لأجرا[4].

الرابع عشر : في قوله تعالى ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٤٢] وقال في سورة **الأعراف** ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأعراف:١١٣-١١٤] .

---

(١) كشف المعاني آية (٣٥) .

(٢) أي : سورة الأعراف .

(٣) التحرير والتنوير (١٢٥/٩) .

(٤) درة التنزيل ص"١٤٩ ، ١٥٠" .

للسائل أن يسأل عن زيادة (إذا) في سورة الشعراء وخلو سورة الأعراف منها ؟

والجواب : أن معنى قوله (إذا) جواب وجزاء حيث قال فرعون للسحرة : إن غلبتم فجزاي أن أجازيكم بإعلاء رتبتكم وتقريبكم ، فلأجل ذلك أفعل هذا بكم .

فاختصت سورة الشعراء بهذا دون غيرها[1] .

الخامس عشر : في قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ﴾ [الشعراء:٤٩] وقال في سورة **الأعراف** ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٣].

وقال في سورة طه ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ﴾ [طه:٧١] .

للسائل أن يقول : قال في سورة الأعراف ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ و لم يقل ذلك في (طه) ، و لم أدخل الفاء في قوله ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ ﴾ ؟

وأما في سورة الشعراء فإنه أتى (بسوف تعلمون) مع اللام فقال ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فما وجه اختلاف هذه واختصاص بعض بمكان دون غيره ؟

والجواب : أن قوله تعالى فسوف تعلمون من الوعيد المبهم المعرض به .

ومعناه (أنك فعلت بجهل ما تعرف من بعد نتيجته ، وطرحت بذر شر عند حصده تعلم نهايته) . وهذا النوع من الوعيد أبلغ من الإفصاح بعذره على أنه قد قرن إليه بيانه وهو ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ﴾ [الشعراء:٤٠] فنطق القرآن بحكاية التعريض بالوعيد والإفصاح بالتهديد معا .

وأما في سورة **الشعراء** فجمعت بين لفظ الوعيد المبهم مع اللفظ المقرب له وقوعه إلى اللفظ المفصح بمعناه – فاللام في (فلسوف) فلتقريب ما خوفهم به من إطلاعه عليهم وقربه منهم حتى كأنه في الحال موجود .

فاللام إذا للحال .

وأما الجمع بينها وبين سوف التي للاستقبال إنما هو لتحقيق الفعل وإدنائه من الوقوع .

وأما ما في سورة طه فإنه قد اقتصر على التصريح بما أوعدهم به ، وترك فسوف تعلمون وقال ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ﴾ [طه:٧١] إلا أنه جاء بدل هذه الكلمة

---

(١) درة التنزيل ص"١٥٠" .

ما يعادلها ويقارب ما جاء في سورة الشعراء التي هي مثلها في اقتصاص أحواله من ابتدائها إلى نهايتها بقوله ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:٧١] فاللام والنون في لتعلمن للقسم وهما لتحقيق الفعل وتوكيده كما في اللام في قوله ﴿ فَلَسَوْفَ ﴾ [الشعراء:٤٩] لإدناء الفعل وتقريبه ، فقد تجاوزها في السورتين المقصود فيهما إلى اقتصاص الحالين من إعلاء الحق وإزهاق الباطل[١] .

السادس عشر : في قوله تعالى ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٥٠] .

وفي سورة **الأعراف** قوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٥] للسائل أن يسأل عن زيادة (لا ضير) في سورة الشعراء ؟

الجواب : أنهم قابلوا وعيده بما يهونه ويزيل ألمه من أنهم سينتقلون إلى ثواب الله المعد للطائعين الثابتين على الحق . فجاء ذلك في سورة الشعراء التي قلنا من قبل : إنه قصد بها الاقتصاص الأكبر ، (لا ضير) أي : لا ضرر علينا فإن منقلبنا إلى جزاء ربنا فننعم أبدا ، وتعذب أنت أبدا ؛ فما سيلحق بنا من ضرر ما هو إلا زمن يسير لا يعتد به أمام دوام النعيم ؛ فكأنه لم يلحقنا ضرر .

وفي سورة **الأعراف** اقتصر على قوله ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٥] وفيه كفاية وإبانة عن هذا المعنى الذي شرحه وبينه في غيرها[٢] .

السابع عشر : في قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الشعراء:٥٣] .

تراه في هذه السورة هو الذي يرسل وبدون مشورة كما كان يستشير من قبل . لأن القضية عنده قضية حياة أو موت .

فأرسل هو وقاد هو وأضل قومه وما هدى .

خامسا : سورة النمل .

تذكر سورة النمل طرفا من قصة موسى – عليه السلام – بعد مقدمة السورة وفيها :

١ – رؤيته للنار وذهابه إليها .

٢ – نداؤه من الملأ الأعلى .

---

(١) درة التنزيل ص"١٥٤ ، ١٥٥" .

(٢) انظر : (درة التنزيل) ص"١٥٦" .

٣ – تكليفه بالرسالة إلى فرعون وملإه .

٤ – تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها وعاقبة التكذيب مع اليقين في عجالة سريعة .

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ ﴾ [النمل:٧-١٤] .

ما اختصت به آيات سورة النمل

أولا : في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٨] .

يرد سؤال هو : كيف قال تعالى ﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ مع أنه لم يكن في النار أحد ، بل لم يكن المرئي نارا ، وإنما كان نورا ، في قول الجمهور ؟

والجواب : أن معنى ذلك أن الله أسمعه النداء من النار .

وجواب آخر : أن (من) زائدة ، والتقدير : بورك في النار وفيمن حولها وهو موسى – عليه السلام – أو الملائكة .

وثالث : أن معناه : بورك من في طلب النار وهو موسى – عليه السلام – ، فلو قيل : إنما يقال : بارك في كذا ، ولا يقال : بارك الله كذا ؟

والجواب : أن العرب تقول : باركه الله ، وبارك له ، وبارك فيه ، وبارك عليه ؛ بمعنى واحد ؛ ومنه قوله تعالى ﴿ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ﴾ [الصافات:١١٣] وفي لفظ التحيات (وبارك على محمد وعلى آل محمد)[1] .

---

(١) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٣٧٧" .

ثانيا : في قوله تعالى ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ ﴾ [النمل:١٠-١١] .

كيف توجه صحة الاستثناء في قوله ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ﴾ ؟

والجواب من وجوه : **أحدها** : أنه استثناء منقطع بمعنى (لكن) من ظلم من غير المرسلين ثم بدل سيئة بحسنة ومحى خطيئته بتوبة فالله غفور رحيم .

الوجه الثاني : أنه استثناء متصل معناه : إلا من ظلم منهم بارتكاب الصغيرة ، فإنه يخاف مما فعله ، مع علمه ﴿ أَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام:٥٤] .

فيكون التقدير : إلا من ظلم منهم فإنه يخاف ممن ظلم ، ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم .

الوجه الثالث : أن (إلا) بمعنى (ولا) كما في قوله تعالى ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [البقرة:١٥٠] أي : ولا الذين ظلموا منهم .

والوجه الرابع : أن تقديره : إني لا يخاف لدي المرسلون ولا غير المرسلين إلا من ظلم .

وفي نفس الآية أيضا ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل:١٠] .

وفي سورة **القصص** ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴾ [القصص:٣١] .

يرد سؤالان :

أولهما : قد ذكر الله – تعالى – عصا موسى – عليه السلام – بلفظ الحية العظيمة والثعبان والجان ، وبين الثعبان والجان تناف .

فالجان :الحية الصغيرة ، والثعبان : الحية العظيمة ، فكيف يوفق بين ذلك ؟

والجواب : أنه أراد بها صورة الثعبان العظيم وخفة الحية الصغيرة وحركتها: ولهذا قال ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ [القصص:٣١] .

وجواب آخر : أنها كانت في أول انقلابها تنقلب حية صغيرة ثم تتورم ويتزايد حجمها حتى تصير ثعبانا . فأراد بالجان أول حالها ، وبالثعبان مآلها[1] .

---

(١) تفسير الرازي (١٣١/٢٤) ، انظر : (كشف المعاني) ص"٢٨٢" .

ثانيهما : مرة قال ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [النمل:١٠] ومرة قال ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [القصص:٣١] ومرة قال ﴿ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه:٢٠] ومرة قال ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء:٣٢] ومرة قال ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ [النمل:١٠] وغيرها كثير في توجيه اختلاف المقال ، وكلها كانت في مقام واحد ؟

قال الخطيب الإسكافي مجيبا على ذلك : (إن الله – تعالى – لم يخبر أنه خاطب موسى عليه السلام باللغة العربية بألفاظ إذا عدل إلى غيرها مما يخالف معناها كان اختلافا في القرآن قادحا فيه ؛ بل معلوم أن الخطاب كان بغير هذه اللغة ، وأنه تعالى أخبر في بعض السور ببعض ما جرى وفي أخرى بأكثر مما أخبر به في التي قبلها ، وليس يدفع بعضها بعضا)[١] .

وقال في موطن آخر : (إنه لا يشترط في الحكايات إذا أديت معانيها دون ألفاظها استيعاب جميعها في مكان واحد ؛ بل يجوز أن تفرق في أماكن كثيرة[٢] .

غير أنه لا مانع من الاجتهاد في إيضاح الفرق في كل منها .

فهنا في سورة **النمل** ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [النمل:١٠] وفي سورة **القصص** ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [القصص:٣١] لأن في سورة **النمل** ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [النمل:٨-١٠] فحيل بينها بهذه الجملة فاستغنى عن إعادة (أن) .

وفي سورة **القصص** ﴿ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [القصص:٣٠] .

فلم يكن بينهما جملة أخرى عطف بها الأول ، فحسن إدخال (أن)[٣] ، وفي قوله تعالى في هذه السورة ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ [النمل:١٠] وفي القصص ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ [القصص:٣١] فما الفرق ؟

والجواب : خصت هذه السورة (النمل) بقوله (لا تخف) لأنه بنى على ذكر الخوف كلام يليق به وهو قوله ﴿ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل:١٠] .

---

(١) درة التنزيل ص"٢٣٣" . وقال الرازي : « فائدة التكرار تأكيد التحدي وإظهار الإعجاز ، وأيضا إكرام الله تعالى لصحابة النبي صلى الله عليه وسلم بإعادة الوحي لهم في صورة أخرى تشريفا لهم وتفضيلا . انظره ص"٣٧٠" من تفسير المسمى "بأنموذج الجليل" .

(٢) نفس المصدر ص"٢٧٠" ، وانظر : (ملاك التأويل) (٨١٧/٢) .

(٣) (البرهان في متشابه القرآن) ص"٢٨٦" .

أما ما في سورة **القصص** فاقتصر على قوله (لا تخف) ولم يبن عليه كلام ، فزيد قبله : (أقبل) ليكون في مقابلة (مدبرا) .

أي : أقبل آمنا غير مدبر ولا تخف ، فخصت سورة **القصص** به .

أيضا : قوله تعالى في هذه السورة ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ [النمل:١٢] الآية .

وفي سورة **القصص** قال ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ ﴾ [القصص:٣٢] فما الفرق ؟

والجواب : خصت هذه السورة بـ (أدخل) لأنه أبلغ من قولك (اسلك) ؛ لأن (اسلك) يأتي لازما ومتعديا ، و(أدخل) متعد لا غير ، وقال في هذه السورة ﴿ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ [النمل:١٢] أي : مع تسع آيات مرسلا إلى فرعون ، وخصت القصص بقوله (اسلك) موافقة لقوله (واضمم) ، ثم قال ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ [القصص:٣٢] . فكان دون الأول فخص بالأليق من اللفظين[1] .

في قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [النمل:١٢] .

وجاء في سورة القصص ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [القصص:٣٢] .

فمرة قال ﴿ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾ ومرة قال ﴿ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ فما الفرق ؟

والجواب : أن الأهم أشراف القوم . وكانوا في هذه السورة موصوفين بما وصفهم الله به من قوله ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ الآية [النمل:١٣-١٤] .

فلم يسمهم ملأ بل سماهم قوما . فخصت السورة به .

أما في سورة القصص فلم يكونوا موصوفين بتلك الصفات فسماهم ملأ فخصت السورة بذلك . ولما قال بعده ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[2] [القصص:٣٨] .

ثالثا : في قوله تعالى ﴿ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ [النمل:١٢] هذا العدد يذكر هنا لأول مرة مجملا ، وفي سورة الأعراف ذكرت مفصلة .

---

(١) (البرهان في متشابه القرآن) ص"٢٨٧" .

(٢) سورة القصص آية (٣٨) – المرجع (البرهان في متشابه القرآن) ص"٢٨٧" .

رابعـا : في قولـه تعـالى ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤] تبين السورة أن فرعون وقومه جحدوا بالآيات ، وما جحدوا بـها لأنـها غير وافية ولا كافية ! فقد استيقنتها أنفسهم وعلموا أنها الحق – فلماذا جحدوا بها ؟

القرآن يجيب ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤] جحـودا ومكـابرة ؛ لأنـهم لا يريـدون الإيمان ولا يطلبون البرهان استعلاء على الحق وظلما له ولأنفسهم[١] .

وما أشبه هـذه الآية بآية سورة **الأنعام** التي وصفت حال قريش في تكذيبهم للنبي ﷺ .

قال الله تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣] .

سادسا : سورة القصص :

تبدأ سورة القصص بذكر واقع الحال وما هو مقدر في المآل . لتقف القوتان وجـها لوجه :

الأولى : قوة فرعون في دفع القـدر المحتوم والقضـاء النـاقد ، وهـذه القـوة المنفتشة المنتفخة التي تبدو للناس قادرة على فعل الكثير .

والثانية : قـوة الله الحقيقيـة الـتي تتـهاوى دونـها القــوى الظاهريـة الهزيلـة الـتي ترهب الناس[٢] .

يقـول الله تعـالى : ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ

(١) (في ظلال القرآن) (٥/٢٦٣٠) .

(٢) انظر : (في ظلال القرآن) (٥/٢٦٧٤) .

لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ
قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ
فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ
إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ
هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ
فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ
أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ
أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا
بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ
فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن
دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ
فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ
أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ
لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ
ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾

ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص:١-٤٣] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : تعرض الآيات ولأول مرة[١] بالتفصيل مولد موسى وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها ، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته .

ثانيا : ثم عرضت فتون موسى وما آتاه الله من الحكم والعلم وما وقع فيها من قتل القبطي ، وتآمر فرعون وملأه عليه ، وهربه من مصر إلى أرض مدين ، وزواجه فيها ، وقضاء سنوات الخدمة بها ، وهي السورة الوحيدة التي ذكرت المكان الذي هرب إليه عليه السلام .

ثالثا : ثم عرضت نداء الله له وتكليفه بالرسالة ، ثم مواجهة فرعون وملئه وتكذيبهم لموسى وهارون ، ثم ذكر غرقه في إيجاز سريع[٢] .

رابعا : في قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ... ﴾ [القصص:٧] الآية.

---

(١) أشارت سورة طه باختصار لمولد موسى – عليه السلام – وكانت الآيات تتحدث في معرض امتنان الله على موسى – عليه السلام – بنعمه .

(٢) في ظلال القرآن (٥/٢٦٧٦) .

يرد سؤال مهم هو : ما فائدة وحي الله – سبحانه وتعالى – إلى أم موسى بإرضاعه وهي ترضعه طبعا سواء أمرت بذلك أم لا ؟

والجواب : أنه أمرها بالرضاعة ليألف لبنها فلا يقبل ثديا غير ثدي أمه إذا وقع في يد فرعون ، فلو لم يأمرها بإرضاعه ربما تسترضع له مرضعة فيفوت ذلك المقصود[1] .

٥ **خامسا** : في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى ﴾ [القصص:٧] .

والشرط الواحد إذا تعلق به جزاءان صدق قولنا إذا وجد هذا الشرط وجد هذا الجزاء فيلزم صدق قوله تعالى ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى ﴾ وأنه يشبه المتناقض[2] .

١٠ والجواب : فإذا خفت عليه من القتل فألقيه في البحر ، ولا تخافي عليه من الغرق . ولا تناقض بينهما إذا[3] .

سادسا : في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ [القصص:٧] عطف أحدهما على الآخر فما الفرق بينهما ؟

والجواب : أن الخوف غم يصيب الإنسان لأمر يتوقعه في المستقبل والحزن غم

١٥ يصيبه لأمر قد وقع ومضى[4] .

سابعا : في قوله تعالى ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ [القصص:١٥-١٦] .

فكيف جعل موسى قتله للكافر من عمل الشيطان ، وسماه ظلما لنفسه ،

٢٠ واستغفر منه ؟

والجواب : لأنه قتله قبل أن يؤذن له في قتله ، فكان ذلك ذنبا يستغفر منه مثله .

---

(١) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل ..) ص"٣٨٦" .

(٢) بمعنى أن الشرط إذا تعلق به جزاءان فيلزم صدق قولنا إذا وجد هذا الشرط وجد هذا الجزاء، فلو اخترت واحدا للزم من ذلك التناقض .

(٣) انظر : المصدر السابق ص"٣٨٦" .

(٤) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل ..) ص"٣٧٦" .

قال ابن جريج[1] : ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر[2] .

سابعا : في قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص:٢٥] .

يرد سؤالان : أ – موسى – عليه السلام – ما سقى لابنتي شعيب طلبا للأجر فكيف أجاب دعوتها ؟

والجواب : أنه يجوز أن يكون قد أجاب دعوتها ودعوة أبيها لوجه الله تعالى على سبيل البر والمعروف ابتداء لا على سبيل الأجر[3] .

ب – كيف ساغ لموسى – عليه السلام – أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية عنه ، فإن ذلك يورث التهمة العظيمة ؟

والجواب : أن المرأة ما كانت إلا مخبرة عن أبيها ، ولا مانع من الأخذ بذلك في الشرع ، وأما المشي معها فلا بأس به مع الاحتياط والتورع[4] .

ج – كيف ساغ للرجل الصالح (الشيخ الكبير) أن يرضى لابنتيه سقي الماشية ؟

الجواب : إن الحالة حالة ضرورة ؛ لأنه لا يوجد عنده غيرهما – والأمر في نفسه ليس بمحظور ، والدين لا يأباه خاصة مع الوقار والحشمة .

ثامنا : في قوله تعالى ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ [القصص:٢٧] يرد سؤال هو : كيف قال له الرجل الصالح (الشيخ الكبير) ذلك بدون تعيين ، ومثل هذا النكاح لا يصح لجهالة المنكوحة ، والنبي لا ينكح نكاحا فاسدا ؟ .

والجواب : أنه كان وعدا بنكاح معينة عند الواعد ، وإن كانت مجهولة عند الموعود ، ومثله جائز ، ويكون التعيين عند إنجاز الوعد كما وقع منه[5] .

تاسعا : في قوله تعالى ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ ﴾ [القصص:٢٩] وفي سورة طه قوله تعالى ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ

---

(١) ابن جريج : هو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج ، الإمام العلامة الحافظ شيخ الحرم المكي ، صاحب التصانيف وأول من دون العلم بمكة مولى أمية بن خالد ، حدث عن عطاء فأكثر وجود، وعن ابن أبي مليكة ونافع مولى ابن عمر ، وطاووس وغيرهم ، تفرد بالإمامة بعد عطاء ومجاهد فدون العلم وحمل عنه الناس ، قيل : كان يصوم الدهر إلا ثلاثة أيام من الشهر ، مات سنة ١٥٠ هـ وقيل ١٥١ هـ – انظر : (سير أعلام النبلاء) (٦/٣٢٥ – ٣٣٥) .

(٢) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٣٨٦" .

(٣) المصدر السابق ص"٣٨٧" .

(٤) تفسير الكشاف (٣/٤٠١) ؛ وانظر : (تفسير الرازي) (٢٤/٢٤١) .

(٥) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٣٨٧" .

هُدًى ﴾ [طه:١٠] وفي سورة (النمل) قوله تعالى ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ [النمل:٧] فمرة يقول ﴿ سَـَٔاتِيكُم ﴾ ومرة يقول ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم ﴾ [القصص:٢٩] فأحدهما ترجي والآخر تيقن ، فلماذا اختلفت الألفاظ في موقف واحد ؟

والجواب : قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا ؛ مع تجويزه الخيبة .

فإن قيل : كيف جاء بالتسويف ؟ فالجواب : أنه وعد أهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ ، أو كانت المسافة بعيدة .

فإن قيل : فلم جاء (بأو) دون (الواو) ؟ فالجواب : أنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، ثقة بالله في أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده . وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر بحاجتيه ، وقد حصل له ذلك بأن جمع الله له عز الدنيا وعز الآخرة[1] ، إذا فالخبر الذي سيأتي موسى به هو أن يجد على النار ما يهديه ، ويخبره أن الطريق هو ما عليه أو غيره ووجود الهدى وأن يخبر بخبر اهتدائه في طريقه أو غيره شيء واحد لا اختلاف فيه)[2] .

وخلاصة ذلك : أن موسى – عليه السلام – كان في وضع نفسي متعدد مع أهله، فتارة يعبر بحرف الترجي (لعل) ، وتارة يود أن يطمئن أهله بأنه آتيهم لا محالة بما هو خير لهم ، فكان لابد إذن من إدخال الراحة والطمأنينة على قلوبهم ، فكان حرف (السين) أليق في الاستعمال في كل ذلك ، فلا هو يقطع بالأمر ولا هو يريد أن يؤكد لهم النتيجة ، فربما يرجع بدون شيء .

إذا فتارة يذكر الترجي ، وتارة يجزم بتأكيد القضية – فيكون بهذا قد أعد أهله لجميع الاحتمالات[3] .

عاشرا : في قوله تعالى ﴿ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ ﴾ [القصص:٣٢] فجعل الجناح هنا مضموما ، وقال في سورة طه ﴿ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ [طه:٢٢] فجعل الجناح مضموما إليه والقصة واحدة . فكيف ؟

والجواب : أن المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى ، والمراد بالجناح المضموم إليه

(١) انظر : (تفسير الزمخشري) (٣٤٩/٣) ؛ تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٣٧٧" .

(٢) درة التنزيل ص"٢٣٣" ، ص"٢٧٠" .

(٣) القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته د/فضل حسن عباس .

في سورة طه ما بين العضد إلى الإبط اليسرى ، فلا تناقض بينهما[1] .

الحادي عشر : في قوله تعالى ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ [القصص:٣٤] يرد سؤال: ما فائدة تصديق هارون لموسى – عليه السلام – حتى قال ذلك ؟

والجواب : أنه ليس المراد بقوله (يصدقني) أن يقول له : صدقت في دعوة الرسالة ؛ فإن ذلك لا يفيده عند فرعون وقومه الذين كانوا لا يصدقونه مع وجود تلك الآيات الباهرة ، والمعجزات الظاهرة ، بل مراده أن يلخص حججه بلسانه ، ويبسط القول فيها ببيانه ، ويجادل عنه بالحق فيكون ذلك سببا لتصديقه[2] .

الثاني عشر : في قوله تعالى ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ ﴾ [القصص:٣٥] فإن قيل : بين تعالى أن السلطان هو بالآيات ، فكيف لا يصلون إليهما لأجل الآيات؟ أو ليس فرعون قد وصل إلى صلب السحرة وإن كانت الآيات ظاهرة ؟

فالجواب : إن الآية التي هي قلب العصا حية كما أنها معجزة فهي أيضا تمنع من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهارون عليهما السلام ، لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة ، وإن أراد إرسالها عليهم أهلكتهم ، زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما فصارت مانعة من الوصول إليهما بالقتل وغيره ، وصارت آية ومعجزة فجمعت بين الأمرين .

أما صلب السحرة ففيه خلاف ، فمنهم من قال : ما صلبوا ، وليس في القرآن ما يدل على ذلك . وإن سلمنا فالله – تعالى – قال ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ ﴾ [القصص:٣٥] فالمنصوص أنهم لا يقدرون على إيصال الضرر إليهما ، وإيصاله إلى غيرهما لا يقدح فيه[3] .

الثالث عشر : في قوله ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص:٣٨][4] .

دلت الآية ولأول مرة في طريقنا لتتبع الآيات في قصة موسى على خبث فرعون

---

(١) تفسير الرازي (أنموذج جليل ..) ص"٣٨٧" .

(٢) تفسير الرازي (أنموذج جليل ..) ص"٣٨٨" .

(٣) تفسير الرازي (٢٤/٢٥٠) .

(٤) سورة القصص آية (٣٨) .

حين قال ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨] وهذا في الحقيقة يشتمل على أمرين : -

الأول : نفي إله غيره .

الثاني : إثبات إلهية نفسه[1] ، فكانت كلمته هذه أشد من قوله من قبل ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء:٢٩] .

وهو مع كفره وعناده يظن أن لا إله في السماء فقال لوزيره ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾ [القصص:٣٨] وهذه كلمة لم ترد من قبل ﴿ لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [القصص:٣٨] كأنه توهم أنه لو كان لكان جسما في السماء يمكن الرقي إليه[2] . مع أنه كان عارفا بالله تعالى ، وأنه كان يقول ذلك ترويجا على الأغمار من الناس[3] .

الرابع عشر : في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [القصص:٤١] أي : صيرناهم في عهده ﴿ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي : إلى ما يؤدي إليها من الكفر والمعاصي ، فكانوا قدوة يقتدي بهم أهل الضلال[4] ، فانظر الفرق بين هذه وبين آية سورة (الأنبياء) ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [الأنبياء:٧٣] وآية سورة السجدة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤] .

سابعا : سورة غافر .

سورة غافر وتسمى سورة (المؤمن) وحديثنا فيها عنه وعن نصائحه ومجادلته لفرعون وقومه في صورة تتناسب مع سياق السورة وجو السورة المتمثل في الأخذ والرد والشدة واللين وكأنه جو معركة . وسنعرض أولا لآياتها ثم نذكر ما اشتملت عليه باختصار .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ

(١) تفسير الرازي (٢٥٢/٢٤) .
(٢) تفسير أبي السعود (١٤/٧) .
(٣) تفسير الرازي (٢٥٢/٢٤) .
(٤) تفسير أبي السعود (١٤/٧) .

﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن
يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا
يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ
رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ
كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن
جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ
ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ
﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾
ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ
لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى
لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ
﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ
وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠
أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا
وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾
فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ
ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ
يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم
مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ

حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [غافر:٢٣-٤٩] .

لطائف الآيات غير ما سبق .

أولا : تذكر الآيات مكذبا آخر لم تذكره السور السابقة مع فرعون وهامان وكان في عصر موسى – عليه السلام – هو قارون[1] .

ثانيا : تعرض الآيات ولأول مرة قصة مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه وهو يدفع ما هموا بقتله ، ويصدع بكلمة الحق والإيمان في تلطف وحذر في أول الأمر ، ثم في صراحة ووضوح في النهاية .

ثالثا : جادل الرجل المؤمن فرعون ثم عرض له أثناء ذلك حجج الحق وبراهينه القوية الناصعة ، ثم حذرهم يوم القيامة ومثل لهم بعض مشاهده في أسلوب مؤثر يحتاجه الدعاة في كل زمان ، ثم ذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف – عليه السلام – ورسالته .

رابعا : اشتملت الآيات على تهديد لم تذكره السور السابقة أطلقه فرعون يوهم فيه العامة من قومه أنهم أيضا يشاركونه في الحكم ، سجله القرآن في قوله تعالى على لسانه ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ [غافر:٢٦] أي : خلوا بيني وبينه ، وكأنهم هم الذين يمنعونه من ذلك مع أنه يوقن وهم يوقنون أن ليس بأيديهم شيء ، وهذا هو منتهى المكر والخداع الذي يطلقه الجبابرة في كل زمان .

خامسا : في قوله تعالى ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر:٢٨] ، يرد سؤال هو : كيف قال الرجل المؤمن في حق موسى – عليه السلام – ذلك مع أنه يعلم أنه صادق ، ويلزم من ذلك أن يصيبهم جميع ما وعدهم به ؟

والجواب :

أنها على أصلها . أي : أنه وعدهم النجاة إن آمنوا والهلاك إن كفروا ، فهم على إحدى الحالين لا محالة .

أو أنه وعدهم الهلاك في الدنيا على كفرهم ببعض الذي يعدهم[2] .

---

(١) سنفرد له بحثا مستقلا بعنوان "عقوبة قارون" .

(٢) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٤٤٨-٤٤٩" .

سادسا : في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ [غافر:٣٣] يرد سؤال هو أن التولي والإدبار واحد فما فائدة ذلك ؟

والجواب : للتأكيد كقوله تعالى ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٢٦] ونظائره كثيرة .

وجواب آخر : استثارة لحميتهم واستجلاب لأنفسهم لما في لفظ (مدبرين) من التعريض بذكر الدبر ، فيصير نظير قوله تعالى ﴿ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر:٤٥] .

سابعا : قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ [غافر:٣٤] هذه هي المرة الوحيدة في القرآن التي يشار فيها إلى رسالة يوسف - عليه السلام - بالنسبة لما يتعلق بالقبط وبني إسرائيل[1] .

ثامنا : في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٨] وقال بعده ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر:٣٤] فما الفرق ؟

والجواب : أنه لما قال تعالى ﴿ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ [غافر:٢٦] ناسب ﴿ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٨] ، ولما قال في الثانية ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ﴾ [غافر:٣٤] ناسب ﴿ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[2] [غافر:٣٤] .

تاسعا : في قوله تعالى ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ [غافر:٣٦-٣٧] يرد سؤال : ما فائدة التكرار في الآية ؟ وهلا قال : لعلي أبلغ أسباب السماوات .

والجواب : أنه إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيما لذاتها ، وتعظيما لمكانها ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السماوات أبهمها ثم أوضحها .

أما بالنسبة للفرق بينها وبين آية سورة القصص ﴿ لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾

(١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٨١) .

(٢) كشف المعاني ص"٣١٩ ، ٣٢٠" .

[القصص:٣٨] وهنا قال ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [غافر:٣٦-٣٧] .

فإن قوله ﴿ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [القصص:٣٨] خبر (لعل) ، وفي سورة غافر عطف على خبر (لعل) وجعل قوله : ﴿ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴾ [غافر:٣٦] خبرها . وزاد هنا عن آية القصص ليقع في مقابلة قوله : ﴿ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [غافر:٢٦] لأنه زعم الخبيث أنه إله الأرض فقال ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص:٣٨] أي في الأرض ألا ترى أنه قال : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [غافر:٣٧] فجاء في كل سورة ما اقتضاه ما قبله[1] .

ثم إنه قال هنا : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا ﴾ [غافر:٣٧] وفي سورة القصص ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص:٣٨] فما الفرق ؟

والجواب : لأن التقدير في سورة القصص : وإني لأظنه كاذبا من الكاذبين . فزيد من الكاذبين لرؤوس الآيات ثم أضمر (كاذبا) أي من الكاذبين عليه ، فخصت به السورة هناك . أما هنا فجاء على الأصل و لم يكن فيه ما يجب تغييره[2] .

عاشرا : قوله تعالى ﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا ﴾ [غافر:٤٠] يرد سؤال هو: أن مثل السيئة سيئة فما معنى قوله ﴿ إِلَّا مِثۡلَهَا ﴾ ؟

والجواب : أن جزاء السيئة له حساب وتقدير لئلا يزيد على المقدار المستحق ، وأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب[3] .

فإن قيل : إن قول الله تعالى ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ﴾ [الأنعام:١٦٠] ينافي ذلك فكيف ؟

فالجواب : لمنع النقصان لا لمنع الزيادة كما قال سبحانه ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ ﴾[4] [يونس:٢٦] .

الحادي عشر : تختم الآيات بتصريح جريء لمؤمن آل فرعون يجهر فيه دون تردد ولا تلعثم بعدما كان يكتم إيمانه حيث قال ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ

(١) البرهان في متشابه القرآن ص"٢٩١" .
(٢) المصدر السابق ص"٢٩١" .
(٣) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٤٥٠" .
(٤) وانظر : تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٤٥٠" .

فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر:٤٤-٤٦] .

الثاني عشر: لم كرر نداء قومه ؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني ؟ في قوله : ﴿ يَٰقَوْمِ ... يَٰقَوْمِ ﴾ ألخ .

والجواب : أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم فكان واجبا نصحهم لعلمه لخلاصهم فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم لئلا يتهموه .

وأما العطف فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له ، فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو .

وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة ، يقال : دعاه إلى كذا ودعاه له ، كما تقول هداه إلى الطريق وهداه له[1] .

ثامنا : سورة الزخرف .

تأتي سورة الزخرف تبرز اعتزاز فرعون بقوته وقيمه الزائفة وادعائه هوان موسى - عليه السلام - وسوف نعرض لآياتها المتحدثة عن فرعون وملائه ونهايته الأليمة .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف:٤٦-٥٦] .

لطائف الآيات غير ما سبق .

أولا : تشير الآيات إشارة سريعة إلى المعجزات التي جاء بها موسى - عليه السلام - وينهيها بطريقة استقبال القوم لها ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ [الزخرف:٤٧]

---

(١) (تفسير الكشاف) (٤/١٦٨ ، ١٦٩) .

شأنهم شأن الجهال المتعالين[1] .

ثانيا : أشارت الآيات أيضا إلى ما أخذ الله به فرعون وملأه من الابتلاءات المفصلة في سورة الأعراف وغيرها .

ثالثا : تشير الآيات إلى استهتارهم بموسى – عليه السلام – وبما أتى به من معجزات وخوارق ، وهذا مما يصدق قول الله – تعالى – في مواضع كثيرة من القرآن أن المعجزات والخوارق لا تهدي قلبا لم يكن الله أراد له الهداية ، وأن الرسول لا يسمع الصم ولا يهدي العمي[2] .

رابعا : تشير الآيات إلى استعراض فرعون في ملكه ، وأنه هو الملك الحقيقي الذي يطاع ، والآمر الناهي الذي لا يعصى ، لا موسى الذي هو في نظره مهين لا ملك له ، ولا مال ، ولا شعب يسانده ، فإن كان كما يدعي فلماذا لا يتوج بالذهب ويحف بالملائكة إن كان صادقا ؟ .

خامسا : استخف فرعون عقول قومه فأصبحوا كالأنعام التي لا تسمع إلا دعاء ونداء ، لا رأى لهم بل ولا وزن لهم عنده .

فصدق فيهم حكم الله في قوله ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف:٥٤] فلما أغضبوا الله – تبارك وتعالى – انتقم منهم وجعلهم عبرة لمن بعدهم من أهل الضلال وغيرهم .

تاسعا : سورة الدخان .

جاء الحديث فيها عن فرعون وقومه في سياق الحديث عن قريش وما أصابهم حينما دعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسني يوسف فأصابهم القحط والجوع[3] .

قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ

---

(١) (في ظلال القرآن) (٣١٩٢/٥) .

(٢) انظر نفس المصدر (٣١٩٣/٥) .

(٣) انظر : صحيح البخاري – كتاب الأنبياء – باب قول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف:٧] (٤٧٠/٢) برقم [٣٣٨٦] ، [٤٥٩٨] ، [٦٢٠٠] ، [٦٣٩٣] ، صحيح مسلم – كتاب المساجد – باب استحباب القنوت في جميع الصلاة .. – (٤٦٦/١، ٤٦٧) ، برقم [٦٧٥] .

كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[الدخان:١٧-٢٩] .

لطائف الآيات غير ما سبق

أولا : سياق الآيات هنا في سورة الدخان يختصر حلقات كثيرة ذكرتها السور السابقة ليصل إلى قرب النهاية .

حين أحس موسى – عليه السلام – أن القوم لن يؤمنوا له ولن يستجيبوا لدعوته ولن يسالموه أو يعتزلوه . وبدا له إجرامهم أصيلا عميقا لا أمل في تخليهم عنه ، عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ [الدخان:٢٢] وهذه الآية الوحيدة التي تبين رغبة موسى – عليه السلام – في الانتقام من هؤلاء المجرمين . وكان من قبل قد دعا عليهم في سورة يونس أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، فأمهلهم الله ثم انتقم منهم . أما هنا في هذه السورة نلاحظ أنه قال ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ [الدخان:٢٣] دون أن يكون هناك أدنى مهلة ، فقد عاثوا في الأرض فسادا وأصبحوا مجرمين حقا .

وقال (ليلا) لئلا ينازع بنو إسرائيل متذرعين بالخوف أو الجهل بالمسالك ، أو كما يقول سيد قطب : إن النص عليه يعيد تصوير المشهد مشهد السرى بعباد الله وللإيحاء بجو الخفية[1] .

ثانيا : يصور السياق ما تركه فرعون وقومه بعد غرقه في آيات بديعة تشبه آيات سورة الشعراء ، وتزيد عليها – بذكر قوله تعالى ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان:٢٩] .

ذهبوا غير مأسوف عليهم ، فلم تبكهم سماء ، ولا أرض ، فهم منبوذون لسوء طباعهم ، مقتهم كل شيء في هذا الكون ؛ لأن الله قد مقتهم من قبل .

والآيات تصور لنا فخامة تلك التركة المشتملة على بساتين وعيون وقصور ، وتنعم ، ومع كثرتها لم تمنعهم من الأخذ بذنوبهم ، والانتقام منهم ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:٥٩] .

ثالثا : في قوله تعالى ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ إلى أن قال ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الدخان:٢٥-٢٨] وقال في الشعراء ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩] فما الفرق ؟

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٣٢١٣) .

والجواب : أن كلمة (كنوزا) أبلغ في التعبير فيما فات على فرعون فناسب بسط ذكره أولا في سورة **الشعراء** .

وهنا في سورة **الدخان** قصتهم جاءت مختصرة فناسب ذكر الزروع .

وأما ذكر (بني إسرائيل) هناك أي : في سورة **الشعراء** ﴿ قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان:٢٨] في سورة **الدخان** فلأنه : لما تقدم ذكر بني إسرائيل ونعمة الله عليهم بغرق عدوهم ونجاتهم منه : ناسب ذكر نعمته عليهم بعودتهم إلى مصر بعد ذلك[1] .

عاشرا : سورة النازعات .

أما سورة **النازعات** فقد جاء الحديث عن عقوبة فرعون مختصرا بعض الشيء ومجملا لكل ما تقدم من حديث عن موسى – عليه السلام – ودعوته مع ذكر بعض الإشارات إلى تكذيب فرعون ثم غرقه بعد ذلك .

قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات:١٥-٢٦] .

ما اشتملت عليه الآيات غير ما سبق .

أولا : في هذه الآيات يبادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهي لموسى – عليه السلام – عقب ذكر النداء بالواد المقدس طوى ، أما في السور السابقة فكان لذكر الآيات المعجزات نصيب من القول ثم الأمر بالذهاب إلى فرعون .

ثانيا : لا يزال سياق دعوة فرعون بلطف يتكرر في آيات القرآن العظيم من قصة إلى قصة ومن موضوع إلى موضوع ولكن بأسلوب آخر يتضمن نفس المعنى قال تعالى ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النازعات:١٨-١٩] عرض وترغيب كما قال ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤] أي : أن في قوله ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات:١٨] حثا له على أن يستعد لتخليص نفسه من العقيدة الضالة فيقبل إرشاد من يرشده إلى الخير ، ثم عطف عليه ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات:١٩] أي : إن كان في نفسك استعداد للتزكية يكن إرشادي إياك ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ .

وتفريع (فتخشى) على (أهديك) إشارة إلى أن خشية الله لا تكون إلا بالمعرفة

---

(١) انظر : (كشف المعاني) ص"٣٣٥ ، ٣٣٦" .

قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾[(١)] [فاطر:٢٨] أي : العلماء به .

وفي ذكر الخشية إيجاز بليغ ؛ لأن الخشية ملاك كل خير – وفي الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : **من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل** »[(٢)] .

ثالثا : في قوله تعالى ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات:٢٠] يرد سؤال هو : أن الله تعالى قال في سورة طه ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ [طه:٥٦] وكل آية منها كانت كبرى فكيف التوفيق بينهما ؟

والجواب : أن الإخبار في هذه الآية ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات:٢٠] عن أول مجادلاته مع موسى – عليه السلام – (العصا واليد) فأطلق عليهما الآية الكبرى لاتحاد معناهما .

وجواب آخر : أراد بالآية الكبرى (العصا) لأنها كانت المقدمة والأصل ، والأخرى كانت كالتبع لها[(٣)] .

وأخيرا فإعجاز القرآن لا يتوقف عند سورة أو مقطع محدد ؛ بل في سور القرآن كلها ، وما رأينا من فروق بين الآيات ما هو إلا غيض من فيض لمواضيع القرآن كلها[(٤)] .

---

(١) وانظر : (تفسير الكشاف) (٦٩٥/٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٧٧/١٥) ، والحديث رواه الترمذي : كتاب صفة القيامة باب (١٨) (٦٣٣/٤) برقم (٢٤٨٠) وقال : هذا حديث حسن غريب ، وصحح إسناده الحاكم (٣٤٣/٤) وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وقال الألباني : صحيح . انظر : (صحيح الترمذي) (٢٩٧/٢) برقم (١٩٣٩) .

(٣) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٥٤٥" .

(٤) انظر : (في ظلال القرآن) (٢٣٢٩/٤ ، ٢٣٣١) ، (٢٥٨٨/٥) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة

أولا : استكبار فرعون وإفساده في الأرض .

قال الله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ[١] وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤] .

أي : إن فرعون تكبر وتجاوز الحد في الظلم والطغيان واستعبد أهلها ؛ حيث جعلهم فرقا وأصنافا في خدمته وطاعته ، فاستذلهم بتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم ليقلل بذلك الرجال ، فلا يفكرون يوما في الانتقام منه ، إنه كان من المفسدين المتمكنين في الإفساد في الأرض بالمعاصي والتجبر وقهر العباد[٢] .

إذا الجو الذي ولد فيه موسى – عليه السلام – كان جو تقتيل للأبناء واضطهاد وتجبر وحرب على شعب بني إسرائيل ، فأراد الله أن يجري سننه في خلقه حين يتجبر الطغاة ويفسدون في الأرض ، والشر حين يتمخض ويزيد فإنه يحمل سبب هلاكه ، والبغي حين يتمرد ؛ فإن يد القدرة تأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم فتنقذهم وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين .

لقد أراد الله غير ما أراد فرعون ، وقدر غير ما يقدر الطاغية ، فالطغاة تخدعهم قوتهم فينسون إرادة الله وتقديره ، ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون ، ويختارون لأعدائهم ما يشاؤون ، ويظنون أنهم على ذا وذاك قادرون[٣] .

فالذي جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم قادر على أن يجعل قلب فرعون بردا وسلاما على موسى ، فينشأ ويترعرع في كنف فرعون ويغذى بطعامه وشرابه .

فالقدر يقول له : يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ولا تخالف أقداره أن هذا المولود

---

(١) يذبح أبناءهم : ذكر المفسرون أن سبب تقتيله للأبناء دون النساء أن كاهنا قال له : إن مولودا يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه . انظر : (تفسير الكشاف) (٣/٣٩٢) ، تفسير القرطبي (١٣/٢٤٨) .

(٢) انظر : تفسير الكشاف (٣/٣٩١ ، ٣٩٢) ؛ تفسير القرطبي (١٣/٢٤٨ ، ٢٤٩) ، تفسير الوسيط (٣/٣٩٠) ؛ تفسير القاسمي (١٣/٩٥) .

(٣) في ظلال القرآن (٥/٢٦٧٦) بتصرف .

الذي تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس مالا يحصى ولا يعد ، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه ، وتربيه ثم يكون هلاكك على يديه ، لمخالفتك ما سيأت به من عند الله ، ولتعلم أنت وغيرك أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد وأنه القوي الشديد ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها[1] .

وإليك نماذج من ظلم فرعون وطغيانه

أ – ادعاؤه الألوهية والربوبية

أكبر أنموذج للظلم والطغيان ادعاء فرعون الألوهية والربوبية لنفسه لينازع الله في ملكه ، وهو ذلك العبد الضعيف المهين ، قال تعالى على لسان فرعون ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص:٣٨] وانظر لهذه الكلمة الفاجرة الكافرة ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ كيف تلقفها الملأ بالإقرار والتسليم مع علمهم بكذب فرعون ، ولكنها لا تجرؤ أن تعارض ذلك القرار الحاسم الذي لا يقبل الاستئناف لأنها تعلم مصيرها لو فعلت ذلك .!!

قال ابن كثير في تفسيره : وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى الألوهية لنفسه ، وهدده بالسجن إن لم يصدقه بذلك ويطعه ويسلم له بألوهيته قال تعالى ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[2] [الشعراء:٢٩] .

إذ أراد بكلامه هذا تغفل القوم ومداراتهم حتى لا يخامر أنفسهم شيء للحط من منزلة ربوبيته المزعومة .

وبعد بيان موسى له وعرض معجزاته أمامه أخذ يسعى ويجتهد في جمع مكايده من سحرة وغيرهم من ذوي العقول الساذجة قال تعالى ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه:٦٠] وقال ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ [النازعات:٢٢-٢٣] أي : فجمع السحرة فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه أو قام في قومه فنادى قائلا ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤] .

---

(١) البداية والنهاية (٢٣٨/١) .

(٢) انظر : (تفسير ابن كثير) (٤٠١/٣) .

قال ابن عباس ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص:٣٨] بأربعين سنة[1] .

ب – قتله للأبناء الذكور دون النساء

إن قتل الأبرياء عند الظلمة الطغاة لا يعني شيئا في سبيل إرضاء ضمائرهم الخبيثة . إن القتل لدى هؤلاء يقتل ضمائرهم اللوامة ، فيصبح الواحد منهم متعطشا للقتل يروي به نفسه الأمارة كلما سنحت له الفرصة بذلك .

لقد ابتكر فرعون اللعين طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تعتقد ولا تعبده بألوهيته ، فسخرهم للشاق من العمل ، وسامهم بشتى أنواع العذاب ، وبعد ذلك لجأ إلى تذبيح الذكور من الأطفال ، واستبقى الإناث كي لا يتكاثر عدد الرجال[2] .

وفي هذا يقول الله – تعالى – عنهم ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤] .

ج – ظلم وفساد أعوان فرعون

قال تعالى عنهم ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الفجر:١٠-١٢] .

وقال أيضا ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص:٣٩] .

الأوتاد : الجنود كما قال ابن عباس[3] ، فالجنود هم أدوات ظلمه وتعسفه ، فلا يظلم إلا بهم ولا يتجبر إلا بهم ، يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه .

فاكتسبوا الظلم والتكبر منه لأنه سيدهم وحاكمهم ، يظلمون بلسانه ويعتدون بيده ويقتلون بسطوته دون عقاب لمن يخطئ منهم أو محاسبة ؛ لأنهم سنده وعضده فلولاهم لما بقي في حكمه .

---

(١) تفسير الكشاف (٦٩٦/٤) ، وتفسير ابن كثير (٤٩٩/٤) .

(٢) انظر في ظلال القرآن (٢٦٧٧/٥) .

(٣) تفسير ابن كثير (٥٤٣/٤) وانظر تفسير الألوسي (١٢٤/٣٠) .

قال تعالى ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص:٨] وقس على ذلك كل طاغية تبتلى به أمة من الأمم .

ثانيا : عناد فرعون وتجبره وتكذيبه .

يقول الزمخشري – رحمه الله – : « إنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء في اليوم الآخر ، وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده ولم يترك عظيمة ولا سيئة إلا ارتكبها »[1] .

وإليك نماذج من ذلك :

أ – محاورة ساخنة : سنعيد كتابة بعض الآيات مرة أخرى لترى كيف بدأت المحاورة في جميع الآيات وكيف انتهت ثم تفسيرها باختصار قال تعالى :

١ – ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٤-١١٢] .

٢ – ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يونس:٧٥-٧٩]

٣ – ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ

(١) تفسير الكشاف (١٦١/٤) .

فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه:٤٣-٥٨]

٤ - ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء:١٥-٣٧] .

٥ - ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات:١٧-٢٦] .

كما رأينا في الآيات كانت دعوة موسى لفرعون مفاجأة . لأنه كان يتصور أنه لا أحد يجرؤ فيكلم الإله المزعوم بمثل هذا ، ومعنى كلام موسى هذا في تصوره إنزاله عن عرش الربوبية أو ما يسمى اليوم محاولة قلب نظام الحكم .

عند ذلك بدأت المحاورة بقول فرعون لموسى ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه:٤٩-٥٠] وفي سورة أخرى ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٤] وفي سورة ثالثة ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٤] .

فوجئ فرعون بدعوة موسى له وبجرأته عليه وهو في مجلس ملكه ، يحيط به وزراؤه وقواده وأعوانه ، وقد صدرت منه (أي موسى) بصيغة التأكيد والقطع مما يدل على شدة ثقة موسى بنفسه وبكلامه الصادق الذي لا يقبل المفاصلة أو التنازل قدر أنملة .

سأل في المرة الأولى ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٩] وقال في سورة الشعراء ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣] .

فالسؤال بمن عن الكيفية ، والسؤال بما هو عن الماهية (الحقيقة) فأقام موسى له الدلالة على الوجود ؛ فعرف أنه لا يمكنه المقاومة في هذا المقام لظهوره وجلائه ، عندها عدل إلى المقام الثاني وهو طلب الماهية . وهذا أيضا مما ينبه عليه من أنه كان عالما بالله ؛ لأنه ترك المنازعة في هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع في المقام الصعب لأن العلم بماهية الله – تعالى – غير حاصل للبشر[1] .

ونلاحظ في إجابة موسى – عليه السلام – له أنه عرف أبعاد سؤال فرعون وما يحمل في طياته من إنكار لربوبية الله – تعالى – فقال بصيغة الجمع (ربنا) إشارة

---

(١) تفسير الرازي (٦٤/٢٢) وانظر : (روح المعاني) للألوسي (٧١/١٩) ، وقال ابن كثير في هذا (٣٤٥/٣) : ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط ؛ فإنه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر .

وفي نظري أنه يرد عليه اعتراض يؤكد أن فرعون كان يعلم بوجود الخالق عزوجل ولم يكن جاحدا له بالكلية ، ودليل ذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء:١٠٢] وقوله سبحانه على لسان فرعون نفسه : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:٩٠] .

إلى ربوبية الله للجميع ولفرعون وملئه - ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:٥٠] أعطى كل شيء من الأنفس البشرية وغيرها صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به فسواه بها وعدله ، أو أعطى كل مخلوق ما يصلحه ثم عرفه كيف يرتفق بما أعطي ، وكيف يتوصل به إلى بقائه وكماله اختيارا أو طبعا(١).

وعند ابن عطية : في معناها أن الله - تعالى - أعطى كل موجود من مخلوقاته خلقته وصورته وهيأته الخاصة به والمناسبة له ، وأكمل الله - تعالى - ذلك له وأتقنه ثم هدى ، أي : يسر كل شيء لما يتوصل به إلى منافعه ومرافقه(٢) .

إذ كانت الإجابة إجابة عميقة تحوي في طياتها معان كثيرة واضحة الدلالة لم يسمع فرعون مثلها من قبل ولا يملك أن يقول مثلها ؛ فعمد إلى مراوغة موسى فانسحب من المحاورة إلى مجال آخر يسمى :

الاستدراج إلى معارك جانبية ، أو الخروج من صلب الموضوع إلى موضوع آخر ؛ حفظا لماء الوجه فقال فرعون ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه:٥١] أي : فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره ؟

إذ أراد من هذا السؤال أن يصرفه - عليه السلام - إلى ما لا يعنيه من الأمور لشغله عما هو بصدده عسى أن يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك إلى أن يدعي أمام قومه نوع معرفة يفحم بها موسى عليه السلام(٣) .

فاختار موسى جوابا لا يستطيع الخصم أن يستمر في المجادلة فقال ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:٥٢] .

وهب أنه قال : القرون الأولى كانت على التوحيد لرد عليه بأنها عبدت بعد ذلك الأصنام ، ولو قال : كانوا على ضلال ، لقالوا : سب آباءنا وأجدادنا وربما ثاروا عليه.

﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [طه:٥٢] أي : في علم الغيب الذي لا ينبغي لي أن أخوض فيه بغير علم ﴿ فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:٥٢] أي : لا يخطئ ابتداء ولا يذهب علمه بقاء(٤) .

---

(١) انظر : تفسير الكشاف (٦٧/٣) ؛ تفسير القرطبي (٢٠٤/١١) ؛ تفسير البيضاوي (٤٩/٢) .

(٢) تفسير ابن عطية (٢٠٢/١٠) .

(٣) تفسير أبي السعود (٢٠/٦) .

(٤) تفسير أبي السعود (٢١/٦) ، وانظر : تفسير القرطبي (٢٠٨/١١) .

وهكذا نجا موسى - عليه السلام - من الفخ الذي نصبه له فرعون ؛ لأن الخوض في القرون الأولى خوض لا ينتهي أمره ولا يستقصى بحثه ، فأغلقه موسى بحكمة وذكاء لئلا يستمر الخصم في الإتيان بأمثلة جديدة .

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء ، وجعله الأرض مهادا ، والسماء سقفا محفوظا ، وتسخيره السحاب ، لإنزال الغيث رزقا للعباد ودوابهم وأنعامهم .

قال تعالى على لسان موسى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ﴾ [طه:٥٣-٥٤] إن في ذلك لدلالات لذوي العقول السليمة المستقيمة والفطر القويمة على أن لا إله إلا الله ولا رب سواه[1] .

وإذا كانت هذه نعم الله عليكم فلم تستكبرون عن شكره ؟ وتستعينون بها على عصيانه ؟ أنسيتم أنكم مخلوقون من الأرض وأنكم ستعودون إليها ؟ فلم التجبر والتكبر إذن ؟ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:٥٥] .

بعد هذه الذكرى لفرعون ولنفسه العاتية انتقل إلى أمر آخر ليجد له مخرجا من هذا المأزق ، فأخذ يذكر موسى بماضيه وأنه تربى في بيته ولبث فيهم سنين من عمره وأنه قتل رجلا من قومه ، وكان ينبغي له أن يكون حافظا للمودة ، حريصا على عدم إيذاء آل فرعون سواء في قومهم أو في معتقدهم ، فما دمت قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة فأنت من الكافرين أي : الجاحدين لنعمتنا عليك[2] .

فأجابه موسى عليه السلام ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢ ﴾ [الشعراء:٢٠-٢٢] .

(أي : قتلت إذا وأنا من الظالين يقول : وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي تحريم قتله علي)[3] .

(١) تفسير ابن كثير (١٦٤/٣) .
(٢) تفسير ابن كثير (٣٤٤/٣) ؛ انظر : (تفسير القرطبي) (٩٥/١٣) ؛ انظر : تفسير القاسمي (٧/١٣) .
(٣) تفسير الطبري (٣٤٠/١٥) ، ثم قال : والعرب تضع من الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال ، فتقول : قد جهل فلان الطريق بمعنى واحد ، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل .

وأما ما كان من إحسانك إلي ؛ فبمقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل حيث جعلتهم عبيدا وخدما تصرفهم في أعمالك ، فهل يفي إحسانك إلي وأنا رجل واحد بما أسأت إليهم جميعا .. فما فعله بهم لا يساوي شيئا بالنسبة إلى ما فعلته بي[1] .

هذا ومن طبيعة المعاند أنه يؤمل الانتصار ولو مرة واحدة حتى ولو خسر كل شيء . وفرعون من هذا الصنف لخبث نفسه ولطبيعته العاتية مازال يؤمل في الانتصار على موسى أو على الأقل الخروج مما وقع فيه .

عندها أخذ يسأل عن ماهية الخالق – عز وجل – لأنه لا يستطيع مجاراة موسى عليه السلام في باب الاستدلال على الخالق ، فانتقل إلى ما هو أصعب من ذلك في نظره وهو السؤال عن الحقيقة قال تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣] فأجاب موسى وببساطة لأنه المؤيد من رب العالمين – عز وجل – الذي قال له من أول الأمر ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] قال موسى : إن رب العالمين هو ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢٤] وهنا بين له موسى الصفات الدالة على مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق – والتي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها[2] .

وعند هذه الإجابة البليغة من موسى ﷺ أحس فرعون بالهزيمة المطلقة فأشرك الخاصة من قومه لئلا يتأثروا بقول موسى وحتى لا يقع هو وحده فقال لقومه ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٥] لما رأى من ثقة موسى بنفسه ، فالتفت موسى إليهم وقال : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء:٢٦] فكانت الإجابة أشد مساسا بشخص فرعون فما هو إلا واحد من عبيد الله والله – تعالى – هو ربه ورب آبائهم الأولين قبل أن يوجد فرعون[3] .

---

(١) تفسير ابن عطية (٩٩/١١) ؛ تفسير ابن كثير (٣٤٥/٣) ، تفسير القاسمي (٩/١٣) ؛ وانظر : تفسير القرطبي (٩٥/١٣) .

(٢) تفسير القرطبي (٩٨/١٣) ؛ وانظر : (فتح القدير) (٩٧/٤) .

(٣) في ظلال القرآن (٢٥٩٢/٥) .

عندها بدأ الغيظ يظهر على فرعون ، وبدأ هدوءه المصطنع يذبل ، فالتفت إلى من حوله كأنه يؤلبهم ويحرضهم على موسى فقال ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء:٢٧] فسماه رسولا بطريق الاستهزاء ، وأضافه إليهم ترفعا من أن يكون رسولا إليه ، وفيه إثارة لغضبهم واستدعاء لإنكارهم رسالته بعد سماع الخبر ترفعا بأنفسهم عن أن يكونوا أهلا لأن يرسل إليهم مجنون[1] .

ويلاحظ من كلمته (مجنون) مدى تخبط فرعون في كلامه ، ويدل على حبه في إنهاء المحاورة ؛ أما موسى – عليه السلام – فكان يتكلم من منطق قوة ويعرف أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من الانتصار الساحق ؛ فأخذ يفتح أمامهم آفاق التفكير في تصورهم مرة أخرى لهذا الكون الفسيح المملوء بالكواكب الزاهرة في أفلاكها الدائرة النهار بضيائه والليل بظلامه من ربها ؟ من خالقها ؟ من مبدعها ؟ من مسيرها ؟ إنه ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء:٢٨] فأرشدهم إلى أقرب الأشياء إليهم وقال لهم : إن كنتم من أهل العقل . وفيه تلويح إلى أنهم بمعزل من دائرة العقل ، وأنهم الأحقاء بما رموه به – عليه الصلاة والسلام – من الجنون[2] .

وفي هذا تحريض من موسى – عليه السلام – للملأ حوله باستعمال عقولهم وبصائرهم ، فمن تدبر ذلك بعيدا عن العواطف وحب الشهوات فإن مؤداه بإذن الله إلى الإيمان .

وهنا توقف فرعون عن المحاورة وذل أمام موسى – عليه السلام – لما رأى من شدة حزمه وقوة عزمه وأنه ممن لا يجارى في حلبة المحاورة قال مهددا ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[3] [الشعراء:٢٩] .

ولو كان يريد استمرار المحاورة لقال : ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك ؟ لأن فيه الاعتراف بأن ثم إلها غيره ، ثم إن في توعده بالسجن ضعفا[4] .

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/٢٣٩) ، تفسير روح المعاني (١٩/٧٢) .

(٢) تفسير روح المعاني (١٩/٧٣) .

(٣) جاء بأل العهدية (كما ذكرناه في لطائف ، سورة الشعراء) وانظر : فتح القدير للشوكاني (٤/٩٨) ؛ وانظر : تفسير القرطبي (١٣/٩٩) ؛ روح المعاني (١٩/٧٣) وقال القاسمي : « لما سمع فرعون تلك المقالات المبنية على أساس الحكم البالغة ، وشاهد شدة حزم موسى – عليه السلام – وقوة عزمه على دعوته ، عدل عن خطة الإنصاف إلى الاعتساف » انظر تفسيره (١٣/١٤) .

(٤) تفسير القرطبي (١٣/٩٨) .

عند ذلك قال له موسى - عليه السلام - على جهة التلطف والطمع في إيمانه ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:٣٠] يتضح لك معه صدقي أفكنت تسجنني ؟ فلما سمع منه ذلك طمع في مواصلة الكلام لعله يجد موضع معارضة فقال ﴿ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝ ﴾ [الشعراء:٣١-٣٣] .

فلما رأى فرعون ذلك هاله وأفزعه ؛ رأى العصا تتقلب حية واليد تتلألأ كأنها قطعة من الشمس ؛ حقا لقد أفزعه ، ولم يكن عنده ما يدفعه به غير رميه بالسحر ، وقد طمع بما قد برع فيه قومه من السحر لعله يكون سببا في معارضة موسى - عليه السلام - وإيهاما لقومه وأتباعه بأن موسى - عليه السلام - ساحر .

ب _ اتهام موسى بالسحر ومحاولة قلب نظام الحكم .

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [يونس:٧٦-٧٨] .

ومن متشابه الآيات ما جاء في :

سورة الأعراف ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠] وفي سورة طه ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٥٧] وفي سورة الشعراء ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء:٣٥] .

بدون دليل ولا قاطع برهان اتهم موسى بالسحر وحب الملك والسلطان .

قال الزمخشري في تفسير قول الله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ [يونس:٧٦] أي : فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله لا من قبل موسى وهارون قالوا لحبهم الشهوات والرياسة ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1] [يونس:٧٦] .

---

(١) تفسير الزمخشري (٢/٣٦٢) ، وعند صاحب الظلال : وهكذا يبدوا تضعضعه وتهاويه ، وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلها ، فيطلب أمرهم ومشورتهم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء:٣٥] ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون ؟. إنه شنشنة الطغاة حينما يحسون أن ⇦

كان الاتهام بالسحر أحسن ما يقال في نظر فرعون ليجعل منه حاجزا بينه وبين من أراد التفكير فيما جاء به موسى ﷺ ؛ لأنه ساحر من جملة السحرة المنتشرين في البلاد ، فيكون فرعون بتهمته هذه لموسى قد أبعد قومه عن أية محاولة للربط بين معجزة موسى ونبوته ، فيكون لو فعلوا لغير نبي .

ولدهائه وخبثه رأى أن يدعم اتهام موسى بالسحر باتهام آخر ، فلعلهم لم يقتنعوا بالتهمة الأولى وهي الرغبة في الملك أو ما يسمى بقلب نظام الحكم .

ومعنى هذا عند سامعي كلام فرعون ؛ هو التحرك السريع ضد موسى ، وإيقافه عند حده .

أما معناها عند فرعون فهو ذهاب ألوهيته بعد أن كان يعبد ، وأن يسمع ويطيع لموسى بعد أن كان الآمر الناهي .

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠] وهنا يلاحظ على فرعون في قوله ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء:٣٥] أنه يستشير قومه والإله لا يستشير أحدا فكان موقفه هذا من أهم التنازلات التي تعد بحق انتصارا لموسى – عليه السلام – وموقف فرعون هذا يدل على تخبطه بعد أن أصابه الخوف والفزع ، فكان لابد من تغيير موقفه لينقلب العبيد آمرين ، وربهم فرعون بزعمه مأمورا لما استولى عليه من فرط الدهشة والحيرة[1].

وتشاور الملأ في أمر موسى ورددوا نفس مقالة فرعون ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف:١١٠] ولما رأى مؤازرتهم له قال لموسى ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٥٧] .

ويلاحظ من رسالة فرعون للملأ أولا : أنه قال لهم بضمير المخاطب ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم ﴾ قال لموسى بعد أن اطمأن لهم بصيغة المتكلم الجمع ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا ﴾.

ويلاحظ ثانيا : أنه لم يشرك شعبه فيما اتخذه من قرارات مع ملائه ؛ لأنه يعلم أنهم

=

الأرض تتزلزل تحت أقدامهم . عندئذ يلينون في القول بعد التجبر ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام . ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى . ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ، ثم إذا هم هم جبابر مستبدون ظالمون . انظره : (٥/٢٥٩٤) .

(١) نفس المصدر (٣/٣١٠) .

تبع وأن أحدا لا يستطيع أن ينبت ببنت شفة ؛ إذا اتخذ فرعون قراره ، إنهم يتجاهلون الشعوب في الرخاء ، ويرون أنهم كالأنعام يقادون إلى المرعى ، ثم ترجع دون أن يكون لها أدنى حرية ؛ فإذا جاءت الشدائد والملمات زجوا بهم في معاركهم ؛ ليتحملوا كامل المسؤولية متناسين ما قدموه من خدمات في يوم من الأيام .

هذا هو حال الباطل في الدنيا ، أما في الآخرة فسوف يحاسب كل واحد منهم على ما قدم ولن ينفعه أكان سوقيا أو فقيرا أو أطاع الأوامر الخرقاء دون أخذ رأيه .

قال تعالى عنهم ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) ﴾ [غافر:٤٧-٤٨] .

ج – جمعه للسحرة استعدادا ليوم المفاصلة

بعد تدارس الأمر أشار الملأ على فرعون بما أخبرنا الله بقولهم ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) ﴾[1] [الأعراف:١١١-١١٢].

وقوله ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [يونس:٧٩] .

وقوله ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) ﴾ [طه:٥٨-٦٠] .

وقوله ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) ﴾ [الشعراء:٣٦-٤٠] .

نلاحظ من مجموع الآيات أنهم (أي : الملأ) لم يشيروا بقتله ؛ وإنما أشاروا بجمع السحرة لأن حجته كانت ظاهرة فخشوا الفتنة ، وطمعوا أن تكون الغلبة للسحرة فتسقط حجة موسى – وهذا من تدبير الله – عز وجل – وتسخيره ليجتمع الناس في صعيد واحد يشهدوا هذه المغالبة بين موسى وسحرة فرعون ، فتظهر آيات الله

(١) أرجه أي : أخر أمرهما حتى ترى رأيك فيهما – والأمر بالتأخير يدل على أنه تقدم منه أمر آخر هو الهم بقتله فقالوا : أخره ليتبين حاله للناس . وأصل (أرجه) : أرجئه ، انظر : (محاسن التأويل ٢٢٨/٧) .

وحججه وبراهينه واضحة جلية للناس[١] .

ونلاحظ أيضا أن طلبهم لموعد محدد معلوم الزمان والمكان ؛ كان فيه نوع ثقة من فرعون بالظهور والانتصار ، ثم طلبه أن يكون هذا الأمر أمام الجميع فيه فطنة وذكاء ؛ لئلا يؤمن بموسى أحد . فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده ؛ لعلمه أن حجة الله هي الغالبة ، وفي ظهورها بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين والانقهار للمبطلين[٢] .

فقال موسى عليه السلام ﴿ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴾ [طه:٥٩] ومعنى هذا أن موسى – عليه السلام – قبل تحدي فرعون له ، واختيار الموعد يوم عيدهم ، وأن يجمع الناس ضحى ليكون المكان مكشوفا والوقت ضاحيا ؛ فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار الوقت[٣] .

وهنا نلحظ أن موسى – عليه السلام – هو المستفيد من حيث لا يشعر فرعون وملأه ؛ حيث يسر الله له جمعهم مرة واحدة ، وفي مكان يراهم ، ويرونه ، ويسمعهم ، ويسمعونه ، وقد كان من قبل مستحيلا ، فسبحان مقلب القلوب ومصرف الأمور على مر الدهور الذي إليه المرجع وإليه النشور !!! .

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه:٦٠] مما يظهر أن جمع السحرة تم على مراحل وإن كانت سريعة ؛ ذلك لخوف فرعون على ملكه وسلطانه .

المرحلة الأولى : ظهرت من إرسال فرعون شرطه لحشر السحرة ؛ وذلك للتشاور في أمر موسى – عليه السلام – .

المرحلة الثانية : حشرهم ليوم الزينة المتفق عليه مع موسى ، وذلك لتحدي موسى وإظهار فائق سحرهم للتفوق والانتصار على موسى عليه السلام .

وأما فترة الإعداد للسحر فمن المؤكد أنها كانت بين المرحلتين السابقتين ، يدل عليه (ثم) الدال على التراخي في قوله تعالى ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه:٦٠] وفي كلمة التراخي إيماء إلى أنه لم يسارع إليه بل أتاه بعد بطء وتلعثم[٤] .

---

(١) تفسير ابن عطية (١١/١٠٥) ؛ تفسير بن كثير (٣/٣٤٦) .

(٢) تفسير فتح القدير (٤/٩٩) ، وانظر روح المعاني (١٦/٢١٧) .

(٣) في ظلال القرآن (٤/٢٣٤٠) .

(٤) تفسير روح المعاني (١٦/٢٢٠) ؛ تفسير أبي السعود (٦/٢٤) .

وأما جمع الناس فقد جاء بطريقة أدهى مما كان يتوقع ، وذلك لئلا يثير ضغينتهم على فرعون ، يدل عليه قوله تعالى عنهم ﴿ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:٣٩] حض لهم في غاية اللطف ثقة منهم باستجابتهم التي تعودوها منهم ؛ لأنهم مروضون على الطاعة والتبعية منذ زمن بعيد .

وتظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير ﴿ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ ﴾ [الشعراء:٣٩-٤٠] لعلنا نتبع السحرة فقط وأتباعهم في حالة واحدة فقط ، وهي حالة انتصارهم . أما غيرها فليس هناك ذكر للبديل مما يدل على التحيز الشديد ضد الحق وأهله .

بمعنى اتباعهم في طريقتهم ، ودينهم الذي هو دين الآباء والأجداد ؛ لا اتباع موسى ، فساقوا كلامهم مساق الكناية حملا لهم على الاهتمام والجد في المغالبة[1] .

وهكذا اجتمع السحرة على ما رأينا ، واجتمع الناس ليروا المباراة عن قرب ، وما كان من قبل ييسر فرعون لهم سبل الاختيار إلا هذه المرة فلم ذلك ؟ لم يسأل واحد نفسه لماذا جاء ، وهل يمكن أن أغير منهجي إلى غير ما دعيت له ؟ لم هذا الاهتمام بموسى وأخيه وهما شخصان اثنان ؟ ومن هو موسى هذا بالنسبة لجبروت فرعون لم لا يقتله ؟ لم لا يعذبه ؟ ولم يسأل واحد نفسه لم لا نؤمن بما جاء به إن كان هو المنتصر ؟

إنها التبعية الممقوتة والفكر الأرعن ، والجبن عن قول كلمة الحق .

ثم انظر حالهم بعد أن دخل الإيمان قلوبهم كيف صدعوا بكلمة الحق ! ؟

ونلاحظ أيضا من جهة أخرى كيف قضت حكمة الله أن يجتمع هذا الجمع الحاشد ليرقب المعركة الحاسمة بين الحق والباطل ، وذلك ليتسنى لموسى – عليه السلام – إيصال الحق لهم عن طريق المشاهدة ، هذا من جهة ، وليكون حجة عليهم من جهة أخرى ، وليكون بشارة من بشائر النصر الذي وعد الله به موسى – عليه السلام – من جهة ثالثة .

ثالثا : اتهام السحرة بالخيانة العظمى .

اطمأن السحرة لجائزة فرعون ، وأغراهم بريق ذهبه ، وأن فقراء الأمس سيصبحون أغنياء اليوم ، وما مر عليهم من نصب الدنيا فلن يمر بعد ذلك ؛ كيف لا وقد وعدهم المنزلة الرفيعة عنده .

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/٢٤٢) ؛ وانظر قريبا منه في تفسير ابن عطية (١١/١٠٦) ؛ وتفسير ابن كثير (٣/٣٤٠) .

قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأعراف:١١٣-١١٤] .

فزادهم فرعون على ما طلبوا ليحثهم على بذل أقصى الجهد لإظهار سحرهم على ما عند موسى[1] .

وجاء الناس ضحى يوم الزينة ، وجاء فرعون في زينته وأبهته ، واصطف له الأكابر والناس يمنة ويسرة ، وأقبل موسى بعصاه ومعه أخوه هارون وقيل : معه بنو إسرائيل ، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفا وهو يحرضهم ويحثهم لإجادة عملهم ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم فكان أول ما قاله موسى لهم ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [طه:٦١] لتخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقيقة لها فتكونوا قد كذبتم على الله ، ثم حذرهم أن لا يعتبروا ما يرونه من الآيات سحرا ، وأن يتبعوا الحق إذا ظهر لهم ، فإن لم يفعلوا أهلكهم الله بعذاب من عنده وقد خسر من افترى على الله الكذب .

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ [طه:٦٢] أي : تشاجروا فيما بينهم ، فقائل يقول : ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي ، وقائل يقول : بل هو ساحر ، وقائل يقول ....ألخ ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ [طه:٦٢] مخافة أن يتبين لفرعون أن فيهم ضعفا ، ثم قالوا ﴿ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ [طه:٦٣] أي : إن موسى وهارون ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويغلباكم وقومكم ، ويستوليا على الناس ، وتتبعهما العامة ، ويقابلا فرعون وجنوده فينتصران عليه ، ويخرجاكم من أرضكم ويذهبا بسيرتكما الفاضلة الحسنة وحالتكم الطيبة التي أنتم عليها ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ﴾ [طه:٦٤] واحدا ، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار وتغلبوا موسى وأخاه ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه:٦٤] أي : ظفر

---

(١) تفسير القرطبي (٢٥٨/٧) ؛ انظر : (تفسير المنار) (٦٣/٩) وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية ، تبذل مهاراتها في مقابل الأجر الذي تنتظره ، ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية ، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة ، وهؤلاء هم أتباع الطغاة يخدمونهم على طغيانهم وفجورهم طمعا بما عندهم من متاع الدنيا ليبقوا في خدمتهم وتبعيتهم ، انظر : في ظلال القرآن (٢٥٩٥/٥) .

ببغيته اليوم من طلب العلو في أمره ، فنال عطاء الملك كما وعد أو فاز موسى فنال الرياسة العظيمة[1] .

وبعد ذلك التذكير الذي كان موسى لا يترك فرصة للدعوة إلى الله سواء أمام فرعون أو غيره إلا استغل ذلك فوعظ وذكر ، وبعد عصيان السحرة لموعظة موسى وإصرارهم على فعل ما أتوا من أجله بدأت المباراة :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾[2] [الأعراف:١١٥] وفي سورة طه ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه:٦٥] .

وتدل كلماتهم هذه على رغبتهم في أن يقدموا عروض سحرهم قبل موسى – عليه السلام – ليصرفوا أعين الناس إليهم ؛ فأفسح المجال لهم وقال : (بل ألقوا) ليتبين للناس المجتمعين كل ما عند السحرة من كيد وباطل ، وحتى لا يبقى لديهم شيء من أسلحتهم فتكون الكلمة الأخيرة والفاصلة لموسى – عليه السلام – ، فلو ألقى قبلهم لما كان هناك معنى للتحدي ؛ لأن المشاهدين لا يعرفون شيئا عن سحر السحرة ولا عن معجزة موسى عليه السلام ، وإنما سمعوا عنها فقط ، ولا يغني السماع . فكان من الحسن أن يلقي السحرة أولا ، ثم يلقي بعدهم موسى – عليه السلام – فيظهر التحدي ونتيجته بعد ذلك أمام الناس ، وكل ذلك تم أولا وأخيرا بتدبير الله عز وجل .

فألقى السحرة حبالهم وعصيهم فكان كما قال الله ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه:٦٦] واستعانوا للوصول إلى مآربهم ببعض الحركات والأصوات المزعجة والمخيفة لإدخال الذعر والخوف في نفوس الناس قال الله ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:١١٦] .

فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة وأن يضيع الحق بين ركام هذا الباطل ، فأمره الله تعالى أن يلقي عصاه ، وما إن ألقاها حتى انقلبت بقدرة الله حية عظيمة ابتلعت كل ما جاء به السحرة من وسائل الكذب ، والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهرة نهارا . فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر ، ولهذا

---

(١) وتفسير ابن كثير (١٦٥/٣) .

(٢) قال الزمخشري (١٤٠/٢) : تخييرهم إياه أدب حسن . وقال القرطبي (٢٢٣/١١) تأدبوا مع موسى ، فكان ذلك سبب إيمانهم .

قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[1] [طه:٦٩] وقال أيضا : ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١١٩] فكانت النتيجة المبكرة لذلك التحدي الغلبة والصغار .

أما النتيجة الثانية فكانت أعظم من الأولى وهو : ما كان يخشاه فرعون نفسه وهو سجود السحرة ، وإيمانهم بالله – تعالى – وأن ما جاء به موسى هو الحق .

وذلك حين رأوا ما حصل لسحرهم أدركوا وهم أصحاب المستوى العالي في هذا الفن أن ما جاء به موسى لا يستطيعه إنسان ولا هو من صنعه[2] ، وإلا فأين أدوات سحرهم ، والسحر إذا بطل بقيت أدواته .

قال تعالى ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[3] [الشعراء:٤٦-٤٨] وقوله في سورة طه ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه:٧٠] فكان إيمانهم أمرا عظيما جدا وبرهانا قاطعا للعذر ، وحجة دامغة على أن موسى – عليه السلام – رسول من رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق والمعجزة الباهرة ، فغلب فرعون غلبا لم يشاهد العالم مثله ، فعدل إلى المكابرة والعناد و دعوى الباطل فشرع يتهددهم ويتوعدهم ويقول ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [طه:٧١] و [الشعراء:٤٩] وقال ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ [الأعراف:١٢٣] واعتبر إيمانهم خيانة له ولدولته ، وهو في الحقيقة النهاية له ولملكه الذي طالما استبد به وظلم وطغى وتجبر . وكان لا بد له من مخرج أمام الحاضرين فقال ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [الشعراء:٤٩] وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم صناعة السحر ؟ ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب[4] .

وانظر إلى اتهام فرعون اللعين كيف قلب الحقيقة إلى مغالطة تحفظ له ماء وجهه أمام الجمهور ، فهو بمغالطته كأنه يقول : لا تظنوا أن سجود السحرة هذا كان عن

---

(١) تفسير ابن كثير (١٦٦/٣) والآية من سورة طه آية (٦٩) .

(٢) تفسير سورة الأعراف للبهي الخولي ص"١٠٩" .

(٣) وفي سورة الأعراف (وألقى) من آية (١٢٠-١٢٢) .

(٤) تفسير ابن كثير (٣٤٧/٣) .

رؤية حقيقة رأوها من موسى ، إنما سر ذلك هو أنهم جميعا أعدوا مؤامرة في الخفاء هدفها الإطاحة بنظام الحكم ، وهذا يعني إخراجكم من أرضكم أيضا .

فلا تسمعوا له ولا تطيعوه و لا تغتروا بإيمان السحرة ، فهو إيمان لا يعتد به لأنهم آمنوا بموسى قبل أن آذن لهم ، وسيرون عاقبته العادلة على يدي من تقطيع للأيدي والأرجل وتصليب على جذوع النخل . .

قال تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٣-١٢٤] .

فأجاب السحرة على تهديد فرعون بما لم يكن متوقعا لدي فرعون وملئه ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه:٧٢-٧٦] .

﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء:٥٠-٥١] .

وقال أيضا ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٦] .

كان رد السحرة هو الرد الحاسم الذي يصفع كبرياءه ويرد على طغيانه ؛ لأن الله قد أظهر لهم الحق فخالطت بشاشته قلوبهم ، فكان لسان حالهم جميعا يقول ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه:٧٢] فلن نتنازل عن إيماننا ولن نكفر بالله بعد أن عرفنا الحق وهدانا ربنا إليه ، فلن نفضلك ونفضل السلامة منك على ما رأينا من حجة الله وآياته المبينات ، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت(١) .

وما تهددنا به من القتل والصلب فإنما هو عذاب في سبيل الله أولا ، وثانيا فغاية

(١) تفسير ابن كثير (١٦٧/٣) .

ما تملكه منا هي هذه الأجساد تعذبها كيف تشاء ، وأقصى ما تستطيعه هو إزهاق هذه الأرواح فتعجل لقاءها ربها وهو ما تتوق إليه وتتمناه .

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٥١] أي : ونحن نطمع بموقفنا هذا السباق إلى الإيمان والثبات عليه أن يغفر لنا خطايانا وما قارفنا من الذنوب والخطايا ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:٦٥] أي : خير لنا منك وأدوم ثوابا مما كنت وعدتنا ومنيتنا[1] .

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ...﴾ [طه:٧٤] قال ابن كثير : « الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة فرعون يحذرونه من نقمة الله وعذابه السرمدي ، ويرغبونه في ثوابه الأبدي[2] .

وبعد هذا كله يتوجه السحرة إلى الله – تعالى – داعين ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٦] هكذا أفرغه إفراغا بتثبيتك إيانا على الإيمان كما يفرغ الماء من القرب حتى لا يبقى في قلوبنا شيء من خوف غيرك ، ولا من الرجاء فيما سوى فضلك ، وتوفنا إليك حال كوننا مسلمين لك ، مذعنين لأمرك ونهيك ، مستسلمين لقضائك ، غير مفتونين بتهديد فرعون ، وغير مطيعين له في قول ولا فعل[3] .

فما كان من فرعون وقد سمع جوابهم إلا أن ينفذ فيهم ما هددهم به ؛ فقتلهم وصلبهم على النيل . قال ابن عباس رضي الله عنه : « **أصبحوا سحرة ، وأمسوا شهداء** »[4] .

رابعا : فرعون يريد قتل موسى ويصد عن قبول النصيحة .

قامت بطانة السوء تحرض فرعون على موسى وقومه وتقول له ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٧] .

أي : أتدع موسى وقومه آمنين أحرارا لتكون عاقبتهم أن يفسدوا قومك عليك في أرض مصر : إما بإدخالهم في دينهم أو جعلهم تحت سلطانهم ، ويتركك مع آلهتك فيظهر عجزك لرعيتك وعجز آلهتك ، وقد رأيت ما كان من أمر إيمان السحرة – إذ الظاهر من السياق أن هذا القول كان بعد قصة السحرة ، وجمهور المفسرين على أن

---

(١) تفسير ابن كثير (١٦٧/٣) .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) تفسير المنار (٧٧/٩) .

(٤) تفسير ابن جرير الطبري (٣٦/١٣) حيث روى هذا الأثر من ثلاث طرق يقوي بعضها بعضا . وانظر : تفسير ابن كثير (١٦٧/٣) ، الدر المنثور (٢٠٠/٣) .

المراد بتركه وآلهته عدم عبادته وعبادتها قال فرعون ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ [الأعراف:١٢٧] أي : كما كنا نفعل من قبل ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٧] أي : مستعلون بالغلبة والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل ، فلا يستطيعون إفسادا في أرضنا ولا خروجا من حظيرة تعبيدنا إياهم[1] .

والقصد من هذا التحريض كما هو معلوم أن الملأ هم المنتفعون المباشرون من النظام المنغمسون في تلك النعم والخيرات ، فلو آمن الناس ضاعت مكاسبهم وجفت معايشهم وانهار البناء فوق رؤوسهم (بالطبع في زعمهم) .

وتحت هذا الضغط أراد فرعون قتل موسى كما ذكر الله عنه قوله ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر:٢٦] ذكر المفسرون أن فرعون كان إذا هم بقتل موسى كفوه عنه ومنعوه منه ، وقالوا له : ليس هذا بالذي تخافه فإنه أقل من ذلك وأضعف ، وما هو إلا بعض السحرة ؛ فلو قتلته أدخلت الشبهة على الناس ، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة .

والظاهر من دهاء اللعين أنه كان قد استيقن أنه نبي ، وأن ما جاء به آيات باهرة وما هو بسحر ، ولكن كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك .

فكان قوله ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ [غافر:٢٦] تمويها على قومه وإيهاما أنهم هم الكافون له عن قتله ، ولولاهم لقتله ، والحقيقة أنه ما كان يكفه إلا ما في نفسه من الفزع الهائل بدليل أن قوله ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ ليس من ألفاظ الجبابرة الواثقين من أنفسهم المتمكنين من إنفاذ أوامرهم وأيضا دفاع الرجل المؤمن عنه دون أن يمسه بأذى .

﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ [غافر:٢٦] أي : لا أبالي بدعائه ، ثم رجع إلى قومه ينصحهم مظهرا الإشفاق عليهم ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ [غافر:٢٦] فيغير ما أنتم عليه من عبادته وعبادة الأصنام ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر:٢٦] ويقصد بذلك

---

(١) تفسير المنار (٧٩/٩) ؛ تفسير القاسمي (٢٣٤/٧ ، ٢٣٥) ؛ وفي تفسير الثعالبي (٤٥/٢) معناها (أي : في المنزلة والتمكن من الدنيا) وهذا منه تجلد ، وإلا فقد قال فيما أخبر الله عنه ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۝ ﴾ [الشعراء:٥٤-٥٦].

انعدام الأمن الذي تتعطل بسببه المزارع والمكاسب والمعايش ويهلك الناس قتلا وضياعا كأنه قال : إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه ، أو أن يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه[١] .

فلما سمع موسى ذلك استعاذ بالله الذي هو ربه ورب قومه فقال ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر:٢٧] وفي ذلك بعث لقومه على أن يقتدوا به فيعوذوا بالله عياذه ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه من كل متكبر من الجبابرة سواء كان فرعون أو غيره[٢] .

فقام رجل[٣] من قومه يكتم إيمانه وقال ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٨] .

فعندما قال فرعون ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ [غافر:٢٦] أخذت الرجل غضبة لله – عز وجل – ، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر:٢٨] أي : كيف تقتلون رجلا لكونه يقول ربي الله ، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق .

ثم إنه تنزل معهم في المخاطبة قطعا للجاج الجدال فقال : ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٨] وهذا من باب إبعاد التهمة عنه حين قدم الكاذب على

(١) تفسير الكشاف (٤/١٦٠،١٦١) ؛ وانظر : (تفسير أبي السعود) (٧/٢٧٣،٢٧٤) ؛ وتفسير فتح القدير (٤/٤٨٨) .

(٢) تفسير الكشاف (٤/١٦١) .

(٣) قال ابن كثير (٤/٨٤) : المشهود أن هذا الرجل المؤمن كان قبطيا من آل فرعون ، قال السدى : كان ابن عم فرعون ، واختار هذا القول ابن جرير (٢١/٣٧٦) ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيليا ؛ لأن فرعون استمع لكلامه وكف عن قتل موسى ، ولو كان إسرائيليا لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم . وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص:١٤] . انظر : تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٢٦٦) ؛ تفسير ابن كثير (٤/٨٤) وعزاه لابن جرير و لم أجده.

الصادق ، ويعني بقوله : إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ؛ فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ، فإن يك كاذبا فإن الله - سبحانه وتعالى - سيجازيه على كذبه ، وإن يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم من عذاب الدنيا والآخرة - ، فهذا الكلام من الرجل المؤمن كلام منصف في مقاله ؛ غير مشتط فيه ؛ لأنه سلك معهم طريق الإنصاف في القول ومناصحة لهم وجاءهم بما هو أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأقرب في تصديقهم له وقبولهم منه[1] ، وعلى كل فينبغي عليهم أن يتركوا موسى وشأنه ولا يتعرضوا له بسوء يدعو قومه ويرشدهم ما شاء كيف شاء .

وقد جاءت نصيحة هذا الرجل المؤمن موافقة لما قاله نبي الله موسى من قبل لفرعون وقومه في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الدخان:١٧-٢٠] .

الشاهد : أن الرجل المؤمن كرر قولة موسى ، وإن لم تؤمنوا لي فلا تتعرضوا لي ، واتركوني ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا[2] ، والقرآن يفسر بعضه بعضا .

ثم أخذ يحذر قومه في صورة من صور النصح فيقول لهم ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ [غافر:٢٩] .

أي : قال لهم : يا قوم قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والسلطان ، ونفاذ الكلمة ،

---

(١) قال الزمخشري : في عبارة الرجل المؤمن ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر:٢٨] وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه ليسمعوا منه ولا يردوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد ، ولكنه أردفه ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا فضلا أن يتعصب له أو يرمى بالحصا من ورائه ، وتقديم الكاذب على الصادق أيضا من هذا القبيل ، وكذلك ما سيأتي في قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٨] تفسير الكشاف (١٦٣/٤) ؛ وانظر : (تفسير ابن كثير) (٨٤/٤) ، تفسير الرازي (٥٧/٢٧، ٥٨) ؛ تفسير أبي السعود (٢٧٤/٧) ؛ وتفسير القاسمي (٢٣٢/١٤) .

(٢) تفسير ابن كثير (١٥٢/٤) .

والجاه العريض ؛ فراعوا هذه النعمة بشكر الله عليها ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ؛ و كأن قلب هذا الرجل المؤمن بدأ يشعر من أن بأس الله أقرب لأصحاب الملك والسلطان في الأرض ، فهم أحق الناس بأن يحذروه ويتقوه وأن يبيتوا منه على وجل ، فهو يتربص بهم في كل لحظة من لحظات الليل والنهار .

فإن بقيتم على ما أنتم ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ [غافر:٢٩] جاعلا نفسه معهم - لأنه منهم في القرابة ، فكأنه يقول لهم : إن جنودكم وعساكركم لا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أراد إنزال العذاب بنا بسبب كفركم وعنادكم[١] .

فكان رد الطاغية ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٢٩] أي : ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي من الثبات والاستمرار على تكذيب موسى والإيمان بي ، وما أهديكم بهذا الرأي إلا سبيل الصواب والصلاح ، وقد كذب في كل هذا فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء:١٠٢] وقال تعالى ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤] فقوله ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ [غافر:٢٩] كذب فيه وافترى وخان الله - تبارك وتعالى - ورسوله ﷺ ورعيته فغشهم وما نصحهم ، وكذا قوله ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٢٩] وكذب أيضا وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال تعالى : ﴿ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود:٩٧] وقال جلت عظمته ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه:٧٩] وفي الحديث « **ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام** »[٢] .

ومع كل ما سبق من نصائح فلا زال ثمة أمل لرجوع قومه إلى صوابهم ؛ فاستمر في التحذير والنصيحة والوعظ قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ

---

(١) تفسير الكشاف (١٦٤/٤) ؛ تفسير الرازي (٥٩/٢٧) ؛ تفسير ابن كثير (٨٥/٤) ، في ظلال القرآن (٣٠٧٩/٥ ، ٣٠٨٠) .

(٢) انظر : (تفسير ابن كثير) (٨٥/٤) ، والحديث رواه البخاري - كتاب الأحكام باب من استرعى رعية فلم ينصح (٣٣١/٤) برقم [٧١٥٠،٧١٥١] ، مسلم كتاب الإيمان - باب استحقاق الوالي ، الغاش لرعيته النار (١٢٥/١) برقم [١٤٢] .

عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ [غافر:٣٠-٣١] وهنا يتجلى وضوح إيمان الرجل المؤمن أكثر من ذي قبل ، فأنت تراه في هذه الآيات يحذر قومه مصير من سبقهم من الأمم وكيف حل بهم بأس الله ، وما رده عنهم راد ، ولا صده عنهم صاد ؛ بسبب ذنوبهم وتكذيبهم رسله ، وأن سننه في المكذبين واحدة ، وأنه يخاف أن يصيبهم مثل ما أصابهم .

ثم قال لهم ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [غافر:٣٢-٣٣] ثم حذرهم يوم القيامة ، وما ستكون فيه من أهوال يفر منها الناس هاربين من الفزع ينادى بعضهم بعضا[١] .

ثم وبخهم على تكذيبهم برسالة يوسف الذي أتاهم بالمعجزات فشكوا فيها لم يزالوا شاكين كافرين حتى توفي يوسف – عليه السلام – ؛ فقالوا من عند أنفسهم ﴿ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ ﴾ [غافر:٣٤] تكذيبا مسبقا بأي رسول سيأتي من بعده ، وليس معنى ذلك التصديق برسالته وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته[٢].

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر:٣٤-٣٥] .

ثم تراه في الآية الثانية يشتد في مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان . وهم يفعلون هذا في أبشع صورة ، ويندد بالتكبر والتجبر ، وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين[٣] .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤/٨٥) .

(٢) تفسير الكشاف (٤/١٦٦) .

(٣) في ظلال القرآن (٥/٣٠٨١) .

ثم أمام مراوغات فرعون ، واستهتاره ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة بعدما دعا القوم إلى إتباعه في الطريق إلى الله ، وهو طريق الرشاد وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة ، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية وحذرهم عذاب الآخرة ، وبين لهم ما في عقيدة الشرك من زيف وبطلان .

قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر:٣٨-٤٥] .

الآيات تتحدث عن استمرار الرجل المؤمن في وعظه ؛ حيث دعاهم إلى الاقتداء به في الدين والبعد عن ما يسخط الله ويجلب الشقاء في الآخرة ، ثم ذكرهم بأمر لا يعرفه إلا من خالط الإيمان شغاف قلبه ، وهو أن جزاء فعل السيئة له حساب وتقدير لئلا يزيد على استحقاقها ؛ فقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [غافر:٤٠] وأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير ؛ بل بما شاء الله تعالى من الزيادة على ما يستحقه هنا العمل الصالح من الجزاء ؛ لأن هذه الزيادة فضل والله ذو الفضل العظيم[1] .

وأخيرا ترى الرجل المؤمن يكرر نداء قومه لما في ذلك من تنبيه لهم وإيقاظ من غفلتهم لأنهم قومه وعشيرته ، وما هو إلا واحد منهم ويريد لهم الخير ، ويحزنه أن لا يستجيب له أحد ، فسرورهم سروره ، وغمهم غمه ، وهذا يستدعي أن لا يتهموه ، فكرر النصيحة لهم كما كرر إبراهيم – عليه السلام – نصيحة أبيه بقوله (يا أبت) .

وفي نصيحته يدعو قومه إلى النجاة من النار ؛ لأن ما دعوه إليه من الكفر والشرك

---

(١) (تفسير الكشاف) (١٦٨/٤) ؛ (تفسير الرازي) (٧٠/٢٧) .

وسيلة وسبب لدخول النار ، ثم بين لهم الفرق بين الدعوة للنجاة من النار والدعوة للدخول إليها .

فما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وسيلة لدخول الجنة ونجاة من النار ، وأما دعوتهم له فهي دعوة إلى الكفر والشرك وهي وسيلة للدخول إلى النار ، فلا شك أن الذي تدعونني إليه لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وليس له قدر لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ومرجعنا جميعا إلى الله فيجازي كلا بعمله ، فأي عاقل يجوز له عقله الاشتغال بعبادة غير عبادة الله الذي لا بد أن يكون مرجعه إليه ، وأن جزاء المشركين في الآخرة هو دخول النار[1] .

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة ؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملإه بلا تردد ولا تلعثم ، بعد ما كان يكتم إيمانه فلا يبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله . وقد قال كلمته وأراح ضميره، مهددا إياهم بأنهم سيذكرون كلامه هذا في موقف لا تنفع فيه الذكرى ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٤] .

فكما خوفهم خوفوه . فقال : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٤] فيهدي من يستحق الإضلال وله الحكمة البالغة والحجة التامة ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ [غافر:٤٥] فنجاه الله تعالى مع موسى – عليه السلام – ، وأما في الآخرة فبالجنة ، وأما آل فرعون فباللعنة والغرق في الدنيا ثم أشد العذاب في نار جهنم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة ؛ فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار[2] .

خامسا : ما حصل له ولقومه قبل العقوبة الفاصلة

وفيها :

أ – ابتلاء آل فرعون بالشدائد .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٠] .

---

(١) (تفسير ابن عطية) (٤٨/١٣) ؛ (تفسير ابن كثير) (٨٧/٤) ؛ التفسير الكبير (للرازي) (٧١/٢٧).

(٢) انظر : (تفسير ابن عطية) (٥٠/١٣) ؛ تفسير ابن كثير (٨٧/٤ ، ٨٨) ؛ التفسير الكبير (للرازي) (٧١/٢٧) .

ابتلي آل فرعون بالسنين (وهو : القحط والجدب) وخص آل فرعون لأنهم هم المعاندون لموسى – عليه السلام – في الأصل ، ووقوعه على غيرهم بالتبع لهم ؛ لإقرارهم على الظلم فضلا عن متابعتهم له في الكفر والشرك بالله ، وكان حقا عليهم أن لا يقبلوا استعباد فرعون لهم وجعلهم آلة لطغيانه .

وإنما أخذهم الله بالسنين ، ونقص من الثمرات ؛ لعلهم يتعظون بأن ما أصابهم هو بسبب كفرهم وإسنادهم لظلم فرعون ، فما عليهم إلا الإقلاع عن ذلك ويتوبوا ويؤمنوا بما جاء به موسى — عليه السلام — من ربه فيزول عنهم عذاب القحط ، والجدب ، ونقص الثمرات . وحكمة ذلك : أن الناس وقت الشدائد يضرعون إلى الله وترق قلوبهم ، وربما حملهم على الإيمان بالله وترك ما هم فيه من الكفر والظلم والعصيان ، ولكنهم لشدة جهلهم وضلالهم وتبعيتهم رموا شؤم ما أصابهم إلى موسى — عليه السلام – ومن آمن به .

قال تعالى عنهم ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٣١] .

أي : إذا جاءهم الخصب والسعة في الرزق قالوا هذا لنا بما نستحقه ، فإذا أصابهم الجدب والقحط قالوا هذا بشؤم موسى ومن معه ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف:١٣١] أي : ما قدر عليهم فهو كله من عند الله ؛ بسبب ذنوبهم وكفرهم وعصيانهم لا من عند موسى وقومه[١] .

ومع ذلك لم يتعظوا بل زادهم ذلك عتوا ، وعنادا ، وإصرارا على الباطل في قولهم ﴿ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف:١٣٢] أي : يقولون أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها فلن نقبلها منك ولن نؤمن بك ولا بما جئت به[٢] .

---

(١) انظر : تفسير الزمخشري (١٤٤/٢) ؛ تفسير ابن عطية (٤٧/٦) ؛ تفسير ابن كثير (٢٤٩/٢) ؛ تفسير القرطبي (٢٦٤/٧ ، ٢٦٧) ؛ تفسير المنار (٨٧/٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢٥٠/٢) .

وفي هذه الآية بيان لإصرار قوم فرعون على كفرهم حتى بعد إيمان كبار السحرة بعد ما تبين لهم أن ما جاء به موسى حق من عند الله وليس من السحر[١] .

ب – ابتلاء فرعون وقومه بمصائب جديدة .

كان من لطف الله – تعالى – بعباده المؤمنين[٢] ، أنه أنزل على فرعون وقومه عددا من الكوارث والنكبات فشغلوا بها عن تعذيب المؤمنين واضطهادهم حتى إنهم في كل مرة يطلبون من موسى – عليه السلام – أن يسأل الله – تعالى – أن يرفعها عنهم .

وكما رأينا من قبل أن الله – تعالى – ابتلاهم بالسنين ونقص الثمرات إلا أنهم استمروا في طغيانهم وعنادهم وفسادهم ، فابتلاهم الله بما ذكره بعدها في قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٣٣] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أي : المطر[٣] ، حتى خافوا الهلاك فأتوا موسى فقالوا : يا موسى . ادع لنا ربك : أن يكشف عنا المطر إنا نؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم المطر فأنبت الله به حرثهم ، وأخصب به بلادهم ، فقالوا : ما نحب أنا لم نمطر بترك ديننا فلم نؤمن لك ولن نرسل معك بني إسرائيل ! فأرسل عليهم الجراد ، فأسرع في فساد ثمارهم وزروعهم فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك (أن يكشف عنا الجراد فإنا سنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل) فدعا ربه : فكشف عنهم الجراد ، وكان قد بقي من زرعهم ومعاشهم بقاية ، فقالوا : قد

---

(١) تفسير المنار (٨٧/٩) .

(٢) أي موسى ومن آمن به .

(٣) قال الطبري في تفسيره ، بعد عرض أقوال أهل التأويل (٥٢/١٣-٥٣) والصواب في ذلك عندي ما قاله ابن عباس أنه أمر من الله طاف بهم ، وأنه مصدر من قول القائل طاف بهم أمر الله يطوف طوفانا ، وإذا كان ذلك كذلك ، جاز أن يكون الذي طاف بهم المطر الشديد ، وجاز أن يكون المطر الذريع . وفي معنى الطوفان ثلاثة أقوال عند المفسرين : قيل : إنه الماء . روي ذلك عن ابن عباس وإليه ذهب سعيد بن جبير ، وقتادة والضحاك وأبو مالك ، ومقاتل ، واختاره الفراء وابن قتيبة .

والثاني : أنه الموت . روى ذلك عن عائشة – رضي الله عنها – وبه قال مجاهد – وعطاء ، ووهب بن منبه .

والثالث : الطاعون . نقل عن مجاهد ووهب بن منبه – انظر – زاد المسير (١٦٩/٣) .

وقد أثبت المعنى الأول ؛ لكثرة القائلين به ، وإلا فإنه يصدق عليه جميع ذلك . وانظر : (تفسير القرطبي) (٢٦٧/٧) . وقال ابن عطية : « هو عام في كل شيء يطوف إلا أن استعمال العرب له أكثر في الماء والمطر الشديد » .

بقي لنا ما هو كافينا ، فلن نأمن لـك ، ولـن نرسـل معـك بـني إسـرائيل ، فأرسـل الله عليهم القمل[١] وهو الدبى ، فتتبع ما كان تـرك الجـراد ، فجزعـوا وأحسـوا بـالهلاك ، فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا الدبى ، فإنا سـنؤمن لـك ، ونرسـل معـك بني إسرائيل ! فدعا ربه فكشف عنهم الدبى ، فقالوا : ما نحن لك بمؤمنين ولا مرسـلين معك بني إسرائيل ! فأرسل الله عليهم الضفادع ، فملأ بيوتهم منها ، ولقـوا منـها أذى شديدا لم يلقـوا مثلـه فيمـا كـان قبلـه ، إنـها كـانت تثـب في قدورهـم فتفسـد عليـهم طعامهم ، وتطفئ نيرانهم ، قالوا يا موسى : ادع لنا ربك أن يكشف عنـا الضفـادع ، فقد لقينا منها بلاء وأذى لا نؤمن لـك ، ولا نرسـل معـك بـني إسـرائيل ! فأرسـل الله عليهم الدم[٢] ، فجعلوا لا يأكلون إلا الدم ولا يشربون إلا الـدم ، فقـالوا : يـا موسـى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الدم فإنا سنؤمن لك ونرسل معـك بـني إسـرائيل ! فدعـى ربه ، فكشف عنهم الدم ، فقالوا : يا موسى لـن نؤمـن لـك ، ولـن نرسـل معـك بـني إسرائيل ! فكانت آيات مفصلات بعضها أثر بعض ، ليكون لله عليهم حجة ، فأخذهم الله بذنوبهم فأغرقهم في اليم[٣] .

قال تعالى بعد ذكر هذه الشدائد ﴿ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٣٣] أي : مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره ، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم ، أو فصل بـين بعضـها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم ، و ينظر أيستقيمون علـى مـا وعـدوا مـن أنفسـهم أم

(١) ذكر في معناه سبعة أقوال : أحدها : أنه السوس الذي يقع في الحنطة ، روى ذلك ابن عبـاس ، وبـه قال سعيد بن جبير .
الثاني أنه الدبى وهو أولاد الجراد . رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال مجاهد وعطاء وقتادة .
الثالث : أنه دواب سود صغار ، قاله الحسن وسعيد بن جبير .
الرابع : إنه الجعلان . قاله : حبيب بن أبي ثابت .
الخامس : أنه القمل ، ذكره عطاء الخرساني وزيد بن أسلم .
السادس : أنه البراغيث ، حكاه ابن زيد أي (عبدالرحمن بن زيد بن أسلم) .
السابع : أنه الحمنان ، واحدتها حمنانـة وهـو ضـرب مـن القـردان ، قالـه أبـو عبيـد - انظـر : (زاد المسير) (١٦٩/٣) .
وقد جمع النحاس بين ذلك كله فقال : يجوز أن تكون هذه الأشـياء كلـها أرسـلت عليـهم ، وهـي أنها تجتمع في أنها تؤذيهم : معاني القرآن للنحاس (٧٠/٣) ، وانظر : (القرطبي) (٢٧٠/٧) .
(٢) وقيـل : أخذهـم الرعـاف . انظـر : (تفسـير ابـن عطيـة) (٥٢/٦) ؛ انظـر : (تفسـير الكشـاف) (١٤٨/٢) ؛ وانظر : تفسير النسفي المسمى (بمدارك التنزيل وحقائق التأويل) للإمـام أبـي البركـات عبدالله النسفي (٧٢/٢) ؛ زاد المسير (١٦٩/٣) ؛ البحر المحيط (٣٧٣/٤) ومـا ذكرنـاه عاليـه قـال عنه ابن الجوزي : إنه قول الجمهور (١٦٩/٣) .
(٣) انظر تفسير الطبري (٦١/١٣-٦٢) صحيفة علي بن طلحة عن ابن عباس ص"٢٣٣،٢٣٤"

ينكثون إلزاما للحجة عليهم . فما كان منهم إلا أن ترفعوا عن الإيمان بالله تعالى بالرغم من عظم ما رأوا من الآيات الدالة على صدق رسوله ؛ لكنهم كانوا عريقين في الإجرام على الله أولا ثم على عباده[1] .

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٤-١٣٥] .

أي : فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوه ومنتهون إليه في كل مرة مما حصل لهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، أو على ما قال قوم من المفسرين[2] : أنه الطاعون أنزله فيهم فحصد خلقا كثيرا ، فقالوا عند نزول كل نوع أو عند نزول عذاب الطاعون : يا موسى ادع ربك بالذي عهد به إليك أن تدعوه فيستجيب لك الدعاء ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٥] .

أي : فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوه ومنتهون إليه في كل مرة منها إذا هم ينكثون عهدهم ويحنثون في قسمهم[3] .

قال صاحب الظلال : « جمع السياق الآيات كلها ، كأنما جاءتهم مرة واحدة ، وكأنما وقع النكث منهم مرة واحدة . ذلك أن التجارب كلها كانت واحدة ، وكانت نهاياتها واحدة كذلك . وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصص ، يجمع فيها البدايات لتماثلها ، ويجمع فيها النهايات لتماثلها كذلك . ذلك

---

(١) انظر : تفسير الكشاف (١٤٨/٢) ، وقال ابن عطية (٥٢/٦) : المراد أن هذه الأنواع من العذاب لم تجئ جملة ولا متصلة ، إنما جاءت مفرقة بالزمن ، وانظر : تفسير القرطبي (٢٧١/٧) ؛ تفسير زاد المسير (١٧٠/٣) ؛ تفسير الوسيط في تفسير القرآن (٤٠٠/٢) ؛ تفسير البحر المحيط (٣٧٢/٤،٣٧٣) .

(٢) قال صاحب زاد المسير (١٧٠/٣) في معنى قول الله تعالى ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾ [الأعراف:١٣٤] أي : نزل بهم العذاب ، وفي معنى العذاب قولان :

أحدهما : أنه طاعون أهلك منهم سبعين ألفا – قاله ابن عباس وسعيد بن جبير .

الثاني : أنه العذاب الذي سلطه الله عليهم من الجراد والقمل وغير ذلك قاله ابن زيد . أي : (عبدالرحمن ابن زيد) وانظر : (تفسير ابن عطية) (٥٢/٦) .

(٣) تفسير القرطبي (٢٧١/٧) ، تفسير النسفي (٧٣/٢) ، تفسير المنار (٩٥/٩) .

أن القلب المغلق المطموس يتلقى التجارب المتنوعة وكأنها واحدة ، لا يستفيد منها شيئا ، ولا يجد فيها عبرة »[1] فكان لابد من الانتقام منه ومن قومه .

سادسا : إعداد موسى بني إسرائيل للخروج من مصر

كما مر معنا من قبل في أن فرعون وأمام التحريض والتهييج له من الملأ أمر بتقتيل أبناء بني إسرائيل مرة أخرى ، ليجتث عروقهم عن آخرها مع مرور الزمن ، هنا جاء دور موسى كما كان من قبل في التخفيف عن قومه وبث روح الأمل في نفوسهم ؛ لئلا يضعفوا ويخافوا ويرضوا بما هم فيه من المهانة والظلم .

قال تعالى ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ[2] بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨] .

قال لهم موسى ذلك حين قال فرعون : سنقتل أبناءهم فجزعوا وتضجروا فجعل موسى يسكنهم ويسليهم ، ويعدهم النصرة عليهم وأن الله سيورثهم أرضهم وديارهم . ولكن عليهم أن يصبروا فإن العاقبة المحمودة لهم ولا ينال ذلك إلا بالاستعانة بالله والصبر على ما يصيبهم من أذى في سبيل الله[3] ، ولذلك كان الالتزام بهاتين الصفتين الاستعانة بالله والصبر من باب التقوى كما كانت ركيزة هامة للقاعدة الإيمانية التي تبعتها وهي ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨] . إن الأرض ليست ملكا لأحد لا فرعون ولا لغيره مهما بلغ هذا الغير من القوة أو الضعف ، بل هي لله - تعالى - يتصرف فيها كيف يشاء أخذا وعطاء ، ويورثها من يشاء مؤمنا أو كافرا ، ولكن المهم جدا أن العاقبة دائما وأبدا للمتقين ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ

(١) في ظلال القرآن (١٣٥٨/٣) .

(٢) وردت الاستعانة في القرآن الكريم ثلاث مرات - اثنتان منها في حق بني إسرائيل في سورة (البقرة) و (الأعراف) أما ما في سورة (البقرة) في قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥] ، وفي سورة (الأعراف) في قوله تعالى ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨] .
وأما الثالثة فعامة لهم ولغيرهم في سورة (البقرة) أيضا في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣] .

(٣) انظر : (تفسير الكشاف) (١٤٣/٢) ؛ وانظر : (تفسير ابن كثير) (٢٤٩/٢) .

﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[1] [الحج:٤١] .

ومع كل هذا إلا أن بني إسرائيل ردوا عليه قائلين ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف:١٢٩] يعنون : أنهم لم يستفيدوا من إرساله ، فلا فرق بين الحالين ، وما علموا أن استعبادهم من قبل كان احتقارا وامتهانا لهم ، والاستعباد الثاني كان في سبيل الله ، وشتان بين من يعذب ولا يؤجر ومن يعذب ليزداد رفعة ومثوبة عند الله !! .

وهذه الكلمة بحد ذاتها أكبر من أن تقال لموسى الذي يدافع عنهم ويريد خلاصهم دون أجر يطلبه منهم – فكان الأليق بهم رد أمرهم إلى الله وطلب النصرة منه الذي يملك مقاليد الأمور ويعلم خفايا الصدور عز وجل .

إنها كما يقول صاحب الظلال : « كلمات ذات ظل ! وإنها لتشي بما وراءها من تبرم ! أوذينا قبل مجيئك وما تغير شيء بمجيئك وطال هذا الأذى حتى ما تبدوا له نهاية ! »[2] ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩] لكن موسى – عليه السلام – لا تؤثر فيه هذه الكلمات – وهو النبي المؤيد العالم بأنه لابد أن ينقشع هذا الظلام ليتحول إلى صبح يحمده أهل السرى – .

فيمضي يذكرهم بالله ويعلق رجاءهم ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم ويجعلهم خلفاء في الأرض التي وعدهم إياها والتي يمنعكم فرعون من الخروج إليها فينظر سبحانه كيف تعملون . هل ستشكرون النعمة أم تكفرون ، وهل تصلحون في الأرض أم تفسدون ؟ ليجازيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون[3] .

وعلى هذا الخوف من فرعون وملئه لم يؤمن لموسى ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:٨٣] ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾[4] أي : إلا أولاد قومه من الشبان

---

(١) انظر : تفسير سورة (الأعراف) للبهي الخولي ص (١١٥) ؛ في ظلال القرآن (١٣٥٥/٣) .

(٢) في ظلال القرآن (١٣٥٥/٣) .

(٣) تفسير المنار (٨٢/٩) ؛ دعوة الرسل للعدوى ص (١٩٠) وانظر : (تفسير ابن كثير) (٢٤٩/٢) ، وتفسير أبي السعود (٢٦٣/٢) .

(٤) الضمير في (قومه) عائد إلى بني إسرائيل على الصحيح ؛ لأنه يعود إلى أقرب المذكورين ، وهذا قول مجاهد . وضعف القول الآخر القائل بعوده إلى فرعون وذريته ومؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه ، وماشطته وهذا بعيد – انظر : (تفسير أبي السعود) (١٧٠/٤) .

حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون ، ومن ملإه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر ؛ لأنه كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتو ، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفا شديدا[١] .

فقال لهم موسى ﴿ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤] والاعتماد عليه إن كانوا مؤمنين بالله مطيعين له مستسلمين منقادين لأوامره ؛ فكان في هذا رفع لمعنوياتهم واستعداداتهم النفسية لمواجهة المحنة وتحمل الإيذاء في سبيل الله ، وحتى تهذب هذه النفوس من كل حظوظها لتصبح خالصة لله وأهلا للهجرة في سبيله .

فكانت إجابتهم في هذه المرة حاسمة وسريعة على عكس ما اعتدنا عليه من قبل ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [يونس:٨٥] ثم توجهوا لله تعالى يدعونه ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٥] أي : لا تسلطهم علينا فيفتنوننا ، ولا تفتنا بهم فنتولى عن اتباع نبيك أو نضعف فيه فرارا من شدة ظلمهم لنا ، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفرا وعنادا وظلما بظهورهم علينا ، ويظنوا أنهم على الحق وأننا دعاة الباطل ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [يونس:٨٦] أي : نجنا برحمتك وإحسانك من سلطان وتسلط وحكم الكافرين ؛ لأن حكم الكافر لا يطاق[٢] .

وقد دعوا بهذا الدعاء ؛ لأن التوكل على الله أعظم علامات الإيمان ، لا يكمل إلا بالصبر على الشدائد . بل إن الدعاء لا ينافي التوكل على الله ؛ بل هو أدل على الاعتماد على الله ، والمؤمن لا يتمنى البلاء ولكن يثبت عند اللقاء ، ثم إن الدعاء أصلا لا يستجاب إلا مع الطاعة واتخاذ الأسباب قال تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣] وكثيرا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل كقوله ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[٣] [الملك:٢٩] .

---

(١) وممن آمن بموسى كما مر معنا (الرجل المؤمن ، ومن النساء : زوجة فرعون التي قالت ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التحريم:١١] وانظر : (تفسير ابن كثير) (٢/٤٤٣) ؛ تفسير أبي السعود (٤/١٧٠) ؛ وانظر : (في ظلال القرآن) (٣/١٨١٥) ؛ التفسير الميسر (١١/٢٤٤) .

(٢) تفسير المنار (١١/٤٧١) ؛ وانظر تفسير ابن كثير (٢/٤٤٤) .

(٣) والمرجع التفسير المنير (١١/٢٤٦) ، في ظلال القرآن (٣/١٨١٦) .

وأمام هذا البناء الروحي والنفسي ، وأمام الالتزام بهذه المعاني الإيمانية من استجابة لله ورسوله ودعاء وتضرع ، صاحب ذلك البناء الروحي الاتجاه إلى البناء العملي ، فأوحى الله إلى نبيه موسى – عليه السلام – وأخيه هارون ﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٨٧] أي : اتخذا لبني إسرائيل بيوتا[١] ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ [يونس:٨٧] أي : قبل القبلة ، أو مساجد أو يقابل بعضها بعضا يقيموا فيها الصلاة ، فيسهل على موسى إيصال التوجيهات النبوية إليهم ، ويتسنى له أيضا فرزهم وتنظيمهم استعدادا للرحيل من مصر في الوقت المختار ، وكلفهم تطهير بيوتهم وتزكية نفوسهم والاستبشار بنصر الله . وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية ، وهما معا ضروريتان للأفراد والجماعات وبخاصة قبيل المعارك والمشقات[٢] .

قال ابن كثير : وكأن هذا – والله أعلم – لما اشتد بهم بلاء فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴾[٣] [البقرة:١٥٣] وفي الحديث « **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى** »[٤] .

---

(١) تفسير الثعالبي (١٨٩/٢) .

(٢) في ظلال القرآن (١٨١٦/٣) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤٤٤/٢) .

وهذا يذكرنا بما كان عليه المؤمنون في صدر الإسلام حين كان الخائف منهم يصلي خفية ، ويذكرنا أيضا بما حصل للمسلمين في الدول الشيوعية الكافرة الملحدة في الجمهوريات الإسلامية وغيرها . انظر كتاب : (الكيد الأحمر) لـ عبدالرحمن الميداني – الفصل الخامس – نكبات المسلمين على أيدي الشيوعيين ص (٢٥١) ، قال ابن القيم في قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ ﴾ [يونس:٨٧] : « هو من أحسن النظم وأبدعه ، فإنه ثنى أولا إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان ، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء ، وإذا تبوآ البيوت لقومهما فهم لهما تبع . وجمع الضمير فقال ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ ﴾ [يونس:٨٧] لأن إقامتها فرض على الجميع ، ثم وحده في قوله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٨٧] لأن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه ردؤه ووزيره . وكما كان موسى الأصل في الرسالة فهو الأصل في البشارة » .

(٤) رواه أحمد (٣٨٨/١) برقم [٢٣٣٤٧] عن حذيفة ، ورواه أبوداود – كتاب الصلاة – باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل (٧٨/٢) برقم (١٣١٩) ، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٢/٢) برقم [٨٤٩،٨٥٠] ، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٤٥/١) برقم [١١٧١] ، وفي صحيح الجامع الصغير (٢١٥/٤) برقم [٤٥٧٩] ، وانظر : مشكاة المصابيح تحقيق الألباني (٤١٦/١) برقم [١٣٢٠] ، وانظر كلام الشيخ مقبل الوادعي عليه... ، تفسير ابن كثير (١٦٧/١) بتحقيقه ، ط دار الراية .

ثم إن موسى – عليه السلام – بعد أن اتخذ كل هذه الخطوات العظيمة في تربية المؤمنين وفي دعوة فرعون وملإه من قبل ، ولما رأى من إصرار فرعون وقومه على الكفر والضلال والعناد والجحود ، إضافة إلى اغتصاب ممتلكات بني إسرائيل واستعمالها ضدهم توجه هو وأخوه بالدعاء عليهم .

قال تعالى عنه ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[1] [يونس:٨٨] .

قال ابن كثير : هذه الدعوة كانت من موسى – عليه السلام – غضبا لله ولدينه على فرعون وملإه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح – عليه السلام – فقال ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾[2] [نوح:٢٦-٢٧] .

ومعنى الآية :

يخبر الله تعالى عن أن موسى – عليه السلام – قال ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [يونس:٨٨] أي : أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم زينة من حلي ولباس وأثاث ورياش وأموال كثيرة ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾[3] [يونس:٨٨] أي : ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن

---

(١) الطمس : محو الآثار حتى لا يرى أو لا يعرف . والمعنى : حتى يعدموا الانتفاع بها فيذوقوا ذل الحاجة ، سواء بالمحق بالآفات أو الانتقاص من المكاسب والثمرات أو بأي وسيلة تحقق عدم انتفاعهم بها واستعماله في الضلال والإضلال . تفسير المنار (٤٧٣/١١) ؛ وانظر : (المفردات للراغب الأصفهاني) ص (٣١٦) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤٤٥/٢) والآيات من سورة نوح من آية (٢٦ ، ٢٧) .

(٣) اللام في (ليضلوا) لام العاقبة أو الصيرورة كقوله تعالى ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص:٨] فكانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال ، ويحتمل أن تكون لام التعليل ، لكن بحسب ظاهر الأمر لا في الحقيقة نفسها ، بمعنى أنه تعالى لما أعطاهم هذه الأموال ، وصارت سببا لمزيد البغي والكفر أشبهت هذه الحالة حالة من أعطي المال لأجل الإضلال ، فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لأجل هذا المعنى . التفسير المنير (٢٥٢/١١) ، وانظر : (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) ، ابن القيم (٩٠/٢، ٩١) ط مكتبة السوادي للتوزيع .

من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [يونس:٨٨] .

أي : امحق وأزل آثارها وأهلها ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [يونس:٨٨] أي : اطبع عليها وقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان فيستحقوا شديد العقاب وأليمه[١] .

قال ابن القيم : وهذا الشد وهذه التقسية من كمال عدل الرب – سبحانه وتعالى – في أعدائه ، فإنه جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم كعقوبته لهم بالمصائب ولهذا كان محمودا ، فهو حسن منه ، وأقبح شيء منهم ، فإنه عدل منه وحكمة ، وهو ظلم منهم وسفه . فالقضاء والقدر فعل عادل حكيم غني عليم يضع الخير والشر في أليق المواضع لهما[٢] .

قال الله تعالى ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ﴾[٣] [يونس:٨٩] أي : استجبنا دعاءكما وقبلناه كما سألتما من تدمير فرعون وملإه ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾ أي : كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري وعلى ما أنتما عليه من الدعوة إلى الحق ، وإلزام الحجة ، ومن إعداد بني إسرائيل للخروج بهم من مصر ، لا تستعجلا الأمر قبل أوانه فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٨٩] أي : طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعدي فإني منجزه لرسلي[٤] .

---

(١) انظر : (زاد المسير) (٤/٤٩) ، تفسير القرطبي (٨/٣٧٤) ، تفسير أبي حيان (٥/١٨٦) ، تفسير القاسمي (٩/٧٣) .

(٢) شفاء العليل لابن القيم (١/٢٥٢ ، ٢٥٣) .

(٣) حيث كان موسى يدعو وهارون يؤمن على دعائه – ويجوز أنهما كان يدعوان جميعا – انظر : (تفسير الكشاف) (٢/٣٦٦) ؛ تفسير ابن كثير (٢/٤٤٥) .

(٤) تفسير ابن كثير (٢/٤٤٥) ؛ تفسير الكشاف (٢/٣٦٦) ؛ تفسير ابن عطية (٧/٢٠٤ ، ٢٠٨) ؛ تفسير المنار (١١/٤٧٣ ، ٤٧٤) ؛ التفسير المنير (١١/٢٥٢) .

نوع العقوبة

الإغراق :

بدأت مرحلة هذا المشهد بوحي من العليم لنبيه موسى – عليه السلام – بعد استجابة الله – تعالى – لدعائه هو وأخوه أن يطمس الله على أموالهم ، ويشدد على قلوبهم ؛ بأن يخرج ببني إسرائيل ليلا من مصر دون أن يعلم أحد من الأقباط بذلك وأن يمضي بهم حيث يؤمر ، وليعلم بأن فرعون سيتبعه بجنوده ليقضي الله فيه أمره كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء:٥٢] ونص على أن السري يكون ليلا في آية أخرى بقوله ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الدخان:٢٣] وكان السرى أول الليل ، وذلك ليتمادوا ، ويتمهلوا في ذهابهم ، ثم علل ذلك الاختيار بقوله ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ – فوقع كما أخبر ، فإنهم لما أصبحوا إذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى(١) .

فعندما بلغ فرعون خبر خروجهم غاظه ذلك وظن أنهم خرجوا ليجمعوا شملهم ويستكملوا قوتهم فيعودوا إلى مهاجمته ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الشعراء:٥٣] أي : سريعا في المدائن من يجمع لهم الجند الكثيف ، والجيش الكثير ليردهم إلى العبودية وقال : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الشعراء:٥٤-٥٦] وانظر إلى كلمة ﴿ حَٰشِرِينَ ﴾ في أنها توحي بإكراه فرعون المحشورين على مشاركته فيما يريد فعله ؛ لأنهم كانوا يجمعونهم بعنف(٢) .

فلما تكامل جمعهم قال لهم ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أراد عدو الله بالقلة الذلة ، لا قلة العدد . فهم لقلتهم أمام كثرتهم لا يبالي بهم ولا تتوقع غلبتهم(٣) ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ [الشعراء:٥٥] أي : بما فجعونا به من أنفسهم وما استعاروه من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٤٦٦) ، ولا توجد رواية ثابتة تحصي عددهم ، إلا أنه من المؤكد أنهم أقل من عدد جنود فرعون .

(٢) تفسير النسفي (٣/١٨٤) ، وانظر : نظم الدرر (١٤/٣٨ ، ٣٩) .

(٣) نفس المصدر (٣/١٨٥) وانظر التفسير الواضح (٢/٤٧) .

الزينة من أواني الذهب والفضة وفاخر الكسوة فلا رحمة في قلوبكم تحميهم[1] ، وهذا أسلوب تحريض قصد به إيغار صدورهم على موسى وقومه ، ثم أضاف بكبر وغرور وشموخ أنف ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ [الشعراء:٥٦] أي : يقظون مجددون حذرنا باستمرار ؛ فنحن لا نزال على أهبة القتال ، ولا نسمح أن نؤخذ على غرة - وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به العجز والفتور[2] .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾[3] [الشعراء:٦٠] أي : فلحق فرعون وجنوده ببني إسرائيل وقت شروق الشمس من صبيحة الليلة التي سار فيها بنو إسرائيل - وهذا من تقدير العزيز العليم الذي أخرجهم جميعا في ليلة واحدة ، فكان ذلك من الخارق للعادة الذي يعجز الملوك مثله ؛ فياله من حشر ما أسرعه ! وجهاز ما أوسعه ! واستمروا إلى أن لحقوهم عند البحر الأحمر قريبا من خليج السويس[4] .

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء:٦١] أي : تقاربا بحيث يرى كل واحد منهما الآخر ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أي : هالكون على أيديهم وواقعون في قبضتهم فكيف النجاة[5] ؟ ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢] أي : ارتدعوا عن سوء الظن بالله ، فلن يدركوكم ؛ لأن الله وعدكم الخلاص منهم ، وإن ربي سيهديني إلى طريق النجاة منهم .

---

(١) تفسير نظم الدرر (٣٩/١٤) .

(٢) انظر : (تفسير النسفي) (١٨٥/٣) ؛ نظم الدرر (٤٠/١٤) .

(٣) يقال : تبعت القوم فأتبعهم أي : تلوتهم فلحقتهم ، كأن المعنى : فجعلتهم تابعين لي بعدما كنت تابعا لهم . تفسير الألوسي (٨٤/١٩) ؛ وانظر : معجم مقاييس اللغة (٣٦٢/١) ؛ المعجم الوسيط (٨١/١) - د/ إبراهم أنيس وآخرون ، ط المكتبة الإسلامية - إستانبول - تركيا .
مشرقين : قال أبو عبيد : هو من أشرق إذا توجه نحو الشروق كأنجد توجه نحو نجد ، وأعرق توجه نحو العراق والجمهور على الأول - تفسير الألوسي (٨٤/١٩) ، وانظره في تفسير الرازي (١٣٨/٢٤) .

(٤) وهو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات - انظر : (في ظلال القرآن) (٢٥٩٧/٥) وقيل : النيل انظر : تفسير النسفي (١٨٥/٣) وخطأ أبو حيان هذا القول وقال : وأخطأ من قال : إنه نيل مصر . انظره في تفسيره : (البحر المحيط) (٣٧٦/٤) .

(٥) انظر : تفسير الألوسي (٨٤/١٩) وهذا في نظري أي قول بني إسرائيل ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء:٦١] ضعف يقين منهم وإلا فقد شاهدوا بأم أعينهم آيات عظام قبلها - وكان الأولى أن لا يتزعزع الإيمان في هذا الموطن بل يزيد ارتباطهم ، ودعاءهم لله أكثر مما سبق .
ولذا رد عليهم موسى - عليه السلام - ردا شديدا بقوله : كلا أي : ارتدعوا عن هذا القول ولا تعيدوه .

وهنا نلحظ في قوله ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢] ملحظا أنه لم يقل : معي ومعكم ؛ لأنهم بقولهم السالف لم يكونوا أهلا للمعية[١] ، وهذا هو التوكل بعينه الذي يحصل به المطلوب ويندفع المكروه[٢] ، قال تعالى :﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣] وعند ابن أبي شيبة التوكل على الله جماع الإيمان[٣] وفي لفظ جميع الإيمان[٤] .

قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ[٥] فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء:٦٣] .

أي : ولما وصل موسى وقومه إلى ساحل البحر ومن ورائهم فرعون وجنوده أوحى الله – تعالى – إلى موسى ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ ﴾ [الشعراء:٦٣] فانفلق فكان كل فرق منه كالجبل الكبير .

وهنا تتدخل العناية الإلهية في اللحظة الحاسمة وفي وقت الخوف والهلع وقت اليأس لتنجي عباد الله ، وتهلك أعداءه ؛ قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف:١١٠] ، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء:٦٣] أي : كالجبل العظيم البالغ الشموخ في عنان السماء ، ويخبرنا الله في آية أخرى أن أرضية البحر يبست تماما لتصبح صالحة للمسير قال تعالى ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه:٧٧] وإنما فعل الله ذلك ليطمئن بنو إسرائيل لهذه الطرق ، فلا يتعلق بقلوبهم خوف منها ، وليغري بذلك فرعون وجنوده بملاحقتهم لما أراد الله بهم من عقوبة ، ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الشعراء:٦٤] أي : قربنا من البحر فرعون وجنوده ، وأدنيناهم إليه فدخلوا فيه على أثر بني إسرائيل[٦] .

---

(١) تفسير الألوسي (١٩/٨٥) .

(٢) انظر : مدارج السالكين (٢/١٢٦) .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ، أبوبكر عبدالله بن محمد (٦/٧٦) برقم (٢٩٥٨٩) و (٧/٢٠٢) برقم (٣٥٣٤٢) ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ، وانظر : شعب الإيمان (٢/١١١) برقم (١٣٢٤) .

(٤) كتاب الدعاء للضبي (أبي عبدالرحمن محمد بن الفضيل (١/٢٣٠) برقم (٥٩) ، الطبعة الأولى ، بتحقيق : د/ عبدالعزيز البعيمي .

(٥) قال صاحب اللسان : « والفرق من الشيء إذا انفلق منه ، ومنه قوله تعالى ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء:٦٣] ، أراد : فانفرق البحر فصار كالجبال العظام وصاروا في قراره (١٠/٢٤٤) » .

وقال الراغب : الفرق : يشبه الفلق ، لكن الفلق يقال باعتبار الانشقاق ، والفرق باعتبار الانفصال ص (٣٩١) .

(٦) وفي تفرق الماء وذهابه معجزة عظيمة حصلت أمام فرعون وجنوده ، وكانت كفيلة أيضا برد فرعون وجنوده عن طغيانهم ، ومع ذلك لم يستفيدوا منها ؛ لأن الله طمس بصائرهم وأغلق قلوبهم عن قبول الحق .

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء:٦٥] بأن خرجوا من الشط الثاني سالمين ، وأوحى الله إلى موسى بـ ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ [الدخان:٢٤] أي : ساكنا حتى يدخل فيه فرعون وقومه ، فلما انتهى إليه فرعون رأى ما رأى هاله هذا المنظر العظيم وتحقق له ، وما كان يتحققه قبل ، وعرف أن هذا من عند الله حقا ، وندم حيث لا ينفع الندم ، ولكن ماذا يفعل الآن ، ، فأظهر لجنده تجلدا وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه : انظروا كيف انحسر البحر لي ؛ لأدرك عبيدي الآبقين من يدي الخارجين عن طاعتي وبلدي ، وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيهات ويقدم تارة ويحجم تارات[1] قال تعالى ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ [يونس:٩٠] .

ثم إنه عزم على اللحوق بموسى وقومه ؛ فنزلوا البحر حتى إذا تم نزولهم جاء أمر الله ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه:٧٨] وانطبق البحر عليهم وداهمتهم أمواجه وأيقنوا الهلاك ؛ صاح فرعون يلتمس النجاة من شدة الهول الذي أحاط به كما اعتاد من قبل عند نزول الآيات[2] ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[3] [يونس:٩٠] فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ؛ لأنه إيمان وقت مشاهدة العذاب ؛ لأن من سنن الله – تعالى – الجارية في البشر أن التوبة لا تقبل وقت نزول العذاب .

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر:٨٤-٨٥] .

ولهذا قال الله لفرعون حين قال ما قال ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ [يونس:٩١] أي : أتؤمن الآن وفي وقت لا ينفع فيه الإيمان ، وقد عصيت الله كثيرا ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٩١] في الأرض الضالين المضلين عن الإيمان[4] .

---

(١) انظر : (البداية والنهاية) (٢٧٢/١) .

(٢) انظر : (تفسير المنار) (٤٧٦/١١) .

(٣) في الآية دلالة على أن البحر لم ينطبق عليه دفعة واحدة – تفسير المنار (٥/١١) .

(٤) انظر : (تفسير الزمخشري) (٣٦٨/٢،٣٦٩) ؛ تفسير ابن كثير (٤٤٥/٢،٤٤٦) ؛ تفسير المنار (٤٧٥/١١ ، ٤٧٦) ؛ تفسير القاسمي (٧٤/٩ ، ٧٥) ؛ والتفسير الواضح (٧٢/٢) .

ثم بين تعالى صنعه بفرعون من بين سائر الغارقين من قومه ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾[١] [يونس:٩٢] أي : نلقي بك بعدوة من الأرض بدنا لا روحا ؛ ليعلم من عبدوك ومن رفعوك عن قدرك ومن أضللتهم ضعفك وحقارتك ، أو ليعلم من رآك أنك أنت بعينك فلا يشك فيما نزل بك .

وفي التعبير عن إخراجه من القعر إلى الشاطئ بالتنجية التي هي الخلاص من المكروه تهكم واستهزاء ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس:٩٢] من الأمم الكافرة عبرة من التمرد والطغيان على أوامر الله تعالى ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس:٩٢] أي : معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها[٢] .

وهكذا كانت عاقبة الظلم والإفساد في الأرض دمرها الله ، ودمر أصحابها معها ؛ لما يريد الله – تعالى – من تمكين عباده في الأرض قال تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٧] أي : وأورثنا بني إسرائيل (قوم موسى) الذين كانوا يعانون من ظلم فرعون ﴿ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف:١٣٧] وهي الأرض المباركة في بلاد الشام وليست مصر ؛ لأنهم لم يرجعوا إليها بعد خروجهم منها ، وموسى بين أظهرهم[٣] ، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف:١٣٧] إما بالنصر والتمكين في الأرض وهي قوله تعالى ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝ ﴾ [القصص:٥-٦]

(١) قيل : (بدرعك المعروفة المصنوعة من الذهب) انظر : تفسير النسفي (٢/١٧٥) ؛ وانظر : (تفسير البغوي) (٤/١٤٩) .

(٢)انظر : (تفسير الزمخشري) (٢/٣٦٨ ، ٣٦٩) ؛ تفسير ابن كثير (٢/٤٤٥،٤٤٦) ؛ تفسير المنار (١١/٤٧٥،٤٧٦) ؛ تفسير القاسمي (٩/٧٤،٧٥) ؛ والتفسير الواضح (٢/٧٢) .

(٣) يؤيد ذلك ما ذهب إليه صاحب الظلال حيث قال : « ولا يعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة ، وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه . لذلك يقول المفسرون : إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه ، فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم» (٥/٢٥٩٨ ، ٣٢١٤) .

﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف:١٣٧] أي : إنما حصل لهم ذلك التمام وهو ما أنعم الله — تعالى — به عليهم من إنجاز وعده لهم بسبب صبرهم على دين الله وأذى فرعون[1] ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٧] من العمارات والبنيان والمزارع وبما فصله في قوله ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩] وفي قوله ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ۝ ﴾ [الدخان:٢٥-٢٩] أي : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم ، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم[2] ، وهكذا هلك الطغاة ولم يكن لهم في ميزان الله من شيء ، ولم يبال الله بهم حيث هلكوا فقد كانوا أحقر وأذل على الله – تعالى – من أن يذكر اسمهم في القرآن إلا للعبرة والعظة ، وانظر إلى قوله تعالى ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص:٤٠] أي : أغرقناهم في صبيحة يوم واحد فلم يبق منهم أحد . وتعبير القرآن الكريم بـ ﴿ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ من الكلام المفخم الذي يدل على عظمة الله — تعالى — وكبرياء سلطانه ، فقد شبههم استحقارا لهم واستقلالا بعددهم وإن كانوا كثيرين بحصيات أخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر[3] ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ۝ ﴾ [الزخرف:٥٥-٥٦] .

---

(١) تفسير الخازن (٢/٢٤٣) ، تفسير ابن كثير (٢/٢٥٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/١٥٣) .

(٣) تفسير الكشاف (٣/٤١٥) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة من عرض قصة موسى وعقوبات فرعون وقومه

أولا : الحاكم الظالم يخاف دائما من ثورة شعبه ، فتراه كثيرا ما يتحسس الأخبار عنهم ، ويرسل العيون عليهم ، ويصدق بالكذبة ويأخذ بالظنة ، ويقتل بأتفه سبب .

وهذا ما رأيناه من خلال عرض قصة موسى حين ولادته ؛ فقد ولد في وقت كان الظالم فرعون يقتل فيه الأبناء ، ويستحيي فيه النساء يقتل الأبناء بدون ذنب؛ لخوفه كما زعم من أنه سيولد في بني إسرائيل من يقضي عليه ويأخذ ملكه .

بينما الحاكم العادل لا يخاف إلا من الله ولا يسير إلا على منهج الله ويحكم بكتاب الله ، ويتبع سنة رسول الله ؛ ليكون محبوبا من الله ، ثم من الملائكة ومن الناس.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **إذا أحب الله العبد نادى جبريل : إن الله يحب فلانا فأحببه ، فيحبه جبريل ، فينادى جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض** »[1] .

ثانيا : من لطف الله – تعالى – بأم موسى أن ألهمها بما سلم به ابنها من القتل وبما بشرها به من رده إليها ؛ بأن كانت ترضعه وتأخذ عليه أجرا ؛ تحقيقا لوعد الله ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧] وبذلك وبغيره يعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول ، ولا تعبر عنها العبارات ، فكم من أمر كرهه الإنسان وكان قضاء الله فيه خيرا له قال تعالى ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦] فعلى الدعاة إلى الله – تعالى – استغلال مثل هذه المواقف لتذكير الناس بأن الفرج بعد الشدة سيأتي سريعا ؛ كما حصل لأم موسى ، أو بعد حين ، فعلى المسلم أن يكثر من التضرع والتوسل والدعاء فيما يحل به من بؤس ، أو ضرر

---

(١) رواه البخاري – كتاب بدء الخلق – باب ذكر الملائكة (٤٢٤/٢) برقم [٣٢٠٩] .
ورواه مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب إذا أحب الله عبدا (٢٣٠/٤) برقم[٢٦٣٧]
وزاد « **وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلانا فأبغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادى في أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض** » .

أو مرض إلى الله ، ولا يستعجل الإجابة فإن الله لا مكره له[١] ، وأنه إذا أراد شيئا هيأ أسبابه بالتدريج لا دفعة واحدة[٢] .

ثالثا : أن ما حصل للأمم السابقين إنما يستفيد منها ويستنير بها المؤمنون ، وما ذكر من القصص في القرآن هدفه العبرة والعظة لمن كان له قلب كما قال تعالى ﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [القصص:٣] .

رابعا : أن الأمة المستضعفة مهما بلغت في الضعف لا ينبغي أن يستولي عليها الكسل عن السعي في حقوقها ولا اليأس من الارتقاء إلى معالي الأمور خصوصا إذا كانوا مظلومين ، كما علمنا من إنقاذ الله لبني إسرائيل على ضعفها ، واستعبادها لفرعون وملئه منهم ، ومكنهم في الأرض وملكهم بلادهم وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين[٣] فعلى الأمم والجماعات المطالبة بحقوقها السعي لإيجاد السبل لتخليصها من القهر والظلم وإذا علم الله صدق توجههم هداهم سبله قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

خامسا : من أعظم نعم الله على العبد تثبيت الله للعبد المؤمن وقت المخاوف والكروب ، ولولا ذلك لضاع فكره وذهل عقله .

هذه أم موسى كاد قلبها أن يطير وقاربت أن تظهر أمره لولا أن الله ثبتها وصبرها وملأ قلبها بالإيمان والاطمئنان والسكينة .

وقد أخذ العلماء من ذلك (أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله كما جرى لأم موسى ولموسى نفسه حين أخرج)[٤] .

سادسا : الأخذ بالأسباب في فعل الخير مطلب شرعي ؛ لأنها من قدر الله ، فعلى

---

(١) لحديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : دعوت فلم يستجب لي** » انظر : فتح الباري – كتاب الدعوات – باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (١١/١٦٩) برقم [٦٣٤٠] ورواه مسلم – كتاب الذكر – باب بيان أنه استجاب للداعي (٤/٢٠٩٥) برقم [٢٧٣٥] .

(٢) انظر : (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن) ص"١٧٩" .

(٣) انظر المصدر نفسه ص (١٧٩) .

(٤) انظر : (التفسير المنير) (٢٠/٦٩) ؛ تيسير الكريم الرحمن ص"١٧٩" .

المسلم أن لا يهمل فعل ذلك ويركن إلى التواكل بزعم أنه يفعل التوكل[1] ، فهذه أم موسى أرسلت ابنتها لتقص خبر أخيها ، فكان فعلها سببا لرده إلى أمه ﴿ فَرَدَدْنَهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [القصص:١٣] .

سابعا : أن أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع جائز شرعا كما فعلت أم موسى ؛ لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما ينسخه[2] .

ثامنا : القتل الخطأ ذنب ، بدليل وجوب الكفارة ؛ لما فيه من الإهمال أو التقصير أو لتجاوزه الحدود المألوفة . قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ ﴾ [النساء:٩٢] فهذا موسى صلى الله عليه وسلم — خاف من ذنبه هذا ، وطلب من الله تعالى المغفرة والصفح فغفر له . ومن ذلك نأخذ أن قتل الكافر المعاهد بعقد أو عرف لا يجوز .

ومن قتل نفسا بغير حق فإنه يعد من المفسدين الجبارين ، وإن زعم أنه مصلح حتى يرد الشرع بما يبيح قتل تلك النفس[3] .

تاسعا : أن في دخول المعارك دون استعداد معنوي ومادي عصيانا لأمر الله القائل ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال:٦٠] فمع الإيمان لابد من قوة تدمر الشر وأهله وتنصر الحق وحزبه ، فهذا الذي سبب لموسى عليه السلام – المتاعب باسم بني إسرائيل ، قد دخل المعركة دون ظهر يحميه مثيرا للفتنة بكثرة اشتباكاته التي لا تثمر بل تجر المشاكل الكثيرة على قومه ، وهم في غنى عنها بما يصيبهم من ويلات الاستعباد والإهانة الجماعية .

عاشرا : احتج أهل العلم بقوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص:١٧] منع خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيء

---

(١) الفرق بين التوكل والتواكل : التوكل : يقال : توكل بالأمر ، إذا ضمن القيام به . ووكلت أمري إلى فلان أي : ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه – التواكل : يقال استعنت القوم فتواكلوا . أي : وكلني بعضهم إلى بعض – ويقال : رجل وكلة إذا كثر من الاتكال على غيره – النهاية في غريب الحديث والأثر – لابن الأثير (٥/٢٢١ ، ٢٢٢) .

(٢) تسير اللطيف المنان ص (١٧٩ ، ١٨٠) .

(٣) انظر تيسير اللطيف المنان ص"١٨٠" .

من أمرهم ، نص عليه عطاء بن أبي رباح[1] بقوله (فلا يحل لأحد أن يعين ظالما ولا يكتب له ولا يصحبه ، وأنه إن فعل شيئا من ذلك فقد صار معينا للظالمين) وفي الحديث « **من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة يوم تزل الأقدام ، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزل الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام** »[2] .

وفي الحديث أيضا « **من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام** »[3] .

والمقصود أن إعانة الظالم على الظلم ظلم ، والواقع أن المسلمين عموما إلا القليل منهم يغفلون عن حرمة وخطورة معونة الحاكم الظالم ، ومن هنا كان من أولويات واجبات الداعي المسلم - تبصير الأمة بحرمة وخطورة معونة الحاكم الظالم ؛ لأنه

---

(١) عطاء بن أبي رباح : هو الإمام أبو محمد : عطاء بن أبي رباح : أسلم ، وقيل : سالم بن صفوان المكي ، كان من أجلاء فقهاء التابعين بمكة ، أخذ العلم عن ابن عباس وجابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، وإليه وإلى مجاهد انتهت الفتوى بمكة في زمانهما ، وكان يصيح الصائح في الحج (لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح ، توفي رحمه الله سنة (١١٥) من الهجرة ، وقيل بغيرها - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - لأبي العباس : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٢٦١/٣-٢٦٢) ؛ سير أعلام النبلاء (٧٨/٥ : ٨٨) .

(٢) تفسير القرطبي (٢٦٣/١٣) ، حلية الأولياء (٣٤٨/٦) .
وهو في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - لعلاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندي البرهان فوري (٨٣/٣) برقم [٥٦٠٤] مؤسسة الرسالة .

(٣) التاريخ الكبير لأبي عبدالله : محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٠/٤) برقم [٢٦٩٣] مؤسسة الكتب الثقافية (٢٥٠/٤) ، وقال الهيثمي : روا ه الطبراني في الكبير ، وفيه : عياش بن مؤنس و لم أجد من ترجمه وبقية رجاله وثقوا (٢٠٥/٤) وسنده عنده : حدثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن زبريق الحمصي حدثني أبي ثنا عمرو بن الحارث عن عبدالله بن سالم عن الزبيدي حدثنا عياش بن مؤنس أن أبا الحسن : نمران بن محمد حدثه أن أوس بن شرحبيل حدثه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم به . والآحاد والمثاني (٢٤٩/٤) ، (٢٩٥/٥) ؛ الإصابة في تمييز الصحابة (١٥٥/١) إلا أنه قال : فقد خرج من الإيمان ؛ وتعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة - ابن حجر (١٧٦/١) ؛ انظر : (مسند الشهاب) لأبي عبدالله : محمد بن سلامة القضاعي عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **من مشى مع ظالم فقد أجرم يقول الله تعالى** ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة:٢٢] » (٢٤٣/١) ، ورواه الطبراني في الكبير (١١٢/٢٠) ؛ ورواه البيهقي في شعب الإيمان (١٢٢/٦) ؛ ومعجم الصحابة لأبي الحسين : عبدالباقي بن قانع (٣٤/١) ط مكتبة الغرباء الأثرية ، وفي مسند الشاميين (للطبراني) (٢٧٦/٢) برقم [١٣٣٣] ط مؤسسة الرسالة .

ما كان ليستمر في ظلمه وبغيه لولا معونة أعوانه ، ثم إن كثيرا من المسلمين لا يرون بأسا ولا تناقضا بين معونة الحاكم الظالم ، وبين الالتزام المطلوب بأحكام الإسلام ، وبهذا تراهم يصلون ويصومون بل يبنون المساجد وهم من أكثر الناس عونا للحاكم الظالم ، وتنفيذا لأوامره الجائرة في حق الإسلام ودعاته .

لذا ينبغي لدعاة الإسلام تبصير الأمة بما ورد في النهي عن معونة الظالم ، وذكر الآيات الدالة على عدم الركون إليهم ومعاونتهم ، ويستدل بمثل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود:١١٣] .

وقد جاء في تفسيرها : الركون : هو الميل اليسير إلى الشيء ، والنهي متناول للانحطاط في هوى الذين ظلموا ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ، ومجالستهم وزيارتهم ، ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم والتزي بزيهم ، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم[١] .

فإذا كان هذا داخلا في معنى الركون إلى الذين ظلموا المنهي عنه والمترتب عليه دخول النار فكيف بمن يعينهم فعلا على ظلمهم وينفذ أوامرهم الظالمة .

إن من يفعل ذلك يكون ظالما مثلهم ، وانظر إلى قول الله تعالى ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص:٨] فقد وصفهم الله جميعا بالخطيئة ، ومن خطيئتهم الظلم الذي كانوا يرتكبون في حق بني إسرائيل جميعا ، ويدل على ذلك أيضا : اشتراكهم جميعا في العذاب بما وقع عليهم من غضب الجبار – عز وجل – في أخذهم بالإغراق جميعا في البحر في الدنيا ، واستحقاقهم العذاب في عالم البرزخ إلى يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر:٤٦] .

وأما في الآخرة فاسمع ما قال الله عنه وعنهم ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود:٩٧-٩٨] إنهم يعذبون جميعا في نار جهنم أشد العذاب وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦] فعلى من ابتلى بمثل هذا أن ينصح لهم ولا يتركهم ويتعلل ويتأول الأمور فيفتي نفسه ؛ لأن العقاب من الله يعم الجميع ، نعوذ بالله من ذلك! .

---

(١) انظر تفسير الكشاف (٢/٤٣٣) .

عن أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — قال : يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة:١٠٥] وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **إن الناس إذا رأوا ظالما فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه** »[١] .

ثم إنه ينبغي للدعاة إلى الله – تعالى – التركيز على تقبيح الظلم . وأهله في عيون الناس ؛ لئلا يغتروا بمعاونتهم أو حتى الدعاء لهم بطول البقاء أو بطول العمر ، ورد ذلك عن سفيان الثوري[٢] والحسن البصري[٣] — رحمهما الله تعال — حيث قالا : « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه »[٤] ومن الواضح أن معونة الحاكم الظالم أشد عصيانا لله — تعالى – من مجرد الدعاء ، فإذا نهى المسلم عن مجرد الدعاء للظالم فنهيه عن معونته أولى[٥] ، وعند الزمخشري أن سفيان الثوري سئل عن ظالم أشرف على الهلاك في برية ، هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا ، قيل له : يموت ؟ فقال : دعه يموت[٦] . فإذا كان هذا في الظالم فالنهي عن معونة الحاكم الظالم لا شك أنها من باب أولى .

---

(١) رواه أحمد (١/٥ ، ٧ ، ٩) برقم (١٦ ، ٣٠ ، ٥٣) .
رواه أبوداود – كتاب الملاحم – باب الأمر والنهي – (٤/٥٠٩ ، ٥١٠) برقم (٤٣٣٨) ورواه الترمذي وصححه – كتاب الفتن – ٨ – ماجاء في نزول العذاب إذا لم ينكر – (٤/٤٦٧) برقم (٢١٦٨ ، ٣٠٥٧) ، ورواه ابن ماجة – كتاب الفتن – باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢/١٣٢٧) برقم (٤٠٠٥) ، ورواه ابن حبان في موارد الظمآن – كتاب الفتن – باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢/٨٢٣) برقم (١٨٣٧) ط مؤسسة الرسالة ، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (١٦٥٤) .

(٢) سفيان الثوري : شيخ الإسلام ، إمام حافظ مجتهد ولد سنة (٩٧) هـ ، ومات سنة ١٦١ هـ انظر : (سير أعلام النبلاء) (٧/٢٢٩ ، ٢٧٩) ؛ وفيات الأعيان (٢/٣٨٦ ، ٣٩٠) .

(٣) الحسن البصري (أبوسعيد : الحسن بن أبي محمد يسار البصري مولى الأنصار ، وأمه (خيرة) مولاة أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها من سبي ميسان ، وهي بين البصرة وواسط - سكن المدينة ، وأعتق وتزوج بها في خلافة عمر ، فولد له الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه ، وتوفي سنة (١١٠) هـ وعمره (٨٨) سنة رحمه الله . انظر : (سير أعلام النبلاء) (٤/٥٦٣-٥٨٨) ؛ تهذيب التهذيب (٢/٢٣١ : ٢٣٦) .

(٤) انظر : (شعب الإيمان) (٧/٥٤) ؛ حلية الأولياء (٧/٤٦) ؛ وذكره الزمخشري في الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢/٤٣٣) .

(٥) تفسير الكشاف (٢/٤٣٣ ، ٤٣٤) ولولا خشية الإطالة لأكثرت من ضرب الأمثلة من الواقع .

(٦) نفس المصدر (١/٣٤) .

الحادي عشر : أنه إذا خاف التلف بالقتل بغير حق ، فلا يلقي بيده إلى التهلكة ويستسلم ، بل يفر إلى مكان آخر كما فعل موسى - صلى الله عليه وسلم - وكما فعل نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم - حين أراد قومه قتله ، فعلى كل من أوذي من الدعاة إلى الله تعالى أو ضيق عليهم أو هددوا بالقتل أن يختاروا مرتعا آخر يروا أن فيه المصلحة إلى حين ؛ لأنه إذ كان لابد من ارتكاب إحدى مفسدتين تعين ارتكاب الأخف منهما الأسلم دفعا لما هو أعظم وأخطر[1] .

الثاني عشر : أن إخبار الغير بما قيل فيه وعنه على وجه التحذير له من شر يقع به لا يكون نميمة ؛ بل قد يكون واجبا كما ساق الله خبر ذلك الرجل الذي جاء من أقصا المدينة يسعى محذرا لموسى على وجه الثناء عليه[2] ، وهكذا تكون رابطة الإيمان قوية بين المؤمنين أقوى من الاجتماع على طعام ، وأقوى من الملازمة للتعلم ، وأقوى من أخوة النسب.

الثالث عشر : اللجوء إلى الله - تعالى - في الرخاء والشدة شأن المؤمن ، فهذا موسى - صلى الله عليه وسلم - حين خرج خائفا لا يلوي على شيء يترقب الطلب دعا الله قائلا ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[3] [القصص:٢١] وهكذا المؤمن إذا وقع به كرب ، أو هم ، أو غم ؛ فإنه يفوض أمره إلى الله ويطلب من الله — تعالى — أن يهيء له أسباب الفرج، وأن يفتح له أبواب الخير .

الرابع عشر : أخذ العلماء من قول الله تعالى على لسان موسى ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص:٢٢] أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل ، أو التحدث به ، إذا لم يترجح عنده أحد القولين فإنه يسأل ربه أن يهديه إلى الصواب من القولين بعد أن يقصد الحق بقلبه ويبحث عنه ، فإن الله لا يخيب من هذه حاله[4] .

الخامس عاشر : جواز خروج المرأة في حوائجها ، وتكليمها للرجال إذا انتفى المحذور كما صنعت أخت موسى وابنتا صاحب مدين[5] .

---

(١) انظر : (تيسير اللطيف المنان) ص (١٨٠) .

(٢) تيسير اللطيف المنان ص (١٨٠) ، وانظر : (أيسر التفاسير) (٣٨٩/٣) .

(٣) انظر : (التفسير المنير) (٧٩/٢٠) .

(٤) تيسير اللطيف المنان ص"١٨٠" .

(٥) حيث جاءته أي موسى إحداهما على استحياء فكلمته بكلام أبيها متسترة بكم درعها ، كما قال ذلك عمر - رضي الله عنه - جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة . قال ابن كثير : إسناده صحيح (٣٩٦/٣) .

⇦

ونأخذ من هذا أيضا أنه يجوز للمرأة أن تعمل خارج بيتها للضرورة ، والحاجة بالشروط المعروفة الخالية من المحاذير ؛ فعلى الدعاة حين التحدث عن مثل هذا ، أن ينبهوا الناس إلى أن الأصل للمرأة هو القرار في البيت ؛ إلا أنه يجوز لها عند الحاجة أن تخرج وأن تعمل إذا خلا ذلك العمل من المحاذير الشرعية .

السادس عشر : من الرحمة والإحسان على الخلق مساعدة المحتاج ، ولو لم يطلب ذلك كما فعل موسى – صلى الله عليه وسلم – حين سقى لبنتي الشيخ الكبير دون أجر ، فعلى الدعاة استغلال مثل هذه المواقف ؛ لأنها مؤثرة جدا في الدعوة إلى الله ، وتكسب الداعي إلى الله صحبة دائمة مع المدعو .

السابع عشر : أن الله – تعالى – كما يحب من السائل أن يتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه العامة والخاصة ، فإنه يحب منه أن يتوسل إليه بضعفه وعجزه وفقره كما قال موسى عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص:٢٤] لما في ذلك من إظهار التضرع ، والمسكنة ، والافتقار لله القريب من كل عبد[١] .

وقول موسى ﴿ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص:٢٤] يشعرنا بهوان الدنيا على الله تعالى . وإلا فإنه يستطيع أن يعطي موسى ما يشاء ، ولكنه سبحانه رضي له ما يدخره له في الآخرة ، فعلى الدعاة إلى الله أن يلجؤا إلى الله – تعالى – إذا افتقروا ، وأن يتخذوا الأسباب الكافية بمعاشهم من تجارة أو تدريس ، أو إمامة ، وغير ذلك مما هو مشروع مع الرضا والتسليم .

الثامن عشر : أن العبد إذ عمل العمل لله خالصا ثم حصل على مكافأة عليه بغير قصده ؛ فإن هذا لا يقدح في فعله ولا يخل بإخلاصه ، كما قبل موسى مكافأة صاحب مدين[٢] ، وإن رد ذلك بحكم عدم احتياجه ، أو زهده فيه فهذا من كماله وورعه .

التاسع عشر : بيان أن الكفاءة شرط في العمل ، وقد استنبطتهما بنت الرجل الصالح من فعل وصفة موسى – صلى الله عليه وسلم – وهما : القوة البدنية والأمانة ؛ حيث قالت لأبيها ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٦] قال الشيخ

=

قال الجوهري : السلفع من الرجال الجسور أي : الجريء ، ومن النساء الجرية السليطة ، ومن النوق الشديدة . تفسير ابن كثير (٣٩٦/٣) .

(١) تيسير اللطيف المنان . ص"١٨١" .

(٢) تيسير اللطيف المنان . ص"١٨١" .

السعدي رحمه الله « هذان الوصفان بهما تمام الأعمال كلها ، فكل عمل من الولايات ، أو من الخدمات ، أو من الصناعات التي القصد منها الحفظ والمراقبة على العمال والأعمال إذا جمع الإنسان الوصفين ، أن يكون قويا على ذلك العمل بحسب أحوال الأعمال ، وأن يكون مؤتمنا عليه ، تم ذلك العمل وحصل مقصوده وثمرته ، والخلل والنقص سببه الإخلال بهما أو بأحدهما »[1] .

العشرون : دل قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ [القصص:٢٦] على مشروعية الإجارة على كل عمل معلوم ، وأن مرد ذلك إلى العرف ، وأنه تجوز الإجارة وتكون المنفعة البضع كما قال صاحب مدين ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ ﴾ [القصص:٢٧] وأنه يجوز للإنسان عرض ابنته على الرجل لخطبتها ولا عيب ولا نقص في ذلك . كما فعل صاحب مدين ، وكما عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر ثم عرضها بعد ذلك على عثمان – وكما عرضت الواهبة نفسها على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ففي صحيح البخاري عن ابن عمر قال « لما تأيمت حفصة من خنيس بن حذافة السهمي[2] وكان من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فتوفي بالمدينة فقال عمر بن الخطاب : أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة ، فقال : سأنظر في أمري » الحديث وكذلك فعل مع أبي بكر لكنه امتنع ؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – ذكرها بخير فلم يفش سره . والمقصود أنه لا غضاضة في أن يعرض الإنسان موليته على أهل الخير ، وقد بوب البخاري بابا بذلك ؛ فقال : « **باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير** »[3].

الحادي والعشرون : من أعظم مكارم الأخلاق تحسين الخلق مع كل من يتصل بالإنسان المسلم من خدم ، وأجراء وزوجة ، وولد وغيرهم ، ومن ذلك تخفيف العمل على العامل ، ومساعدته إذا كثر عليه العمل ، أو زيادة أجره ؛ كما قال صالح مدين ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ [القصص:٢٧] ومنها أيضا ، ترغيب العامل في معاملته ، إما صراحة أو تعريضا . كأن يقول : اسأل عني ، أو لم يتذمر أحد مني ونحو ذلك . بشرط أن يكون كما قال صالح مدين ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [القصص:٢٧].

(١) تيسير اللطيف المنان ص"١٨١" .

(٢) من المهاجرين الأولين وهو زوج حفصة بنت عمر قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، شهد بدرا وأحدا ، وأصابه جراحة بأحد فمات منها . انظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن حجر (١٤٧/٢) ، طبعة دار الشعب ، وانظر : الجرح والتعديل (٣٩٤/٣) .

(٣) كتاب النكاح – باب عرض الإنسان بنته أو أخته على أهل الخير (٣٦٨/٣) برقم [٥١٢٢] .

الثاني والعشرون : مشروعية عقد المعاملات من إجارة وغيرها بغير إشهاد ، والاكتفاء بإشهاد الله عليها ؛ بمثل ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[1] [القصص:٢٨] إلا أنه حصل في هذه الأزمنة كثير من خراب الذمم وإنكار الحقوق واغتصابها بحجة عدم الإثبات ، فالأفضل الإشهاد وتقييد ذلك بوثائق تحفظ عن طريق المحاكم والدواوين . لما فيها من فض المنازعات وحفظ الحقوق .

الثالث والعشرون : دلت آية ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ﴾ [القصص:٢٧] على اجتماع عقدين هما : الإجارة والزواج[2] ، قال الخطابي : « إن منافع الحر قد يجوز أن يكون صداقا كأعيان الأموال ، ويدخل فيه الإجارة وما كان في معناها من خياطة ثوب ونقل متاع ونحو ذلك من الأمور »[3] .

الرابع والعشرون : فضل موسى - صلى الله عليه وسلم - حيث أجر نفسه على شبع بطنه ، وعفة فرجه ، وقضى أوفى الأجلين[4] .

---

(١) انظر : (أيسر التفاسير أبي بكر الجزائري) (٣/٣٩٤) .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٤٧٦) حيث قال : -

اختلف علماؤنا في ذلك على أربعة أقوال : **الأول** : قال في ثمانية أبي زيد : يكره ابتداء فإن وقع مضي .

الثاني : قال مالك وابن القاسم في المشهور : لا يجوز ، ويفسخ قبل الدخول وبعده

الثالث : أجازه أشهب وأصبغ ، **الرابع** : قال محمد : قال ابن الماجشون : إن بقي بعد المبيع ، يعني من القيمة ربع دينار يقابل البضع جاز النكاح وإلا لم يجز ، ثم قال بعد توجيه هذه الأقوال : والصحيح جوازه وعليه تدل الآية ، وقد قال مالك : النكاح أشبه شيء بالبيوع ، فأي فرق بين إجارة وبيع أو بيع ونكاح ، وهو شبهه إلا من جهة الرجلين يجمعان سلعتهما وإذا كانتا لرجل واحد جاز والعاقد هنا واحد ، وهو الولي .

(٣) سنن أبي داود (٢/٥٨٦ ، ٥٨٧) في شرح الخطابي لحديث (زوجتكها بما معك من القرآن) الذي أخرجه البخاري في النكاح - باب التزويج على القرآن وبغير صداق (٣/٣٧٥) برقم (٥١٤٩) . ومسلم في النكاح - باب الصداق (٢/١٠٤٠) برقم [١٤٢٥] .

(٤) لما في صحيح البخاري (إن سعيد بن جبير سأل ابن عباس : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل) فتح الباري - كتاب الشهادات - باب من أمر بإنجاز الوعد ، وفعله الحسن (٥/٣٦٢ ، ٣٦٣) برقم [٢٦٨٤] .

الخامس والعشرون : أيد الله موسى – صلى الله عليه وسلم – بمعجزات عدة : منها : انقلاب العصا إلى حية ، وأن يده إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها صارت بيضاء .

ومنها : انفلاق البحر لموسى ، ودخوله فيه هو وقومه ، وخروجهم منه وغرق فرعون ، وغيرها مما أيد الله به موسى من معجزات نقلتها الكتب السماوية، وصدقها القرآن ونقلتها القرون كلها ؛ فمن أنكرها فهو جاهل مكابر زنديق .

السادس والعشرون : بيان فضل موسى – عليه السلام – على الله حيث اختصه برسالاته ، وبكلامه فناداه ، وناجاه بلا واسطة قال تعالى ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤] وقوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣] وشرح له صدره ويسر له أمره وأثنى عليه في القرآن فقال ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم:٥١] وقال عنه ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:٦٩] وأثنى عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال « **لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، لا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي ؛ أو كان ممن استثنى الله** » ، أي : فإن كان أفاق قبلي ففيه فضيلة ظاهرة ، وإن كان ممن استثنى الله فلم يصعق فهي فضيلة أيضا[1] .

السابع والعشرون : في قوله تعالى ﴿ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ﴾ [القصص:٢٩] فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء ، لما له عليها من فضل القوامة وزيادة الدرجة إلا أن يلتزم لها أمرا ؛ فالمؤمنون عند شروطهم وأحق الشروط أن يوفي به ما استحللتم به الفروج[2] .

الثامن والعشرون : الحذر من ذوي السلطة ، والخوف منه لا يقدح في الداعي إلى الله ؛ لأنه بمثل ذلك يكون أشد حذرا في جميع تصرفاته ؛ لئلا يتوقف عن الدعوة فيحرم الناس دعوته ؛ ولذا ينبغي للدعاة عدم مجابهة ذوي السلطة المعروفين بتصيد الأخطاء وإلصاق التهم بالدعاة ، وإنما مداراته ومجادلته بالتي هي أحسن ؛ لئلا تقف الدعوة

---

(١) فتح الباري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب وفاة موسى وذكره بعده (٦/٥٤٤) برقم [٣٤٠٨].
ومسلم بشرح النووي في كتاب الفضائل – بات فضائل موسى صلى الله عليه وسلم (١٥/١٢٩: ١٣١) .

(٢) تفسير القرطبي (١٣/٣٨١) .

بالكلية ، وإذا فرض توقف صوت الداعي فلا يعدم أسلوبا آخر يفعله إما بقلمه أو تعليم غيره سرا وغير ذلك من الأساليب مع الاستعانة بالله ثم بإخوانه الدعاة .

فهذا موسى - صلى الله عليه وسلم - خاف أول الأمر من فرعون ، وطلب أن يكون أخوه هارون معه ، ولكن حينما بدأ في الدعوة استمر معه في بيان الحق ؛ متنقلا من أسلوب إلى أسلوب ، ومن حوار إلى حوار ، ومن إظهار معجزة إلى أخرى حتى نصره الله عليه في النهاية .

التاسع والعشرون : بث روح الأمل في نفوس المدعوين بتلاوة آيات القرآن الدالة على أن العاقبة للمتقين الملتزمين بأوامر الله المنتهين عن نواهيه . فلابد للظلم أن ينقشع والليل أن يصبح مهما اشتدت النكبات على الأمة وازدادت التهديدات ، وتنوعت المؤامرات ؛ فهذا موسى — عليه السلام — مرت به تلك الأمور وبشعبه ، وكانت العاقبة له ولقومه كما قال الله عنه ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨] .

الثلاثون : التبعية والاستضعاف لا تغني أصحابها ولا تسمنهم من جوع . لماذا ؟ لأن الله منحهم كرامة الإنسانية ، وكرامة الاختيار والحرية ، ولكنهم أنفسهم تنازلوا عن ذلك وانساقوا وراء الكبراء والطغاة - لم يقولوا لهم يوما لا بل لم يفكروا أن يقولوها ؛ بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يملونه عليهم من ضلال ؛ فكان مآلهم معهم في النار لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولا وإمعات و لم يخفف عنهم أنهم كانوا غنما تساق لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار . لقد رأوا الحق بأم أعينهم يوم إتيان السحرة بحبالهم وعصيهم ، ورأوا الغالب والمغلوب فلم يجرؤ غير السحرة أن ينطق ببنت شفة ، ورأوا الآيات الباهرات تتابع عليهم الواحدة تلو الأخرى ؛ فيسخرون من موسى ، ويعدونه الإيمان إن دعا ربه فكشف ما بهم ، ورأوا كذب فرعون ودجله في كل مكان يرتادونه ، وأخيرا رأوا انفلاق البحر فلم يزدهم إلا تبعية واستضعافا لما يقوله فرعون .

قال الله تعالى ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف:٥٤] وقوله ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر:٤٧-٤٨] .

الحادي والثلاثون : إذا كان في إظهار عمل خير أمام الناس فيه مصلحة راجحة كأن يقتدى به أو فيه تشجيع للآخرين فإظهار الإيمان بالله تعالى من باب أولى كما فعل

السحرة حين رأوا حقيقة تتجلى أمامهم ، وأن ما يفعلونه ما هو إلا كيد وعناد وإظهار لموالاة الطاغية ، وحبا لما في يديه من زخرف الدنيا وزينتها ، وأن ما أتى به موسى حق من عند الله ، وليس من عنده ؛ لأنهم رواد فنهم ، وما أتى به موسى ليس من جنس فعلهم ، فأعلنوا الإيمان أمام فرعون الطاغية أولا ثم أمام الناس ثانيا ، فلعل ذلك يشعل في قلوبهم وضمائرهم حب الإيمان وترك ما هم عليه من الطغيان ، فعلى الدعاة إلى الله – تعالى– الاستفادة من مثل ذلك في إظهار الدعوة كلما كان ذلك مفيدا لها ، وكذلك على المستجيب إظهار ذلك كلما كان ذلك مفيدا .

الثاني والثلاثون : قال الله تعالى ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨] تدل هذه الآية على ضعف الإنسان ؛ لأنه خلق كذلك مهما وصل في ترقيه لمناصب الدنيا ، ومما يدل على ضعف فرعون المدعي للألوهية أنه استعان بالسحرة في إبطال كيد موسى كما يزعم ، وكان الأولى أن يبطله هو ، وكذلك حينما استشار قومه في أمر موسى فأشاروا عليه أن يرجئه وأخاه وكان الأولى أن لا يستشير ، وكذلك حينما قال ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ [غافر:٢٦] كأنهم هم الذين يمنعونه ، كل ذلك يدل على ضعفه ، والعجب أن القوم لم ينتبهوا لذلك أو تنبهوا ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣] .

الثالث والثلاثون : طلب التثبيت من الله – تعالى – مطلب شرعي يحبه المؤمنون ويسعون في تحصيل ذلك بكثرة الدعاء فيقولون في كل صلاة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] ويحصل ذلك بالصبر على الطاعة والصبر عن المعصية وبالصبر على كيد الأعداء فتقول كما قال السحرة ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٦] وكما قال المؤمنون الذين برزوا لجالوت وجنوده ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٠] وانظر إلى كلمة (أفرغ) الدلالة على المبالغة في طلب كمال الصبر .

ومع الصبر نطلب التثبيت من الله – تعالى – لئلا نخرج عن طوره إلى الجزع أو التسخط ، أو الاستعجال على الله – تعالى – ليؤول الأمر بعد ذلك إلى النصر ؛ فمن آمن وصبر وثبت كانت له الغلبة في النهاية .

يقول صاحب تفسير المنار « ولدينا من نقول التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك ، وقد صرح الذين كتبوا أخبار الحروب الأخيرة بعللها وفلسفتها ؛ أن المؤمنين

بالله وباليوم الآخر من جميع الملل أعظم شجاعة وأشد صبرا على مشاق الحرب من غيرهم »[1] .

الرابع والثلاثون : رابطة الأخوة الإيمانية تتجلى في شخص مؤمن آل فرعون ، وذلك حين دافع عن سيدنا موسى - عليه السلام - حين أرادوا قتله فانبرى يقول ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر:٢٦] ، وحاول أن يستغل الصلة بينه وبين فرعون لصالح الدعوة والدعاة ، فأخذ يحاجهم بدعوى مصلحتهم **أولا** ثم إنه لا ينبغي لهم معاداة موسى ؛ لأنه لم يأمرهم بباطل **ثانيا** ؛ فإن كان كاذبا فعليه كذبه ، وإن كان صادقا فلا تتعرضوا له لربما يصبكم شيئا مما يقول فتهلكوا .

فعلى من له صلة من الدعاة إلى الله بأهل السلطة أن يستثمروا صلتهم في تبليغ دعوة الله إليهم أولا باللطف واللين ، ثم بمسايستهم في أمر الدعوة دون مداهنة أو رضى بمنكر ؛ لئلا يلحقوا الأذى بالدعوة والدعاة .

الخامس والثلاثون : على الدعاة إلى الله تعالى تبليغ الدعوة بلطف ولين كما تقدم ، وزيادة على ذلك عليهم أن لا يجابهوا أصحاب السلطة بالكلمة النابية أو التجريح المتكلف فيه أمام الناس ، أو من فوق المنابر ؛ بل الأفضل الاتصال بهم عن قرب ونصحهم مادام يسمع ذلك ؛ فإن رأوا منهم جفاء وتهديدا فليلجئوا إلى الهدنة والمسالمة للتمكن من تبليغ الدعوة بالكلمة الطيبة ؛ كما قال موسى - عليه السلام - ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ [الدخان:٢٠] أي : أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل (وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون)[2] أي : فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا[3] .

---

(١) تفسير المنار (٧٧/٩) ، وانظر في ذلك سير الصحابة والتابعين ، فقد كان الواحد منهم يحرص على أن يقتل في سبيل الله كما يحرص أحدنا اليوم على الحياة أو أشد . يقول سيد قطب رحمه الله « ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية ، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة ، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئا كثيرافي ساعة الشدة » : في ظلال القرآن (١٨١٦/٣) .

(٢) سورة الدخان آية (٢١) وتقدم تفسير ذلك ص"٤٦٠" .

(٣) تفسير ابن كثير (١٥٢/٤) .

السادس والثلاثون : إذا واصل الطغاة تهديداتهم ، ولم يتركوا الأمر مسالمة ، وأخذوا في تنفيذ تهديدهم ؛ فإن على الدعاة إلى الله – تعالى – تحذير الناس من ظلمهم وإعداد أنفسهم ، ومن معهم إلى اختيار بيئة أفضل ، ومكان أخصب لإبلاغ الدعوة ، وتكوين النفس ، وتدريبها على الطاعة وشحذ الهمم ، وإعدادها لما هو أكبر من ذلك ، وهو الجهاد في سبيل الله ، ومنازلة أعداء الله كما فعل موسى حين خرج بقومه ، وكما فعل محمد – صلى الله عليه وسلم – حين أخرجه قومه .

السابع والثلاثون : بعد إيمان الشباب الذين قال الله عنهم ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ [يونس:٨٣] كان لابد من إيقاف زحفه بين بني إسرائيل ؛ لأن كل واحد منهم بدأ يدعو إلى الإيمان بموسى – عليه السلام – والكفر بفرعون مما أدى إلى استجابة بعضهم ، فما كان أمام الملأ إلا تحريض فرعون وتشجيعه للفتك بموسى وقومه ؛ ليزدادوا عنده حظوة ومكانة . قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٧] .

فعلى من ابتلي بشيء من هذا كأن يكون بطانة للحكام والسلاطين أن يتقوا الله فيما يشيرون به عليهم برفق ولين كلام بلا تشويش ولا غلظة ، وهذا يحتاج إليه في كل مقام ، لكن هذا أهم المواضع ؛ وذلك لأنه الذي يحصل به الغرض المقصود من التذكر والخشية ، وإلا فقد أعذروا إلى الله ولزمته الحجة .

الثامن والثلاثون : أن من أعظم العقوبات على العبد أن يكون إماما في الشر ، وداعيا إليه . قال تعالى عن فرعون وقومه :﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [القصص:٤١] كما أن من أعظم نعم الله على العبد أن يجعله إماما في الخير هاديا إليه قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [السجدة:٢٤] .

التاسع والثلاثون : أمر الله موسى – عليه السلام – بأن يتخذ لبني إسرائيل أماكن خاصة للصلاة في البيوت متجهة إلى القبلة بعد أن خرب فرعون مساجدهم وآذاهم في دينهم ، وهذا يدل على أن القبلة في الصلاة كانت شرعا لموسى عليه السلام .

وقد استنبط العلماء من جواز أداء الصلاة في البيوت ؛ أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة ؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – لما مرض تخلف عن

المسجد وقال « **مروا أبا بكر فليصل بالناس** »[١] متفق عليه . أو زيادة مرض ، أو مدافع للأخبثين ، ومن بحضرة طعام محتاج إليه ، وخائف ضياع ماله أو فواته أوضرر فيه ، أو موت قريبه أو رفيقه ، ولم يكن من يمرضهما غيره ، أو يخاف على أهله ، أو ولده ، أو على نفسه ، من ضرر كسبع أو سلطان ، أو ملازمة غريم ولا شيء معه ؛ لأن حبس المعسر ظلم لقوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة:٢٨٠] أو يخاف فوات رفقته بسفر مباح ، أو أذى بمطر ووحل ونحوه ، وبريح باردة شديدة في ليلة مظلمة ؛ لقول ابن عمر – رضي الله عنه – : كان النبي – صلى الله عليه وسلم – ينادي مناديه في الليلة الباردة أو المطيرة « **صلوا في رحالكم** »[٢] وكذا تطويل إمام ، ومن عليه قود يرجو العفو عنه[٣] .

الأربعون : تدل استجابة الفئة المؤمنة لموسى – عليه السلام – بعد أن دعاهم عليه السلام إلى التوكل على الله تعالى ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس:٨٥-٨٦] على اهتمامهم بأمر دينهم ، وتفضيله على أمر دنياهم ؛ لذا أعدهم موسى بعد اطمئنانه على صدق قولهم ؛ لما هو أعظم من ذلك دون تكبد المشاق ومنازلة الأعداء .

لذا ينبغي على الدعاة إلى الله — تعالى — تزهيد مدعويهم في أمور الدنيا والتخفيف من أعبائها ؛ لأن من كثر شغله فيها زاد حبه لها ، وكثر اهتمامه بها لحديث « **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » وكان ابن عمر يقول « **إذا أمسيت فلا تنتظر**

---

(١) رواه البخاري – كتاب الجماعة والإمامة – باب حد المريض أن يشهد الجماعة (٢٢١/١) برقم[٦٦٤] رواه مسلم – كتاب الصلاة – باب استخلاف الإمام إذ عرض له عذر – (٣١١/١) برقم [٤١٨] ، [٤٢٠] .

(٢) في الصحيحين عن ابن عباس أنه قال لمؤذنه في يوم مطير ، زاد مسلم : في جمعة : إذ قلت : أشهد أن محمدا رسول الله فلا تقل حي على الصلاة ولكن قل (صلوا في رحالكم) الحديث .
رواه البخاري – كتاب الأذان – باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة – (٢١٢/١) برقم[٦٣٢] .
رواه مسلم – كتاب صلاة المسافرين – باب الصلاة في الرحال في المطر (٤٨٤/١) برقم [٦٩٧] ، [٦٩٩] .

(٣) حاشية الروض المربع (٣٥٧/٢ : ٣٦٣) عبد الرحمن بن محمد قاسم العاصمي النجدي (١٣١٢ - ١٣٩٢) .

الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك »[١] « **فاللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا »**[٢] .

الحادي والأربعون : مشروعية الدعاء بالهلاك على أهل الظلم ليقطع الله دابرهم ويريح البلاد والعباد منهم .

ثم ليعلم أن :

موسى وهارون لم يحصل منهما الدعاء على قومهم إلا بعد اليأس من إيمان القوم وبعد نفاذ الصبر من تعسف فرعون وظلمه ، واستهزاء ومعاونة قومه له ، فعلى الدعاة إلى الله – تعالى – الصبر في دعوة من يريدون ، ولا يدعون عليهم بمجرد الإعراض ، وإنما ينبغي تكرار الدعوة مرات وكرات مع طلب الله لهم الهداية والدعاء لهم لا عليهم لأن أصل الإيمان موجود ، وإنما الداعية المخلص الذي يخرجه إلى الوجود بالكلمة الطيبة والموعظة الرقيقة والمجادلة الحسنة .

الثاني والأربعون : كثرة المال وأنواع الزينة ، والانغماس في ذلك والتلهي به يسبب الضلال لصاحبه[٣] . فعلى الدعاة إلى الله ترغيب الناس في أن ما عند الله خير وأبقى وألذ وأشهى ، **وأن في الجنة ما لا عين رأت و لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر اقرؤا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾**[٤] [السجدة:١٧] .

---

(١) رواه البخاري – كتاب الرقاق – باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (كن في الدنيا كأنك غريب ... (٤/١٧٦) برقم [٦٤١٦] .

(٢) جزء من حديث رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب ٨٠ – (٤/٥٢٨) برقم (٣٥٠٢) قال أبوعيسى : هذا حديث حسن غريب – وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/١٦٨) برقم [٢٧٨٣] وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٤٠٤) ، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٤٨) ، والبغوي في شرح السنة (٥/١٧٤) ، وصححه الحاكم – كتاب الدعاء (١/٧٠٩، ٧١٠) برقم [١٩٣٤] وقال : على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي .

(٣) أيسر التفاسير (٢/٥٠٢) .

(٤) رواه البخاري – كتاب التفسير – باب ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ – (٣/٢٧٦) برقم (٤٧٧٨) بلفظ قال الله تبارك وتعالى : **أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . قال أبوهريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾** .

الثالث والأربعون : إجابة الدعوة لها وقت مخصوص في علم الله وتقديره ، ولا يجوز استعجاله لما فيه من الجهل ، وسوء الأدب في مخاطبة الله تعالى ، وإنما تترك الإجابة حسب تقدير الله وتصريفه الأمور .

ولذلك استجاب الله دعوة موسى وهارون عليهما السلام ، وأمرهما بالاستقامة على أمره ، ونهاهما أن يسلكا سبيل الذين لا يعلمون من تحقيق وعد الله ووعيده وعليهما أن لا يستعجلا أمره ؛ فإنه كائن لا محالة .

وهكذا العبد عليه الإكثار من دعاء الله لقوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] وعليه أن لا يستعجل الإجابة فيقول : دعوت ودعوت فلم يستجب لي[١] .

الرابع والأربعون : أهل المسجد يؤمنون على دعاء الإمام في الخطبة والقنوت ونحوه ؛ لأنهم شركاء معه لتحصل الإجابة للجميع ، ومن هنا يخطئ من يردد الدعاء دون التأمين كالمطوفين ونحوهم[٢] . يؤخذ ذلك من تأمين هارون – عليه السلام – على دعاء موسى .

الخامس والأربعون : أخذ العبرة والعظة بما حل بفرعون وجنوده ، فقد أهلكهم الله جميعا في صبيحة يوم واحد ، ولم ينج منهم أحد . ويمكن أن نلخص ذلك فيما يلي:

١ – أن فرعون أحقر وأذل على الله من أن يضاده في ملكه .

٢ – أنه لكثرة جنده وقوة عتاده لم ينفعه ذلك .

٣ – أنه حين أيقن بالهلاك وغشيته سكرات الموت آمن فقال ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٩٠] فلم يقبل منه . يقول الإمام النسفي : « فيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد حيث قال : آمنت ، ثم قال : وأنا من المسلمين . كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصا على القبول ، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته ، وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الاختيار »[٣] .

---

(١) سبق تخريجه ص٤٣٦ .

(٢) انظر : أيسر التفاسير (٢/٥٠٣) .

(٣) تفسير النسفي (٢/١٧٤) .

فعلى الدعاة تذكير الناس بما حل بفرعون وجنوده وغيرهم حتى لا ييأسوا من هلاك الطغاة وأعوانهم إذا كثر شرهم وزاد بغيهم وقل خيرهم ؛ لأنهم فراعنة صغار ، وإمامهم الأكبر أمامهم ينتظرهم ؛ ليقودهم جميعا إلى نار جهنم ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [هود:٩٨-٩٩] وفي الحديث « **إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته قال : ثم قرأ** ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[1] [هود:١٠٢] .

فالعاقل من يتدبر في الأمر ، يبادر إلى روضة الإيمان ؛ ليكون من أهل النجاة والرضوان في دار الجنان مع أهل الإحسان .

السادس والأربعون : المداومة على الأعمال الصالحة في الرخاء سبب للنجاة من الشدائد[2] ، فعلى المرء المسلم أن يكثر من العمل الصالح في وقت الرخاء وطول الأمل ، فهذا يونس عليه السلام قال الله عنه ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤] قيل : لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء[3] .

ونجى الله يوسف – عليه السلام – من قعر البئر حتى وصل إلى الحكم ، ونجى الله موسى – عليه السلام – من ظلم فرعون فشق له البحر ، وأخرجه وقومه إلى ملك الدنيا وأغرق الله فرعون ، ولم يقبل منه إيمانه ؛ لأفعاله وصحائفه السوداء .

ونجى الله عيسى – عليه السلام – من كيد اليهود ورفعه الله إليه ، ونجى الله محمدا – صلى الله عليه وسلم – من سيوف المشركين ليلة الهجرة ، ونصره الله عليه يوم بدر ويوم فتح مكة .

وفي الحديث « **تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة** »[4] .

---

(١) رواه البخاري – كتاب التفسير – باب (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ..) (٢٤٣/٣) برقم [٤٦٨٦] .
ومسلم – كتاب البر والصلة – باب تحريم الظلم – (١٩٩٧/٣ – ١٩٩٨) برقم [٢٥٨٣] .

(٢) تيسير المنان في قصص القرآن ، أحمد فريد ، ص"١٦٠" دار ابن الجوزي .

(٣) تفسير ابن كثير (٢٣/٤) .

(٤) جزء من حديث (احفظ الله يحفظك ...) أخرجه الإمام أحمد (٢٩٣/١) برقم (٢٦٦٩) وأخرجه الترمذي – كتاب الدعاء – باب أن دعوة المسلم مستجابة – (٤٦٢/٥) برقم [٣٣٨٣] .

⇦

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- « **من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء** »[1].

السابع والأربعون : للمرأة دور كبير في الدعوة إلى الله تعالى ؛ لذا يحسن استغلالها فيما يعود على الدعوة بالخير لما لها من التأثير الكبير في المجتمع النسوي الأسري ؛ فكم من امرأة اهتدى على يدها خلق كثير ؛ بل قد تكون قدوة لزوجها وأولادها إذا أحسنت الإخلاص ، ومعنا هنا أربع نسوة اشتركن في قصة موسى عليه السلام : فأولهن (أم موسى عليه السلام) التي كان لها شأن عظيم في الصبر ، وحنكة التدبير ، ولا غرو فقد كان ذلك بإلهام من الله لها .

ثم (أخته) التي كان لها دور في تبصر الأمور وتوريتها دون أن يشعر آل فرعون بذلك ؛ حيث ألقت كلاما لا يثير حولها شبهة ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص:١٢] .

وإذا كان كل من أم موسى وأخته قد قام بالدور اللازم الموكل إليه ؛ فإن (مؤمنة آل فرعون) كما يحسن أن نسميها قد هيأها الله لتؤثر على الطاغية الجبار الظالم في أن يترك موسى قرة عين لها وله ؛ فكان أن أسرها الله به دونه ؛ فأفاضت عليه حنانها وأسبغت عليه عطفها ؛ ليتربى في بيت الملك وعز السلطان بعد الخوف والذل والهوان ؛ فآمنت بموسى وبما جاء به من عند الله ؛ فرفع الله ذكرها وسجل لها دعاء يتلى إلى يوم القيامة ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم:١١] .

= ورواه أبو يعلى في مسنده برقم (٢٥٥٦) ، وابن السني في عمل اليوم والليلة برقم (٤٢٧) دار الجيل ، والطبراني في الدعاء (٤٢) ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٠٩/٢) برقم[٢٠٤٣] ، وفي المشكاة برقم [٥٣٠٢] .

(١) رواه الطبراني في كتاب الدعاء – (٤) باب الحث على الدعاء في الرخاء – (٨٠٥/٢) برقم[٤٤] ، ورواه الحاكم في مستدركه – كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (٧٢٩/١) برقم [١٩٩٧] ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .
وانظره : في تاريخ بغداد (٤١٤/١ ، ٤١٥) برقم [٤١٣] .

والمرأتان الباقيتان هم (ابنتا الشيخ الكبير) كما سماه القرآن ، وما رأينا من حسن حيائهما وابتعادهما عن مزاحمة الرجال وفيه من الدروس لنساء زماننا الشيء الكثير ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة »[1] .

٥ ويظهر من إحداهن عقل راجح وحصافة رأي ، حين قالت لأبيها ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٢] .

ثم إنه كان لمن تزوج بها طاعة عجيبة لموسى – عليه السلام – حين تركها في تلك الليلة المظلمة الشاتية ليأتي لها بنار تستدفئ بها و لم تعترض عليه ؛ بل أطاعته دون تردد ، وإلا كانت تستطيع أن تطلب الذهاب معه ومجادلته في ذلك ، ولكنها الطاعة

١٠ الإيمانية النابعة من قلب إيماني .

---

(١) سنده قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون .
قال ابن كثير : هذا إسناد صحيح . كما سبق بيانه قريبا .
انظر : (تفسير ابن أبي حاتم) (٩/٢٩٦٥) ؛ تفسير ابن كثير (٣/٣٩٦) .

المبحث الثاني

عقوبات بني إسرائيل في عهد موسى - عليه السلام -

تمهيد : خرج بنو إسرائيل من ظلم الاستعباد ونار الاضطهاد وذل الطغيان إلى عدل السلطان وتوجيه الرحمن ، فما كان منهم إلا أن أكثروا على نبيهم سؤالاتهم و تعنتهم وإشراكهم بالله تعالى ، وما ذلك إلا لفساد نفوسهم إلا من رحمه الله ، يقول صاحب الظلال : « وسنرى هذه النفوس وهى تواجه الحرية بكل رواسب الذل ، وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية ، وتواجه موسى – عليه السلام – بكل الالتواءات والانحرافات والجهالات التي ترسبت فيها على مر الزمن الطويل »[1] .

سنرى كيف عالج موسى كل ذلك أشد المعالجة ، وإلا لِمَ طلب من الله – تعالى– أن يشرح صدره من أول الأمر ؟ إلا لعلمه بتحمل هذه المسؤولية العظيمة فكان لها!. وكان كثيراً ما يطلب من قومه تذكر منة الله وفضله عليهم من نجاتهم من عدوهم وإسباغ نعمه عليهم ، ولكن سرعان ما تنقلب تلك النفوس فتطلب غير ذلك ، فيسارع إلى توجيهها وتذكيرها في كل مرة وتعاقب ، وفي آخر أمرها عصت أمر الله وأمر نبيه فكتب الله عليها الذل والمهانة وعوقبت بالتيه في الأرض أربعين سنة جزاء فسقهم وامتناعهم عن طاعة ربهم ورسولهم .

---

(١) في ظلال القرآن (١٣٦٥/٣) .

المطلب الأول :

أ - الآيات التي تحدثت عن عقوبات بني إسرائيل :

ذكر لبني إسرائيل في القرآن الكريم عدد ليس بالقليل من العقوبات ، وسنورد فيما يلي الآيات التي تحدثت عن عقوبتهم مرتبة : -

٥ أولاً : الآيات تحدثت عن عقوبة عبادة العجل في سورة البقرة .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم

١٠ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة:٥١-٥٤] .

وقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم

١٥ بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة:٩٢-٩٣] .

لطائف الآيات :

أولا : ذهاب موسى - عليه السلام - لملاقاة ربه والاستماع لكلامه عز وجل .

ثانيا : سفاهة بني إسرائيل في اتخاذهم العجل للعبادة في غياب موسى .

٢٠ **ثالثا** : عظم منة الله عليهم بأن عفى عنهم بعد أن استوجبوا العذاب ؛ فتاب عليهم .

رابعا : في ذكر تكرار اتخاذ العجل تذكير لبنى إسرائيل في عهد النبي ﷺ . لما كان عليه سلفهم ، لذا صح أن يوجه الخطاب إليهم بالشناعة عليهم بفعل غيرهم .

خامسا : بعد عبادتهم العجل أخذ الله عليهم العهد والميثاق في عدم المخالفة ،

٢٥ والطاعة كل الطاعة في أخذ التوراة بقوة من تصديق بالأخبار وعمل بالأحكام ، فخالفوا وعتوا وأعرضوا ، فرفع فوقهم الطور حتى قبلوه ثم خالفوا وقالوا ﴿ سَمِعْنَا

﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ [البقرة:٩٣] وكان الواجب عليهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ، وكان هذا نتيجة لما أشربته قلوبهم من حب العجل بسبب كفرهم بالله - عز وجل - فهم لما عدلوا عن الحق عوقبوا بالإغراء بالكفر ؛ لأن القلوب إما على حق وإما على باطل ، فإذا انتفى الحق ثبت الباطل .

سادساً : يشنع الله عليهم فعلهم من عبادة العجل وعصيانهم لأمره وأمر رسوله[١].

فيقول : ﴿ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩٣] لأن من عبد مع الله غيره فليس بمؤمن ولو ادعى أنه مؤمن ، ولكن هذه الصيغة التي جاءت في آخر الآية من باب التحدي لهم إذا كانوا مؤمنين فلمَ يعبدون العجل ؟ هل الإيمان يأمر بعبادة غير الله[٢] ؟ .

سابعاً : في الآيات عدد من الأسئلة :

الأول : لَمَ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة:٥١] ولم يقل يوماً ؟

والجواب :

أن الشهور تبدأ من الليالي لا من الأيام[٣] .

الثاني : في قوله تعالى ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] .

وهذا يقضي كون التوبة مفسرة بقتل النفس ، فكيف يجوز تفسيره به ؟

والجواب : ليس المراد تفسير التوبة بقتل النفس ، بل بيان أن توبتهم لا تتم ولا تحصل إلا بقتل النفس ، وإنما كان كذلك لأن الله أوحى إلى موسى عليه السلام أن شرط توبتهم لا تتم ولاتحصل إلاّ بقتل النفس[٤] ، لإمعانهم في الكفر والصدود والإعراض .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (١/١٣٠) ؛ أحكام من القرآن الكريم - ابن عثيمين (١/٣٥١) .

(٢) المصدر السابق ، ابن عثيمين (١/٣٥١) .

(٣) انظر : (التفسير الكبير) (٣/٧٤) .

(٤) انظر : التفسير الكبير (٣/٨٠) .

الثالث : ما الفرق بين الفاء في قوله ﴿ فَتُوبُوٓاْ ﴾ وبين قوله ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ ﴾ ؟

والجواب :

أن الفاء الأولى للسبب . لأن الظلم سبب التوبة ، والثانية للتعقيب ، لأن القتل من تمام التوبة ، فمعنى قوله ﴿ فَتُوبُوٓاْ ﴾ فأتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم[١] .

الرابع : ما المراد بقوله ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة:٥٤] هل هو على ظاهره أم غير ذلك ؟

الجواب : أن معناه أن من لم يعبد يقتل من عبد ، فيكون المراد من ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة:٥٤] أي : استسلموا للقتل[٢] ، حيث قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضاً ، لايحنو رجل على قريب ولا بعيد حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل ، وإن الله أوحى إلى موسى أن حسبي فقد اكتفيت ، فذلك حين ألوى موسى بثوبه[٣] .

الخامس : سبق أن ذكرنا أن القوم اقتتلوا حتى كادوا أن يفنوا لعبادتهم العجل ، فهل يمكن أن يصح قول من قال : إن منهم من لم يقتل ممن قبل الله توبته .

والجواب : نعم حيث كان القتل شهادة للمقتول وتوبة للقاتل[٤].

---

(١) التفسير الكبير (٣/٨٠) .

(٢) تفسير الرازي (٣/٨١ : ٨٢) .

(٣) تفسير ابن كثير بسنده قال ابن جريج : أخبرني القاسم بن أبي بردة أنه سمع سعيداً ومجاهداً ، والسند كما ترى : صحيح ، كما هو في تفسير ابن جرير (٢/٧٣) ؛ انظر : تفسير ابن أبي حاتم بتحقيق د/ أحمد العمارى (١/١٦٨ ، ١٦٩) ؛ وانظر : تفسير ابن كثير (١/١٦٩) بتحقيق الشيخ مقبل الوادعي .

(٤) انظر : تفسير الطبري (٢/٧٥ و٧٦ و٧٨) .

السادس : في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:٥٣] وقال في سورة الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٨] فعطف في الآية الأولى الفرقان على الكتاب ، والعطف يقتضي المغايرة ، وفي الآية الثانية أثبت كلمة (الفرقان) دون كلمة (الكتاب) فهل هما شيئان أم شيء واحد ؟.

الجواب : أن ظاهر السياق هنا في سورة البقرة وفي سورة الأنبياء أن الفرقان هو المعجزات الخارقة التي أيد الله بها موسى عليه السلام - فكانت فرقاناً له بين الحق والباطل .

وأما الكتاب في هذه الآية فهو التوراة ، وعبر عنه في سورة الأنبياء بأوصافه دون إسمه قائلاً ﴿ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٨] وقد غلط في المعنى من زعم أن الفرقان هو المنزل على محمد ﷺ وذلك :

أولاً : لعدم ذكر محمد ﷺ في الآيات .

الثاني : ما ذكره في سورة الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٨] فيكون على ما ذكرنا [1] .

الثالث : التوراة لم تنزل على محمد ﷺ ؛ وإنما نزل عليه القرآن .

ثانياً : سورة النساء :

قال تعالى ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٥٣] .

جاء الكلام عن العجل في الآيات متأخراً عن سؤال الرؤية بسبب العطف (بثم) مع أن سياق الكلام في سورة **البقره والأعراف** يدل على أن طلب الرؤية جاء متأخراً عن

(١) صفوة الآثار ، لعبد الرحمن الدوسري (٢/١٣٣ ، ١٣٤) .

عبادة العجل فما توجيه ذلك ؟

والجواب : أن العطف (بثم) هنا هو للتراخي الرتبي ؛ لا لإفادة الترتيب الزمني ؛ إذ اتخاذهم العجل كان قبل طلبهم رؤية الله جهرة[١] .

وهنا يرد سؤال : لِمَ عُبد العجل بالذات ؟

لأنهم قد مروا في طريقهم بقوم يعبدون أصناماً لهم على صور البقر ؛ فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل[٢] .

ثالثاً : سورة الأعراف :

قال تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٨-١٥٥].

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : لم قيل ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا ﴾ [الأعراف:١٤٨] والمتخذ هو السامري ؟

والجواب من وجهين :-

الأول : أن الله نسب الفعل إليهم ؛ لأن رجلاً منهم باشره ، كما يقال : « بنو تميم

---

(١) التحرير و التنوير (١٥/٦) .

(٢) انظر : (تفسير ابن جرير) (٨٠/١٣) ؛ تفسير القرطبي (٢٧٢/٧) ؛ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٢) ؛ الدر المنثور (٢١٣) .

قالوا كذا وفعلوا كذا » والقائل والفاعل واحد .

الثاني : أنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به ، فكأنهم اجتمعوا عليه [١] .

ثانياً : لم قال ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ [الأعراف:١٤٨] و لم يكن لهم ، إنما استعاروه ؟

والجواب : أن الله تعالى لما أهلك فرعون وقومه صارت تلك الأموال لهم لأن الحليّ كان في حوزتهم فكأنه ملك لهم بدليل ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان:٢٨] .

ثالثاً : هل انقلب ذلك التمثال لحماً و دماً كما قيل ، أو بقي كما هو ؟

والجواب : ظاهر السياق يبيّن أنه ظل جسداً من الحلي و لم يتحول إلى لحم ودم ؛ لأن صانع العجل جعل في باطنه تجويفاً ضيقاً واتخذ له آلة نافخة خفية ، فإذا حركت آلة النفخ انضغط الهواء في باطنه و خرج من المضيق فكان له صوت[٢] ، ومن تعلق بكلمة خوار أنه لايكون إلا لماله لحم ودم فلا دليل له عليه ، لأنه الصوت لما أشبه الخوار لم يبعد إطلاق لفظ الخوار عليه[٣]

ثم إنه في سورة طه لما جاء موسى وأراد نسفه وتحطيمه قال ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه:٩٧] إشارة إلى أنه شئ تفرق إلى أجزاء لا يمكن جمعها[٤] .

رابعاً : ما فائدة إتيان جمله ﴿ ٱتَّخَذُوهُ ﴾ بعد قوله ﴿ وَٱتَّخَذَ ﴾ .

والجواب : أن جملة ﴿ ٱتَّخَذُوهُ ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ ﴾ ، والغرض من التوكيد هو التكرار لأجل التعجب كما يقال : « نعم اتخذوه » ولتبنى عليه جملة ﴿ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٨] فيظهر تعلقها باتخاذ العجل ، وذلك لبعد

---

(١) تفسير الكشاف (١٥٩/٢) ، التفسير الكبير (٦/١٥) .

(٢) انظر : (الحرير و التنوير) (١٩ : ١١) . قال الزجاج الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميّز إنما هو الجثة الهامدة انظر معاني الزجاج (٣٧٧/٢) .

(٣) التفسير الكبير (٦/٢٥) .

(٤) قرأ الجمهور ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ﴾ بضم النّون الأولى وفتح الحاء وكسر الراء مشددة أي : إحراقاً شديداً لا يدع له شكلاً ، وقرأ ابن جماز عن أبي جعفر لَنُحرِقَنه بضم النون الأولى وإسكان الحاء وتخفيف الراء ، وقرأ ابن وردان عن أبي جعفر بفتح النون الأولى وإسكان الحاء وضم الراء (لَنَحْرُقنه) أي : لنبردنه بالمبرد . انظر : (التفسير الكبير) (١١٣/٢٢) ، التحرير و التنوير (٣٠٠/١٦) .

جملة ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ ﴾[1] [الأعراف:١٤٨] .

خامساً : في قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [الأعراف:١٤٩] كان مقتضى الظاهر في ترتيب حكاية الحوادث أن يتأخر قوله ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ عن قوله ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا ﴾ [الأعراف:١٥٠] لأنهم ما سقط في أيدهم إلا بعد أن رجع موسى ورأوا منه ما رأوا ، فكيف ؟

والجواب : خولف مقتضى الترتيب تعجيلاً بذكر ما كان لاتخاذهم العجل من عاقبة الندامه وتبين الضلالة .

فكأنه قيل : فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، ثم قيل : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [الأعراف:١٤٩] قالوا[2] .

سادساً : لم نسبه إلى أمه في ﴿ يَبۡنَؤُمَّ ﴾ [طه:٩٤] و لم يقل يا أخي ؟

والجواب : ناداه بأمه إشارة إلى أنهما من بطن واحد وهو أقوى أواصر الأخوة وذلك أدعى إلى العطف والرّقة[3].

سابعاً : أيُّ معنىً لقوله ﴿ مِنۢ بَعۡدِيٓ ﴾ [الأعراف:١٥٠] بعد قوله ﴿ خَلَفۡتُمُونِي ﴾ [الأعراف:١٥٠] في قوله تعالى ﴿ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ ﴾ [الأعراف:١٥٠] ؟

والجواب : معناه : من بعد ما رأيتم مني من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له . أو من بعد ما كنت أجمع بني إسرائيل على التوحيد وأمنعهم من عبادة البقر حين قالوا ﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ ﴾ [الأعراف:١٣٨] ومن حق الخلفاء أن يسيروا سيرة المستخلفين[4] .

ثامناً : لماذا سكت هارون على فعل بني إسرائيل و لم يفعل فعل موسى حين رجع ؟

والجواب : أنه نصحهم فلم يسمعوا له و لم يجد من ينصره على ذلك ، بل خاف على نفسه القتل منهم . وفي الآية دليل على أن من خاف على نفسه القتل أن يسكت عن تغيير المنكر و لا يغيره بيده و لا بلسانه و لكن بقلبه[5] .

---

(١) التحرير و التنوير (١١١/٩) .

(٢) التحرير و التنوير (١١١/٩ ، ١١٣) .

(٣) تفسير الكشاف (١٦١/٢) وانظر : (التحرير) (٢٩٢/١٦) .

(٤) التفسير الكبير (١٠/١٥) .

(٥) نهر الخير على أيسر التفاسير : أبي بكر الجزائري (٢٤٢/٢) .

تاسعا : قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعراف:١٥٢] .

يرد عليها سؤال وهو : أن أولئك الأقوام تاب الله عليهم بسبب أنهم قتلوا أنفسهم ، و إذا كان كذلك فكيف قال ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ...﴾ .

والجواب : أن ذلك الغضب إنما حصل في الدنيا قبل التوبة لا في الآخرة ، وأما قوله ﴿ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعراف:١٥٢] هو أنهم ضلوا فذلوا(١) .

فإن قيل : السين في ﴿ سَيَنَالُهُمْ ﴾ [الأعراف:١٥٢] للاستقبال ، فكيف يحمل هذا على حكم الدنيا ؟

والجواب : إن هذا الكلام كان سابقا على وقوعهم في القتل وفي الذلة ، وإن كان على ظاهره فهو مما كان يعير به اليهود بعد ذلك في زمن النبي ﷺ من فعل آبائهم(٢) .

رابعا : سورة طه :

قال تعالى ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ

(١) التفسير الكبير (١٥/١٢ : ١٣) .

(٢) انظر : (التفسير الكبير) (١٥/١٣) .

وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه:٨٣-٩٨] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : كيف قال موسى – عليه السلام – حينما سأله الله بقوله ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٨٣] بأن قدم ما لا يطابق السؤال وقال ﴿ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه:٨٤] .

والجواب : أن موسى – عليه السلام – بدأ بالاعتذار أولاً عما أنكره عليه ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾ [طه:٨٤] ثم عقب العذر بجواب السؤال عن السبب بقوله ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[1] [طه:٨٤] أي : طلب زيادة رضاك .

ثانياً : قوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ [طه:٨٨] .

نسب الصناعة إلى السامريّ ، و نسب القول لجماعتهم مع أن فيهم ممن لم يرضَ به ؟

والجواب : مثل ما قال في سورة الأعراف ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [الأعراف:١٤٨] كما مرّ[2] سابقاً ، ويضاف عليه أن ضمير ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ ﴾ [طه:٨٨] التفات[3] ، قصد القائلون به التبرئ من أن يكون إخراج العجل ؛ لأجلهم و إنما أخرجه لمن رغبوا فيه[4] .

ثالثاً : أن هارون كان حاضراً فخافوا أن يكذبهم وهو الذي قال لهم من قبل ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴾ [طه:٩٠] .

وانظر إلى حسن المقالة حيث زجرهم **أولاً** عن الباطل فقال ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ إلى معرفة الله ثانياً بقوله ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ ثم دعاهم **ثالثاً** إلى معرفة النبوة

---

(١) تفسير الرازي أنموذج جليل ص"٣٣٠" .

(٢) مر الكلام عليه عند قول الله : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [الأعراف:١٤٨] .

(٣) الالتفات هو : انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار و العكس - انظر : (علم المعاني ، البيان ، البديع) د/ عبد العزيز عتيق ص"٥٦١" ط دار النهضة العربية . أو أن يكون المتكلم آخذاً في معنى فيعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به ثم يعود إلى الأول في غير خلل . انظر : (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) - ابن رشيق القيرواني ، واسمه : (الحسن بن رشيق) (٦٣٦/١) ط دار المعرفة .

(٤) التحرير والتنوير (٢٨٦/١٦) .

بقوله ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ ثم دعاهم **رابعاً** إلى الشرائع بقولـه ﴿ وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِى ﴾ [طه:٩٠] وهذا هو الترتيب السديد ؛ لأنه لابد قبل كل شئ من إماطـة الأذى عـن الطريـق وهـو إزالة الشبهات ثم معرفة الله ثم النبوة ثم الشريعة[١] .

رابعاً : خص موسى – عليه السلام أخاه هارون بخطاب له لعلمه أنه لا يمكن أن يفعل ما فعل قومه ؛ إذ لا يجوز عليه ذلك ؛ لأن الرساله تقتضي العصمة ، فكان خطابـه له خطاب لوم وعتاب لبقائه بين عبدة الصنم ، فأخذ بلحيته ورأسـه يجرهمـا إليـه حتـى بيّن له هارون عذره من أولئك الظلمة .

خامساً : اختصت سورة طه بذكر اللحية ، فعلم أنها من سنن المرسلين .

وعطف الرأس على اللحية لأن أخذه من لحيته زيادة في اللوم و العتاب .

سادساً : انفردت سورة طه بذكر اسم صانع العجل وعقوبته حيـث ورد ذلـك في قوله تعالى ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴾ [طه:٩٥] . وهنـا يـاتي سؤالٌ ، لمَ أغلظ موسى – عليه السلام – الكلام لأخيه هارون و لم يغلظ للسامري ؟

والجواب : لأنه كان جاهلاً بالدين ، فلم يكن في ضلاله عجب . ولعل هـذا يؤيـد ما قيـل : إن السـامري لم يكـن مـن بـني إسـرائيل ؛ وإنمـا هـو مـن القبـط ، فـاندس في بني إسرائيل ، فلجهله لم يعنفه موسى ؛ لأن الأجدر بالتعنيف هم القـوم الذيـن عـاهدوا الله على الشريعة[٢] .

سابعاً : لم عاقب موسـى السـامري بعـد اعترافـه بفعلـه ، أمـا كـان الأولى نصحـه ودلالته للتوبة ؟

والجواب : لأن موسى أعلم بأن السامري لا يرجى صلاحـه فيكـون ممـن حقـت عليه كلمة العذاب ، ويكون الله قد أطلع موسى على ذلك بوحي أو إلهام .

مثل الذي قاتل قتالاً شديداً مع المسلمين وقال عنه النـبي ﷺ : « **أمـا إنـه مـن أهـل النار** »[٣] ، **ومثل ما أعلم النبي ﷺ حذيفة بن اليمان ببعض المنافقين**[١] .

---

(١) انظر : (التفسير الكبير) للرازي (١٠٦/٢٢) ؛ التحرير والتنوير (٢٩٠/١٦) .

(٢) التحرير و التنوير (٢٩٤/١٦) .

(٣) التحرير و التنوير (٢٩٧/١٦) ، والحديث في صحيح البخاري – كتاب الجـهاد – بـاب لا يقـولُ : فلان شهيد (٣٣١/٢) برقم [٢٨٩٨] ، ومسلم كتاب الإيمـان – بـاب غلـظ تحريـم قتـل الإنسـان نفسه (١٠٦/١) برقم [١١٢] .

ب – الآيات التي تحدثت عن عقوبة من طلب رؤية الله عزوجل :

أولاً : سورة البقرة :

قال تعالى عنهم : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ﴾ [البقرة:٥٥-٥٧] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : ذكرت الآية أنهم طلبوا رؤية الله (جهرة) و لم يقل : عياناً ، فما وجه ذلك ؟

والجواب : عموم الإظهار والمبالغة فيه ولايكون إلاّ إذا ظهر للجماعة الكثيرة ليزول الشك[٢] . ثم إن (جهرة) أفصح لفظاً ؛ لخفته ولسلامته من حرف الحلق والعلة وكذلك يجتبي البلغاء بعض الألفاظ على بعض لحسن وقعها وخفتها على السمع وللقرآن السهم المعلى في ذلك[٣] .

ثانياً : قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٦] فيه إيجاز بديع ، أي : فمتم من الصاعقة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ استجابة لدعاء موسى وشفاعته ، وعقابهم هذا عقاب دنيوى ينال الصالحين ، و يسمى عند بعض الناس عتاب ولاينافي الكرامه ، ومعلوم أن موسى – عليه السلام – سأل الله الرؤية فتجلى للجبل فاندك ؛ فخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك[٤] .

ثالثاً : في قولة تعالى ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة:٥٧] ترى أنه تقدم المفعول وهو (أنفسهم) على الفاعل وهو الضمير في (يظلمون) لإفادة القصر ، أي : قصر ظلمهم على أنفسهم حيث لم يتجاوز إلى غيرهم ، ولا إلى

=

(١) انظر : (فتح الباري) – كتاب فصائل الصحابة – باب مناقب عمار وحذيفة رضى الله عنهما (١١٦/٧) .

(٢) معنى جهرة عياناً لاشك فيه – الفروق اللغوية ص (٢٣٧) لأبي هلال العسكري (الحسن بن عبد الله العسكري) ط دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٤٠١ هجرية .

(٣) التحرير والتنوير (٥٠٧/١) .

(٤) التحرير والتنوير (٥٠٨/١) .

موسى ، ولا إلى الله عز وجل[1] .

ثانيا : سورة النساء :

قال تعالى ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾ الآية [النساء:١٥٣] .

ما في الآية من لطائف غير ما سبق :

أولا : الفرق بين هذه الآية وآية سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة:٥٥] أن سورة البقرة كان الكلام فيها عن بني إسرائيل (موسى) – عليه السلام – أما ، هنا فالحديث عن بني إسرائيل « محمد ﷺ » أي : اليهود الذين كانوا بالمدينة يكررون نزعة أسلافهم في كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم .

ثانيا : في سؤالهم موسى – عليه السلام – رؤية الله جهرة ما أرادوا التلذذ برؤية الله – عز وجل – ولا التنعم بالمشاهدة ، وإنما أرادوا النظر تعجبا فقالوا ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء:١٥٣] و لم يقولوا : ليتنا نرى ربنا[2] .

ثالثا : أن الظلم المحكى هنا هو الظلم المحكى في سورة البقرة ؛ حيث امتنعوا عن تصديق موسى إلا أن يروا الله جهرة ، وليس الظلم لمجرد طلب الرؤية .

لأن موسى قد سأل مثل سؤالهم و لم يسم قوله ظلما ، قال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ ﴾[3] [الأعراف:١٤٣] .

ج : الآيات التي ذكرت عقوبة بني إسرائيل في صحراء سيناء

أولا : سورة البقرة :

قال تعالى ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟

(١) أيسر التفاسير (٥٨/١) الحاشية المسماة : نهر الخير .

(٢) التحرير و التنوير (١٥/٤) .

(٣) التحرير و التنوير (١٥/٤) .

مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝﴾ [البقرة:٦٠-٦١] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : تدل الآيات على كفر قوم موسى النعم ، بدليل أنهم لم يعتبروا بما أصابهم من ذل الاستعباد .

ثانيا : عاقبهم الله - تعالى - بأن ضرب عليهم الذلة والمسكنة ، أي : الذل والفقر وأحل بهم غضبه .

وهذا يعنى أن موسى - عليه السلام - حين قال لهم ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة:٦١] قال ذلك على سبيل التأنيب و التوبيخ[1] .

ثانيا : سورة الأعراف :

قال تعالى ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف:١٦٠]

لطائف الآية غير ما سبق :

أولا : أخبر الله أنه قسم بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة قسما في أول هذه الآية و لم تذكر ذلك آية البقرة .

ثانيا : ذكر هنا أن قومه استسقوه ، وفي سورة البقره أنه استسقى ربه فكيف يجمع بينهما ؟

(١) نصر هذا القول صاحب الظلال بسبب ما أعقبه من السياق الذي يتضمن ضرب الذل والمسكنة على بني إسرائيل ، ويذكر أن هذا وإن كان تاريخيا متأخرا عن هذه الحادثة إلا أن السياق القرآني ذكره تذكيرا لهم بالذل في مصر وبالنجاة ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان - انظر : (في ظلال القرآن) - (٧٤/١ - ٧٥) .

والجواب : أن كلاهما حصل[1] ، قومه استسقوه حين عطشوا فاستسقى ربه .

ثالثا : قال هنا ﴿ فَٱنۢبَجَسَتۡ ﴾ وقال في سورة البقره ﴿ فَٱنفَجَرَتۡ ﴾ فما الفرق ؟

والجواب : قال الراغب : الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شئ ضيق ، والإنفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شئ واسع[2] .

رابعا : كيف قال ﴿ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ ﴾ [البقرة:٦١] وطعامهم كان المن والسلوى وهما طعامان ؟

والجواب : أنه غير متبدل وإن كان نوعين[3] .

خامسا : كيف قال ﴿ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ﴾ [البقرة:٦١] وقتلهم لا يكون إلا بغير الحق ؟

والجواب : أن التصريح بصفة فعلهم القبيح أبلغ في ذمهم . وإن كانت تلك الصفة لازمة للفعل كما في عكسه ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ ﴾ [الأنبياء:١١٢] لزيادة معنى في التصريح بالصفة[4] .

د - الآيات التي ذكرت عقوبة الذين بدلوا أمر الله قولا غير الذين قيل لهم :

أولا : سورة البقرة :

قوله تعالى ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ[5] سُجَّدٗا[6] وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى

(١) تفسير المنار (٣٦٦/٩) .

(٢) نفس المصدر (٣٦٦/٩) عن مفردات الراغب ص (٣٤) ، وانظر : (كشف المعاني ص"٩٨،٩٩" ؛ ملاك التأويل (٢١٢/١) ؛ تفسير الألوسي (٢٧١/١ ، ٨٨/٩) .

(٣) تفسير الرازي المسمى أنموذج جليل ص"٢٥" .

(٤) تفسير الرازي المسمى أنموذج جليل ص"٢٥" .

(٥) ذكر الباب يحتمل الباب حقيقة - ، ويحتمل منه القرية نفسها كما في الآية وذلك في اللغة جائز - يقال : فلان دخل باب كذا لا يعنون حقيقة الباب و لكن كونه في أمر هو فيه .

(٦) ذكر سجدا - يحتمل حقيقة السجود ، ويحتمل الأمر بالخضوع له - تفسير القاسمي (١٣٤/١) .

ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [البقرة:٥٨-٥٩] .

لطائف الآيات :

أولا : تذكر الآيات أول تجربة عملية مع بني إسرائيل وهم في طريقهم إلى الأرض المقدسة ؛ حيث أمرهم الله بدخول قرية في طريقهم فدخلوها يزحفون على أستاههم وقالوا : حبة في شعرة[1] . ومعنى حبة : أننا نحتاج إلى الأكل ، وشعره - كلام لامفهوم له ، قصدهم منه خلاف ماأمرهم الله به[2] .

ثانيا : قوله ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ [البقرة:٥٩] وقوله ﴿ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) إشارة لحديث « **قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا : حطة حبة في شعره** » الحديث رواه البخاري كتاب التفسير - باب (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) برقم [٤٤٧٩ ، ٤٦٤١] (٢٠٨/٨ ، ٣٨٧) .

(٢) انظر : (تفسير المنار) (٣٢٤/١) . بقي مسألة حول هذا الأمر الذي نحن بصدده وهو : من خلال ما رأيت أن كثيرا من المفسرين ذكروا أن المقصود بالقرية هي بيت المقدس أو الأرض المقدسة المذكورة في سورة المائدة مستقلة ، وهذا مما يرد عليه مجموعه من الاعتراضات هي :

١- أن دخول الأرض المقدسة كان آخر موقف لبني إسرائيل مع نبيهم موسى - عليه السلام - وعوقبوا بعد امتناعهم من دخول الأرض المقدسة بالتيه في حين أن سورتي البقرة والأعراف ذكرتا مواقف كثيرة لبني إسرائيل مع موسى بعد هذا الموقف - مثل استسقاء موسى لقومه ورفع الطور وكرههم الطعام الواحد ...الخ

٢- أن حديث البخاري المروى آنفا ينص على أنهم دخلوا القرية على أستاههم ، والمعلوم أن بني إسرائيل لم يدخلوا الأرض المقدسة إلا مع يوشع بن نون عليه السلام .

٣- أن العقاب الذي أوقع بهم هنا كان الرجز . بينما كان عقاب من امتنع عن دخول الأرض المقدسة هو التيه .

٤- دعا موسى على قومه وسماهم فاسقين حين أبوا دخول الأرض المقدسة ؛ بينما هنا لم يدع عليهم ؛ بل صبر عليهم حتى أوقع الله بهم عقابه .

٥- لا يخفى على ذي لب الفرق بين الخطاب هناك والخطاب هنا ، فهناك قال ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ [المائدة:٢١] بينما هنا يخاطبهم الله مرة بقوله ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ﴾ [البقرة:٥٨] ومرة يقول ﴿ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ﴾ [الأعراف:١٦١] لكل هذه الأمور المستفادة من الآيات يتبين أن الأمر بدخول القرية اختبار لبني إسرائيل في طريقهم إلى الأرض المقدسة .

انظر : - (العبرة من قصة موسى) - محمد خير عدوي - رسالة ماجستير ص "٤٧٩-٤٨٠" .

وانظر : - أحكام من القرآن الكريم - ابن عثيمين ص"٢٣٣" حيث قال في تفسير ﴿ ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ [البقرة:٥٨] هي القرية التي فتحوها قيل لهم : ادخلوها .

ظَلَمُواْ ﴾ [البقرة:٥٩] ما سر تكرار الذين ظلموا دون استعمال الضمير هنا ؟

والجواب : زيادة في تقبيح أمرهم ، وإيذان بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم .

ثالثا : ما سبب التخصيص في قوله تعالى ﴿ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة:٥٩] ؟

والجواب : أن العذاب ضربان :-

ضرب يمكن أو يظن دفاعه كعذاب الآدمي للآدمي - أو من جهه المخلوقات كالهدم والغرق ، وضرب لا يمكن دفاعه - كالطاعون والصاعقة - والموت وهو المعني به هنا .

ثانيا : سورة الأعراف :

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٦١-١٦٢] .

الفرق بينها وبين ما ذكر في سورة البقرة[1] .

أولا : قال هنا ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ وفي سورة البقرة قال ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ فما الفرق ؟

والجواب : أن الخطاب وجه أولا لأهل مكة والكلام فيه عن غائب ، والأصل أن يذكر ضميره فيه فقال (لهم) .

أما في سورة **البقرة** فقال ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ والمعنى واحد ، إذ المعلوم أن القائل هو الله تعالى . وقد روعي فيها السياق حيث قال قبلها ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ ... ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا ﴾ [البقرة:٥٠-٥١] فناسب أن يقول (وإذ قلنا) .

ثانيا : لم يقل فيها (لكم) كما قال هنا (لهم) لأن الخطاب لأسلافهم ، ثم فيه أيضا تذكير لهم بما تقوم به الحجة عليهم .

ثالثا : قال ههنا ﴿ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [الأعراف:١٦١] وفي سورة **البقرة** قال ﴿ ٱدْخُلُواْ ﴾ [البقرة:٥٨] فما الفرق ؟

---

(١) تفسير المنار (٣٧١/٩ :٣٧٤) - وانظر : (ملاك التأويل) (٢٠٤/١ : ٢١١) ؛ البرهان في متشابه القرآن ص"١٢٣،١٢٤" .

والجواب :- أن السكنى تستلزم الدخول ولاعكس – وتظهر فائدة اختلاف التعبير في الفعلين بما يليهما من العطف عليهما بـ ﴿ وَكُلُواْ ﴾ مرة وبالفاء أخرى فما الفرق ؟

والجواب : أنه عطف الأمر بالأكل في سورة البقره بالفاء ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ [البقرة:٥٨] لأن الأكل يكون عقب الدخول - كأكل الفواكه والثمرات الموجودة في كل ناحية .

وأما السكنى أمرها ممتد ويكون الأكل في أثنائه لا عقبه ، فلذلك عطف عليه هنا بالواو التى تفيد الجمع بين الأمرين مطلقا بلا ملاحظة ترتيب ولا تعقيب ، وقد وصف الأكل بالرغد في سورة البقرة ، والتبشير به يناسب حال الدخول إذ الأمر لدى الداخل مجهول .

رابعا : في قوله تعالى هنا ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾[الأعراف:١٦١] وقدم في البقرة ما أخر هنا ، فما الفرق ؟

والجواب : أنه لايدل على طلب ترتيب بين الأمرين ؛ لأن العطف فيه بالواو الداله على طلب الأمرين مطلقا ، فلو كان التعبير واحدا في الموضعين لفهم أن المقدم في الذكر أهم ، أما وكان الاختلاف بينهما حاصلا ، فمعنى ذلك أنه لافرق بين تقديم هذا وتأخير ذلك وبين عكسه .

خامسا : قال هنا في الأعراف ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ﴾ [الأعراف:١٦١] قرئت (تغفر) بالتاء والفاء المفتوحة ورفع ﴿ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ﴾ وهو يناسب ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ [الأعراف:١٦١] وقرأ الجمهور نغفر بالنون وكسر الفاء ونصب ﴿ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ﴾ بكسر تائها وهو يناسب مابعده وهو كون ﴿ سَنَزِيدُ ﴾ [الأعراف:١٦١] للمتكلم المعظم ، والمعنى فيهما واحد ؛ لأن المخاطب الذي يغفر الذنوب واحد .

ثم إن كتابة الكلمتين في المصحف الإمام تحتمل كل ما ذكر في الكلمتين -وفائدة الاختلاف لفظية قصد منها التوسع في القراءة .

سادسا : قال هاهنا ﴿ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:١٦١] بدون واو وهو جواب سؤال كأنه قيل : وماذا بعد المغفرة ؟ والجواب : سنزيد المحسنين جزاء حسنا على إحسانهم ، وفي سورة البقرة ﴿ وَسَنَزِيدُ ﴾ [البقرة:٥٨] بالعطف حيث يدل الواو على كون هذه الزيادة تشارك المغفرة .

سابعا : قوله تعالى ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾[1] [الأعراف:١٦٢] وفيه زيادة (منهم) على مافي سورة البقرة ، فما سبب ذلك ؟

والجواب :

لما في ذلك من الحاجة إلى ربط الكلام بعضه ببعض ، وليكون موافقا لما ذكر في السورة من قوله ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ ﴾ [الأعراف:١٦٨] .

ثامنا : قوله تعالى ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة:٥٩] وقال هنا في الأعراف ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٢] فالاختلاف في الآيتين جاء في ثلاثة مواضع :

الأول : بين الإرسال والإنزال .

الثاني : بين المضمر ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ والمظهر ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ .

الثالث : بين يظلمون ويفسقون .

فالأول :- لأن لفظ الرسالة والرسول كثرت في سورة الأعراف فجاء ذلك وفقا لما قبله وليس كذلك في سورة البقرة .

والثاني :- أن قوله ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ في الأعراف يدل على عدم التصريح بنجاة غيرهم ، فكان العذاب خاصا بهم ، ولوقال :فأرسلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يظلمون ؛ لكان تكرار التعليل بالظلم منافيا للبلاغة القرآنية .

والثالث :- بين ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ ، ﴿ يَفْسُقُونَ ﴾ وفائدته بيان أن الظلم يلزم منه الفسق حيث كانوا جامعين بينهما ، أما الفسق فلا يلزم منه الظلم ، فناسب كل لفظ منهما سياقه ، وحسن أن هذه الزيادة فيه لأنها نزلت آخرا[2].

الآيات التي ذكرت عقوبة إعراضهم عن قبول التوراة :

أولا : سورة البقرة :

قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [البقرة:٦٣-٦٤] .

---

(١) انظر : (البرهان في متشابه القرآن) ص"١٢٤" ، تفسير المنار (٣٧٣/٩) .

(٢) انظر : (البرهان في متشابه القرآن) ص "١٢٤" ؛ كشف المعاني ص "٩٨" ؛ تفسير المنار (٣٧٤/٩) .

لطائف في الآيات :

أولا : في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ [البقرة:٦٣] و لم يقل : مواثيقكم مع أنه لهم جميعا ، فلم ؟

والجواب : لأنه أراد ميثاق كل واحد منهم مثل ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [غافر:٦٧] أي : يخرج كل واحد منكم طفلا(١).

ثانيا : رفع الجبل فوقهم تخويفا وإرهابا لهم حين عصوا أمر ربهم ورسولهم ، وكاد أن يسقط عليهم فسجدوا توبة لله فأخذوا التوراة بالميثاق(٢) .

ثالثا : في الآية يرد اعتراض هو : أن رفع الجبل عليهم وأمرهم بأخذ التوراة إكراه على الإيمان وإلجاء إليه وذلك ينافي التكليف ، فكيف ؟

والجواب من وجهين(٣) :

الوجه الأول : إن ما يفعل بالإكراه يعود اختياريا بعد زوال ما به الإكراه .

الوجه الثاني : إن مثل هذا الإلجاء والإكراه كان جائزا في الأمم السابقه، وأن نفي الإكراه في الدين كما في الآية ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦] خاص بالإسلام .

ثانيا : سورة النساء :

قال تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾(٤) [النساء:١٥٤] .

ثالثا : سورة الأعراف :

قال تعالى ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٧١] .

ما في الآيات من لطائف :

أولا : نتقنا الجبل أي : قلعناه من موضعه – وأصل النتق في اللغة : قلع الشيء من موضعه والرمي به(٥) .

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٠٧/٣) ؛ وانظر : (التفسير المنير) (١٨٠/١) .

(٢) تفسير الطبري (١٥٧/٢) .

(٣) تفسير المنار (٣٤٠/١) .

(٤) وقد تقدم الكلام عليها بما فيها من تقديم و تأخير عند قوله تعالى ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [الأعراف:١٦١] وأما قوله ﴿ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ ﴾ [النساء:١٥٤] فالخطاب جاء تذكيرا لليهود بما فعله أسلافهم وسيأتي الكلام على ذلك عند قول الله تعالى ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ [الأعراف:١٦٣] .

(٥) التفسير الكبير للرازي (٤٥/١٥) ؛ وانظر : مفردات الراغب ص (٥٠٣) .

إذا فمعنى ﴿ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ ﴾ أي : قلعناه من أصله وجعلناه فوقهم كأنه ظلة كالسقيفة ، والظلة : كل ما أظلك من سقف أو سحابة أو جناح حائط ، والجمع : ظلل وظلال .

إذا فلا منافاة بين قوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ ﴾ [النساء:١٥٤] وبين ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ﴾ .

ثانيا : ما جاء هنا في سورة الأعراف من نتق الجبل ورفعه فوقهم وأيقنوا بوقوعه عليهم زاد ما في سورة البقرة إيضاحا وتفسيرا[1] ، والقرآن يفسر بعضه بعضا .

و - الآيات التي ذكرت عقوبة عناد بني إسرائيل في ذبح البقرة :

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة:٦٧-٧٤].

مافي الآيات من لطائف :

أولا : كان سبب قصة ذبح بقرة بنى اسرائيل هو تخاصمهم وتدافعهم في أمر قتيل قتل لايدرى من قتله .

ثانيا : ذكر قتل القتيل وإحيائه من بعد موته جاء متأخرا عن القصة ، وهذا من قبيل التأخير لفظا والتقديم معنى للتشويق في معرفة سبب ذبح البقرة[2] ، أو أن آيات

---

(١) انظر : (ملاك التأويل) ص"٢٢٣" .

(٢) التفسير الكبير (١٢٣/٣) حيث قال : قدمت قصة الذبيح لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولو كانت واحدة لذهب الغرض من بينية التفريع . وانظر : (التفسير المنير) (١٨٩/١) .

البقرة سبقت لبيان النعم فناسب تقدم ذكر النعمة على ذكر الذنب[١] .

ثالثا : أسند القتل لليهود المعاصرين للنبي – صلى الله عليه وسلم – لأنهم من سلالة السابقين وهم معتزون بنسبهم راضون بفعلهم – فكأنهم شاركوهم في ذلك[٢] .

رابعا : أن الله – تعالى – قادر على إحياء الميت دون الضرب ببعض البقرة ، فما فائدة الأمر بذبحها لذلك ؟

والجواب : فائدة ذلك ترتيب الأشياء على أسبابها لما اقتضته حكمته تعالى ، ثم لجبر اليتيم صاحب البقرة بما حصل له من ثمنها[٣] .

خامسا : أمر الله بني إسرائيل حين سألوا موسى في أمر القتيل أن يذبحوا بقرة ، وللعاقل أن يتأمل العلاقة بينها وبين عبادتهم للعجل .

سادسا : في قوله تعالى ﴿ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾ [البقرة:٧١] قد يقال : إن فيها عيبا لأنها لاتقدر على أن تثير الأرض أو تسقى الحرث – فكيف ؟

والجواب : أن الله بين بعدها أنها ﴿ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ [البقرة:٧١] أي : سليمة من العيوب وآثار العمل ، وهذا يسمى بالاحتراز أو الاحتراس في علم البلاغة[٤].

سابعا : قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ ﴾ [البقرة:٧٤] كلاهما في المعنى واحد ، فما فائدة الثاني ؟

والجواب : فائدة هذا الوصف معذرة منه تعالى لها لأن منها ما هو ألين من قلوبهم لما يدعون إليه من الحق[٥] .

ثامنا :– لم شبه الله قلوب بنى اسرائيل بالحجاره في قساوتها أو أشد دون الحديد ؟

والجواب : لأن الحديد قد يلين مع النار ، لكن الحجارة لاتلين ، فقلوبهم كالحجارة

---

(١) كشف المعاني ص"١٠٢" .

(٢) انظر : (التفسير المنير) (١/١٩٠) .

(٣) كشف المعاني ص (١٠٢) ـ وانظر : (التفسير الكبير) (٣/١٢٥) .

(٤) أحكام من القرآن ، محمد ابن عثيمين ص"٢٨٨" ـ وقد جاء في القرآن في مواقع منها آية ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ ﴾ قال بعدها – ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٩] ، وآية ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ ـ قال بعدها – ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الحديد:١٠] ومعنى الاحتراس : أن يؤتى بلفظ في الجملة إما مبالغة وإما احتياطا واحتراسا من التقصير . انظر : (العمدة في محاسن الشعر) (١/٦٤٥) .

(٥) انظر : تفسير الطبري (٢/٢٣٩،٢٤٠) .

أو أشد . بل إن الحجارة خير من قلوبهم ، لأن الحجارة يخرج منها ما فيه منافع للناس كما ذكر الله[١] .

- **الآيات التي ذكرت عقوبة أهل التيه :**

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ﴾ [المائدة:٢٠-٢٦].

مافي الآيات من لطائف :

أولا : كيف قال ﴿ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ [المائدة:٢٠] ولم يكونوا كلهم ملوكا ؟

فالجواب : إما أن المراد : جعل فيكم ملوكا ، وهم ملوك بنى اسرائيل ، أو المراد : أنه رزقهم المنازل الواسعة التي فيها المياه الجارية ، أو المراد به أنه رزقهم الصحة والكفاية والزوجة الموافقه والخادم والبيت فسماهم ملوكا لذلك[٢] .

ثانيا : من أين علم الرجلان أنهم غالبون ؟

---

(١) أحكام من القرآن ص"٢٨٠" - وانظر : (التفسير الكبير) (١٢٩/٣) .

(٢) تفسير الرازى - أنموذج جليل ص"١١٢" ، وانظر : درة التنزيل ص"٨٢" ، وقد جاء في تفسير ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ [المائدة:٢٠] قال عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن الحكم أو غيره عن ابن عباس قال : الخادم والمرأة والبيت ، وروى الحاكم في مستدركه من حديث الثوري أيضا عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : المرأة والخادم ، وعن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمي ملكا .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أنبأنا هانئ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحنبلي يقول : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال : ألك مسكن تسكنه ، قال : نعم ؛ قال : فأنت من الأغنياء ، فقال : إن لي خادما ، قال : فأنت من الملوك .

وروى ذلك عن الحسن وزيد بن أسلم وهو في صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقاق (٢٢٨٥/٤) برقم [٢٩٧٩] .

فالجواب : علموا من جهة وثوقهم بإخبار موسى – عليه الصلاة والسلام – فذلك قوله ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة:٢١] أو علما بذلك بغلبة الظن وما عهداه من صنع الله تعالى بموسى – عليه الصلاة والسلام – في قهر أعدائه .

ثالثا : قوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] يدل على أن من لم يتوكل على الله لا يكون مؤمنا ، وإلا لضاع التعليق (أي : الشرط) وليس كذلك فكيف ؟

فالجواب : أن (إن) هنا بمعنى (لأن) فتكون بمعنى التعليل كما في قوله تعالى ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[1] [البقرة:٢٧٥] .

رابعا : كيف نوفق بين قوله تعالى ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة:٢١] وبين قوله ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [المائدة:٢٦] ؟

فالجواب : من وجوه :

الأول : كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها ، فإن أبيتم فإنها محرمة عليكم .

الثاني : أن المراد تحريمها عليهم أربعين سنة فإذا مضت الأربعون كان ما كتب لهم .

والذي أميل إليه منها أنه بعد الأربعين دخلها الطائعون ممن بقي منهم وذرية من مات منهم .

خامسا : إن قيل : كيف يعقل بقاء هذا الجمع العظيم في مفازة أربعين سنة دون أن يستطيعوا الخروج منها ، فلو وضعوا أعينهم على حركة الشمس أو الكواكب لخرجوا ، ولوكانوا في بحر عظيم ، فكيف في المفازة الصغيرة ؟

فالجواب : أن انخراق العادات في زمان الأنبياء غير مستبعد ؛ لأننا إذا فتحنا باب الاستبعاد لزم الطعن في جميع المعجزات[2] .

سادسا : قوله تعالى على لسان موسى ﴿ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ ﴾ [المائدة:٢٥] فما معنى الملك هنا الجواب : أن مراده : إني لا أملك إلا نفسي ، وأخي أيضا لا يملك إلانفسه ، فلا قدرة لي ولا له على بني إسرائيل – وليس معناه : الاستعباد إذ هو أخوه فكيف يملكه[3] .

---

(١) تفسير الرازي أنموذج جليل ص"١١٣" ، وانظر : (الكشاف) (٣٢٢/١) .

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٠٢/١١) .

(٣) حاشية أيسر التفاسير (٦١٨/١) مكتبة دار العلوم و الحكمة .

المطلب الثاني والثالث : سبب العقوبة (ونوعها)

لعقوبة بني إسرائيل عدد من الأسباب ، نجمل ذلك فيما يلي حسب ما أقتضاه كل موقف لا العرض التاريخي ؛ لأن القصد هو الاعتبار بما حصل لهم وجني الدروس المستفادة منها(١) .

الأول : عبادتهم للعجل وعقوبة صانعه .

الثاني : طلبهم رؤية الله – عز وجل – وإعراضهم عن قبول التوراة .

الثالث : تبديلهم أمر الله قولا غير الذي قيل لهم .

الرابع : كفرانهم لنعم الله ورغبتهم في الرجوع إلى الذل .

الخامس : مراوغاتهم وتملصهم في عدم ذبح ما أمروا به .

السادس : امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة .

وإليك بيان كل سبب باختصار .

أولا : عبادتهم العجل .

لبيان هذا السبب سوف نربطه بموقفين على ضوء ما ذكر القرآن عنهم :

الموقف الأول : قولهم لموسى عليه السلام ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف:١٣٨] .

الموقف الثاني : أمر الله لهم بذبح بقرة حين قتل قتيل منهم لا يدرى من قتله .

قولهم لنبيهم ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف:١٣٨] .

قال تعالى : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ

---

(١) قال صاحب صفوة الآثار : « إن الله تعالى لم يراع الترتيب في سرد أحوالهم ومواقفهم وتنويع نعمه عليهم ، لأنه لما كان يريد العظة والاعتبار جعل بيانه لنعمه عليهم متصلا بأسبابها ، منفصلا عن أوقاتها .

وقد اعترض بعض أعداء القرآن عليه بعدم ترتيب ما فيه من القصص ، كتأخيره مثلا لذكر الاستسقاء وضرب الحجر ، مع أنه كان متقدما على دخول القرية ، فأجابهم علماؤنا بما تقدم ، وبأن القرآن لم يقصد التاريخ وسرد الوقائع بمواقيتها مرتبة ، لأن هذا قد يخالف لوازم الهداية ومواقع العظة والاعتبار ، والقرآن كتاب هداية لا كتاب تاريخ ، فهو يعنى ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب منها وببيان النقم بعللها ليحذر منها ، فكانت طريقة القرآن أبلغ في التذكير والتأثير » صفوة الآثار (١٤٢/٢) .

ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤١] .

في الآية تذكير لبني إسرائيل بنعم الله - تعالى - عليهم بعد أن أغرق عدوهم ونجاهم من أعدائهم وخلصهم من عبوديتهم الذليلة إلى حرية الاستقلال من بعد الضلال إلى استقامة الفطرة وربطها بخالقها عز وجل من جديد - ولكن انظر بم قابل بنو إسرائيل هذه النعم العظيمة ؟.

بعد خروجهم من البحر سالمين قد شفى الله صدورهم من عدوهم أمام أعينهم ينسونها وبسرعة لنظرة عابرة نفذت إلى قلوبهم من قوم يعبدون أصناما لهم — فظنوا أن ذلك لا يقدح في العبودية لله وحده . عندها يغضب موسى لله تعالى ويقول في الحال ﴿ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٨] فوصفهم بالجهل المطلق وأكده ، فلا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع ، ثم واصل تأنيبه لهم وإنكاره الشديد عليهم لعل من به رشد منهم أن يثوب إلى رشده فقال ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٩] أي : مدمر ومهلك وباطل زاهق ومضمحل زائل — وما أدعوكم إليه فيه عزكم ونجاتكم وسعادتكم فقد فضلكم على العالمين وشرفكم على سائر الخلق أجمعين ، أفهكذا يكون شكركم له ؟(١) ومن فضل الله عليكم ونعمه أن أنجاكم من عدوكم وأخرجكم سالمين بعد أن كنتم مستضعفين ذليلين لا تستطيعون دفعا عن أنفسكم ولا عن أولادكم ، وهذا يتطلب منكم الشكر لا الكفر .

ثم إن موسى - عليه السلام - حين أرسل لم يرسل إلا لتخليصهم من عبادة غير الله ، فلو لم يكونوا جهلة بحق لما طلبوا منه ذلك .

والواقع الذي لا يتصور غيره أن استمراءهم الذل والمهانة في ظل العبودية هو الذي جعلهم ينسلخون من كل ما يمكن أن يرفع من قدرهم إلا من رحم الله ، وما الذل الذي نزل بهم إلا نقمة من الله أصابتهم لتركهم دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - فلا عجب أن يطلبوا من نبيهم ذلك ، وقد مر معنا من قبل كيف تجرأوا وقالوا لموسى عليه السلام ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ ﴾ [الأعراف:١٢٩]

---

(١) هذا التفضيل : خاص بزمانهم الذي كانوا فيه مع أنبيائهم وهم صالحون . انظر : (تفسير ابن كثير (٩٢/١) ؛ حاشية أيسر التفاسير (٢٣٢/٢) .

وهذا يدل على استعجالهم وعدم صبرهم . وإلا فقد رأوا من الآيات والعبر ما يكفيهم لو كانوا طلاب حق ، ثم قالوا له بعد ذلك حين طلب منهم ذبح بقرة ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ [البقرة:٦٧] وهذا غاية الجهل بالنبوة ، إذ الأنبياء يستحيل عليهم الهزء ألبتة لأنهم معصومون ، ثم قالوا له بعدها ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [البقرة:٦٨] فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك – ثم يقولون في نهاية القصة ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة:٧١] كأنما كان كل ما مضى ليس حقا . أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة[١] ؛ وفي آخر المطاف يأبون دخول الأرض المقدسة ويعصون أمر الله وأمر رسوله فيدعو عليهم نبيهم ، فقد آن الآوان إلى المفاصلة وانتهى دور المجادلة فقد أصبحوا فاسقين حقا ، فقوم هذا حالهم لا غرابة إذا طلبوا عبادة العجل لأنهم كما قال نبيهم : قوم يجهلون .

وبعد طلبهم وتربية موسى لهم وإخبارهم بما يؤدي إليه من الشرك أخذ في وعظهم لتلقي أوامر الله – عز وجل – ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى ؛ بل يبدو أنهم لم يقتنعوا بذلك ، فما إن غاب موسى – عليه السلام – عنهم حتى قاموا بصنع إله لهم يعبدونه من دون الله ، حين كان موسى يتلقى من ربه الأوامر والنواهي ويتلذذ بخطاب الله تعالى في مواعدته إياه ليتلقاه ويتلقى عنه – قال تعالى ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف:١٤٢] أخرج الديلمي عن ابن عباس يرفعه « **لما أتى موسى – عليه السلام – ربه – عز وجل – ، وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين وقد صام ليلهن ونهارهن ، كره أن يكلم ربه – سبحانه – وريح فمه ريح فم الصائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذي كان ، قال : أي رب ، كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الرائحة ، قال : أوما علمت يا موسى ، أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ؟ ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتني ، ففعل موسى – عليه السلام – الذي أمره ربه وذلك قوله سبحانه ﴿ وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ ﴾** »[٢] وفي هذه المدة عاد حلمهم الأول إليهم ؛ ليقول للسامري : اصنع عجلا لهم يعبدونه حتى يرجع إليهم موسى عليه السلام ، وقد أخبر الله موسى – عليه

(١) في ظلال القرآن (١/٧٨ : ٧٩) .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم لسورة الأعراف بتحقيق حمد بن أبي بكر (٢/٤٧٠) رسالة ماجستير وقال : « إسناد الحديث حسن » – انظر : (الدر المنثور) (٣/٢١٥) ؛ روح المعاني (٩/٤٢) .

السلام — أن قومه افتتنوا بصنع صنم لهم وادعوا أنه إلههم وإله موسى — فرجع موسى إليهم و لم تكن اتضحت حقيقة هذه الفتنة التي أصابت قومه له إلا حين رجع ؛ لأن المعاينة أشد من السماع[١] ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف:١٥٠] من شدة الغضب – وحق له أن يغضب ويغضب لله عز وجل .

ألقى الألواح ليس عن استهانة بها[٢] ؛ وإنما لهول ما رأى ، وحاشاه أن يفعل ذلك! وهو الذي اشتد غضبه على قومه لله — تعالى — غيرة لله وغضبا له ، وكان هارون — عليه السلام — قد نهاهم عن ذلك ولكنهم لم يستجيبوا له و لم يأبهوا به ؛ بل كادوا يقتلونه[٣] .

والظاهر من سياق الآيات أن موسى – عليه السلام – خاطب فئتين من قومه : الفئة الأولى : المؤمنة ؛ وكان يود أن يكونوا أشد غضبا لله مما فعلوا فخاطبهم بقوله ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [الأعراف:١٥٠] فلم لا تكفوا عبدة العجل عما فعلوا بعد ما رأيتم مني من حملهم على توحيد الله وتنزيهه عن الشركاء وإخلاص العبادة له؟[٤]

والفئة الثانية وهم : عبدة العجل ؛ حيث اشتد غضبه عليهم قائلا ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ [طه:٧٧] بعبادة العجل وكنتم من قبل على

(١) وفي الحديث الذي رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « **يرحم الله موسى ، ليس المعاين كالمخبر ، أخبره ربه ـ عز وجل ـ أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح** » أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير (تفسير سورة الأعراف) (٣٥١/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ، وأقره الذهبي.

(٢) قال ابن كثير (٢٥٨/٢) في تفسير ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ : ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبا على قومه ، وهذا قول جمهور العلماء سلفا وخلفا – ، وألقاها و لم تتكسر ، و لم يثبت في خبر صحيح أن الألواح تكسرت عندما ألقاها . قال القرطبي : قال أبو الفرج بن الجوزي : من يصحح عن موسى – عليه السلام – أنه رماها رمي كاسر ؟ والذي ذكر في القرآن ألقاها ، فمن أين لنا أنها تكسرت اهـ (٢٨٨/٧) وقال الفخر الرازي (١١/١٥) : ليس في القرآن إلا أنه ألقى الألواح ، فأما أنه القاها بحيث تكسرت ، فهذا ليس في القرآن ، وإنه لجراءة عظيمة على كتاب الله ، ومثله لا يليق بالأنبياء عليهم السلام : قلت : لم أجد ما قاله القرطبي في تفسيره من موضعه فلعله أخذها من مصادر أخرى .

(٣) راجع لطائف آيات سورة الأعراف رقم (٨) .

(٤) روح المعاني (٦٦/٩) .

التوحيد الذي تركتكم عليه بوعد منكم ونسيتم ما وعدنا الله من النصر ودخول الأرض المقدسة ، أنسيتم نعم الله وعهده عليكم وما بالعهد من قدم ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [طه:٨٦] أم بمعنى : بل ، أي : بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم[١] .

فاعتذروا بأنهم مغلوبون على أمرهم من السامري الذي أغراهم بكيده وأضلهم بفعله وأغراهم بعبادة ما صنع فقالوا : ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ [طه:٨٨].

سبب عقوبة صانع العجل :

ذكر الله – تعالى – أن اسمه (السامري) في قوله تعالى : ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ [طه:٨٧] وفي قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴾ [طه:٩٥] صنع السامري العجل من حلي بني إسرائيل (وقد كان صائغا) ، وللمفسرين – رحمهم الله تعالى – كلام كثير حول كيفية صناعة العجل وخواره ، وأقوالهم في ﴿ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [طه:٩٦] مما ينزه عنه كلام الله تعالى ، ومصدرها أهل الكتاب ، وفيهم كما قال ابن كثير كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة[٢] ، وأقرب الأقوال وأولاها ، ما ذكره الرازي المفسر عن أبي مسلم الأصفهاني[٣] حيث قال : ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكره المفسرون[٤] ، فها هنا وجه آخر وهو : أن يكون المراد بالرسول موسى – عليه السلام – وبأثره سنته ورسمه الذي أمر به .

فقد يقول الرجل : فلان يقفو أثر فلان ، ويقبض أثره إذا كان يمتثل رسمه ، والتقدير : أن موسى – عليه السلام – لما أقبل على السامري باللوم والمسئلة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم فقال : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ [طه:٩٦] ، أي : علمت أن الذي أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أي : شيئا من سنتك ودينك ، وأخذت قبضة من ذهب المصريين وطرحته في النار ثم صنعت العجل ، فعند ذلك أعلمه موسى – عليه السلام – بما له من العذاب في الدنيا

(١) انظر : (تفسير ابن كثير) (٢/٢٥٨) ؛ التفسير الكبير (٢٢/١٠٢/١٠٣) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٢٥٨) .

(٣) اسمه : محمد بن (مسلم بن) بحر الأصبهاني ، كان كاتبا بليغا ومتكلما جدلا عالما بالتفسير له كتاب (جامع التأويل لمحكم التنزيل على مذهب المعتزلة) . انظر : (الفهرست لابن النديم محمد بن أبي يعقوب) ص"١٥١" . ط دار المسيرة .

(٤) انظر مثلا : تفسير الخازن (٣/٢١١) ؛ تفسير القرطبي (١١/٢٣٩ ، ٢٤٠) ؛ ابن كثير (٣/١٧٢) ؛ روح المعاني (١٦/٢٥٣) .

والآخرة . وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير في كذا ؟ وبماذا يأمر الأمير ؟ .

وأما دعاؤه موسى – عليه السلام – رسولا مع جحده وكفره فعلى مثل مذهب من حكى الله عن قوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر:٦] وإن لم يؤمنوا بالإنزال[1] . وقال صاحب الظلال : « والقرآن لا يقرر هنا حقيقة ما حدث ؛ إنما هو يحكي قول السامري مجرد حكاية ... ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذرا من السامري وتملصا من تبعة ما حدث . وأنه صنع العجل من الذهب الذي قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التي أخذوها معهم ، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تحدث صوتا كالخوار ، ثم قال حكاية أثر الرسول يبرر بها موقفه ، ويرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول ! » .

ب – نوع عقوبة عبدة العجل :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٢] .

في الآية يبين الله – جل وعلا – نقمته في الدنيا والآخرة على من صنع العجل أو عبده أو رضى به – ونعني هنا بعذاب الآخرة لمن لم يقبل الله توبته كالسامري ومشايعيه في هذا الأمر ، فهم مستثنون من آيات التوبة كما استثني إبليس اللعين .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه:٩٥-٩٧] – الآية الأخيرة صريحة في أنه لا توبة للسامري[2] ، وإن تاب فإن الله لا يتوب عليه مع أن شأنه تعالى رحمته بعباده لكنه رفع عنهم الرحمة ؛ لكونهم ليسوا بأهل لها ، وأحل مكانها سخطه وغضبه عليهم فأذلهم في الدنيا وادخر لهم في الآخرة ما يناسب مقامهم من العذاب .

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١١١/٢٢) .

(٢) راجع لطائف آيات سورة طه رقم (٦) .

فأما في الدنيا : فقد أخرجه سيدنا موسى - عليه السلام - من بين بني إسرائيل وقال له ﴿ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ ﴾ [طه:٩٧] أي : اذهب مطرودا لا يمسك أحد ولا تمس أحدا . وأمر بني إسرئيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه - وكانت هذه إحدى العقوبات في دين سيدنا موسى عليه السلام ، وهذه هي عقوبة النبذ من المجتمع أو العزل المدني وإعلان دنس المدنس فلا يقربه أحد[١] .

أما عقاب من اتخذوا العجل وتوبة الله عليهم فقد كانت أمرا عجبا يماثل كفرهم الأعجب :

قال تعالى ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٩] .

وهذا يدل على أنه بقي فيهم شيء من الاستعداد للعمل الصالح و لم تكن قلوبهم قست كما قست من بعد كما وصفهم الله العليم بهم . عندها تحركت فطرتهم وأيقنوا أنه لا ينقذهم إلا أن تدركهم رحمة الله ومغفرته قالوا ﴿ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٩] فكانت كفارة صنيعهم ما ذكر الله في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:٥٤] .

أخرج الطبري بسنده[٢] ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال موسى لقومه ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة:٥٤] أمر موسى قومه - عن أمر ربه

---

(١) انظر : (التفسير الكبير) (١١٣/٢٢) ؛ تفسير ابن كثير (١٧٢/٣) ؛ تفسير القاسمي (٩٠/١١) ؛ في ظلال القرآن (٢٣٤٩/٤) ؛ التفسير المنير (٢٧٢/١٦ ، ٢٧٣) .

(٢) السند (حدثني عبد الكريم بن الهيثم قال ، حدثنا إبراهيم بن بشار قال : حدثنا سفيان بن عيينة قال : قال أبو سعيد/عبد الكريم بن مالك الجزري عن عكرمة عن ابن عباس وكلهم ثقات - فعبد الكريم بن الهيثم ثقة مأمون - ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد (٧٨/١١ ، ٧٩) ، وياقوت في معجم الأدباء (١٥٤/٤) ، انظر : (تفسير ابن جرير) (٤٣/١) ، وإبراهيم بن بشار الرمادي أيضا ترجم له ابن حجر في التهذيب (٩٤/١) قال عنه البخاري : صدوق - وسفيان سبقت ترجمته معروف . وأبو سعيد ثقة متقن كما قال ابن حجر في التقريب ص (٣٦١) الراوي عن عكرمة عن ابن عباس ، فالأثر صحيح .

— عز وجل — أن يقتلوا أنفسهم ، قال : فاحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل ، وأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضا ، فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقي كانت له توبة[1] .

وهكذا فعلوا كما أمروا حيث كان عقاب ظلم النفس قتلها ، وأي ظلم أشد من أن يتخذ الإنسان مع بارئه وخالقه إلها يعبده ، كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] فأعظم الظلم أن يجحد الإنسان حق ربه حتى يجعل حقه لغيره فيعبد غير الله مثلما يعبد الله عز وجل - يقول لهم عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] أي : ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته ، ومن الإشراك به إلى توحيده ، ﴿ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] أي : ليقتل بعضكم بعضا ، وإنما عبر بقتل النفس لأن المؤمن أخو المؤمن ، فكأنه هو نفسه[2] ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] فإن توبتكم بما فعلتم فيها الخير عند الله تعالى فلما فعلوا تاب الله عليهم .

ثانيا : طلبهم رؤية الله عز وجل وإعراضهم عن قبول التوراة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦] .

في هذه الآيات ازداد تمردهم حتى قالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة:٥٥] وهذا غاية في العناد والاستكبار والتكذيب ، ويظهر أن الذي قال هذا مجموعهم أو سوادهم الأعظم فاختار موسى - عليه السلام - سبعين رجلا[3] يذهب

(١) تفسير الطبري (٢/٧٣) وانظر : (تفسير البغوي) (١/٩٦) ، تفسير ابن كثير (١/٦٦) .

(٢) أحكام القرآن ابن عثيمين ص"٢١٩ ، ٢٢٠" وقد أخطأ من فهمه بأن يقتل بعضهم بعضا وإنما الأمر في قوله تعالى ﴿ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] لمن لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة . انظر : تفسير القاسمي (٢/١٢٧) .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٦] .

بهم إلى الطور للاعتذار مما حصل ، وأنهم لما أتوا الطور قالوا هذه الكلمة البشعة فأماتهم الله بالصاعقة ، فقام موسى يبكي ويناشد ربه في قومه يقول : بماذا أرجع لبني إسرائيل فإني أمرتهم بالاقتتال ثم اخترت من بقيتهم هؤلاء فكيف أرجع دونهم ؟ ومن يصدقني أنهم ماتوا ؟ فلم يزل يتودد إلى الله بقوله ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٥٦] حتى أحياهم ونظر كل واحد منهم إلى الآخر[1] فكان بعثهم من بعد موتهم منة وفضلا منه تعالى عليهم لعلهم يشكرون هذه النعمة إذا ذكروها ، وفي تلك الصحراء أظلهم بالغمام من حر الشمس فصاروا في ظل بارد ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، والمن : طعام يجدونه منتشرا على رؤوس الشجر كأنه العسل فيأكلونه ، والسلوى : الطائر المعروف بالسمان وهو من ألذ الطيور لحما ، وسمي المن منا لأنه يحصل بدون تعب ولا مشقة[2] ، وأتم الله هذه النعم بنزول التوراة بما فيها من هدى ورحمة ؛ فأبوا الامتثال لأوامرها وقالوا : سمعنا وعصينا ، وهذا إن دل فإنما يدل على سوء طباعهم وخبث سريرتهم فعاقبهم بنتق الجبل فوقهم كأنه ظلة وهددهم بسقوطه عليهم حتى أذعنوا وانقادوا ، ولكنه انقياد مؤقت قضت عليه الطباع اللئيمة قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [البقرة:٦٣-٦٤] وما رفع الله فوقهم الطور إلا بعد فسوقهم وعصيانهم لأمر الله فيما أنزل عليهم ؛ حيث أمرهم أن يأخذوا ما آتاهم من الشرع بقوة وأن يذكروا ما فيها من المواعظ والأحكام ليصلوا إلى تقوى الله عز وجل ، ولكنهم تولوا بعد ذلك ، ولولا أن الله تداركهم بفضله ورحمته وشملهم بفضله ومنته لكانوا من الخاسرين الهالكين بالعقوبة .

نوع عقوبة من طلبوا رؤية الله عز وجل :

كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّاعِقَةُ ﴾ [البقرة:٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ

---

(١) قاله السدي ، وسنده عند ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ثنا عمرو بن حماد ثنا أسباط عن السدى . وقد حقق هذا السند الشيخ محمود شاكر في تعليقه على تفسير الطبري (١/١٥٦) ورجح توثيقهم جميعا مع اختلاف الأئمة في أسباط بن نصر بين توثيق وتضعيف ، والصحيح ما قاله ابن حجر من أنه صدوق كثير الخطأ - انظر التقريب ص"٩٨" ، وللأثر طريق آخر انظر : تفسير الطبري (٢/٨٧) ؛ تفسير ابن كثير (١/٩٣) فهو بمجموع طرقه حسن لغيره .

(٢) انظر : (تفسير ابن كثير) (١/٩٩/١٠٠) ؛ أحكام القرآن ص"٢٢٦" .

ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف:١٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ [طه:٨٠] .

هذا الوعد كان لموسى مع قومه الذين اختارهم الخير فالخير ، ثم ذهب بهم لميقات الله ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض بالألواح[١] ، ويبدوا أنهم سمعوا كلام الله لموسى يأمره وينهاه فقالوا له ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة:٥٥] علانية ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ [البقرة:٥٥] أي : فماتوا ، وهي الرجفة كما جاء في الآية الأخرى ، وربما رجف بهم ثم نزلت بهم صاعقة أخذت أنفاسهم كما حصل لقوم صالح وشعيب – عليهما السلام – وقد ذكر المفسرون من معانيها أنهم سمعوا صوتا فصعقوا أي : ماتوا[٢] .

وقال السدى ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ أي : نار[٣] أهلكتهم ، فلما رأى موسى ﷺ ذلك توجه إلى الله يدعوه ويتضرع إليه حتى رد الله أرواحهم إليهم – فكان موتهم عقوبه لهم وبعثهم ليستوفوا آجالهم[٤] .

وهكذا هلكوا ثم بعثوا جزاء صنيعهم والتوائهم وإعراضهم عن قبول الحق الذي جاء به موسى – عليه السلام – فرفع الله فوقهم الجبل حتى كاد يسقط عليهم لولا لطف الله بهم .

وقد دلت الآية أن طلب رؤية الله – تعالى – في الدنيا مستنكر ، ولذا لم يذكر سبحانه وتعالى سؤال الرؤية إلا استعظمه مثل قوله تعالى

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (١/٩٧) ؛ تفسير المنار (٩/١٨٦-١٨٧) ؛ في ظلال القرآن (٣/١٣٧٧) .

(٢) تفسير ابن جرير (٢/٨٢) وسنده : حدثنا به الحسن بن يحيى قال : أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن قتادة ورواه أيضا عن الربيع بن أنس به .

(٣) تفسير ابن جرير (١/٨٣) وسنده حدثني موسى بن هارون الهمداني قال حدثنا عمرو بن حماد قال حدثنا أسباط عن السدى اهـ . وقد ذكرنا من قبل توثيق الشيخ أحمد شاكر له .

(٤) انظر : تفسير ابن أبي حاتم بتحقيق د/ أحمد العماري وسنده : حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع بن أنس قوله « ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٦] فبعثوا من بعد موتهم لأن موتهم ذلك كان عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت ليوفوا آجالهم » (١/١٧٣) ورواه ابن جرير (٢/٨٩) من طريق عبد الرزاق به حيث جمع بين متنيهما بإسناد واحد ، وكذلك السيوطي (١/١٣٦) ، الأثر بمجموع طرقه حسن .

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾ [النساء:١٥٣] ومنها قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٢١] فدلت هذه التهويلات الواردة لطالبيها في الدنيا على امتناعها فيها .

ثالثا : (تبديلهم أمر الله) :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [البقرة:٥٨-٥٩]

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٦١-١٦٢] .

المقصود بالقرية : قرية فتحوها في طريقهم ، وكانت أول تجربة عملية لبني إسرائيل بعد تنظيمهم وتقسيمهم أسباطا وللسير بهم باتجاه الأرض المقدسة ، فكان هذا بمثابة أول اختبار جهادي لهم ، ولكنهم خالفوا ما أمروا به من القول والفعل ؛ حيث أمروا بالسجود عند انتهائهم شكرا لله ويقولوا : حطة فبدلوا السجود بالزحف وقالوا : حبة في شعرة !! .

أخرج البخاري بسنده عن همام بن منبه[1] أنه سمع أبا هريرة – رضي الله عنه – يقول : قال رسول الله ﷺ « **قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا : حطة نغفر لكم خطاياكم فبدلوا – فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا : حبة في شعرة** » – قال ابن حجر كذا للأكثر ، والحاصل : أنهم خالفوا ما أمروا به من الفعل

---

(١) هو همام بن منبه بن كامل الصنعاني ، أبو عتبة ، أخو وهب ، يكنى أبا عقبة ، روى عن أبي هريرة وابن عباس ومعاوية ، وروى عنه وهب بن منبه ، ومعمر وعقيل بن مقفل وعلي بن الحسن قال عنه يحيى بن معين : ثقة . انظر/الجرح والتعديل (١٠٧/٩) ؛ التقريب : ص"٥٧٤" .

والقول فإنهم أمروا بالسجود شكرا لله تعالى عند انتهائهم - وبقولهم : حطة - فبدلوا السجود بالزحف وقالوا : حنطة بدل حطة[1] .

والمتأمل يرى أنه لم يطلب منهم عمل شاق أو قول شاق وإنما قيل لهم ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ أي : خاضعين لله تعالى بما أمركم شاكرين له إنعامه عليكم بفتحها ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ أي : احطط عنا خطايانا[2] ، ﴿ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف:١٦١] ولكنهم لم يفعلوا . وبدلوا ما قيل لهم ظلما وعدوانا وإنكارا لفضل الله - تعالى - ونعمته عليهم .

نوع العقوبة :

قال تعالى ﴿ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ [البقرة:٥٩] أي : كانت عاقبتهم أن أنزل عليهم رجزا من السماء بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله .

وقد فسر الرجز بالطاعون - لحديث قال رسول الله ﷺ « **الطاعون رجز عذاب ، عذب به قوم من قبلكم** »[3] .

وفي الفتح : أن أسامة بن زيد سئل ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون ؟ فقال أسامة : قال رسول الله ﷺ : « **الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم** »[4] .

وهكذ أرسل الله العذاب عليهم سريعا ، يدل على ذلك العطف بالفاء في قوله تعالى ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا ﴾ [الأعراف:١٦٢] أي : على الظالمين فقط وأنه لم يتعداهم إلى

---

(١) فتح الباري - كتاب التفسير - باب (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) (٢٠٨/٨) برقم [٤٤٧٩] وبرقم [٤٦٤١] ص (٣٨٧) .

(٢) نفس المرجع (٣٨٧/٨) .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم قال : حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا وكيع ثنا سفيان بن حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت - صحح إسناده محققه انظره (١٨٦/١) .

(٤) فتح الباري (٢٢٤/١٠) ووقع بالجزم عند ابن خزيمة من طريق عمرو بن دينار عن عامر بن سعد بلفظ « **فإنه رجز سلط على طائفة من بني إسرائيل** » وأصله عند مسلم (١٧٣٧/٤) برقم[٢٢١٨] ، ووقع عند ابن خزيمة بالجزم أيضا من رواية عكرمة بن خالد عن ابن سعد عن سعد لكن قال : « رجز أصيب به من كان قبلكم » .

الصالحين منهم ، وأخبر أنه من السماء للدلالة على شدته وهوله ؛ ولذا قال بعض المفسرين : مات منهم أربعة وعشرون ألفا في ساعة واحدة[1] جزاء ظلمهم .

رابعا : كفرانهم لنعم الله ورغبتهم في الرجوع إلى الذل :

قال تعالى ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة:٦٠] .

وفي سورة الأعراف ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ ﴾ [الأعراف:١٦٠] .

ومع كل الذي رأينا من بني إسرائيل من عناد وعصيان لله ورسوله إلا أن موسى وأخاه هارون – عليهما السلام – لم ييئسا منهم واستمرا في محاولاتهما للارتقاء بحياة بني إسرائيل وتهيئتهم لدخول الأرض المقدسة بكل حكمة ولطف ولين .

فها هو موسى – عليه السلام – يؤمر بضرب حجر لا بعينه ، وهذا أظهر في المعجزة حيث كان يضربه فينفجر منه الماء ثم يضربه فييبس[2] ، وهنا يخبر الله – تعالى – أنه انفجر من الحجر اثنتا عشرة عينا على عدد أسباط بني إسرائيل لئلا يحصل التزاحم والتقاتل على الماء قال تعالى ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة:٦٠] فكان هذا امتنانا وفضلا منه عليهم فيأكلوا ويشربوا من رزق الله ويقيدوا هذه النعم بشكرها فلا يعيثوا في الأرض فسادا – وفسادها يكون بالمعاصي وارتكاب النواهي مما يكون سببا في دمارهم وفساد حالهم لقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠] وبقوله تعالى ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ

---

(١) روح المعاني (٢٦٧/١) وفي فتح الباري قوله : « أرسل على بني إسرائيل قيل : مات منهم في ساعة واحدة عشرون ألفا ، وقيل : سبعون ألفا » والله أعلم (٢٢٥/١٠) .

(٢) تفسير ابن كثير (١٠٤/١) ، وانظر : التفسير المنير (١٦٨/١) ، وقد أورد المفسرون في أمر الحجر كثيرا من الروايات التي لا تنهض حجتها أعرضت عنها ، ثم نظرت لتفسير المنار فرأيته يشنع على من ذكر ذلك ؛ بل عدد ذلك كله من الخرافات الإسرائيلية التي كانوا يتلقونها بالقبول . انظره (٣٦٨/٩) .

ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[1] [الروم:٤١] .

وفي سورتي **البقرة والأعراف** عدد من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على بني إسرائيل نذكرها إجمالا[2] :

أولها : ما أنعم الله به عليهم حين نجاهم من فرعون وقومه حين كانوا يذيقونهم أشد أنواع العذاب من تذبيح الأبناء واستحياء النساء .

ثم اعلم أن الفائدة في ذكر هذه النعمة من وجوه :

أحدها : أن هذه الأشياء التي ذكرها الله – تعالى – لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة صار تخليص الله إياهم من هذه المحن من أعظم النعم ؛ وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم وشاهدوا ذل من بالغ في إذلالهم ، ولا شك في أن ذلك من أعظم النعم .

ثانيها : يذكر الله تعالى بهذه النعم يهود المدينة حين نجى أسلافهم من ذل فرعون وإغراقه أمام أعينهم ، ومن ثم إسباغ نعمه عليهم فكأنه يقول لهؤلاء : لا تغتروا بفقر محمد ﷺ وقلة أنصاره فإنه على الحق كما كان موسى – عليه السلام – على الحق ولابد وأن يصير العز له والذل على أعدائه .

ثالثها : أن الله تعالى نبه بذلك على أن الملك بيده يؤتيه من يشاء ، فليس للإنسان أن يغتر بعز الدنيا بل عليه السعي في طلب عز الآخرة[3] .

النعمة الثانية : حين فرق الله لهم البحر ، فجعله يابسا أمامهم دون أدنى جهد منهم فكان الأولى منهم شكر المنعم وإخلاص العبادة له .

النعمة الثالثة : إكرامهم وإكرام نبيهم بذلك الموعد الشريف ﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ ﴾ [البقرة:٥١] لمناجاة ربه وتكليمه بالوحي بلا واسطة ؛ بل قربه الله نجيا من وراء حجاب وذهب لميقات ربه فاتخذوا العجل معبودا لهم ، وكان هذا فتنة من الله يختبر بها ثبات إيمانهم وصدقهم في شكره ، ولكنهم رسبوا في هذا الامتحان بعد مشاهداتهم لتلك المعجزات الباهرات الدالة على ألوهية الله تعالى .

---

(١) انظر : (أحكام القرآن) ابن عثيمين ص"٢٣٨ : ٢٣٩" .

(٢) انظر : (التفسير الكبير) (٦٧/٣ : ٩٧) ؛ صفوة الآثار (١٢٣/٢ : ١٤١) ؛ التفسير المنير (١٦٠/١ : ١٦٨) .

(٣) انظر : التفسير الكبير للرازي (٦٩/٣ : ٧٠) .

النعمة الرابعة : امتنان الله عليهم بإنزال التوراة على موسى – عليه السلام – لأن فيها أكبر نعمة من نعم الله وهي الهداية التي من حصل عليها فقد نال سعادتي الدنيا والآخرة ، ومن حرمها بعد ما جاءته تعرض لشقاوتي الدنيا والآخرة ، وكل من سلك مسالك الهداية منهم أو من أمة محمد ﷺ فالله يعينه على تحصيلها ، أما من أعرض وسد أذنيه وأشغلهما بلهو الحديث ؛ فإنه يخاف عليه من وعيد الله – تعالى – ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦] .

النعمة الخامسة : هي نعمة العفو الأول عن شركهم بالله وعبادة بعضهم العجل وسكوت بعضهم عن الإنكار ؛ حيث عمتهم العقوبة التي كادت تقضي عليهم بأيديهم لولا عفو الله عنهم وتوبته عليهم .

النعمة السادسة : تذكير الله لهم حيث أحياهم بعد ما أهلكتهم الصاعقة وهم ينظرون بسبب تمردهم ، وقولهم : لن نؤمن لك وننقاد حتى نرى الله عيانا ويكلمنا مثل ما كلمك ، فليس لك ميزة علينا . وهذا التمرد كما ترى جرى بعد توبتهم من عبادة العجل وتقتيلهم لأنفسهم كما سبق ، فأمرهم عجيب لا تؤثر في نفوسهم الخبيثة توبة مشروط قبولها بتقتيل أنفسهم .

النعمة السابعة : نعمة الإظلال بالغمام وذلك في أرض التيه :

سخر الله لهم السحاب يظلهم من الشمس حتى لا تلفح وجوههم وتؤلم أبدانهم مع أنهم متلبسين بمعصية الله في عدم دخول الأرض المقدسة .

النعمة الثامنة : إنزال المن[1] والسلوى[2] ليتنعموا بأكلها ويتفكهوا بلذاذتها. والتعبير بالإنزال لكل منهما على حقيقته . وهذه النعمة زيادة على ما عندهم من لحوم المواشي .

النعمة التاسعة : اختار الله بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة ؛ حيث أخبرهم قبل دخولها بأن الله كتبها لهم ، وهذه نعمة عظيمة كان ينبغي عليهم طاعة نبيهم في

---

(١) **المن** : مادة لذيذة المأكل قليلة الحلاوة حتى لا يملها الآكل – انظر : التفسير الكبير (٨٧/٣) .

(٢) **السلوى** : طائر معروف يسمى السماني . انظر – تفسير ابن كثير (٩٩/١) ؛ التفسير الكبير (٨٧/٣) ؛ صفوة الآثار (١٣٨/٢) .

ذلك . ولكنهم كفروها وأبوا أن يدخلوها وقالوا ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤] .

النعمة العاشرة : أن الله – تعالى – أنعم عليهم بتفجير الماء عليهم من حجر يابس ؛ حيث أمر الله موسى – عليه السلام – بضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا على عدد أسباطهم ، وفي هذا أعظم دليل على قدرة الله الذي أخرج لهم ماء في مكان مجدب وصحراء لا يتوقع وجود الماء فيها حتى كاد العطش أن يقتلهم ، فكان الواجب عليهم طاعة أمر الله ورسوله في ذلك .

نوع عقوبتهم :

ومع كل هذه النعم إلا أنهم لم يشكروها بل كفروا وضلوا كعادتهم ، والناظر في تعداد هذه النعم يرى أن الله – تعالى – لم يكلفهم مشقة عنائها بل تولى الله ذلك بنفسه لهم ، وخذ مثلا (الماء) حيث فجره الله لهم ولم يكلفهم مشقة حمله أو حتى البحث عنه ، ومن الله عليهم بإنزال الطعام لهم من السماء ولم يكلفهم الحرث والزرع وتعب السقي والحصد ... إلخ ؛ بل اختار لهم الطعام الخاص الذي يصلح لحياتهم في هذه الصحراء ، ووقاهم من حر الشمس ولهيبها فظللهم بالغمام وأغدق عليهم من فضله ونعمه .

وكل هذه النعم قد ضاقوا ذرعا بها وملوا منها ورغبوا في الذل الذي ألفوه – ؛ لأن من عاش في النعم بالإلف لا بالشكر يضل : ذلك أن الحياة الجديدة حياة عقيدة وإيمان حق ومنهج نبوة جاء ليرفعهم لا ليضعهم ؛ لأن المقصد ليس ملء البطون واتباع الهوى والشهوة وإنما القصد إلزامهم بمنهج النبوة والسير بهم إلى الله تعالى ؛ للفوز برضاه في الدنيا والنجاة من عذابه في الآخرة .

والظاهر أن هؤلاء القوم لم يدركوا حقيقة ذلك ولم يكن عندهم استعداد لتحمل شيء من تكاليف الله تعالى ، عندها جاءوا موسى ﷺ يخبرونه بضيقهم من هذه الحياة ، ونفاد صبرهم منها ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾[1] [البقرة:٦١] والظاهر أن الاعتذار بمثل هذه الحجة التافهة غرضها التملص من أداء الأمانة والبعد عن تحمل المسؤولية والركون إلى الدعة واستمراء الذل الذي لم تتطهر منه نفوسهم .

---

(١) قال ابن كثير : « ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا فيه » (١٠٦/١) .

إنهم يريدون الأطعمة التي ألفوها تحت سياط الذل ونار القهر والظلم ، فرد عليهم نبيهم عليه الصلاة والسلام ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٦١] أي : استحقوا غضبه ، ومن استحقه فقد أصابه ، فإنهم بإعناتهم لموسى - عليه السلام - في المطالب مع كثرة ما شاهدوا من العجائب ، وما أظهر الله لهم من الغرائب قد دل على أنه لا أثر للآيات في نفوسهم ، فهم بها كافرون ظالمون ، نعوذ بالله من غضبه وعقابه وشر عباده !! .

وهم بأفعالهم وسوء طباعهم قد أضروا من بعدهم إلى يوم القيامة ، فهم حين أمروا بعدم الادخار ادخروا فتعفن وفسد ، فتعدى ضررهم بالادخار هذا إلى البشرية جمعاء بتعفن أطعمتها الطرية وسريان السوس إلى أطعمتها الصلبة ، وحتى مع صنع الآلات التي تحفظ الطعام فإن ذلك محدود بأمد .

أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « **لولا بنو إسرائيل لم يخنز[1] اللحم . ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها** »[2] .

خامسا : مراوغاتهم وتلكؤهم في عدم ذبح ما أمروا به :

سميت سورة البقرة لذكر قصة ذبح البقرة فيها ؛ حيث لم تذكر إلا مرة واحدة ، وهي تدل على عناد بني إسرائيل في أخذ الحق إضافة إلى سوء الظن بالأنبياء وإيذائهم حتى في أنفسهم .

---

(١) قال ابن حجر : (يخنز اللحم) بفتح أوله وسكون الخاء وكسر النون وبفتحها بعدها زاي أي : ينتن ، والخنز : التغير والنتن ، قيل : أصله أن بني إسرائيل ادخروا لحم السلوى وكانوا نهوا عن ذلك فعوقبوا بذلك . حكاه القرطبي .

وقال بعضهم : معناه : لولا أن بني إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن - فتح الباري (٤٢٤/٦) .

(٢) رواه البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء - باب خلق آدم وذريته - (٤٥١/٢) برقم [٣٣٣٠] ومعنى « لولا حواء لم تخن أنثى زوجها - : إشارة إلى ما وقع منها في تزيينها لآدم للأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك - وليس معناه ارتكاب الفاحشة حاشا وكلا !! وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن فحسبها » انظر : (فتح الباري) بتصرف (٤٢٤/١) .

سبب القصة :

روى ابن أبي حاتم بسنده عن عبيدة السلماني[1] قال : « كان رجل من بني إسرائيل عقيما لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلا ، فوضعه على رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض .

فقال ذوو الرأي منهم والنهى : علام يقتل بعضكم بعضا ، وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام ، فذكروا ذلك له فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ...﴾ [البقرة:٦٧] قال : فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا ، فشدد عليهم ، حتى انتهوا إلى البقرة ، التي أمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل لا يملك غيرها فقال : والله لا أنقصها عن ملء جلدها ذهبا ، فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها ، فضربوه ببعضها ، فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ فقال : هذا ، لابن أخيه ، ثم مال ميتا ، فلم يعط من ماله شيئا ، فلم يورث قاتل بعد »[2] .

نوع العقوبة :

نستطيع أن نستخلص العقوبة التي نزلت بهم في أمر واحد هو أنهم :

شددوا فشدد الله عليهم ، ذلك أنهم كلما زادوا موسى – عليه السلام – أذى وتعنتا زادهم الله عقوبة وتشديدا في الأوصاف حتى وجدوها عند الرجل الذي لم يقبل إلا بملء جلدها ذهبا ، فكان هذا أشد عليهم ، ولولا خوف الفضيحة لما فعلوا كما ذكر الله عنهم ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة:٧١] لأن الشروط قد تضاعفت عليهم بتضاعف تلكئهم ، وكانت حكمة الله – تعالى – ألا يحيا القتيل إلا بعد جهد وامتحان وثمن باهظ لما قابلوا به موسى – عليه السلام – من التعنت والعناد . وهنا يوبخهم الله – تعالى – بقوله ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة:٧٢] من أمر القتيل حمية على القاتل وعدم رحمة بالمقتول وعدم مبالاة بتهمة الأبرياء الذين تضطرهم الحالة إلى الدفاع عن أنفسهم – ثم كان في إحياء الميت فضيحة لهم وعقوبة أخرى أشد من

---

(١) هو عبيدة بن عمر السلماني أبوعمرو الكوفي روى عن عمر وعلي وابن مسعود ، تابعي كبير مخضرم ، فقيه ثقة ثبت ، كان شريح إذا أشكل عليه شيء سأله قال عنه يحيى بن معين عبيدة السلماني ثقة لا يسأل عنه . انظر : الجرح والتعديل (٦/٩١) ، التقريب ص"٣٧٩" .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ، وسنده : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ثنا يزيد بن هارون أنبا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة السلماني ، صحح إسناده د/ أحمد العماري – والخبر عند ابن كثير (١/١١٢ : ١١٤) وقال محققه الشيخ مقبل الوادعي : الأثر إلى عبيدة السلماني صحيح .

سابقتها هتكت أستارهم ودفع الله بها الباطل وأظهر الحق وحطم أستار التلبيس وبرهن لهم على قدرته في إحياء الموتى إحياء حسيا وإحياء معنويا[1] .

إذا فليس التشدد في الدين محمودا وليس الإلحاف في كثرة السؤال مرغوبا فيه ؛ لذا نجد أن الله نهى عن ذلك وقت نزول القرآن بقوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة:١٠١] وقوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم بسندهما عن سعد بن أبي وقاص « **إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما : من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين ، فحرم عليهم من أجل مسألته** »[2] ، وقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة : « **ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم** »[3] .

المقصود من كل ذلك - النهي عن التشدد في الأمور ، والندب إلى الأخذ بالمتيسر منها .

سادسا : امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة :

هذا الموقف هو الأخير في عناد بني إسرائيل مع موسى - عليه السلام - حيث امتنعوا عن دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم مع كثرة تلكئهم ونكوصهم على أعقابهم ، لذا تلمح في خطاب موسى - عليه السلام - إشفاقه عليهم وهو يخاطبهم بقوله ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٢١] فلقد جربهم كثيرا في رحلته الطويلة معهم ، - جربهم حين أخرجهم من أرض مصر وحررهم من الذل والهوان وخرج بهم من البحر فمروا على عباد أصنام فطلبوا مثلهم - وما يكاد يغيب عنهم في ميقات ربه حتى

---

(١) الإحياء الحسي : كان بإحياء القتيل وقيامه وهم ينظرون .
والإحياء المعنوي : إنجاؤه للفريقين المتخاصمين . انظر - صفوة الآثار (١٨١/٢) .

(٢) رواه البخاري - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب ما يكره من كثرة السؤال - (٣٦١/٤) برقم [٧٢٨٩ ، ٧٢٨٨] .
رواه مسلم - كتاب الفضائل - باب توقيره ﷺ (١٨٣١/٤) برقم (٢٣٥٨) .

(٣) رواه البخاري - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب ما يكره في كثرة السؤال (٣٦١/٤) برقم [٧٢٨٨] .
ورواه مسلم - كتاب الفضائل - باب توقيره ﷺ (١٨٣٠/٤) برقم [١٣٣٧] .

عبدوا عجلا مصنوعا من الحلي - ، وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء وأنزل الله عليهم المن والسلوى فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر ، ولا يصبرون عما ألفوا من طعام ، وجربهم في قصة البقرة فتلكأوا في الطاعة والتنفيذ-، وجربهم وقد عاد من ميقات ربهم ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده فأبوا أن يعطوا الميثاق ويفوا بالعهد ، ولما رفع الله الجبل فوقهم أعطوه ثم عادوا .

لقد جربهم في مواطن كثيرة ، ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة التي وعدهم الله فيها أن يكونوا ملوكا ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا في رعاية الله وفضله - لقد حق له أن يشفق عليهم وهو يدعوهم الدعوة الأخيرة فيحشد فيها ألمع الذكريات ، وأكبر البشريات ، وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة:٢٠-٢١] ومع كل هذه البشريات قبل دخول أرض المعركة إلا أن اليهود هم اليهود الجبن والنكوص ونقض الميثاق، وكفران النعم ، والحنين إلى الذل ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة:٢٢] فاعتذروا بأن فيها قوما عظاما جبارين[1] لا يستطيعون مقاومتهم ، لقد أرادوا النصر رخيصا ، لا ثمن له ولا جهد فيه ، ولا غرابة في إحجامهم عن الدخول فيها وقتالهم الجبارين، فكل قوم تربوا في أحضان الذل يألفونه مع طول المدة .

قال رجلان من الذين يخافون الله وقد أنعم عليهما بالتوفيق والسداد . ادخلوا الباب فإنكم إذا دخلتموه كان الله معكم وناصركم عليهم ، لأنه سبحانه لا يجمع في

---

(١) ذكرت الروايات في وصف الجبارين حيث بالغت جدا في ذكر طولهم وعرضهم حتى سخر ابن كثير رحمه الله من ذلك - وقال « هذا شيء يستحى من ذكره إضافة إلى أنه مخالف لما ثبت في الصحيحين من أن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا . ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » إذا فمعنى جبارين أي : عظام الأجسام طوالها ، والجبار من الناس : المتعظم الممتنع من الذل والفقر أو هو من يجبر الناس على مراده بالقوة - وقد ذكر القرطبي حديثا مسهبا عن (عوج بن عناق) وهو حديث خرافة لما فيه من التهاويل الباطلة - انظر : (تفسير القرطبي) (١٢٦/٦) ؛ وانظر : (تفسير ابن كثير) (٤٠/٢) .

قلب واحد بين مخافتين : مخافته - جل جلاله - ومخافة الناس ، والذي يخاف الله لا يخاف أحدا بعده ، ولا يخاف شيئا سواه ، فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلوبهم وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتب لكم النصر عليهم - فخارت قوى القوم وارتجفت قلوبهم وقالوا يا موسى ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ﴾ [المائدة:٢٤] فإنهم أولوا قوة وبأس ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ ﴾ [المائدة:٢٤] الذي أمرنا أن نخرج من مصر ونأتي إلى هنا ﴿ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤] ومتخلفون عن الحرب .

هكذا يردون أمر الله وأمر رسوله بعد كل جهد معهم وبعد إنجاز كل طلب لهم ، فلسان حالهم يقول لا نريد ملكا ، لا نريد عزا لا نريد أرض الميعاد ودونها الجبارين .

هذه هي نهاية المطاف مع القوم الذين لا وفاء لهم مع أحد حتى مع الله ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ ﴾ وكأنه ليس بربهم[1] الذي خلقهم ونصرهم ونجاهم ورزقهم ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾[طه:٨٠-٨١]، وبعد كل هذا ماذا فعل الله بهم ؟ .

نوع العقوبة :

قال ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة:٢٦] .

انصرف الناس عن موسى وأخيه هارون ولم يسمعوا نصيحة الرجلين الذي أنعم الله عليهما ، ولم يبق معه إلا أخوه ، فهما وحيدان في أضعف جند وأذل أعوان .

وبكل أمل يتوجه موسى إلى الله - تعالى - بقوله ﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ [المائدة:٢٥] وهذا القول من موسى - عليه السلام - صورته خبر ومعناه إنشاء ، فهو من بث الحزن والشكوى إلى الله - وإلا فموسى يعلم أن الله - تعالى - يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه[2] ، ولكن موسى بضعف الإنسان ، وإيمان النبي

---

(١) انظر : في ظلال القرآن (١/٨٧٠) ؛ التفسير الواضح (٦/٤٨) م ١ .

(٢) وعند صاحب المنار «وهذا يدل على أنه لم يكن يوقن بثبات الرجلين الذين أنعما الله عليهما على ما كانا عليه من الرغبة والترغيب في الطاعة ، وأما ثقته بأخيه فلعلمه اليقيني بأن الله تعالى - أيده بمثل ما أيده به ..إلخ» (٦/٣٣٥) .

الكليم ، وعزم المؤمن المستقيم . لا يجد متوجها إلا لله يشكو له بثه ونجواه ، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين ، فما عاد يربطه بهم رباط ؛ لأنهم غير مستقيمين على الصراط .

﴿ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة:٢٥] فاستجاب الله دعاء نبيه ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[المائدة:٢٦] متحيرين لا يدرون أين ينتهون في سيرهم مدة أربعين سنة ، وهو الزمن الذي يكفي في علم الله – تعالى – كي يفنى كبارهم ويهلك رؤساؤهم ثم يظهر من بعدهم جيل جديد قوي الإيمان[1] عزيز الجانب ، لا يخاف الموت باذلا نفسه للجهاد في سبيل الله ، يفتح الله على يديه الأرض المقدسة التي كتب الله لهم . وهكذا بدأت سنوات التيه لا ينفذون من درب إلا ويضيعون في دروب أكثر وعورة وأطول سيرا ، يدورون في رمال لا تحتمل ، فراغ طويل ، وعذاب نفسي ، وتعب جسدي جزاء صنيعهم ﴿ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة:٢٦] فلا تحزن عليهم ، ودعهم يذوقوا مرارة الشقاء في الحياة بعد رغد العيش وطيب المقام والبعد عن ذل الاستعباد والهوان[2] .

---

(١) هو الجيل الذي سار بهم النبي يوشع بن نون – عليه السلام – بعد موت موسى – عليه السلام – إلى الأرض المقدسة ، وقاتل بهم الجبارين ووقفت لهم الشمس ساعة حتى فرغ من قتالهم – لحديث رواه البخاري – كتاب النكاح – باب من أحب البناء قبل الغزو (٢/٣٩٤) رقمه [٣١٢٤] رواه مسلم – كتاب الجهاد والسير ، باب تحليل الغنائم (١٣٦٦/٣) برقم [١٧٤٧] وانظر : (شرح النووي على مسلم) (٤٠٩/١٢) .

(٢) انظر : (في ظلال القرآن) (٨٧١،٨٧٠/٢) ؛ تفسير المنار (٣٣٤/٦ : ٣٣٦) ؛ تفسير القاسمي : (١٥٨/٦) ؛ قصص الأنبياء في القرآن الكريم – سميح عاطف ص (٤٥٤ : ٤٥٥) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة من عقوبات بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام :

أولا : من قوله تعالى ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٠] .

نأخذ أن لكل ظالم باغ نهاية ولكل مظلوم فرجا قريبا ، ونصرا محققا ؛ حيث أغرق الله فرعون وآله ، ونجى موسى ومن معه من بني إسرائيل ، وكان يوم الإنجاء هو يوم عاشوراء عيدا يشكر فيه الله .

روى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء . فسئلوا عن ذلك ؟ فقالوا : هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون . فنحن نصومه تعظيما له ، فقال النبي ﷺ : « **نحن أولى بموسى منكم** » فأمر بصومه[١] ، وفي حديث آخر عند مسلم أنهم قالوا : يا رسول الله ، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال رسول الله ﷺ : « **فإذا كان العام المقبل ، إن شاء الله ، صمنا اليوم التاسع** »[٢] .

لأننا مأمورون بمخالفة اليهود والنصارى ، وفي الحديث الآخر أيضا « **لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع** »[٣] .

ثانيا : بيان أن الله – تعالى – نجى بني إسرائيل مرتين : المرة الأولى من آل فرعون حين كانوا يسومونهم سوء العذاب فيذبحون الأبناء ويستبقون النساء .

والمرة الثانية : حين فرق بهم البحر فأنجاهم من الغرق ، وأغرق آل فرعون وهم يشاهدون ذلك .

ثالثا : من كمال طمأنينة العبد أن يرى عدوه أمامه وقد هلك ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٠] .

رابعا : الرد على الذين بهرتهم صنائع أعداء الله اليوم وغرتهم حتى ظنوا أنه

---

(١) رواه مسلم كتاب الصيام – باب صوم يوم عاشوراء – (٧٩٥/٢) برقم [١١٣٠] .

(٢) رواه مسلم كتاب الصيام – باب أي يوم يصام في عاشوراء (٧٩٧/٢) برقم [١١٣٤] .

(٣) رواه مسلم كتاب الصيام – باب أي يوم يصام في عاشوراء (٧٩٨/٢) برقمه .

لا يمكن الانتصار عليهم ، بل ربما يسخرون إذا قيل لهم : إننا لو رجعنا إلى دين الله حق الرجوع لانتصرنا على أعدائنا مهما بلغت قوتهم ؛ فهذا فرعون على قوته وجبروته وضعف بني إسرائيل أغرقه الله في صبيحة يوم ، فأي قوة مهما بلغت لا تساوي شيئا أمام قوة الله – تعالى – ، فنحن إذا صدقنا الله – عز وجل – فإن الله سيعطينا من أسباب النصر ما لا يخطر لنا على بال[1] .

خامسا : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ الآية [البقرة:٥٤] .

نأخذ أن بني إسرائيل حين عبدوا العجل حين ذهاب موسى – عليه السلام – لميقات ربه أنهم كانوا عالمين بأنهم على غير هدى لأنهم كانوا ظالمين ؛ فإنهم كانوا يعبدون الله من قبل ، وحين عبادتهم للعجل ذكرهم هارون – عليه السلام – بقوله ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴾ [طـه:٩٠] ولكنهم أصروا ، وهذا يدل على سفههم وقلة تفكيرهم[2] .

سادسا : تودد وتلطف موسى – عليه السلام – لقومه بعد أن غضب لله تعالى فنسف عجلهم وحرقه وعلم منهم التوبة قال لهم ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ وهكذا ينبغي للداعية إذا غضب على قومه أن يعود إليهم فيذكرهم بالله – تعالى – ويذكر لهم من الألفاظ ما يكون سببا في إقبالهم وتقبلهم[3] .

سابعا : أنه ينبغي لمن ذكر الداء أن يذكر الدواء فهذا موسى – عليه السلام – ذكر أنهم ظلموا أنفسهم ثم عرض عليهم الدواء وهو التوبة إلى الله تعالى ، وهكذا ينبغي للدعاة إذا ذكروا الداء والأمراض الدينية والمشاكل الاجتماعية أن يذكروا لهم الدواء وطريق الخلاص منها واتقاءها حتى يجمعوا بين الأمرين .

ثامنا : وجوب التوبة إلى الله – تعالى – لقوله ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] والعاصي إذا أذنب فلمن يتوب ؟ لا شك أن الذنب الذي ألم به لابد وأن يندم على فعله إن كان مؤمنا .

---

(١) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢١٢ : ٢١٤" .

(٢) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١" .

(٣) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١" .

والتوبة لابد فيها من شروط خمسة[1] :

الشرط الأول : إخلاص التوبة إلى الله – تعالى – وذلك بأن يكون الحامل له عليها خوف الله – تعالى – ورجاء ثوابه .

الشرط الثاني : الندم على الذنب فلا يكون الأمر عنده على حد سواء ، بل يتأسف ويظهر لله تعالى مدى ندمه وحسرته على فعله .

الشرط الثالث : أن يقلع عن الذنب في الحال ، فإن كان متلبسا بمحرم تركه ، إن كان تاركا لواجب تداركه ، وإن لم يمكن تداركه كفته التوبة .

الشرط الرابع : أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب في المستقبل ، ولا يكون في نيته العودة متى سنحت له الفرصة .

الشرط الخامس : رد المظلمة إن كانت أو طلب البراءة من صاحبها[2] .

الشرط السادس : أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه التوبة أي : قبل طلوع الشمس من مغربها وقبل حضور الأجل لحديث « **لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها** »[3] .

وقال تعالى ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ الآية [النساء:١٨] .

تاسعا : بيان منة الله – عز وجل – على هذه الأمة (أمة محمد ﷺ) حيث جعل توبة بني إسرائيل بهذا الثقل ؛ حيث لم يقبل الله توبتهم حتى قتلوا أنفسهم.

أما هذه الأمة فإن توبتها تحصل بما ذكرنا بشروطها ومن غير أن يحدث الإنسان ضررا على نفسه[4] .

عاشرا : أن الإقلاع عن الذنب والتوبة إلى الله – تعالى – خير من الاستمرار عليه ؛ بل قد يكون حال الإنسان بعد التوبة خيرا منه قبل أن يقع في الذنب ؛ لأنه كلما تذكر الذنب جدد التوبة وعمل صالحا .

---

(١) أحكام من القرآن الكريم ص"٢٢١ ، ٢٢٢" ؛ وانظر مدارج السالكين (١٨٢/١ : ١٨٧) لمن أراد الاستزادة في ذلك .

(٢) فتح الباري (١٠٤/١١) .

(٣) رواه أبو داود كتاب الجهاد ، باب في الهجرة هل انقطعت (٧/٣ – ٨) رقم [٢٤٧٩] ، ورواه أحمد في مسنده (٩٩/٤) ؛ ورواه الدارمي كتاب السير ، باب الهجرة لا تنقطع (٢٣٩/٢ : ٢٤٠) ، طبعة دار الباز ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٧٠/٢) برقم [٢١٦٦] ؛ ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٨٧/١٩) رقم [٩٠٧] ؛ والبيهقي في السنن الكبرى (١٧/٩).

(٤) المصدر السابق : أحكام من القرآن ص"٢٢٢ ، ٢٢٣" .

الحادي عشر : بيان منة الله – تعالى – على هذه الأمة حيث يقبل توبتهم بعد أن غرقوا في الذنب فيعفو عن سيئاتهم ويبدلها حسنات كما قال سبحانه ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠] .

وهذه منة من الله وفضل ، ولهذا لما علم الله – تعالى – صدق بني إسرائيل في التوبة وقتلوا أنفسهم تاب عليهم وعفا عنهم ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:٥٤] .

الثاني عشر : بيان تمرد بني إسرائيل بعد توبتهم من عبادتهم العجل وتقتيلهم لأنفسهم ، فأمرهم عجيب لا تؤثر في نفوسهم الخبيثة توبة مشروط قبولها بتقتيل أنفسهم ، بل إنهم بعد هذا ازدادوا تمردا حتى قالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة:٥٥] فعاقبهم الله بالصاعقة فماتوا جميعا وهم ينظرون ، فكان شاملا لمن قال ذلك أو رضي به ، ومن المعلوم أن مذهب أهل السنة والجماعة في أن رؤية الله – تعالى – في الدنيا ممتنعة ، وأما في الآخرة فقد أثبتها أهل السنة ونفاها المعتزلة ومن تبعهم ، وإليك الأدلة التي اعتمد عليها أهل الحق :

لقد استدل أهل السنة بقوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] ، وهي وجوه المؤمنين قطعا ، وبقوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥] ، وبما ورد في الحديث الصحيح المتفق عليه : عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن الناس قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « **هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟** » قالوا : لا يا رسول الله ، قال « **فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟** » قالوا : لا ، قال : « **فإنكم ترونه كذلك** » ... الحديث[1] .

وعن صهيب – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « **إذا دخل أهل الجنة ، قال : يقول الله – تبارك وتعالى – : تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل** »[2] .

(١) رواه البخاري – كتاب مواقيت الصلاة – باب فضل صلاة العصر (١/١٩٠) برقم[٥٥٤] ؛ رواه مسلم – كتاب الإيمان – باب معرفة طريق الرؤية (١/١٦٣) برقم[١٨٢] .

(٢) رواه مسلم – كتاب الإيمان – باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى (١/١٦٣) برقم [١٨١] .

وقد أنكر المخالفون من المعتزلة وغيرهم رؤية الله وأولوا النصوص وردوا الأحاديث الصحيحة المتفق على صحتها واحتجوا بالعقل وأكثروا في ذلك ، وأسهل ما رد به أهل السنة عليهم بما يلي :

أولا : أن موسى – عليه السلام – سأل ربه الرؤية ولو كانت مستحيلة لما سألها موسى – عليه السلام – ولا يتصور أن موسى – عليه السلام – يسأل المستحيل. فإن قيل: إن موسى – عليه السلام – لا يعلم باستحالة ذلك .

فالجواب : أنه يلزم من ذلك أن يكون آحاد المعتزلة ومن تبعهم أعلم بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز من النبي الصفي موسى – عليه السلام – ، والقول بذلك غاية الجهل والرعونة ، وحيث بطل القول بالاستحالة تعين القول بالجواز[1] . ومما يقوي قول أهل الحق أن الله – تعالى – لم ينكر عليه سؤاله ؛ بل منعه الرؤية ، ولو كانت مستحيلة لأنكرها[2] ، ألا ترى أنه أنكر على نوح – عليه السلام – لما قال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ [هود:٤٥] فقال له منكرا عليه ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ...﴾ [هود:٤٦] الآية .

هذا والذي ندين به الله – عز وجل – أن الحق الواضح الجلي يؤيد ما قاله أهل السنة دون تعصب أو تحيز وأنها متحققة للمؤمنين في الآخرة ، وأن مخالفيهم قد خالفوا الحق ، وأدلتهم واهية لا تقوم بها حجة فضلا عن قتالهم على الاحتجاج بالعقل مع وجود النصوص .

قال شارح الطحاوية : « وهذه المسألة من أشرف مسائل الدين وأجلها وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون وتنافس فيها المتنافسون وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مردودون »[3] .

وقال الشوكاني : « تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة ، وهي قطعية الدلالة لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلتها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة ... فهي قواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب »[4] .

---

(١) انظر : روح المعاني (٩/٤٦ : ٤٧) .

(٢) كتاب الرؤية ، للحافظ أبي الحسن بن علي بن عمر الدار قطني ص (٥١) . ط مكتبة المنار .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (علي بن علي بن محمد) ص (٢٠٨) – تحقيق د/ عبد الله التركي ، شعيب الأرنؤوط – ط الثانية – مؤسسة الرسالة ص (١٤١٣) ، ولمن أراد الاستزادة فعليه الرجوع إلى كتاب الرؤية للدار قطني ؛ روح المعاني (٩/٤٦ – ٥٣) ، وبحث رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها د/ أحمد بن ناصر الحمد ، ط / معهد البحوث العلمية جامعة أم القرى .

(٤) تفسير فتح القدير (١/٨٧) .

الثالث عشر : أن في مخاطبة بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن وتذكيرهم بالنعم التي أنعم الله بها على أصولهم . دليلا واضحا على وحدة الأمة وتكافلها . ومن المعلوم أن الإنسان قد يتضرر بسوء أصله ، وقد ينتفع بصلاح أصله كما قال تعالى في كنز الغلامين اليتيمين ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف:٨٢] وقال في تعميم العذاب ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال:٢٥] وغيرها من الآيات الدالة على أن صلاح الآباء ينتفع به الأبناء والأحفاد[1] .

الرابع عشر : أن الله – تعالى – ينعم على العبد برفع الضرر الذي نزل به من أجل أن يشكر العبد نعمة الله – تعالى – فيزيد في الطاعة ويكثر من الدعاء فيزيد إيمانه ويستقيم قلبه كما قال تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠] وما حصل لبني إسرائيل من إحياء بعد الموت كان الواجب عليهم شكر نعمة الله عليهم كما حصل من دفع شر حصل لهم وهو رفع الموت عنهم وحصول خير بإحيائهم من بعد موتهم .

الخامس عشر : بيان نعمة الله – تعالى – على بني إسرائيل حيث ظلل عليهم الغمام من حر الشمس ، وفي ذلك عبرة وعظة للمؤمنين في عظمة قدرة الله – تعالى – في تسيير السحاب وأنه لا يجري إلا بأمره ولا يسير إلا بمشيئته ولا يقف إلا بإذنه ، وأن العباد مهما فعلوا لإيقافه أو إبقائه في مكان محدد أو إنزال الغيث منه فإنهم لا يستطيعون مهما أوتوا من قوة قال تعالى ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١٦٤] وقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ... ﴾ [لقمان:٣٤] الآية وقال ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [النور:٤٣] الآية .

السادس عشر : أن الله – تعالى – من على بني إسرائيل بإنزال نعمتي المن والسلوى ؛ حيث كان يأتيهم من غير كلفة ولا مشقة ؛ فكان الواجب عليهم شكرها ومن ثم عدم طلب غيرها مما هو أقل منها .

السابع عشر : الأمر في قوله تعالى ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [البقرة:٥٧] للامتنان والإباحة ، ومنه نأخذ أن الله – تعالى – أذن لعباده أن يأكلوا من الطيبات

(١) من التفسير المنير بتصرف ص"١٦٩" .

دون الخبائث لما فيها من الضرر على الإنسان ؛ ولكن ربما يحرم على عباده بعض الطيبات عقوبة لهم كما في قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء:١٦٠] وقد يحرم الإنسان من الطيبات بما يصاب به من الأمراض التي تجعله يحتمي من بعض المأكولات والمشروبات ، وقد يبتلى الإنسان العاصي بأمراض تمنعه من التمتع بالطيبات التي أحلها الله له لعله يعتبر فيعود إلى الله تعالى .

الثامن عشر : أن الله تعالى لا تضره معصية العاصين ولا تنقص من ملكه شيئا ؛ لقوله تعالى ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة:٥٧] لأن العاصي ظالم لنفسه معتد عليها غير قائم بما يجب لها ، فكما أن النفس أمانة عند الإنسان فإنه يجب عليه أن يبتعد ويتوقى كل ما يضر نفسه ويضر دينه قال تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾ [الشمس:٩-١٠] .

ومن المعلوم أنه لا يجوز للإنسان أن يلقي بنفسه إلى التهلكة في الأمور الحسية التي تضره لأن الله تعالى يقول ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء:٢٩] وقال ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة:١٩٥] فكذلك أيضا لا يجوز له أن يلقي بنفسه إلى التهلكة فيما يضره في دينه .

بل إن ما يضره في دينه أولى بالمراعاة مما يضره في بدنه ، لأن ضرر الدين ضرر في الدنيا والآخرة ، أما ضرر البدن فهو ضرر في الدنيا فقط . لذا يجب على المسلم أن يتبصر وينظر مدى الخسارة العظيمة التي تلحقه بفعل المعاصي أو ترك الواجبات حتى يحرس نفسه من الظلم وهذا الضرر .

التاسع عشر : أنعم الله على بني إسرائيل بنعم عظيمة ، وكان موسى - عليه السلام - يذكرهم بها بين الحين والآخر ، ولكنهم لفسقهم وعتوهم كفروها ، يشهد لذلك قول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝ ﴾ [البقرة:٥٨-٥٩] .

وهذا يدلنا على أن بني إسرائيل من أبعد الناس عن شكر النعم ولهذا بدلوا قولا غير الذي قيل لهم حيث قيل لهم ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ فدخلوا يزحفون على

أستاههم وأعجازهم وبدلوا قول الله لهم ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ بقولهم : حنطة ، يعني . أنهم لم يهتموا بذنوبهم وإنما كان همهم أمرا ماديا ، وهو أن يشبعوا بطونهم[1] ، وفي هذا دليل على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يجوز إن كان التعبد بلفظها ، أما إن كان التعبد بمعناها فيجوز بما يؤدي ذلك المعنى لا بما يخرج عنه[2] .

العشرون : أن الله – تعالى – أمرهم بأن يدخلوا الباب سجدا ، ويتفرع عن هذا مشروعية سجود الشكر[3] عند تجدد النعم يثني على الله – تعالى – بما هو أهله .

الحادي والعشرون : أنه ينبغي للإنسان أن لايغتر بنفسه ولا يشمخ بأنفه إذا هيأ الله له أسباب النصر فيترفع على الناس ويظلمهم ؛ بل عليه أن يتواضع ويرد ذلك إلى فضل الله ونعمته كما أمر الله بني إسرائيل أن يقولوا : (حطة) ، وكما امتدح الله المؤمنين المجاهدين حين قالوا ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٧] .

الثاني والعشرون : أن الله – تعالى – يزيد المحسنين من فضله إحسانا وفضلا كما قال ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة:٥٨] وهذا كقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧] وكقوله ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠] فالله سبحانه وتعالى أكرم من عبده وأجزل عطاء ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

الثالث والعشرون : من قوله تعالى ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ [البقرة:٦٠] نأخذ تقرير سنة الاستسقاء وذلك بإظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلة مع التوبة النصوح كما فعل النبي محمد ﷺ حين خرج إلى المصلى ، متواضعا متخشعا متضرعا ، وحسبك به ، فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد فأنى نسقى؟[4] .

---

(١) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٣٧" .

(٢) انظر : (تفسير القرطبي) (١/٤١١) .

(٣) وصفته : أن يكبر ثم يخر ساجدا ويقول : سبحان ربي الأعلى ، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، ويثني على الله – تعالى – بما أنعم به عليه ، ثم يرفع رأسه بدون تكبير ولا تسليم – انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٣٧" .

(٤) قلت : يقوله القرطبي رحمه الله ذلك في زمانه ، فكيف لو رأى زماننا ! لا شك أنه سيقول : ومحاربة رب العباد – انظر كلامه (١/٤١٨) .

ومنها نأخذ أيضا افتقار الخلق جميعا إلى الله تعالى ، ولو كانوا أعلى أصناف الخلق وهم الرسل ولهذا استسقى موسى لقومه ، واستسقى محمد ﷺ لقومه حين دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا؟ فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « **اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا** » قال أنس . ولا والله ما نرى في السماء من سحابة ولا قزعة[1] ، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار . قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ، ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمس سبتا ، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة — ورسول الله ﷺ قائم يخطب — فاستقبله قائما فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها عنا ؟ قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: « **اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر** » قال : فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس[2] . وهذه القصة تدل على أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى ، ومع أن موسى ﷺ ﴿ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:٦٩] ومحمد ﷺ أعظم الناس وجاهة عند الله إلا أن كلا منهما مفتقر إلى الله – عز وجل – يسأله ويلجأ إليه ويتضرع إليه ، فإذا كان هذا مقام الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فما بالك بمقام من دونهم .

وعلى هذا يجب على المسلم أن لا يلجأ إلا إلى الله تعالى في جميع أموره ، فإذا أصابه ضر أو مرض فعليه أن يرفع أمره لمن بيده كشف الضر وشفاء المرض ، ولا يلجأ إلى البشر أحياء وأمواتا يدعوهم ويستغيث بهم ؛ لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة قال الله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل:٦٢] لا يا ربنا ليس هناك إله معك![3] .

---

(١) القزعة : هي القطعة من السحاب – النهاية في غريب الحديث (٥٩/٤) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري – كتاب الاستسقاء – باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة (٣١٩/١) برقم [١٠١٤] . وأخرجه مسلم كتاب صلاة الاستسقاء – باب الدعاء في الاستسقاء (٦١٢/٢ – ٦١٤) برقم [٨٩٧] . الظراب : بكسر الظاء وفتح الراء مفردها ظرب هي الروابي الصغار . انظر : لسان العرب (٢٤٩/٨ ، ٢٢) مادة ظرب .

(٣) انظر : أحكام من القرآن ص"٢٤٠ ، ٢٤١" .

الرابع والعشرون : في تفجر الماء من الحجر لسيدنا موسى عليه السلام آية عظيمة ، وأعظم منها ما حصل لنبينا محمد ﷺ حيث تفجر الماء من بين أصابعه في ركوة[1] وضعت له في غزوة الحديبية حين عطش الناس وطلبوا الماء ، فجعل الناس يستسقون حتى ارتووا وكانوا ألفا وأربعمائة أو قريبا من ذلك[2] .

وفوران الماء من بين أصابعه من الركوة أعظم من خروجه من الحجر ؛ لأن الحجر جرت العادة أن تتفجر منه العيون ، أما الركوة فلم تجر العادة بذلك والله على كل شيء قدير[3] .

فإن قيل : كيف يعقل خروج الماء الكثير من حجر صغير أو من بين أصابع الإنسان ؟

فالجواب : أن يسأل أولا بهل تسلم بوجود الرب الفاعل المختار القادر على كل شيء والذي لا يستعصي عليه أي شيء ؟ فإن اعترف بوجوده وبعظيم قدرته فقد زال ما عنده من إشكال ، وإن لم يعترف فلا فائدة في جدال كافر استحب العماية عن رؤية الحق ، وإلا فلو أرجع بصره وأعمل فكره في الكائنات لاهتدى إلى خالقها وموجدها الذي لا يصعب عليه شيء[4] .

الخامس والعشرون : الماء نعمة عظيمة ، فإذا شح عظم أمره على الناس واشتد خطبه وبحثوا عنه في كل مكان ، فإذا وجد فجأة اقتتل الناس على منبعه وتزاحموا عليه ولربما حدث بينهم شيء ؛ لأن النفوس مجبولة على محبة الاستئثار بالشيء ، فإذا قسم ووزع وصارت كل طائفة لهم جهة معينة مخصوصة كان ذلك أقرب إلى السلامة مما يترتب من الآثار السيئة على اجتماعهم على مشرب واحد[5] .

السادس والعشرون : أنه يجب على المرء إذا أنعم الله عليه نعمة – أن يجعل النعمة سببا للقيام بطاعته ، لا سببا للأشر[6] والبطر[7] ولهذا أعقب قوله ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٦٠] بقوله ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة:٦٠] لأن من طبيعة البشر إذا لم تلتزم بأمور الشرع الأشر والبطر مع كثرة النعم ، إذا فعلى

(١) الركوة : إناء من جلد صغير .

(٢) فتح الباري – كتاب المغازي – باب غزوة الحديبية (٥٦٠/٧) برقم [٤١٥٢] . صحيح مسلم – كتاب الجهاد والسير – باب غزوة ذي قرن وغيرها (١٤٣٣/٣) برقم [١٨٠٧] .

(٣) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٤١،٢٤٢" .

(٤) صفوة الآثار (١٤٤/٢ ، ١٤٥) .

(٥) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٤٣" .

(٦) الأشر : هو البطر ، وقيل : أشد البطر – وفي الحديث « **ورجل اتخذها أشرا** ... » ، وفي الحديث الآخر « الكبر بطر الحق ... » أي : الطغيان ، ومعناه : يتكبر عن الحق فلا يقبله .

(٧) انظر : (النهاية في غريب الحديث) (٥١/١ ، ١٣٥) .

طبيعة البشر إذا لم تلتزم بأمور الشرع الأشر والبطر مع كثرة النعم ، إذا فعلى الإنسان التفكر فيما هو عليه من الخير وكثرة النعم ؛ بل يسأل الله — تعالى - أن يلهمه شكرها حتى لا تكون عونا له على المعصية .

السابع والعشرون : جواز التوسل بدعاء من ترجى إجابته فإن قوم موسى قالوا له ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة:٦١] وهذا مقرر في شريعتنا فإن الناس كانوا يأتون إلى النبي ﷺ يسألونه أن يدعو الله لهم كما في قصة الرجل الذي دخل يوم الجمعة والنبي يخطب ... وكما قال عكاشة بن محصن حين ذكر النبي ﷺ السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب فقال عكاشة : ادع الله أن يجعلني منهم قال « **اللهم اجعله منهم** »[١] .

الثامن والعشرون : التوسل إلى الله - تعالى - باسم الرب عند الدعاء لقولهم : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [البقرة:٦١] فكثيرا ما جاء في القرآن من الدعاء كان مصدرا باسم الرب (ربنا) ، فالدعاء بقولهم (ربنا) من أسباب إجابة الدعاء **كما أشار إليه النبي ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول : يا رب يا رب**[٢] .

التاسع والعشرون : جواز تفضيل الأطعمة بعضها على بعض ، وأن الإنسان لا يلام إذا اختار الأطيب من الطعام ولا يعد هذا من باب الإسراف إذا كان يستطيع ذلك ؛ لأن هذا من باب التمتع بنعم الله[٣] ، أما إن كان يستدين ليأتي بالطعام الجيد أو يسأل الناس إلحافا ويقف على أبوابهم فهذا لا يجوز ؛ بل إن صاحبه ممقوت وساقط من عين الله أولا ثم من أعين الناس ثانيا .

الثلاثون : بيان حكمة موسى - عليه السلام - حيث قال لقومه حين سألوه الطعام الذي يريدونه ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة:٦١] ولم يدع الله

---

(١) فتح الباري ، كتاب الرقاق - باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب (١٩٩/٤) برقم[٦٥٤٢] . مسلم - كتاب الإيمان - باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (١٩٧/١) برقم [٢١٦] .

(٢) سبق تخريجه ، والحديث خرجه مسلم ، كتاب الزكاة - باب قبول الصدقة الكسب الطيب برقم[١٠١٥] .

(٣) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٥٠" .

لهم ؛ لأن الدعاء بأقل مما هو موجود لدى الإنسان سفه ؛ ولكن يدعو الله – تعالى – ببقائه واستمراره وألا يرفعه عنه فتكون الدعوة في مكانها[1] .

الحادي والثلاثون : أن الله – تعالى – ضرب على بني إسرائيل الذلة والمسكنة ، فهم دائما في ذل ومسكنة حتى إن كانوا في غنى فقلوبهم فقيرة يحرصون على تحصيل المال من حلاله وحرامه ، فهم كما ذكر الله عنهم ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [النساء:١٦٠-١٦١] ولذا يجب على المسلمين مقاطعتهم اقتصاديا وسحب أموالهم من (البنوك) التي يسيطرون عليها ؛ لئلا ينتفعوا بفوائدها الربوية ومقاطعة الدول التي تعينهم وتستعين بهم ، وأخذ الحيطة والحذر منهم .

فهم شعب مغضوب عليهم ولا يرجى معهم سلام ولا أمن ولا أمان وإن حصل فسيجر وراءه الفساد كله قال تعالى ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٦١] و [آل عمران:١١٢] وقال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المائدة:٦٠] وقال تعال ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2] [المائدة:٦٤] فأي خير يرجى من هؤلاء بإقامة مصالح معهم تقوم على أساس التبادل التجاري أو الاقتصادي ؟

الثاني والثلاثون : بيان عصيان بني إسرائيل واعتدائهم على الله **أولا** ثم على الأنبياء **ثانيا** بعصيانهم وتقتيلهم ثم على عباد الله باعتبارهم خدما لهم وعبيدا منقادين لا يجوز خروجهم عليهم أو عصيان أوامرهم .

الثالث والثلاثون : من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ [البقرة:٦٣] نأخذ بيان قدرة الله – تعالى – في رفع الطور تخويفا وإنذارا لبني

---

(١) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٥٠" .

(٢) فليحذر الذين يؤاخون النصارى واليهود باسم الوطن أو العروبة ويبتعدون عن الإسلام أن يحملهم الله كفرهم لموالاتهم إياهم خصوصا إذا اعتبروا أن ما هم عليه دين الله والله بريء منه ليحذر المنخدعون بالأفكار الماسونية أن يحملهم كفر كل يهودي وكل نصراني وكل درزي وكل نصيري وملحد جعلوه أخا في العروبة أو الوطنية . صفوة الآثار (١٦١/٢ ، ١٦٢) .

إسرائيل حين عصوا أمر الله – ، أما أمة محمد ﷺ فلم يكن فيها مثل هذا ، إنما إنذارهم وتخويفهم بكسوف الشمس والقمر[١] ، ولذا شرع للناس إذا رأوا ذلك أن يفزعوا للصلاة والاستغفار والصدقة والعتق وغيرها من الأعمال الصالحة حتى ينكشف ما بهم[٢] .

الرابع والثلاثون : وجوب أخذ أوامر الله – تعالى – والالتزام بشريعته على وجه القوة بلا توان أو ضعف أو تسويف أو انتظار لتحسن الظروف ؛ لأن فعل ذلك يجعل للشيطان مدخلا يستولي فيه على القلب فيكون ممن قال الله فيهم ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ الآية[٣] [المجادلة:١٩] .

الخامس والثلاثون : ومن الفوائد : أن بني إسرائيل بعد هذا الإنذار الشديد لم ينتفعوا بما أنذروا به ؛ بل تولوا من بعده ، وهذا يدل على قسوة قلوبهم وسوء طباعهم وخبث سريرتهم وأنهم من أشد الناس طغيانا وضلالا[٤] .

السادس والثلاثون : في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧] نأخذ أن الرجوع إلى أهل العلم من أنبياء في حياتهم أو سنتهم بعد مماتهم إذا أشكل عليهم شيء من أمور دينهم واجب مثل ما فعل بنو إسرائيل حين قتل منهم قتيل ، أما في شريعتنا فإن فيها حلا لكل مشكل لقوله تعالى : ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٢] أي : إلى كتاب الله وإلى الرسول ﷺ في حياته وإلى سنته بعد مماته ، ولم يأمرنا الله بذلك إلا لأننا سنجد الحل الكافي الشافي ، ولو أن الأمة فعلت ذلك لانتهت جميع مشكلاتهم وكانوا أمة يشار إليها بالبنان ولكانوا قدوة لغيرهم وصدق الله إذ يقول : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦] .

---

(١) والزلازل والبراكين وكثرة السيول .

(٢) انظر : (أحكام من القرآن) ، ص"٢٦٢،٢٦٣" .

(٣) انظر : (أحكام من القرآن) ، ص"٢٦٢،٢٦٣" .

(٤) انظر : المصدر السابق ص (٢٦٦) .

السابع والثلاثون : أن التنطع في الدين وكثرة الأسئلة مضرة فعلا محرمة شرعا ؛ لكونها تفضي إلى تشديد قد يؤول أمره إلى التعطيل ، فيكفر صاحبه كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:١٠١-١٠٢] ومن المعلوم أن الأمر إذا جاء مطلقا في زمن الوحي فإنه لا ينبغي أن يستفصل فيه ؛ لأن الاستفصال قد يؤدي إلى إضافة شروط ثقيلة ، أما بعد انقطاع الوحي فإنه لا حرج على الإنسان إذا ورد الأمر مطلقا أن يبحث عن شيء مقيد له ؛ لأن الشريعة قد تمت ولا يمكن زيادة إضافات إليها[١] .

الثامن والثلاثون : بيان ما كان عليه بنو إسرائيل من سوء الظن بنبيهم واستهزائهم بأوامره حيث قالوا له : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ [البقرة:٦٧] وهذا من قلب الحقائق ورمي البريء بما الرامي به ألصق[٢] .

التاسع والثلاثون : أن الله أمرهم بذبح بقرة دون غيرها من سائر الحيوان ليقتلع من نفوسهم كل تقديس للبقر ، لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل ، فينقلب التقديس إلى إهانة واحتقار بدلا من الحب والتعظيم ، فلما امتحنوا بهذا قضى على ما تبقى في نفوسهم من تقديس لها قضاء مبرما[٣] .

الأربعون : أنه يجب على المأمور أن يمتثل ما أمر به ، على الوجه الذي أمر به لقوله تعالى : ﴿ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [البقرة:٦٨] و (ما) هذه موصولة تشمل عين المأمور ووصف المأمور ، وما أمر به شرعا فإن الامتثال لا يحصل فيه إلا إذا فعله الإنسان على وجه ليس فيه زيادة ولا نقص ؛ لأن الزيادة غلو والنقص تفريط[٤] .

الحادي والأربعون : أن بني إسرائيل عندهم من التهاون والتباطؤ في الاستجابة وانتحال المعاذير من التنفيذ ؛ فهم حين طلب منهم أن يفعلوا ما أمروا به ازدادوا تعنتا وتصلبا وقالوا ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ [البقرة:٦٩] فانظر ما علاقة

---

(١) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٨٢" ؛ وانظر : (صفوة الآثار) (٢/١٨٣) .

(٢) انظر : (صفوة الآثار) (٢/١٧٥) .

(٣) انظر : (صفوة الآثار) (٢/١٧٤) .

(٤) أحكام القرآن ص"٢٨٥" .

اللون بالنسبة للفرض المقصود ، ولعل سؤالهم ذلك حكمة من الله – تعالى – في التشديد عليهم فإنهم لما شددوا شدد الله عليهم[١] .

الثاني والأربعون : أنهم قالوا ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:٧٠] فلما قالوها وفقهم الله – سبحانه وتعالى – للهدى في النهاية ، ولذا على المسلم أن يقرن الخبر المستقبلي بالمشيئة فإن ذلك مما يسهل أموره ؛ لما فيها من الاستعانة بالله وتفويض الأمر إليه ، وتجديد الاعتراف بقدرته ونفاذ مشيئته .

ورد أن سيدنا سليمان – عليه السلام – قال : « **لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كلهن تأتي بغلام يقاتل في سبيل الله ، فقال له صاحبه أو الملك : قل : إن شاء الله ، فلم يقل . ونسي ، فلم تأت واحدة من نسائه إلا واحدة جاءت بشق غلام** » فقال رسول الله ﷺ : « **ولو قال : إن شاء الله لم يحنث ، وكان دركا له في حاجته** »[٢] .

وليس هذا من باب الخبر عن أمر واقع ؛ لأنه لا يحتاج إلى ذلك إلا على سبيل التبرك أو التعليل ، ولهذا كان القول الراجح في قول الإنسان : أنا مؤمن إن شاء الله إذا كان الغرض الإخبار عن الأمر الواقع فإنه لا يحتاج إلى قول ذلك إلا أن يريد أن إيمانه حصل بمشيئة الله ، أو أنه يريد التبرك بإضافة إيمانه إلى مشيئة الله — عز وجل — وبراءته من حوله وقوته إلى مشيئة الله — عز وجل – وحوله وقوته فإن هذا حسبه ، أما إن كان الحامل عليه الشك في وجود الإيمان فهذا حرام لا يجوز ، لأن الإنسان يجب أن يؤمن إيمانا جازما لا شك فيه[٣] .

الثالث والأربعون : في قوله تعالى عنهم ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ [البقرة:٧١] يتبين لنا ما عليه بنو إسرائيل من التعاظم والترفع والاستعلاء فكأنهم هم الذين يحكمون موسى – عليه الصلاة والسلام – وكأنهم هم الذين يحكمون على ما جاء به موسى من كونه حقا أو باطلا لقولهم ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ ومن المعلوم أن موسى – عليه الصلاة والسلام – قد جاء بالحق في ذلك الآن وقبله[٤] – وللمفسرين شروح وتفاريع

(١) انظر : أحكام القرآن ص"٢٨٥" ؛ صفوة الآثار (١٧٥/٢) .

(٢) رواه البخاري – كتاب كفارات الأيمان – باب الاستثناء في الأيمان (٢٣٣/٤) برقم [٦٧٢٠] . مسلم- كتاب الأيمان – باب الاستثناء – (١٢٧٥/٣) برقم [١٦٥٤] .

(٣) انظر : (أحكام القرآن) ص"٢٨٧" .

(٤) أحكام القرآن ص"٢٩٠" .

حول هذه الجملة ؛ أعدلهم من قال : يعنون بينت لنا الحق فاتضح وعرفنا أي بقرة عنيت ، ومنهم من قال : إن قولهم هذا يوجب الكفر والردة عن الدين لاقتضائه أن موسى لم يأتهم بالحق قبل ذلك ، ولكن إذعانهم وانقيادهم للتنفيذ يبطل هذا القول ، ولا يكون كفرا إلا إذا اعتقدوا أن ما تقدم من الأوامر لم يكن حقا[1] .

الرابع والأربعون : أنه يجوز حرث الأرض بالبقر وسقيه بها لقوله ﴿ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾ [البقرة:٧١] وفيها إشارة أيضا تبين لنا أنه ينبغي ألا نستعمل من الحيوانات في حرث الأرض وسقيها إلا ما كان طيعا ذلولا ، ومنها أيضا نأخذ أنه ينبغي لنا ألا نستعمل من الأشياء إلا ما دلت عليه التجارب على أنه صالح فيها حتى لا نقع في الخطأ والزلل[2] .

الخامس والأربعون : أن في قوله تعالى عنهم ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة:٧١] بيانا لسوء نيتهم وخبث طويتهم ؛ حيث ذكر أنهم بعد التعنت والاستفصال أنهم ذبحوها ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ لكونهم متصفين بالعلو والاستكبار .

السادس والأربعون : أنه يجوز ذكر المسبب قبل ذكر السبب ؛ فإن الذبح كان سببه الاختلاف الذي وقع بين بني إسرائيل بشأن القتيل ، ومع ذلك ذكر قبل أن يذكر السبب لأنه هو محل العبرة[3] .

السابع والأربعون : إظهار عجائب قدرة الله – عز وجل – في اختراع الأشياء من أضدادها ؛ حيث أحيا الله القتيل بمجرد ضربة بجزء من لحمها فكان سببا لحياته ، ولعل سائلا يسأل فيقول :

ما الفائدة في ضربه ببعض البقرة مع أن الله – سبحانه – قادر على إحيائه ابتداء ؟

الجواب : لتأكيد الحجة على الناظرين وقطع دابر تهمة الحيلة على الشاكين المجادلين لئلا يقولوا هذا ضرب من السحر ، ولذلك لم يباشر موسى – عليه السلام – الفعل بنفسه خشية القيل والقال ، وإنما أجرى الله على أيديهم ذلك ليدلل على

(١) انظر : (صفوة الآثار) (١٧٦/٢) .

(٢) مثل أن تستعمل البقر في الركوب لأن الله – تعالى – جعل لها عملا تستطيعه وغير ذلك . وانظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٩٠" .

(٣) أحكام من القرآن ص"٢٩١" .

أن المعجزات لا تكون إلا من الله دون تمويه من الناس ، وأن الأنبياء كغيرهم لا تأثير لهم فيها[1] .

الثامن والأربعون : أن القاتل لا بد أن يخرجه الله ويبينه مهما طال زمنه ، فإن اقتص منه في الدنيا وإلا فسوف يكون القصاص في الآخرة لا محالة .

التاسع والأربعون : أن الله – سبحانه وتعالى – أرى عباده من آياته ما يكون به العقل والرشد لقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٧٣] وآيات الله – سبحانه وتعالى – تنقسم إلى قسمين : آيات كونية ، وآيات شرعية .

فالكونية : ما يحصل بخلقه وتقديره من سماوات وأرض وشمس وقمر ...[2] .

والشرعية : ما جاءت به الرسل من الأوامر والنواهي وغيرها من أقسام الوحي .

الخمسون : أن تدبر الآيات سبب للعقل لقوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٧٣] والعقل عقلان : عقل إدراك وعقل تصرف .

فعقل الإدراك : هو ما يترتب عليه التكليف في المؤمن والكافر .

وعقل التصرف : هو ما يحصل به الرشد من أفعال الإنسان وأقواله ، وهذا خاص بمن آتاه الله الحكمة كما في قوله تعالى ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:٢٦٩] .

وعلى هذا لو سأل وقال : هل الكفار عقلاء ؟ والجواب : أنهم عقلاء من حيث عقل الإدراك الذي يحصل به التكليف وليسوا عقلاء من حيث عقل التصرف الذي يحصل به الرشد ؛ ولذا ينفي الله عنهم العقل في آيات كثيرة من القرآن مثل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣] .

إذا فالكفار ليس لهم عقل تصرف يوصلهم إلى الرشد ومع هذا هم مكلفون ومؤاخذون[3] .

---

(١) صفوة الآثار (١٧٥/٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤) .

(٢) أحكام من القرآن ص (٢٩٤) ، انظر : (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص"٢٧٦" ط دار طويق ، شرح العقيدة الطحاوية ص"٨٠" ط مؤسسة الرسالة .

(٣) انظر : أحكام القرآن ص"٢٩٤ ، ٢٩٥" .

الحادي والخمسون : أن ما حصل لبني إسرائيل بعدما رأوا إحياء الميت وإخباره بمن قتله ، وبما حصل لهم من آيات عظيمة قبلها قست قلوبهم ، ولم يزدادوا بها لينا للحق وقبولا له . لذا يجب على المؤمن كلما رأى آية من آيات الله – تعالى – أن يلين بها قلبه ويتذكر بها ما حصل لبني إسرائيل ؛ لئلا يتشبه بما كانوا عليه أو يسند ما يقع من أمور في الكون كسقوط النجوم أو كسوف الشمس ، وخسوف القمر أو الزلازل والبراكين والعواصف الشديدة إلى الطبيعة وأنها هكذا تقع ، وإنما عليه أن يأخذ العبرة والعظة من وقوعها فيرجع إلى الله – تعالى – رجوعا حقيقيا حتى لا يؤخذ الإنسان بها على غرة أو قد تأتي على نحو أكبر مما جاءت ولا يكون ممن قال الله فيهم ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1] [يوسف:١٠٥-١٠٧] .

الثاني والخمسون : ثناء الله تعالى على صلحاء بني إسرائيل قال الله تعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩] أي : ومن قوم موسى جماعة يهدون بالحق الذي جاءهم به من عند الله ، وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون .

والآية سيقت لدفع ما عسى أن يوهمه تخصيص كتب الرحمة والتقوى والإيمان بمتبعي رسول الله ﷺ من حرمان أسلاف قوم موسى – عليه السلام – من كل خير ، وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم[2] .

والمقصود أن قوله تعالى ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ [الأعراف:١٥٩] جماعة قليلة كما يدل عليه التبعيض الدال على التعريض بأكثرهم الذين كانوا يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون ، وليس المقصود صلحاء بني إسرائيل في عهد موسى – عليه السلام – فقط ؛ بل المقصود صلحاء بني إسرائيل من عهده – عليه السلام – إلى عهد نبينا محمد ﷺ ، ولا تعارض بين ما ذكر من التبعيض في قوله (ومن) وبين قوله (أمة) لأن الأمة تطلق على الجماعة الكثيرة ، وتطلق على القليلة إذا كانت ذات شأن ، وقد يسمى الواحد أمة لما فيه من خصال الخير كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾[3] [النحل:١٢٠] .

---

(١) انظر : المصدر السابق ص"٢٩٧" .

(٢) انظر : (تفسير القاسمي) (٢٨١/٧) ؛ تفسير المنار (٣٦٣/٩) .

(٣) انظر : (تفسير الرازي) (٣١/١٥) .

المبحث الثالث

عقوبة قارون

المطلب الأول : الآيات التي ذكرت ذلك :

أولاً : سورة القصص :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص:٧٦-٨٣] .

لطائف الآيات :

أولاً : لم تذكر هذه القصة في القرآن إلا مرة واحدة .

ثانياً : في قوله تعالى ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ... ﴾ [القصص:٨١] الآية . دلت (الفاء) على الترتيب والتعقيب ؛ حيث خسف به يوم خروجه في زينته وما جرى فيها من تمني قوم أن يكونوا مثله وما أنكر عليه علماؤهم من غفلتهم عن التنافس في ثواب الآخرة بتعجيل عقابه في الدنيا بمرأى من الذين تمنوا أن يكونوا مثله ، وما حصل لقارون من خسف خارق للعادة ؛ لأنه لم يتناول غير قارون ومن ظَاهَرَهُ و لم يتعد

الخسف غير داره[١] .

ثالثاً : لم تذكر كلمة (ويكأن) إلا هنا في القرآن كله ، وقد ذكر في معناها أقوالٌ كثيرة[٢] ، وأحسن ما قيل في معناها : أنها مركبة من (وي) وهو اسم فعل بمعنى أعجب ، والكاف للتعليل ، و (أن) وما في حيزها مجرورة بها .

ومعنى الكلام : أعجب لأن الله يبسط الرزق لمن يشاء .

والشاهد في قوله : (ويك) قول عنترة :

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها   قيل الفوارس ويك عنترَ أقدم[٣]

وذهب من رأى أن أصل (ويك) : ويلك اعلم أنه كذا ، فحذفت اللام والفعل فصارت ويك .

رابعاً : في قوله تعالى ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص:٨٠] الضمير في قوله ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ يراد به الجنة ؛ لأنها المعنية بقوله تعالى ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ ﴾[٤] [القصص:٨٠] والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

وقد ذكر الله مذمة قارون في غير ما آية فقال سبحانه بعد ذكر عاد وثمود : ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٣٩-٤٠] والذي خسف به الأرض هو قارون ، وقال سبحانه في سورة غافر : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [غافر:٢٣-٢٤] .

---

(١) انظر : (التحرير والتنوير) (١٨٥/٢٠) مجلد (١٠) .

(٢) التفسير الكبير (١٩/٢٥) ؛ انظر : (التحرير والتنوير) (١٨٧/٢٠) مجلد (١٠) ؛ تفسير القاسمي (١٢٨/١٣) .

(٣) شرح المعلقات العشر – معلقة عنترة بن شداد – ص (١١٣) أحمد بن الأمين الشنقيطي ط دار الكتاب العربي سنة ١٤١٣ هـ . ومعناه : إن الذي شفى نفسه وأذهب سقمها قول الفوارس له ويك يا عنترة أقدم نحو العدو واحمل عليه فتعْويل أصحابه عليه والتجاءهم إليه شفى نفسه ونفى غمه .

(٤) انظر : (التفسير الكبير) (١٧/٢٥) ؛ معاني القرآن للزجاج (١٥٦/٤) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة :

قارون هو ابن يصفد بن يصهر (ابن عم موسى) فقد روى ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه كان ابن عم موسى[1] .

ولم تذكر قصته في القرآن إلا مرة واحدة ، أشارت فيه إلى أن سبب بغي قارون كان الثراء مع الكبر والاستطالة وجحود نعمة الخالق لما غلب عليه الحرص ، ومحبة الدنيا المؤديان إلى الانحراف عن جادة الصواب ، بل عن الإيمان بالله ... ومثل هذا الانحراف ولو كان بمقدار ذرة واحدة لا بد وأن ينتهي بالإنسان إلى ما انتهى إليه قارون الذي كان يظن أنه المتصرف الوحيد بإغرائه السوقة من الناس في ملك الله عز وجل ، وأن موسى – عليه السلام – الفقير المعدم لا يمكن أن يجمع هذا المال الوفير ليصل إلى ما نحن فيه من الغنى والذكر في الناس .

والغريب من الناس حين يرون صاحب الجاه والسلطان إلا من رحم الله يتمنون لو كان لهم مثل ما عنده إما حسداً له أو غبطة ، وأن المال هو كل شيء ، وأنه هو السعادة الحقيقية .

إن قارون آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة غير أنه طغى وبغى عليهم بهذا المال ، ولم تحدد الآيات فيم كان البغي ليدعه مجهولاً يشمل شتى الصور ، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم ومتاعهم كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان ، وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال ، وربما بغير ذلك[2] ، نصحه أهل الوعظ والإرشاد من قومه بالبعد عن البطر والتجبر والإفساد في الأرض وأن يستعمل ماله في مرضاة الله مع الانتفاع ببعضه في مصالح الدنيا ، وألا ينفقه فيما يغضب الله – تعالى – حتى لا يتعرض لزوال النعمة . لكنه أعرض ونأى بجانبه وقال ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [القصص:٧٨] بطرق التجارة .

إنه القول المغرور الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها ويفتنه المال ويعميه الثراء ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية رداً على قولته الفاجرة المغرورة ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ

(١) فتح الباري (٥٥٣/٦) .

(٢) انظر في ظلال القرآن (٢٧١١/٥) .

عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص:٧٨]

كان عليه أن يعلم هذا لأنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله - عز وجل - من أن يسألهم عن ذنوبهم ، فمتى حق عليهم القول أهلكهم بغتة بلا معاتبة وطلب عذر[١] .

بعد النصح والإعذار إلى الله لا يبقى للداعي إلى الله - تعالى - إلا أن يكل الأمر إلى الله تعالى . ولما أراد الله به من المقت خرج يوماً في زينته في موكب مهيب وزينة فاخرة باهرة فافتتن بعض الناس بمظاهره فاتجهت إليه قلوبهم واشرأبت إليه نفوسهم وتمنوا أن يؤتوا مثله ، والبعض الآخر لم يلتفتوا إلى ذلك بل نظروا إلى ما عند الله مما هو خير وأبقى فقالوا لهم ناصحين منكرين لمقالهم ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [القصص:٨٠] فمن آمن وعمل صالحاً فثواب الله وجزاؤه أكثر وأفضل من هذه الزينة ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص:٨٠] على فتنة الحياة وإغرائها ، الصابرون على الحرمان الذي يتشهاه الكثيرون[٢] ، الراضون بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار المترفعون عن محبة الدنيا ، كما جاء في الحديث الصحيح « **يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم** ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧] »[٣] .

وإذا كانت هذه هي ظواهر الدنيا ومتعها التي لا تدوم فما بالك ببواطن وملذات الآخرة التي لا تنتهي!!! .

ومن الأسباب في عقوبته ما ذكره ابن حجر في الفتح ما أخرجه ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : « كان موسى يقول لبني إسرائيل : إن الله يأمركم بكذا حتى دخل عليهم في أموالهم فشق ذلك على قارون فقال لبني إسرائيل : إن

(١) انظر : (تفسير القاسمي) (١٢٧/١٣) ؛ في ظلال القرآن (٢٧١٢/٥) .

(٢) انظر : (في ظلال القرآن) (٢٧١٣/٥) .

(٣) والحديث رواه البخاري - كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٤٣٢/٢) برقم [٣٢٤٤] . ورواه مسلم - كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها - الباب نفسه - (٢١٧٤/٤) برقم [٨٢٤] .

موسى يقول : من زنى رجم ، فتعالوا نجعل لبغي شيئاً حتى تقول : إن موسى فعل بها فيرجم فنستريح منه ، ففعلوا ذلك ، فلما خطبهم موسى قالوا له : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ! فقال : فقد زنيت ، فأرسلوا إلى المرأة ، فلما جاءت عظم عليها موسى ، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل إلا صدقت ، فأقرت بالحق ، فخر موسى ساجداً يبكي ، فأوحى الله إليه ، أني أمرت الأرض أن تطيعك فأمرها بما شئت ، فأمرها فخسفت بقارون ومن معه »[1] ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾[2] [العلق:٦-٧] .

---

(١) انظر : (فتح الباري) (٥٥٤/٦) وقد وردت آثار أخرى قال عنها الرازي : إن أكثرها متعارضة مضطربة ، والأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب ، انظر : (التفسير الكبير) (١٨/٢٥) .

(٢) سورة العلق آية (٦،٧) هذا هو الجزاء حين أعطي المال طغى ، وكان الأولى به التواضع والشكر ورد تلك النعم إلى باريها – لا شدة الحرص والتباهي . وفي الحديث قال النبي – صلى الله عليه وسلم : « **إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتقي بماله ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأحسن المنازل عند الله ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط في ماله لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأسوأ المنازل عند الله ، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته ، وهما في الوزر سواء** » الحديث رواه أحمد (٢٣٠/٤ ، ٢٣١) ورواه الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة (٥٦٢/٤) برقم [٢٣٢٥] وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجة كتاب الزهد – باب النية (١٤١٣/٢) برقم [٤٢٢٨] .

المطلب الثالث : نوع العقوبة

قال تعالى ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص:٨١] وقال سبحانه ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٣٦] .

وهكذا بعدما خرج قارون في زينته مختالا مفتخرا بها على قومه فجذب القلوب والنفوس إلى حب الدنيا ولسان حاله يقول : أموسى الفقير خير أم أنا ؟ أهذا الذي لا يملك الذهب والفضة والخيول والخدم والحاشية أفضل أم أنا ؟ يقول صاحب الظلال: « وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها ، وتتهافت النفوس وتتهاوى ، تتدخل يد القدرة لتضع حدا للفتنة ، وترحم الناس من إغرائها وتحطم الغرور والكبرياء تحطيما . ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص:٨١] هكذا في جملة قصيرة وفي لمحة خاطفة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ فابتلعته وابتلعت داره وهوى في بطن الأرض التي علا فيها ، واستطال فوقها جزاء وفاقا . وذهب ضعيفا عاجزا ، لا ينصره أحد ولا ينتصر بجاه أو مال ، وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس ؛ وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال »[1] وكان لهذا الخسف أبلغ الأثر في النفوس ممن تمنى أن يكون له مثل قارون ، فالآن يحمدون الله أنه لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس ، فقد رأوا المصير الذي آل إليه أمر قارون بين عشية وضحاها ، فإذا هم يقولون : إن الله يوسع الرزق على من يشاء ويقدر أن يقتر على من يشاء ، ولولا أن من الله علينا لخسف بنا كما فعل بقارون وبطانته ، فمالنا لا نفزع إلى الله نطلب رضاه ولا نتمنى ما تمنيناه ، وهكذا كانت نتيجة الكبرياء والاستبداد وكفران النعمة فصار عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين.

قال تعالى ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ ﴾ [القصص:٨٣] .

تلك الدار التي تحدث عنها أولو العلم الدار التي لا يحول نعيمها ولا يزول ولا عناء فيها ولا مشقة ؛ بل راحة واطمئنان وفوق ذلك رضا الرحمن ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣] الذين ينأون بأنفسهم عن الكبر والاستعلاء وحب الفخر والخيلاء ، فالعاقبة

---

(١) في ظلال القرآن (٢٧١٣/٥) .

المحمودة لهم ؛ لأنهم لا إرادة لهم في العلو في الأرض ولا الفساد ، وإنما قصدهم الدار الآخرة وحالهم التواضع لعباد الله والانقياد للحق والعمل الصالح ، فعاقبتهم الفلاح والنجاح ، أما غيرهم وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته ويزول عن قريب . وانظر للحصر في الآية الدال على أن الذين يريدون العلو في الأرض أو الفساد ، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب ، ولا لهم فيها حظ[1] .

---

(١) انظر : تيسير الكريم الرحمن (٤/٤٤) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة من عقوبة قارون :

أولاً : البغي مرتعه وخيم ، والظلم مؤذن بخراب الديار ، والغالب أن الظالم حسب سنة الله - تعالى - يعاقب في الدنيا قبل الآخرة ، يدل على ذلك حديث النبي ﷺ « **ما من ذنب أجدر أن يعجل الله - تعالى - لصاحبه العقوبة مع ما يؤجل من العقوبة له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم** » وجاء في شرحه : ما من ذنب أحق وأولى لصاحبه أن يعجل الله له العقوبة مع ما يؤجل له في الآخرة مثل (البغي) أي : بغي الباغي وهو الظلم والخروج على السلطان أو الكبر وقطيعة الرحم[1] ، وأغلب هذه الأمور توفرت في قارون إضافة إلى كفره فعجل الله له العقوبة في الدنيا .

ثانياً : المال الكثير والمنصب العالي محنة وبلاء وعرضة للفساد والطغيان إلا من رحم الله ، فكم من أناس جمعوا المال وتزوجوا أجمل النساء وأكلوا ما لذ وطاب في الحياة ؛ ولكنهم فقدوا الطمأنينة ولذة الحياة الروحية ، بل فقدوا نعمة الإيمان والتقوى لأن المعاصي والذنوب كدرت صفو حياتهم ، والمعاصي يجر بعضها بعضاً حتى يألفها فاعلها فلا يطمئن بها وصدق الله إذ يقول ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤] .

وإن انطبقت على الفرد في المجتمع فربما ينتشر فعل المعصية حتى تعم المجتمع كله ، فتتغير القلوب ويعلوها الران ، وهناك تتغير الأعمال وتسوء الحال ويلتحق المجتمع بركب الفجار ؛ وذلك لأن الإيمان قول وعمل يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي كما هو مذهب أهل السنّة قاطبة[2] .

وخذ مثالاً على ذلك من مجتمعاتنا المعاصرة ؛ حيث انتشرت فيها آلات اللهو انتشاراً عظيماً حتى لا تكاد تجد أحداً ينكر ذلك ؛ بل لو أُنكر على أحد لقال كل

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في النهي عن البغي (١٣/٢٤٤) برقم[٤٨٨١] ط مكتبة ابن تيمية . قال المنذري : وأخرجه الترمذي - كتاب صفة القيامة - باب ٥٧ (٤/٦٦٤) برقم [٢٥١١] وابن ماجة - كتاب الزهد - باب البغي (٢/١٤٠٨) برقم[٤٢١١] وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) انظر : (كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية) من ص"٢٩٣-٢٩٥" .

الناس عندهم ذلك ، وكل الناس يشاهدون ويستمعون .

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد(١)

ثالثا : حرمة الفرح بالمال والإمارة إذا كان الفرح بطرا وفخرا واعتزازا وكبرا وخيلاء(٢) لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾ [القصص:٧٦] .

رابعا : الكبر من كبائر الذنوب التي حرمها الله ورسوله ، ففي الحديث « **يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يقال له : بولس ، تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال** »(٣) .

وقوله ﷺ : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر** » قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا قال : « **إن الله جميل يحب الجمال** »(٤) .

خامسا : من فضل الله – تعالى – على الأمة وجود علماء مصلحين يعلمون الناس ويرشدونهم ويوجهونهم إلى الحق كلما خفي عليهم شيء أو ادلهم بهم خطب أو أشكل عليهم أمر ؛ فيعلمون الجاهل وينصحون العاصي ويرشدون الحائر ويردون الضائع عن طريق الحق إلى الحق ، فمن تكبر وعتى فما على الرسول إلا البلاغ ، فلا إله إلا الله ! كم من صاحب مال كان ماله وبالا عليه في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا

---

(١) سبق تخريجه ص١٨٧ .

(٢) أيسر التفاسير (١٠٠/٤) .

(٣) رواه أحمد (١٧٩/٢) برقم [٦٦٧٧] ؛ رواه الترمذي كتاب صفة القيامة (٦٥٥/٤) برقم [٢٤٩٢] وقال : حديث حسن صحيح وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٠٤/٢) برقم [٢٠٢٥] وانظر الحديث في جامع الأصول في أحاديث الرسول (محمد بن الأثير الجزري) (٦١٦/١٠) برقم [٨٢١٢] ط الثانية ١٤٠٣ ، المكتبة التجارية . بولس : قال في (المجمع) هو بفتح الباء وسكون واو وفتح لام ، وقال في القاموس : بولس بضم الباء وفتح اللام (سجن جهنم) ونار الأنيار : معناه (نار النيران) فجمع النار على أنيار ، وإنما جمعها على أنيار لئلا يشتبه بجمع النور . وطينة الخبال : هي عصارة أهل النار ، والخبال بفتح الخاء هو في الأصل الفساد ، انظر : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (للمباركفوري / محمد بن عبد الرحمن (١٩٣/٧،١٩٤) برقم[٢٦١٠] ؛ وانظر : (النهاية في غريب الحديث) (٨/٢) .

(٤) سبق تخريجه ص"٤١" .

فتراه يحرص عليه ويخاف عليه السراق واللصوص والجوائح إضافة إلى بخله الشديد فيه ، وأما في الآخرة ففي الحديث قال رسول الله ﷺ : « **ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار** » قيل : يا رسول الله ، فالإبل؟ قال : « **ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها ، ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها ، كلما مر عليه أولها رد عليه آخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار** » قيل : يا رسول الله ، فالبقر والغنم ؟ قال : « **ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئا ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، كلما مر عليه أولها رد عليه آخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار** ... » الحديث[1] .

وقوله ﷺ وفيه « ... **ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه . إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعا أقرع يتبعه فاتحا فاه ، فإذا أتاه فر منه فيناديه : خذ كنزك الذي خبأته فأنا عنه غني ، فإذا رأى أن لا بد منه ، سلك يده في فيه فيقضمها قضم الفحل** »[2] ففي هذين الحديثين من الترهيب والتخويف من منع الزكاة ما فيه لمن كان له قلب ،

---

(١) الحديث رواه مسلم – كتاب الزكاة – باب إثم مانع الزكاة (٦٨٠/٢ ، ٦٨١) برقم [٩٨٧] .
قرقر : أي : المستوى من الأرض الواسعة ، **الفصيل** : أي ولد الناقة إذا فصل عن أمه . **والقصعاء والعضباء ، والجلحاء** : قال أهل اللغة : القصعاء : ملتوية القرنين ، **والعضباء** : الذي انكسر قرنها من الداخل ، والجلحاء : التي لا قرن لها ، صحيح مسلم (٦٨١/٢) وفي صحيح البخاري قريب منه – كتاب الزكاة باب إثم مانع الزكاة (٤٣٢/١) برقم [١٤٠٢] .

(٢) الحديث رواه مسلم – كتاب الزكاة – باب إثم مانع الزكاة (٦٨٤/٢) **والشجاع الأقرع** هو الذكر من الحيات . **والأقرع** : الذي سقط شعره لكثرة سمه ، وفي البخاري – كتاب الزكاة – باب مانع الزكاة (٤٣٣/١) برقم [١٤٠٣] .

فعلى المسلم أن يبادر إلى اتقاء ذلك بدفع ما عليه من حقوق قبل فوات الأوان فيتمنى أن لو أنفق أو وهب قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠] وقوله سبحانه ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون:١٠] .

سادسا : المسلم يستطيع أن يجمع بين إرادة الدنيا والآخرة وأن يوازن بين مطالب الدنيا بالوسائل المشروعة ، بل يسعى ويجد في طلب الحلال حيث كان ، فإذا حصل على مراده فعليه أن يستعمل ما أعطاه الله – تعالى – من نعم فيما ينفعه في الآخرة كالتصدق في سبيل الله وأداء ما أوجبه الله عليه فيما أنعم به عليه ، وأن يحسن إلى خلق الله كما أحسن الله إليه ، وله أن يتمتع بما أباحه الله له من الطيبات بما شاء كيف شاء من غير إسراف ولا مخيلة ، وهكذا يتحقق الجمع بين إرادة الدنيا والآخرة[1] كما ذكر الله من قوله ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص:٧٧] .

سابعا : الله وحده هو رازق الخلق كلهم وما العبد إلا وسيلة ، فينبغي عليه أن يمشي في الأرض لكسب الرزق ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ ﴾ [الملك:١٥] فالذي يسر الرزق وهيأ له أسبابه هو الله ، فإذا قدر أن حصل الثراء والغنى فمن الجهل أن ينسب الإنسان ذلك الفضل لنفسه وذكائه أو يغره الشيطان بأن ما أعطيه من خير وفضل دليل على محبة الله له ورضاه عنه ، ولا يدري أنه ربما يكون فتنة له واستدراجا[2] لحديث عقبة[3] بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج ثم قرأ النبي ﷺ**

---

(١) انظر : (السنن الإلهية) د/ عبدالكريم زيدان ، ص"٢٥٩،٢٦٠" .

(٢) انظر : (التفسير المنير) (٢٠/١٦٣) .

(٣) عقبة بن عامر : صحابي مشهور ، اختلف في كنيته على سبعة أقوال أشهرها أنه أبو حماد ، ولي إمرة مصر لمعاوية ، وكان فقيها فاضلا – مات قرب الستين ، انظر : (التقريب) ص"٣٩٥" باب العين مع القاف . والحديث رواه الإمام أحمد (٤/١٤٥) برقم [١٧٣٤٩] ، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٧/٣٣٠) برقم [٩١٣، ٩١٤] ، وعزاه الهيثمي في المجمع إلى أحمد والطبراني (٧/٢٠) . وصححه الشيخ الألباني بمتابعاته في السلسلة الصحيحة (١/٧٠٠) برقم [٤١٣] .

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤] .

ثامنا : نهاية البغاة والظلمة أليمة ؛ فقد ظنوا أن سلطانهم أو أموالهم تمنعهم من عقاب الله ؛ لذا كان الاغترار بالأموال والأوصاف التي تتبعها نذير سوء يعقبه وهذا ما حصل لقارون حيث خسف به وبداره الأرض فأصبح كأن لم يكن ، ضعيفا عاجزا لا ينصره أحد من جاه أو مال ، فكان في ذلك عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين لمن رآه في حينه ممن تمنى أن يكون له مثله ؛ حيث ندموا في الحال وحمدوا الله أنه لم يستجب لهم ؛ حيث أدركوا أن سعة الرزق ليست دليلا على رضوان الله ، كما أن تقتير الرزق ليس علامة على سخط الله ؛ لذا كانت القناعة أحسن البضاعة .

وفي المثل (خير الغنى القنوع ، وشر الفقر الخضوع)[١] .

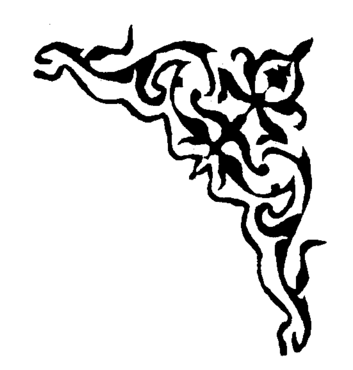
قال الشاعر[٢] :

هي القناعة لا تبغي بها بدلا　　فيها النعيم وفيها راحة البدن

---

(١) لسان العرب (٣٢١/١١) .

(٢) لم أجده : انظر : الشواهد الشعرية في تفسير القرطبي د/ عبد العال سالم مكرم (١٣١/٢) ط: الأولى ، عالم الكتب .

الفصل الرابع

عقوبات بني إسرائيل

من بعد موسى - عليه السلام -

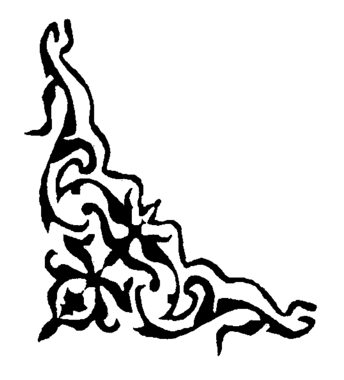
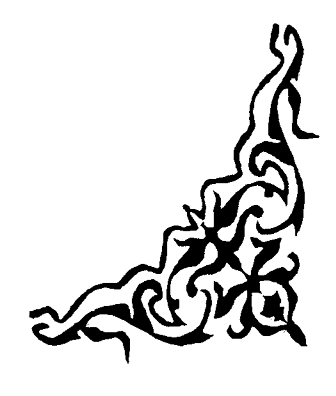
وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : عقوبة قوم منهم خرجوا حذراً من الموت .

المبحث الثاني : عقوبة قوم طالوت .

المبحث الثالث : عقوبة أصحاب السبت .

المبحث الرابع : عقوبة بني إسرائيل في أول سورة الإسراء .

المبحث الأول

عقوبة قوم منهم خرجوا حذراً من الموت

المطلب الأول: الآيات التي تناولت تلك العقوبة:

قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة:٢٤٣].

لطائف الآية:

أولاً: أنها لم تذكر إلا مرة واحدة في القرآن.

ثانياً: الجمال الذي رسمه التعبير بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وأي لفظ آخر ما كان ليرسم أمام المخيّلة مثل هذا الأسلوب كما رسمته هاتان الكلمتان القصيرتان في موضعها المختار[1].

ثالثاً: الآية عُني بها قومٌ كثيرو العدد خرجوا من ديارهم فراراً من الموت فأماتهم الله ثم أحياهم، وفي ذلك حثٌّ للمسلمين على الجهاد في سبيل الله - فكأن هذه الآية ذكرت ممهدة للأمر بالقتال بعدها في قوله تعالى ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٤].

ومعلومٌ أن سورة البقرة مما نزل في المدينة إثر الهجرة وكان العدو في مكة وما حولها في كثرة وقوة ومنعة، فأُمِر المسلمون المهاجرون ومن آواهم أن يقاتلوا في سبيل الله، وقص لهم من الأنباء ما فيه بعث على الجهاد وتبشير لهم بالفوز والعاقبة الحسنة؛ وإن كانوا في قلة وضعف[2]. ما داموا مستمسكين بحبل الله مطيعين لأوامره قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].

رابعاً: في قوله تعالى ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٣] كيف يجمع بينها وبين ما في سورة الدخان من قوله تعالى ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الآية [الدخان:٥٦].

---

(١) في ظلال القرآن (١/٢٦٥).

(٢) انظر: (تفسير الكشاف) (١/٢٩٠)؛ تفسير القاسمي (٣/٢٩٦، ٢٩٧).

فالجواب : أن إماتتهم كانت عقوبة لهم مع بقاء أجلهم ، وفي الآية الثانية الإماتة بانتهاء الأجل[1] .

خامساً : في قوله تعالى ﴿ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٣] أنهم ذاقوا الموت الذي فرّوا منه فلم يغن خوفهم عنهم شيئاً ، وأنهم ذاقوا الحياة بعد الموت ، ليعلموا أن الموت والحياة بيد الله[2] .

سادساً : أتى بهذه القصة بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين لما فيها من العبرة بأنه سبحانه على كل شيء قدير ، ولما فيها من الآية المحسوسة على البعث ، فإن هذه القصة معروفة منقولة ، نقلاً متواتراً عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم[3] .

سابعاً : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:٢٤٣] واقعة موقع التعليم بجملة (ثم أحياهم) والمقصود منها بث خلق الاعتماد على الله في نفوس المسلمين في كل أمورهم ، وأنهم إن شكروا الله على نعمه زادهم من فضله ويسّر لهم كل عسير[4] .

ثامناً : تشير الآية إلى أن موت الأمم غالباً له سببان :

السبب الأول : الجبن وضعف العزيمة .

السبب الثاني : البخل وعدم الإنفاق .

ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى الآية السابقة بقوله تعالى ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة:٢٤٥] حيث عبّر عن الإنفاق بالقرض ليحث عباده على الإنفاق في سبيل الله[5] .

---

(١) تفسير الرازي المسمى « أنموذج جليل » ص"٤١" .

(٢) انظر : التحرير والتنوير (٤٠٨/٢) .

(٣) انظر : تيسير الكريم الرحمن (١٩٥/١) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير (٤٠٨/٢) .

(٥) انظر : (التفسير الواضح) (١٥٤/٢) مجلد ١ ؛ التفسير المنير (٤١٤/٢) ؛ وقريب من هذا لسيد قطب في الظلال (٢٦٥/١) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة :

- الفرار من الموت - كما ذكر الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ[1] مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ[2] حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة:٢٤٣] إما من خوف وباء انتشر أو عدو . وهم أهل مدينة من مدن بني إسرائيل فرّوا هاربين من الموت ، فإن كان هروبهم من الوباء أو العدو فهذا يدل على ضعف العزيمة والجبن والخوف ، وعدم الإيمان بالله ورسوله ، مع أن كثرتهم تدعو إلى الثبات والشجاعة والدفاع عن النفس حتى الموت لنيل الشهادة أو النصر أو الصبر على قدر الله - تعالى - حتى يأتي وعد الله ، لما ثبت في الصحيح أن عبد الرحمن بن عوف سمع النبي ﷺ يقول : « **إذا سمعتم به (أي الطاعون) بأرض ، فلا تقدموا عليه . وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه** »[3] الحديث .

---

(١) يقول صاحب الظلال : « لا أحب أن نذهب في تيه التأويلات عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ... من هم؟ وفي أي أرض كانوا ؟ وفي أي زمان خرجوا ؟ ... فلو كان الله يريد بياناً عنهم لبيّن ، إلى أن قال - وتحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئاً على عبرة القصة ومغزاها » (١/٢٦٤) .

(٢) وهم ألوف : ذكر المفسرون لذلك معاني كثيرة نختار ما ذهب إليه أبو جعفر الطبري (٥/٢٧٦) حيث قال « وأولى الأقوال في مبلغ عدد القوم الذين وصف الله خروجهم من ديارهم بالصواب .. قول من حد عددهم بزيادة عن عشرة آلاف ، دون من حده بأربعة آلاف وثلاثة آلاف وثمانية آلاف . وذلك أن الله تعالى ذِكْره أخبر أنهم كانوا ألوفاً ، وما دون العشرة آلاف ، ولا يقال لهم : ألوف ، وغير جائز أن يقال : هم خمسة ألوف ، أو عشرة ألوف ، ورجح ذلك البغوي والخازن في تفسيرهما (١/٢٩٣) البغوي ، (١/١٧٦) الخازن ، والقرطبي (١/٢٣١) ، والرازي في تفسيره (٦/١٦٣) ، ورد ذلك أبو حيان في البحر وقال : هذا ليس مما ذكر ، فقد يستعار أحد الجمعين للآخر وإن كان الأصل استعمال كل واحد منهما في موضوعه ، وهذه التقديرات كلها لا دليل عليها ، ولفظ القرآن ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ لم ينص على عدد معين . ويحتمل أن لا يراد ظاهر جمع ألف ؛ بل يكون ذلك المراد منه التكثير كأنه قيل : خرجوا من ديارهم وهم عالم كثيرون لا يكاد يحصيهم عاد فعبر عن هذا المعنى بقوله ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ (٢/٢٥٩) .
والقولان كما ترى قويان ولا أستطيع ترجيح أحدهما على الآخر إلا أنني أميل لقول الجمهور ؛ لأنهم لم يحددوا عدداً ؛ وإنما قالوا : زيادة على عشرة آلاف ، فيكون فيه نوع موافقة لما ذهب إليه أبو حيان والله أعلم .

(٣) رواه مسلم - كتاب السلام - باب الطاعون والطيرة والكهانة (٤/١٧٤٠) برقم [٢٢١٩] .

المطلب الثالث : نوع العقوبة

الموت الجماعي

أخبر الله – عز وجل – أنه عاقب هؤلاء القوم بأن قال لهم : (موتوا) ، قال الزمخشري : « معناه : فأماتهم ، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته ، وتلك ميتة خارجة عن العادة قال تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] »[1] . ﴿ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:٢٤٣] بابتلائهم بالعدو والشدائد التي تصهرهم وتميّز الخبيث من الطيب ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة:٢٤٣] الله على ذلك ؛ بل يعدونه نقمة عليهم[2] .

---

(١) تفسير الكشاف (١/٢٩٠) .

(٢) انظر : (التفسير الواضح) (٢/١٥٤) .

المطلب الرابع: الدروس المستفادة من عقوبتهم:

أولاً : الحذر من الموت لا يجدي ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء:٧٨] وفي هذه الآية يصور الله مشهد هذه الألوف الحذرة من الموت الملتفتة من الذعر خائفين من أن يلحق بهم وإذا هم يؤتون من حيث خافوا ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة:٨] أطبق عليهم في لحظة ، وإذا كل هذا الحذر وكل هذا التجمع وكل هذه المحاولة ذهبت هباءً في كلمة واحدة : (موتوا) ليلقي ذلك في الحس عبث المحاولة، وضلالة المنهج ، كما يلقي صرامة القضاء ، وسرعة الفصل عند الله!![1].

ثانياً : ذهب القرطبي إلى أن أصح الأقوال وأبينها وأشهرها أنهم خرجوا فراراً من الوباء كما روى ذلك سعيد بن جبير عن ابن عباس[2] : خرجوا فراراً من الطاعون فماتوا ، فمر عليهم نبيٌ من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم .

ثالثاً : من أركان الإيمان كما هو معلوم من حديث جبريل « **وأن تؤمن بالقدر خيره وشره** »[3] فالواجب على المسلم الإيمان بأن الأعمار والأقدار والبلايا والأمراض بيد الله – عز وجل – وأنه مهما أتي الإنسان من قدرة للاحتماء منها فإنه لا يستطيع ردها إذا نزلت إلا أنه يجوز للإنسان اتخاذ أسباب الوقاية من المكاره لتجنب المخاوف والمكاره قبل وقوعها لقوله تعالى ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء:٧١] وقوله تعالى ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة:١٩٥] فإذا نزل أمر الله فعليه أن يصبر وأن يحتسب كما في حديث عبد الرحمن بن عوف الذي نهى فيه النبي ﷺ من أصيب بالطاعون أن يخرج ، ومن كان خارجاً أن لا يدخل . وقس على ذلك أي أمر مباح يكون ضرره أكبر من نفعه ومفسدته أكبر من مصلحته .

---

(١) انظر : (في ظلال القرآن) (٢٦٥/١) .

(٢) وسنده عند ابن جرير (٢٦٦/٥،٢٦٧) قال : حدثنا سفيان ، عن ميسرة النهدي ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس – والسند كما تراه كلهم ثقات ، وكلام شعبة في المنهال بن عمرو غير مؤثر – انظر : تفسير ابن كثير بتحقيق مقبل الوادعي (٥٢٩/١) وقال الشيخ محمود شاكر : أخرجه الحاكم في المستدرك وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه . انظره (٢٦٧/٥) .

(٣) رواه مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان... (٣٦/١) برقم [٨] .

رابعاً : في الآية تشجيع للمؤمنين للقتال والجهاد في سبيل الله ، وإذا كان لابد من الموت ولا يغني عنه الحذر فالأفضل للإنسان أن يكون في سبيل الله ليظفر بالشهادة والفوز بالجنّة[1] .

خامساً : في الآية بيان لقدرة الله - تعالى - حيث أماتهم جميعاً في وقت واحد ؛ حيث قال لهم : (موتوا) ثم أحياهم جميعاً ، وفي هذا دليل على كمال قدرة الله تعالى في إحياء الناس بعد الموت يوم القيامة وأنهم جميعاً كنفس واحدة قال تعالى ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان:٢٨] .

خامساً : وجوب شكر النعم ، والشكر يكون بخضوع الشاكر لله ، وحبه له ، واعترافه بنعمته ، وثنائه عليه بها ، وألا يستعملها فيما يكره .

فهذه الخمس هي أساس الشكر ، وبناؤه عليها ، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة[2] قال تعالى ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧] وقال سبحانه : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ [سبأ:١٣] .

---

(١) انظر : (تفسير الكشاف) (٢٩٠/١) ؛ تيسير الكريم الرحمن (١٩٦/٢) .

(٢) تهذيب مدارج السالكين - ابن القيم ، تهذيب - عبد المنعم العزي ص"٣٨٤" .

المبحث الثاني

عقوبة قوم طالوت

المطلب الأول : الآيات التي تناولت عقوبتهم :

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٦-٢٥٢] .

لطائف الآيات :

أولاً : لم تذكر هذه القصة إلا مرة واحدة في القرآن .

ثانياً : كانت نبوة موسى - عليه السلام - قبل داود بزمن طويل ، ولكثرة القصص عن موسى وقومه قد يظن أنه قريب العهد ، والفصل في ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ إلى أن قال ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ

جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ الآية .

ثالثاً : جملة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ استئناف ثان بعد جملة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾ [البقرة:٢٤٣] وفيها زيادة تأكيد لفظاعة حال التقاعس عن القتال بعد التهيؤ له في سبيل الله ، والتكرير في مثله يفيد مزيد تحذير وتعريض بالتوبيخ ، وهنا يرد سؤال : لم قدم أحدهما وأخر الآخر ؟

والجواب : ليقع التحريض على القتال بينهما كما مر من قوله تعالى ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٤] الآية ومناسبة تقديم الأولى : أنها تشنع حال الذين استسلموا واستضعفوا أنفسهم فخرجوا من ديارهم مع كثرتهم ، وهذه الحالة أنسب بأن تقدم بين يدي الأمر بالقتال ، لأن الأمر بذلك بعدها يقع موقع القبول من السامعين لا محالة ، ومناسبة تأخير الثانية أنها تمثل حال الذين عرفوا فائدة القتال في سبيل الله لقولهم ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فسألوه دون أن يفرض عليهم ، فلما فرض عليهم نكصوا على أعقابهم ، والعبرة التحذير من الوقوع في مثل حالهم بعد الشروع في القتال أو بعد كتبه عليهم[1] .

رابعاً : لم يرد ذكر اسم النبي الذي بعثه الله لهم ، وذكره هنا كما قال سيد قطب : لا يزيد شيئاً في إيحاء القصة ، وقد كان لبني إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون في تاريخهم الطويل[2] .

خامسا : في قوله تعالى ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ﴾ [البقرة:٢٤٦] يرد سؤال هو / لم استفهم النبي منهم مع أنهم هم الذين طلبوا منه الجهاد ؟

والجواب : كأن سائلا سأل فقال : فماذا قال لهم نبيهم ؟

أو أن النبي ظن منهم الجبن والفشل في القتال لما عهد منهم ؛ فلذلك استفهم وليبين أن ما ظنه وتوقعه من ذلك يكون منهم وكان كما توقع[3] .

(١) التحرير والتنوير (٢/٤٨٤) .

(٢) انظر : (في ظلال القرآن) (١/٢٦٦) ، وقد اختلف المفسرون في اسم ذلك النبي فمنهم من قال : إن اسمه شمويل ، وهذا أقوى أقوال المفسرين ، وهو معرب صمويل أو صموئيل ، وقيل : يوشع ، وهذا ضعيف لأنه فتى موسى ؛ ولأن القصة حدثت في زمن داود وبينهما زمن طويل - انظر : (تفسير المنار) (٢/٤٧٥) .

(٣) انظر : (تفسير البحر المحيط) (٢/٢٦٤) .

سادساً : في قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة:٢٤٧] يرد سؤال : كيف يؤتي الله ملكه من يشاء والله تعالى لا يؤتي ملكه أحداً ؟

والجواب : المراد بهذا الملك السلطة والرياسة التي أنكروا إعطاءها لطالوت ، وليس المراد أنه يؤتي كل ملكه لأحد ؛ لأن سياق الآية يمنعه .

سابعاً : في تقديم العلم على الجسم إشارة إلى أن إمامة الجاهل لا خير فيها[١] .

ثامناً : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٦] هنا وضع الاسم الظاهر موضع الضمير حيث قال ﴿ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ولم يقل بهم ، فلم ؟

والجواب : لتسجيل صفة الظلم عليهم ، وبيان أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بسؤالهم البلاء ، وكان الواجب عليهم سؤال العافية ، فلما أجيبوا أعرضوا ، فجمعوا بين عار الإخلاف وفضيحة العصيان – ولو قال : (بهم) لما أدى الغرض الذي يؤديه لفظ (بالظالمين)[٢] .

تاسعاً : المعجزة التي صدق بها القوم هي رجوع التابوت إليهم بعد أن سلبه الأعداء منهم ، فكانت معجزة أجراها الله لنبيهم تصديقاً لما أخبر به من شأن طالوت .

عاشراً : كان داود – عليه السلام – في صفوف جيش طالوت ولم يكن قد بُعث بعد ، ثم حصل العكس بعد الانتصار على جالوت وجنوده – فسبحان من يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء[٣] .

الحادي عشر : كيف قال في الماء ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ [البقرة:٢٤٩] ولم يقل : ومن لم يشربه ، والماء مشروب لا مأكول ؟

والجواب : أن طعم بمعنى أكل ؛ وبمعنى ذاق . والذوق هو المراد هنا[٤] .

زاد القرطبي : لأن من عادة العرب إذا كرروا شيئاً أن يكرروه بلفظ آخر ، ولغة القرآن أفصح اللغات فلا عبرة بقدح من يقول : لا يقال طعمت الماء[٥] .

---

(١) أيسر التفاسير (٢٣٥/١) .

(٢) انظر : (نظم الدر) (٤١٣/٣) ؛ التحرير والتنوير (٤٨٧/٢) .

(٣) تهذيب التفسير وتجريد التأويل – عبد القادر شيبة الحمد (١٥٥/٢) ، ط مكتبة المعارف الرياض .

(٤) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص"٤٢" ؛ وانظر : (البحر المحيط) (٢٧٣/٢) .

(٥) وانظر : (تفسير القرطبي) (٢٥٢/٣) .

الحادي عشر : طالوت وجالوت اسمان أعجميان معربان ، ولذلك لم ينصرفا وكذلك داود ، والجمع طواليت وجواليت ودواويد[1] .

الثاني عشر : في قوله تعالى ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٥١] متروك ترك ذكره اكتفاء بدلالة ما ظهر منه عليه ، وتقديره فاستجاب لهم ربهم فأفرغ عليهم صبره وثبت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله[2] .

---

(١) انظر : (تفسير الكشاف) (١/٢٩٢) ؛ وانظر : تفسير القرطبي : (٣/٢٤٥ ، ٢٤٦) ، وطالوت : الملك المؤمن هل كان نبياً ؟ - الله أعلم وعلى كل فهو عبد صالح انظر : (البحر المحيط) (٢/٢٧٨) ؛ انظر : أيسر التفاسير (١/٢٣٧) ؛ وداود هو النبي المعروف كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ [البقرة:٢٤٧] وجالوت : ملك العمالقة ، قال أبو حيان : يقال إن البربر من نسله قتله داود عليه السلام يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة:٢٥١] الآية ، انظر : تفسير البحر المحيط (٢/٢٦٩) .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (٥/٣٥٤ ، ٣٥٥) ، يقول صاحب صفوة الآثار (٣/٤٣٥) : هذا ، وقد استدل بعضهم بمعجزة التابوت على أن طالوت كان نبياً ؛ لأن المعجزة لا تنزل إلا على نبي ؛ ولكن لفظ القرآن يأباه ، لأن القوم نبيهم داود ، وأما طالوت فهو رجل اختاره ملكاً فلما تلكأوا عليه ولم يقنعوا بما آتاه من بسطة في العلم والجسم أخضعهم له بهذه المعجزة - اللهم إلا أن يكون نبياً غير رسول فالله أعلم .

المطلب الثاني : سبب العقوبة :

١ – اعتراضهم على نبيّهم في تنصيب طالوت ملكاً .

٢– مخالفة أمر طالوت عند نهيه عن الشرب من النهر .

ذكر الله – تعالى – لنا قصة أخرى من قصص بني إسرائيل تكشف لنا تعنتهم مع أنبيائهم ونكوصهم عن الجهاد في سبيل الله حتى ولو كانوا هم الملحين في طلب القتال – ولا غرو فالقوم هم سلالة أصحاب البقرة الذين قالوا لموسى عليه السلام ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤] وهنا يطلبون الجهاد في سبيل الله[١] تحت إمرة ملك لا تحت إمرة نبي[٢] ، فاستوثق النبي منهم ومما يقولون فقالوا ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ [البقرة:٢٤٦] فأخبرهم نبيهم أن الله – تعالى – قد بعث لهم طالوت ملكاً ، فاعترضوا على هذا التعيين مباشرة وجادلوا في اختيار الله لهم وزعموا أنهم أحق بالملك منه بالوراثة ؛ لأنه لم يكن من نسل الملوك فيهم ! ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر أحقيته بها — فأجابهم نبيهم — عليه السلام — بأن الله — عز وجل — قد اختاره ، فهذه واحدة ، وزاده بسطة في العلم والجسم وهذه أخرى – ، فهو أعلم منكم بشؤون الحرب وتدبير الأمور ، وأشد منكم قوة وصبراً وجلداً لملاقاة الأعداء[٣] . بمعنى أنه ذو استعداد فطري وطبيعة كريمة ، وذو خبرة في فنون الحرب ، وعنده العلم الكافي ليضع الأمور في مواضعها ، وذو قوة جسمية ، وفوق كل هذه الأمور أن الله اصطفاه عليكم ، والله يؤتي ملكه من يشاء فلا اعتراض لأحد عليه في فعله ، والله واسع عليم — يفتح باب الرزق والسعة في المال على من يشاء ولا راد لفضله[٤] .

---

(١) يقول صاحب الظلال « ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٦] يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم ويقظة الإيمان في نفوسهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق ، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل (٢٦٦/١) » ، وقال ابن كثير : « والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبي الله في ذلك الزمان وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكا يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء» .

(٢) والظاهر أن لو كان فيهم ملك لقالوا نريد نبيا يخبرنا عن الله .

(٣) انظر : (التفسير الكبير) (١٧٣/٦ ، ١٧٤) ؛ وانظر : في ظلال القرآن (٢٦٧/١) ؛ تهذيب التفسير وتجريد التأويل (١٥٢/٢ ، ١٥٣) .

(٤) قال الرازي في تفسير ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٤٧] والتقدير : أنتم طعنتم في طالوت لكونه فقيرا والله تعالى واسع الفضل والرحمة ، فإذا فوض الملك إليه ، فإن علم أن الملك لا يتمشى إلا بالمال فالله تعالى يفتح عليه باب الرزق والسعة في المال (١٧٤/٦) .

ورأى نبيهم أنهم لم يقتنعوا بذلك فأراد أن يبيّن لهم أن هذا الأمر خارج عن إرادته ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة:٢٤٨] وهو رجوع الصندوق الذي يشتمل على بعض آثار موسى وهارون وقد عجزتم عن إرجاعه من يد مغتصبيه ، ولن يطلب منكم بذل أي مجهود في استرجاعه ؛ بل ستأتي به الملائكة تحمله حتى تضعه بين أيديكم وسيكون فيه الطمأنينة لكم ودلالة ظاهرة على أن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . فعند ذلك أذعنوا وانقادوا لطالوت ورضوا به ملكاً عليهم[١] .

وماذا في هذا التابوت الذي أتى به الله من مكان بعيد ؟

إن فيه أمرين مهمين لهؤلاء الجبناء عن القتال الذين يقتنعون بالآيات المادية المحسوسة :

الأول : معنوي .

الثاني : مادّي .

فالمعنوي : هو السكينة المقترنة بوجود ذلك التابوت ؛ لأنهم قد ألفوا حياة الدعة واللهو والترف ، فنزولها عليهم خير مسعف لهم فيذهب القلق والخوف عنهم فهم على وشك خوض معركة أزف وقتها .

أما الثاني : وهو **المادي** المقوي للسكينة ، ترى ما هو ؟ إنه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، والذي يهمنا منه أثر هذه البقية في رفع الروح المعنوية لدى الملأ من بني إسرائيل[٢] — فكأن هذا التابوت بمثابة الراية يقاتلون تحتها فلا يزالون يقاتلون ما بقي لم يغلبهم عليه عدوهم فما زالوا كذلك كلما أخذ منهم رده الله عليهم حتى سلب منهم بالكلية[٣] .

الأمر الثاني : من أسباب العقوبة مخالفة أوامر القائد :

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٩] .

---

(١) انظر تفسير الطبري (٥/٣٣٦) .

(٢) تأملات في سورة البقرة – حسن محمد باجودة (٣/١٤٨١ ، ١٤٨٢) ط مكتبة مصر .

(٣) في تفسير المنار : أنه لما أحرق البابليون هيكل سليمان فقدت التوراة وتابوت العهد معاً ؛ لأنهما قد أحرقا فيه (٢/٤٨٤) . وسنفرد له بحثاً بعنوان : (عقوبة بني إسرائيل في أول سورة الإسراء) .

الالتزام بأوامر القائد من طاعة الله - تعالى - وطاعة رسوله ﷺ سواء قلنا : إن ذلك الأمر كان وحيا إلى نبي ذلك الزمان أو إلهاما ألهم الله به الملك طالوت ليختبر به قوة جيشه ؛ لأن الله وصفه (بالعلم) فلا يبعد أن يكون ذلك إلهاما من الله له ، فقال لهم : إن الله مختبركم ، وهو الأعلم بكم بنهر يعترض سبيلكم ، فمن شرب منه فليس من أتباعي ، ومن لم يتذوقه فإنه من حزبي وأنصاري .

إنه اختبار تنقية وتصفية ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً ﴾ [الرعد:١٧] وهنا يتجلى مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل ... إنه مقدم على معركة ، ومعه جيش من أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة فلابد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة ، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة . الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلي على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها ، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء ... فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه ، وصموده وصبره ، صموده أولا للرغبات والشهوات ، وصبره ثانيا على الحرمان والمتاعب ، واختار هذه التجربة وهم عطاش . ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ، ويؤثر العافية[1] .

وصدقت فراسته فيهم فشربوا منه جميعا إلا قليلا منهم ، وهكذا أخرج معه من يحكم عقله في هواه ويصبر مع حبه في إشباع رغبته ويؤمن بالله إيمانا حقيقيا، فئة قليلة جازت معه النهر كما ذكر الله فكانت مراتبهم في طاعة قائدهم على ثلاث :

الأولى : شربت وعبت منه عبا .

الثانية : غرفت منه غرفة كما أذن لها لتبل ريقها ويذهب عنها الظمأ .

الثالثة : لم تتذوقه أصلا .

فأما من شرب منه وارتوى فخلدت نفسه للراحة وانفصلت بمجرد استسلامهم أمام رغبة وشهوة دنيوية ، فهؤلاء لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقهم ، ومن الخير للجيش أن ينفصلوا من الآن ؛ لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة ، فالجيوش ليست بالعدد الضخم ولكن بالقلب الصامد القوي والروح الإيمانية المحبة للموت ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٤٩] جاوزوا النهر وهم قلة قليلة وما اجتاز إلا مؤمن كما روى البخاري بسنده عن البراء بن عازب « **كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة**

---

(١) في ظلال القرآن (٢٦٨/١) .

أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا مؤمن »[1] ومع هذه الغربلة الشديدة لجيش طالوت قالت فئة منهم ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾[2] [البقرة:٢٤٩] لما رأوا من كثرة عدوهم وقلتهم وضعفهم أمام هذا الكم الهائل من الجنود ، ونسوا أن القوة الحقيقية هي قوة الإيمان وشراء ما عند الله بقليل من الصبر والمصابرة . هنا برزت الفئة المؤمنة القوية الإيمان لتقول لهم ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٩] هذه هي قاعدة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر في أن النصر الحقيقي من عند الله ؛ وليس بكثرة العدد وقوة العُدد ، فاصبروا واحتسبوا واستعينوا بالله إن الله مع الصابرين ولا غالب لمن كان الله معه .

ولما ظهر لقتالهم وتصافّوا دعوا الله والتجأوا إليه وقالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٠] .

أي : اصبب ربنا علينا صبراً واحبس أنفسنا عن الجزع وثبت أقدامنا في أرض المعركة كي لاننهزم ، وأعنا على هذا العدو حتى تكون الغلبة لنا عليه ، واهزم الكافرين وزلزل أقدامهم واملأ قلوبهم رعباً حتى نتمكن من سحقهم[3] .

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٥١] وحده فلا حول ولا قوة لهم إلا به ، وقتل داود الفتى جالوت الملك ليرى الناس عجائب قدرة الله في الجبابرة وأنهم مهما أخافوهم فهم ضعاف ، ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم .

وهناك حكمة أخرى من وراء ذلك أيضاً هي : أن يكون داود هو الذي يستلم الملك بعد طالوت ويرثه من بعده ابنه سليمان ؛ ليبدأ عهدٌ جديد لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل جزاء تأكيد العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود[4] .

---

(١) رواه البخاري وغيره ، كتاب المغازي ، باب عدة أصحاب بدر (٨٣/٣) برقم [٣٩٥٧] .

(٢) يقول صاحب تهذيب التفسير : وفي قولهم ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ ﴾ [البقرة:٢٤٩] يشعر برغبتهم في تأجيل لقاء العدو يومئذٍ ، لا أنهم أرادوا ترك قتال العدو والنكول مثل الذين لم يجاوزوا النهر (١٦١/٢) .

(٣) انظر : (تهذيب التفسير) (١٦١/٢) .

(٤) انظر : في ظلال القرآن (٢٧٠/١) .

المطلب الثالث : نوع العقوبة :

حرمان من عصى أوامر القائد من الجهاد . وكفى بهذا الحرمان عقوبة يرجعون بها إلى طيب مجالسهم وملذات أجسادهم . وألم الحرمان لا يزال يعتصر قلوبهم .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ [البقرة:٢٤٩]

وضمير قال راجع إلى طالوت ، ولا يصح رجوعه إلى نبيهم ؛ لأنه لم يخرج معهم وإنما أخبر طالوت عن الله — تعالى — بأنه مبتليهم مع أنه لم يكن نبياً يوحى إليه : إما استناداً لإخبار نبيهم له ، وإما لأنه اجتهد أن يختبرهم بالشرب من النهر لمصلحة رآها في ذلك ، فأخبر عن اجتهاده إذ هو حكم الله في شرعهم فأسنده إلى الله ، وهذا من معنى قول العلماء : إن المجتهد يصح له أن يقول فيما ظهر له باجتهاده « إنه دين الله » ، أو لأنه في شرعهم أن الله أوجب على الجيش طاعة أميرهم فيما يأمرهم به ، وطاعة الملك فيما يراه من مصالحهم ، وكان طالوت قد رأى أن يختبر طاعتهم ومقدار صبرهم وتحملهم ؛ لعلمه أن الذين خرجوا لا يصلحون جميعا للقتال ؛ لأن منهم المثبطين ومثيري الفتن ، فلو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالا ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة ، وعدوهم الذي أمامهم كثير العدد قوي العدد ، فلا بد من اختبار يعرف به قوة يقينهم في نصرة الدين ومخاطرتهم بأنفسهم ، وتحملهم المتاعب ، فكان من اختبارهم ما قد علمت ورخص لهم في غرفة واحدة بيده ، وهذه غاية ما يختبر به طاعة الجيش ؛ فإن السير في الحرب يعطش الجيش ، فإذا وردوا الماء توافرت دواعيهم إلى الشرب منه عطشا وشهوة ، ويحتمل أنه أراد إبقاء نشاطهم : لأن المحارب إذا شرب ماء كثيرا بعد التعب انحلت عراه ومال إلى الراحة ، وأثقله الماء ، والعرب تعرف ذلك قال الشاعر يذكر خيلهم :

فلما شارفت أعلام طيء وطيء في المغار وفي الشعاب
سقيناهن من سهل الأداوى فمصطبح على عجل وآبي

يريد أن الذي مارس الحرب مرارا لم يشرب ؛ لأنه لا يسأم من الركض والجهد ، فإذا كان يستطيع منع نفسه كان أخف له وأسرع ، والجاهل منهم يشرب لما يراد منه ، ولأجل هذا رخص لهم في اغتراف غرفة واحدة[1] ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا

---

(١) انظر التحرير والتنوير (٢/٤٩٦) . وذكر أن البيت لطفيل الغنوي و لم أجده .

مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٩] شربوا حتى امتلأت بطونهم من غير رواء فثقلوا عن الجهاد ، قال ابن جريج : قال ابن عباس : من اغترف منه بيده رَوي ، ومن شرب منه لم يرو[1] .

وعند الطبري بسنده عن قتادة « ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ... ﴾ [البقرة:٢٤٩] فشرب القوم على قدر يقينهم ، وأما الكفار فجعلوا يشربون فلا يروون ، وأما المؤمنون فجعل الرجل يغترف غرفة بيده فتجزيه وترويه »[2] .

وعند ابن أبي حاتم بسنده عن قتادة في قوله ﴿ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ [البقرة:٢٤٩] قال « كان الكفار يشربون فلا يروون ، وكان المسلمون يغترفون غرفة فيجزيهم »[3] .

وقد دلت هذه التجربة على أمرين هامين :

الأول : أن الحماس وحده لا يكفي كالنار تشتعل في الهشيم أو الحصير لا تفيد شيئاً ، وارتفاع الأصوات وصخب الاجتماعات كلها لا تكفي ، إنما لا بد من الاختبار العملي لمدى صمود الإنسان أمام عدوه .

الثاني : مدى صلابة عود القائد ؛ حيث لم يتأثر و لم يهتز من تخلف الأكثرية ؛ بل مضى في طريقه لأمر ربه .

---

(١) قال ابن كثير : وكذا رواه السدى عن أبي مالك عن ابن عباس ، وكذا قال قتادة وابن شوذب . انظره : (٣١٠/١) .

(٢) سنده : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد قال : حدثنا سعيد عن قتادة . وبشر بن معاذ العقدي ثقه معروف ، ويزيد هو ابن زريع ، وثقة ابن حجر فقال : ثقة ثبت ، وسعيد هو ابن أبي عروبة أثبت الناس في قتادة ، وصفه الذهبي بأنه ثقة ثبت عن قتادة بن دعامة السدوسي ، وثقة ابن حجر ، فالسند صحيح . انظر : (تفسير ابن جرير) (٣٤٣/٥) ، ومثله قال : حدثنا الحسن بن يحيى (شيخ الطبري) صدوق وقد وثق ، أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن قتادة ؛ وعبد الرزاق ابن همام الحميري ثقة حافظ ، ومعمر بن راشد ثقة صدوق . انظر : التقريب ص"١٢٤،٦٠١،٢٣٩،٤٣٥،٥٤١" ، انظر : الدر المنثور (٥٦٤/١) بمثله .

(٣) سنده : حدثنا الحسن بن أبي الربيع ، أنبا عبد الرزاق أنبا معمر عن قتادة . « الحسن بن يحيى بن أبي الربيع » صدوق حافظ ، وهذا السند وصله الطبري أيضاً (١٦٤/٣) برقم [٢٢١٣] إذاً السند كلهم ثقات إلا الحسن بن يحيى صدوق حافظ ، إذاً فالحديث حسن ؛ انظر : التقريب ص"١٦٤،٥٤١" ، وعند البغوي : أن الذين شربوا وخالفوا أمر الله اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وبقوا على شط النهر وجبنوا عن لقاء العدو فلم يجاوزوا و لم يشهدوا الفتح . تفسير البغوي (٣٠٢/١) ؛ وانظر : (تفسير السمعاني) (١/ ٢٥٣) .

وهذا الموقف يشبه موقف ابن أبيّ بن سلول يوم أحد حين رجع بثلث الجيش[1] فلم يتأثر رسول الله ﷺ ، بل مضى لأمر ربه .

وفي قصة طالوت - انكشف حال من لا يريدون الجهاد ، وميز الصف الجهادي منهم ومضى لسبيله حتى هزم عدوه وقتل داود جالوت ، فما أكبر عقوبة من يتخلى عن المؤمنين حين يعلم بهزيمة العدو! عندها يتمنى من شدة التحسر أن لو أطاع الأمر وظفر بالخير ولكن صدق فيهم وفي أمثالهم قول الله تعالى :

﴿...وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة:٤٦-٤٧] .

---

(١) انظر : (التفسير الكبير) (٩/٨٥) ؛ القرطبي (٤/٢٦٦) ؛ البحر المحيط (٣/١١٤) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة من عقوبتهم :

أولاً : الأمم إذا شعرت بالظلم والذل واعتدي عليها وانتزعت حقوقها فإنه لا سبيل أمامها إذا كانت مؤمنة إلا الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ومن ثم تطهير أرضها واسترجاع حقوقها وذلك بالانضواء تحت قيادة قائد رباني عادل يقودها إلى النصر كما فعل بنو إسرائيل حين تغلب عليهم الأعداء[(١)] .

ثانياً : الاختلاف في اختيار الرئيس أو القائد شيء وارد ، فإن كان هناك نبي فالشأن شأنه ؛ لأنه المبلغ عن الله ، وإن لم يكن فإن الإسلام يجعل الاختيار لأهل الحل والعقد[(٢)] .

ثالثاً : من الجهل الظن أن الملك والرياسة لا تكون إلا لأهل الجاه والثروة كما دل عليه قول المنكرين لملك طالوت حيث قالوا : ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ [البقرة:٢٤٧] .

والصحيح أن الأجدر بذلك هم أهل العلم والفضل والمعرفة ذوو الأخلاق الفاضلة والنفوس الكريمة والأبدان السليمة والأذهان الواعية الناضجة ، فإذا انضم لذلك قوة العصبة والقبيلة والنفوذ كان أولى لقوله ﷺ « **الأئمة من قريش** »[(٣)] .

---

(١) والأمة الإسلامية اليوم لا سبيل إلى استرداد عزتها وانتصارها على أعدائها إلا الرجوع إلى كتاب ربها وسنة نبيها والانضواء تحت قيادة قائد واحد عادل نابذٍ لجميع الشعارات القومية والوطنية والبعثية ... حتى يكون العمل الجهادي كله لله – قال صلى الله عليه وسلم « ... من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » . وأيما عمل جهادي خلا من إمامة شرعية فعاقبته خسر ، وشاهد هذا حال المسلمين اليوم فقد قاتلوا الاستعمار تحت شعار الأحزاب فلما انتصروا خسروا كل شيء حتى دينهم – أيسر التفاسير (٢٣٤/١) .

(٢) هم العلماء وأصحاب المكانة في الأمة ، انظر : (التفسير المنير) (٤٩٢/٢) .

(٣) انظر : (تفسير المراغي) (٢٢٧/١) ؛ التفسير المنير (٤٣٤/٢ ، ٤٣٥) ، والحديث رواه أحمد (١٨٣/٣) من طريق وكيع عن أنس برقم [١٢٩٢٣] ، وأبو يعلى من رواية أنس (٣٢١/٦) برقم[٣٦٤٤] وإسناده صحيح، [٤٠٣٣] والطبراني في الصغير- باب الحاء (من اسمه حفص) (١٨١/١) برقم [٤٢٦] ورواه الحاكم - كتاب معرفة الصحابة (٨٥/٤) - برقم [٦٩٦٢] وقال الهيثمي - : رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن شيخ حفص بن عمر بن الصباح الرقي ، قال الحاكم : حدث بغير حديث لم يتابع عليه - مجمع الزوائد - باب الخلافة في قريش والناس تبع لهم (١٩٢/٥) وانظر تصحيح الشيخ شعيب الأرناؤط له حيث قال : صحيح بطرقه وشواهده انظر : (مسند الإمام أحمد) (٣١٨/١٩) . ط : مؤسسة الرسالة .

رابعا : دل قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ ﴾ [البقرة:٢٤٧] على أن التوفيق الإلهي في اختيار القائد قائم على العدل التام والسنة الحكيمة ورعاية المصلحة التامة[١] .

خامسا : دل قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ ﴾ [البقرة:٢٤٩] على جواز اختبار القائد لأفراد جيشه لمعرفة مدى استجابتهم ومدى استعدادهم للقتال وصبرهم عليه[٢] .

سادسا : على الدعاة إلى الله – تعالى – وقت الأزمات وظهور الفتن والملمات دعوة الناس وحثهم على الجهاد في سبيل الله من خلال آيات القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة ، وإعطاء نماذج من سير الصحابة والتابعين وصالح من سلف من المؤمنين ؛ لأن في ذلك تقوية عزيمة وزيادة إيمان وطردا لوساوس الشيطان .

سابعا : مشروعية الدعاء وقت الشدة وفي أثناء المعركة وأنه مفيد ومحقق للغاية ومفرج للكرب ، وقد دعا رسول الله ﷺ في بدر حتى سقط رداؤه[٣] ، وكان إذا لاقى عدوا قال « **اللهم بك أصول وبك أجول** »[٤] ، ويقول « **اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم** »[٥] .

ثامنا : أن النصر أولا وأخيرا من عند الله للقوى الروحية المستعلية على جميع الشهوات والملذات ، لا للقوة المادية الكثيرة العدد والعدد .

ألا فليعتبر المسلمون بحال الذين هزموا أمام شربة ماء فأصبحوا في لحظة لا يصلحون للجهاد أمام العدو ، فكيف بالذين تهزمهم أنفسهم في شرب الدخان

---

(١) التفسير المنير (٢/٤٣٥) .

(٢) انظر : (أيسر التفاسير) (١/٢٤٠) .

(٣) انظر : (فتح الباري) (٧/٣٦٧) .

(٤) حديث « **اللهم بك أصول وبك أجول** » رواه الإمام أحمد (١/٩٠ ، ١٥١) برقم[٦٩١،١٢٩٥] قال عنه الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

(٥) رواه أحمد (٤/٤١٥) برقم [١٩٧٣٥] ، ورواه أبو داود – كتاب الصلاة – باب ما يقول إذا خاف قوما (٢/١٨٧) برقم [١٥٣٧] ، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة – باب ما يقول إذا خاف قوما (٦/١٥٤) برقم [١٠٤٣٧] ، ورواه الحاكم – كتاب قسم الفيء (٢/١٥٤) برقم[٢٦٢٩] وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين . وأكبر ظني أنهما لم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

أو الخمور واقتراف الفواحش[١] .

ونحن اليوم أمام حرب ثقافية إعلامية يعجز السلاح عن هزيمتها دخلت البيوت وتدخلت في شعور ورأي المجتمع ؛ بل في ثقافتهم ولباسهم ، فإذا هزم المسلمون أمام هذه الحرب فكريا وهو الظاهر من أمرهم فإنهم لا شك سيهزمون قبل أن يدخلوا المعركة .

تاسعا : الحكمة من مشروعية الجهاد في سبيل الله هو إعلاء كلمة الله في الأرض وعبادة الله وحده دون سواه ، لا للسلب وأخذ المغنم ، ولا للزهو والاستعلاء ولا بناء مجد أمة على ذل أخرى - ، فالجهاد أعلى من كل هذه التصورات ، فهو إصلاح لأهل الأرض[٢] وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، تحكمهم شريعة السماء ، يخضعون لسلطان واحد هو سلطان الله ، كتابهم واحد ودينهم واحد ونبيهم واحد وقبلتهم جميعا واحدة .

---

(١) انظر : (صفوة الآثار) (٣/٤٣٩) .

(٢) المرجع السابق (٣/٤٣٩،٤٤٠) .

المبحث الثالث

عقوبة أصحاب السبت

المطلب الأول : الآيات التي تناولت تلك العقوبة :

أولاً : السور التي أشارت لعقوبتهم :

سورة البقرة :

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة:٦٥] .

تحدثت الآية عن إعجاز عظيم لنبوة محمد ﷺ في إخبارهم (أي : اليهود) بما يكرهون سماعه ولا يعلمه غيرهم[1] .

الآية حددت سبب العقوبه – وهو الاعتداء يوم السبت لانتهاك ما حرم الله عليهم فيه .

حددت الآية نوع عقوبتهم وهو – أن الله صيرهم قردة صاغرين مبعدين .

سورة النساء :

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء:٤٧] .

أشارت الآية إلى عقوبتهم فقط ؛ حيث أهلكهم بسبب اعتدائهم يوم السبت وتجاوزهم حدود الله .

سورة النحل :

قال تعالى ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النحل:١٢٤] .

أي : أن الله شدد عليهم في أمره انتقاماً منهم ، فكان ذلك وبالاً عليهم ، حيث أرشدهم إلى عبادة الله يوم الجمعة فأبوا إلا السبت وزعموا أن الله استراح فيه بعد خلق

---

(١) انظر لطائف آيات أصحاب السبت من سورة الأعراف .

السموات والأرض[١] .

أخرج الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « **نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له . فهم لنا فيه تبع ، فاليهود غدا ، والنصارى بعد غد** »[٢] .

ثانيا : السور التي فصلت عقوبتهم هي سورة واحدة سورة الأعراف :

والآيات هي : قوله تعالى ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٧] .

لطائف الآيات :

أولا : في قوله ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ ﴾ هذا السؤال معناه التقرير والتوبيخ على فعل من سلف من آبائهم ، فقد يتبجحون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم من سلالة الأنبياء فهذا تاريخهم يشهد عليهم .

السؤال في كلام العرب على نوعين : أشهرها أن يسأل السائل عما لا يعلمه ليعلمه ، والآخر : أن يسأل على وجه التقرير حين يكون السائل يعلم حصول المسؤل عنه ، ويعلم المسؤل أن السائل عالم وأنه إنما سأله ليقرره[٣] .

---

(١) انظر : (نظم الدرر) (١١/٢٧٦ ، ٢٧٧) .

(٢) رواه البخاري : كتاب الجمعة - باب فرض الجمعة - (١/٢٨٠) برقم [٨٧٦] . ورواه مسلم : كتاب الجمعة - باب هداية الأمة ليوم الجمعة - (٢/٥٨٥) برقم [٨٥٥] .

(٣) التحرير والتنوير (٩/١٤٧) مجلد (٥) ونوع ثالث : السؤال للإنكار .

ثانياً : أطلقت القرية على أهلها بقرينة قوله ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ أي : أهلها ، والتقدير واسألهم إذ يعدو أهل القرية في السبت .

ثالثاً : هذه القصة كانت مما يكتمها اليهود ولا يتحدثون بها إلا فيما بينهم ، يرويها أحبارهم دون ذكرها في كتبهم ، والأمر بالسؤال عنها لإشعار يهود العصر النبوي بأن الله أطلع نبيه – عليه الصلاة والسلام – عليها[1] .

رابعاً : لم يحدد القرآن الكريم القرية المعذبة فهي معروفة لدى المخاطبين وقد قيل : إن اسمها أيلة والمسماة اليوم بالعقبة – على ساحل البحر الأحمر ، وهذا قول الأكثرين[2] .

خامساً : انقسم الناس في القرية إلى ثلاث فرق :

- فرقة عصت الله واحتالت .
- وفرقة أنكرت عليهم فعلهم ذلك .
- وفرقة اكتفت بإنكار من أنكر عليهم وسكتت .

فهلكت فرقه ونجت فرقتان[3] .

سادساً : فإن قيل : كيف قال ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥] وهذا ليس في وسعهم ؟

فالجواب هذا أمر إيجاد لا أمر إيجاب فهو من باب قول الله تعالى ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[4] [البقرة:١١٧] .

سابعاً : في قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣] أصل البلوى : الاختبار ، والإشارة إليها بقوله ﴿نَبْلُوهُم﴾ أي : مثل هذا الابتلاء العظيم نبلوهم .

---

(١) انظر : (التحرير والتنوير) (١٤٦/٩) مجلد (٥) .

(٢) وقيل : إن اسمها مدين ، وقيل : طبرية ، وقيل : مقنى ، لكن قال الطبري : الصواب أن يقال : هي قرية حاضرة البحر ، انظر : تفسيره (١٨٢/١٣) .

(٣) هلكت الفرقة المعتدية العاصية المحتالة : ونجت الفرقتان اللتان لم تعص و لم تشارك في الفعل (عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال : يا ليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا : لم تعظون قوماً ؟ قال عكرمه : فقلت : جعلني الله فداك ، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ، فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا) انظر : تفسير ابن جرير (١٨٧/١٣) وسنده حدثنا محمد بن مثنى قال حدثنا معاذ بن هانئ قال حدثنا حمّاد بن يزيد عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس . والسند مما يصحّحه أحمد شاكر لكن اختلف في داود بن الحصين والراجح ما ذكره أحمد بن عدي أنه صالح الحديث إذا روى عنه ثقة وهو كذلك إلاّ أن يروي عنه ضعيف . وحمّاد بن زيد ثقة ثبت . انظر : تهذيب الكمال (٣٨١/٨) ، وللأثر شواهد أخرى يتقوّى بها ، انظر : تفسير الطبري (١٨٧/١٣) ، وانظر : تفسير ابن كثير (٢٦٨/٢،٢٦٩) ، وانظر : تفسير الكشاف (١٧٢/٢) .

(٤) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ، ص"٢٦" .

والبلوى إذا أسندت إلى الله – تعالى – كانت مجازاً عقلياً أي : ليبلو الناس تمسكهم بشرائع دينهم[1] .

ثامنـــاً : في قولـــه ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف:١٦٤] إن الآية أجملت ما قالت الفرقة الثانية إيجازاً في الكلام . اعتماداً على قرينة ﴿ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ ﴾ وهذا يدل على أنهم منكرون على العاصين غير راضين والا فكيف عرفوا أن الله مهلكهم أو معذبهم إلا بعد أن عرفوا أن الموعظه لا تنفع معهم ، ثم أيضاً بقرينة ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٥] فعلمنا أن القائلين من الفريق الناجي[2] .

تاسعاً : في آية ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٥] .

ترى أن العذاب الذي حل بالعصاة المحتالين جزاء إمعانهم في المعصية ؛ حيث اعتبرها النص هي الكفر الذي يعبر عنه بالظلم مرة وبالفسق مرة كما هو الغالب في التعبير القرآني عن الكفر والشرك بالظلم والفسق[3] .

عاشراً : في آية ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [الأعراف:١٦٧] دليل على أن اليهود كلما انتعشوا وعلا شأنهم وطغوا وبغوا في الأرض سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب .

وقد تكرر هذا الوعيد من عهد موسى – عليه السلام – إلى العصر الحديث ، ولا يخفى ما حصل لهم من تسلط الألمان عليهم في عهد قائدهم (هتلر) ، وفي العصر الحاضر عز سلطانهم وكثر شرهم ، وعم فسادهم ، ونسأل الله أن ينتقم منهم ، روى البخاري عن ابن عمر — رضي الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : « **تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول : يا عبدالله هذا يهودي ورائي فاقتله** »[4] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٤٧/٩) مجلد (٥) .

(٢) التحرير والتنوير (١٤٧/٩) مجلد (٥) .

(٣) انظر : في ظلال القرآن (١٣٨٥/٣) .

(٤) صحيح البخاري كتاب الجهاد ـ باب قتال اليهود (٣٣٩/٢) برقم (٢٩٢٥) وبرقم (٢٩٢٦) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة :

الحيلة على الله – تعالى – والاعتداء على حرماته .

وقد سماهم الله في القرآن الكريم أصحاب السبت[1] وهو اليوم الذي كانوا يعظمونه ، وكان الله – سبحانه – قد حرم عليهم الصيد في هذا اليوم ابتلاءً لهم ؛ حيث كانت تأتيهم الحيتان في هذا اليوم شرعاً طافية على ظهر الماء كثيرة يسهل أخذها ، وفي الأيام الأخرى تدخل عمق البحر فلا يستطيعون صيدها فطال عليهم الأمد واشتدت شهوتهم له وقالوا : لا يمكن أن ندع هذه الحيتان تأتي وترجع دون أن نصيدها ، فعملوا لذلك حيلة ووضعوا لها حياضاً وشبّاكاً في يوم الجمعة ، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت وقعت فيه و لم تستطع الخروج حتى إذا كان يوم الأحد أتو فأخذوها وانتشر فعلهم ذلك و لم يعجّل الله عليهم العقوبه حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق .

لقد هاجت مطامع القوم المحتالين أمام هذا الإغراء فتهاوت عزائمهم ونسوا عهدهم مع ربهم فاحتالوا احتيال الغبي ظناً منهم أن الله لايراهم ، احتالوا على طريقتهم ظانين أن الله سيعفو عنهم ويغفر ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف:١٦٤] فاحتالوا وما أكثر الحيل حين يلتوي القلب وتقل التقوى ؛ إن المنهج الصحيح لا تحرسه نصوصه ولا حراسه . إنما تحرسه القلوب التقية التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته ، فتحرس هي القانون و تحميه ولن تستطيع الدولة أن تضع على رأس كل فرد حارساً يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته مالم تكن خشية الله في قلوب الناس ، ومراقبتهم له في السر والعلن[2] .

إنهم ظلموا أنفسهم باحتيالهم و مخادعتهم لها ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [البقرة:٩] ؛ لأن الله تعالى لا يخادَع ولا يُحتال عليه عز وجل .

وبعد ظلمهم جاء الناصحون الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر فوعظوهم ،

---

(١) والسبت : هو أول أيام الأسبوع ، تعظمه اليهود زاعمة أن الله استراح فيه بعد خلقه السموات والأرض فكذبهم الله بقوله ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾ [ق:٣٨] أي : تعب .

(٢) انظر : (في ظلال القرآن) (١٣٨٤/٣) .

وذكروهم ميثاق الله وعهده عليهم ، وأيست فرقة منهم بعد نصحهم فسكتوا وقالوا : لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ فرد الناصحون ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٤] .

ذلك أن الناس انقسموا في أمرهم ثلاثة أقسام :

- فريق منهم أيس من نجاح الموعظة وتحقق وقوع الوعيد بالقوم لتوغلهم في المعاصي .
- وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار .
- وفريق عصى واستمر في عصيانه .

وهنا يعلم أن الفريق الأول ما سكت إلا بعد الموعظة ، وإلا فمن أين عرف أن الله سيهلكهم؟ ثم إنكاره على الناصحين يدل على يأسه منهم بعد الموعظة .

يقول صاحب التحرير والتنوير :

« إن صلحاء القوم كانوا فريقين : فريق أيس من نجاح الموعظة وتحقق حلول الهلاك بهم ، وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار ، فأنكر الفريق الأول على الفريق الثاني استمرارهم على كلفة الموعظة ، واعتذر الفريق الثاني بقولهم ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٤] فالفريق الأول أخذوا بالطرف الراجح الموجب للظن ، والفريق الثاني أخذوا بالطرف المرجوح جمعاً بينه وبين الراجح لقصد الاحتياط ؛ ليكون لهم عذرٌ عندالله إن سألهم لماذا أقلعتم عن الموعظة ؟ ولما عسى أن يحصل من تقوى الموعظين بزيادة الموعظة »[١] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٥٢/٩) .

المطلب الثالث نوع العقوبة

مسخهم الله قردة صورة ومعنى[1] .

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٥-١٦٦] .

أخبر الله – تعالى – أن أهل القرية تمردوا وعصوا ربهم واحتالوا على شرعه ، فذكرهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر بما فعلوا ونهوهم عن ذلك فلم ينتهوا ، فعاقبهم أولا بالبؤس والشقاء في المعيشة ، لأن من الناس من لا يصلحه إلا الفقر والشدة ولو اغتنى لفسد ، ومنهم من لايصلحه إلا الرخاء والنعمة ، وبكل يبتلي الله عباده ويمتحنهم كما قال ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء:٣٥] . وقال في بني إسرائيل ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٨] ولكن هؤلاء القوم لم يزدهم البؤس والسوء إلا إصرارا على الفسق و الظلم فمسخهم الله قردة بالفعل بعد أن كانوا بشرا سويا ، وهذه العقوبة الشنيعة مناسبة لخبث نفوسهم ، وسوء طريقتهم الملتوية ، واستخفافهم بحساب الله لهم وكأنه – تعالى وتمجد – لا يعلم فعلهم ويجوز أن تجري عليه الحيل قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة:٧٨] ، وقال ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص:٦٩] فكأنهم قالوا بلسان الحال

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١١٠ ، ١١١) وفيه قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف:١٦٦] قال : مسخت قلوبهم و لم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة:٥] ورواه ابن جرير بسنده به قال الحافظ ابن كثير وهو غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره قال الله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ [المائدة:٦٠] ، ثم ذكر مجموعة كبيرة من الآثار ، سنذكر بعضها . وقال في آخر ذلك قلت : والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب اليه مجاهد – رحمه الله – من أن مسخهم إنما كان معنويا لا صوريا ؛ بل الصحيح أنه معنوي صوري . والله تعالى أعلم . وقد ذكر صاحب صفوة الآثار مجموعة من الردود على قول مجاهد تركتها للإطالة . انظرها (٢/١٦٨ ، ١٦٩) .

أو المقال : إننا أمهر من الله وأحكم ، إنه لايعلم بحيلتنا وليس خبيرا بغايتنا ولا محيطا بكل ما نعمل ، وليس يبصر ما نفعله بالحيتان من اصطيادها واحتباسها يوم السبت ثم صيده يوم الأحد ، فجمعوا في خطيئتهم النكول عن عهد الله ، والنكوص عن مقام الإنسانية ، والنزول بشرفها إلى مستوى البهائم التي لا ترتفع عن حاجة البطون وشهوات النفوس ثم الانتقاص لله بالإلحاد في أسمائه ؛ حيث ارتكبوها بوسيلة الحيلة التي فيها هدم للعقيدة والضمير ، فلما وصلت بهم طبيعتهم اليهودية إلى هذا الحد استحقوا من الله تلك العقوبة الشنيعة[1] . إذ نصت الآيات على نجاة الناهين ، وهلاك الظالمين . قال ابن كثير : وسكتت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحون ، ولا ارتكبوا عظيما فيذمون ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين ؟ على قولين ، وقد علمنا من قبل أن ابن عباس كان قد توقف ثم رجع إلى القول بنجاتهم لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ماهم عليه وخالفوهم وقالوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم ؟ فكساه حلة[2] . وهذا هو الراجح من الأقوال لدلالة النص عليه منطوقا ؛ لأن الله خص الهلاك بالظالمين ولم يذكر أنهم ظالمون ، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت ؛ ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فرض كفاية إذا قام به البعض ، سقط عن الآخرين ، فاكتفو بإنكار أولئك[3] .

وهكذا مسخ الله صورة الظالمين عن الصورة الآدمية إلى الصورة الحيوانية ، لقد تنازلوا هم عن آدميتهم ، حين تنازلوا عن أخص خصائصها – وهو الإرادة فقيل لهم :

---

(١) انظر : (تفسير المنار) (٣٧٩/٩) ؛ صفوة الآثار (١٦٦/٢ ، ١٦٧) ؛ أحكام من القرآن ص "٢٦٨" .

(٢) انظر : (تفسير القاسمي) (٢٨٨/٧) . أما الأثر فسنده عند ابن كثير : قال حماد بن زيد : عن دواد بن لحصين ، عن عكرمة (٢٦٨/١) وروي أيضا عن عكرمة من طريق محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين وقال في آخر الرواية : قال ابن عباس : كانوا أثلاثا ، ثلث نهوا وثلث قالوا ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ [الأعراف:١٦٤] ، وثلث أصحاب الخطيئة ، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم . وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا ، لأنه تبين حالهم بعد ذلك . والله أعلم (٢٦٩/٢) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١٦٦/٢) .

كونوا حيث أردتم لأنفسكم من الانتكاس والهوان .

ثم كانت اللعنة الأبدية على الجميع إلا المؤمنين بالله ورسوله قال تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ الآية [الأعراف:١٦٧] ، فهو إذن إلى الأبد يبعث الله عليهم بين كل آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب ، فكلما انتعشوا وطغوا في الأرض جاءتهم الضربة المرعبة لهم ، وكلما خف عنهم عذاب الله رجع عليهم إلى يوم القيامة[1] عقابا على ظلمهم وفسادهم .

(١) في ظلال القرآن (٣/١٣٨٥ ، ١٣٨٦) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة من عقوبتهم :

أولا : الإخبار بهذه القصة علامة صدق نبي الله ﷺ ؛ إذ مثل هذا القصص لا يأتي إلا عن طريق الوحي ؛ لأن الله تعالى أطلع نبيه على تلك الأمور من غير تعلم وقد مضى عليها زمن طويل . وكانوا يقولون بتكبر ﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة:١٨] فقال الله لنبيه : سلهم يا محمد عن هذه القرية أما عذبتهم بذنوبهم وفي ذلك تذكير لهم بخزي من سلف منهم لعلهم يتخذوا منه عبرة .

ثانيا : التحيل على محارم الله لا يحولها إلى حلال ؛ بل إنه يزيدها قبحا ؛ لأن المحتال يكون جامعا بين فعل المعصية المنهي عنها وخيانة الله — تعالى — وخداعه قال تعالى ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠] ولذلك كان المنافقون أعظم ذنوبا وأكبر جرما من الكافرين الصرحاء قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢] وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء:١٤٥] ولذلك كانوا أي : المنافقين هم العدو الحقيقي الأكبر للمؤمنين قال تعالى ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون:٤] ومن هنا نعلم أن الذين يتحيلون على الربا بالطرق الملتوية أشد إثما ممن يأتيه صراحة ، لما في ذلك من الوقوع في الربا أولا ثم مخادعة الله تعالى ثانيا . ثم إن المخادع لله - تعالى - يظن أنه على صواب ، وأنه لم ينتهك المحرم فيستمر عليه ولا يحدث نفسه بالتوبة ولهذا لعن الرجل الذي يتزوج امرأة لتحليلها لزوجها الأول كما جاء في الحديث « **لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له** »[1] وعلى ذلك يقاس كل أمر يحتال به على أوامر الشرع من بيع أو شراء أو نكاح أو طلاق أو غير ذلك ، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ « **لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل** »[2] إذا فجميع الحيل محرمة في دين الله تحريما شديدا قاطعا ، وقد عقد الشيخ موفق الدين

---

(١) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٦٨ : ٢٧١" بتصرف ، والحديث رواه أبو داود - كتاب النكاح - باب في التحليل (٥٦٢/٢) برقم [٢٠٧٦] ، ورواه الترمذي - كتاب النكاح - باب ما جاء في المحلل والمحلل له (٤١٩/٣) برقم [١١٢٠] وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه النسائي - كتاب الطلاق - باب المطلقة ثلاثا وما فيه من التغليظ - (١٤٩/٦) برقم [٣٤١٦] ، ورواه ابن ماجة - كتاب النكاح - باب المحلل والمحلل له (٦٢٢/١) برقم [١٩٣٤،١٩٣٥] ، ورواه الدارمي - باب في النهي عن التحليل (١٥٨/٢) .

(٢) رواه أبو عبد الله ابن بطه في كتابه (إبطال الحيل) ص"١١٢" ط مؤسسة الرسالة ، قال عنه ابن كثير في تفسيره (١١١/١) : إسناده جيد ، قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (إقامة الدليل على إبطال التحليل ص"٣٣" ط دار الكتب العلمية : هذا إسناد جيد يصحح مثله الترمذي وغيره تارة ويحسنه تارة ، انظر : إرواء الغليل (٣٧٥/٥) ، وانظر : حاشية ابن القيم (٢٤٤/٩) ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ .

أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي في كتابه (المغني) بابا طويلا شافيا في تحريم جميع الحيل والتمثيل لها ، سواء في النكاح أو الطلاق أو أكل الربا وسائر المعاملات ، وذكر عقوبة الله لأصحاب السبت من الفاعلين وغيرهم(١) .

ثالثا : القول بسد الذرائع أي : تحريم كل وسيلة تؤدي إلى الممنوع أو المحظور شرعا ، فما أدى إلى الحرام فهو حرام كما أن الطريق إلى المباح مباح(٢) .

رابعا : الجزاء من جنس العمل كما قال تبارك وتعالى ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت:٤٠] فهم لما تحيلوا على فعل المحرم بما ظاهره الإباحة من نصب الشباك يوم الجمعة ، وأخذ ما فيها يوم الأحد ، وظاهر هذا الفعل الحل في نظرهم ، فصورهم الله إلى أقرب الحيوانات شبها بالإنسان وهي القردة(٣) .

خامسا : بيان قدرة الله – تعالى – حيث صور هؤلاء البشر إلى صنف القردة بقوله ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة:٦٥] فكانوا قردة ، وهنا يرد سؤال مهم هو : هل هذه القردة الموجودة الآن من نسل بني إسرائيل أم هذه جنس من المخلوقات منفرد ؟

والجواب على ذلك : أن هذه القردة جنس منفرد بذاته من مخلوقات الله – عز وجل – ، أما من قلب من بني إسرائيل فإنهم هلكوا و لم يبق لهم نسل كما قرر ذلك أهل العلم ، وذلك أن بني آدم من آدم ، وآدم خلقه الله من تراب ثم قال له : كن فيكون قال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٤) [آل عمران:٥٩] .

سادسا : بيان كذب من زعم أن أصل البشر قردة ثم تطور حتى صار بشرا ؛ لأن الله — سبحانه وتعالى — جعل الإنسان قردا حينما أراد أن يعاقبه لمخالفة أمره ، وقد دلت الآيات من كتاب الله — تعالى — والأحاديث الصحيحة الصريحة على أن آدم خلق من تراب وأجمع على ذلك المسلمون ، فمن اعتقد أن أصل البشر قردة فإنه يكفر ؛ لأنه مكذب بالقرآن والسنة وإجماع المسلمين ؛ إلا أن يكون جاهلا فإنه يعلم

---

(١) انظر : (المغني) (٦٢/٤-٦٤) لأبي محمد : عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة ت ٦٢٠هـ ط مكتبة الرياض الحديثة ، وفي كتاب إعلام الموقعين لابن القيم عدد كبير من الحيل جرت في زمنه ، وأغلبها مستعمل في زماننا تراجع في محلها (١٤٧/٣ ١٥٢، ٢٠٦، ٢١٢) ط دار إحياء التراث .

(٢) انظر : إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، للشوكاني (محمد بن على) ص"٢٨٣" ط الأولى ١٤١٣هـ المكتبة التجارية ، انظر : أصول الفقه – للشيخ محمد أبو زهرة ص"٢٦٨" ط دار الفكر .

(٣) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٧١" .

(٤) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٧٢، ٢٧٣" .

ويفهم فإن أصر فإنه يكون كافرا ؛ لأن هذا تكذيب صريح لما علم من الدين بالضرورة[1].

سابعا : بيان أن كل من أراد علوا في الأرض أو فسادا فإن الله – سبحانه – لايصلح عمله قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [يونس:٨١] ومن تواضع رفعه ، ومن تعالى على الله وضعه ، وهؤلاء القوم لما تعالوا وتكبروا عن قبول الحق وضعهم الله فمسخهم قردة خاسئة ذليلة[2] .

ثامنا : وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأنه من أعظم المأمورات التي تعبدنا الله بفعلها مع التزام الحكمة والقول اللين في ذلك ، ومن ثم اعتزال أهل الفساد ومجانبتهم إذا لم يتوبوا ويرجعوا وينيبوا إن احتيج لذلك ؛ حتى لا يكون الإنسان مشاركا لهم في الإثم ، ولذا رأينا جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه القصة ؛ حيث نجى الله الناهين عن المنكر وأهلك الذين باشروه و لم ينتهوا عنه دون غيرهم .

تاسعا : دل قوله تعالى ﴿ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٤] على أن النهي عن المنكر لايسقط ، ولو علم المنكر عدم الفائدة فيه ؛ إذ ليس من شرطه حصول الامتثال ، ولو لم يكن فيه إلا القيام بركن عظيم من أركان الدين والغيرة على حدود الله والاعتذار إلى الله — تعالى – لكفاه فائدة[3] .

عاشرا : إثبات العقوبة ، وما لها من أثر في نفوس من رآها أو سمع بها قال تعالى ﴿ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا ﴾ [البقرة:٦٦] ؛ لأن كل من اطلع على حال هؤلاء فإنه يمتنع من الاستمرار في الإثم والعدوان سواء كان ذلك بترك الواجب ، أو انتهاك المحرم ، لما في ذلك من الموعظة العظيمة التي ينتفع بها المتقون الطائعون فقط ، أما غيرهم ممن ليس بمتق فإنه لا ينتفع بالموعظة ؛ بل يستمر في معصيته ويمني نفسه بعفو الله ومغفرته وينسى عدل الله وعقابه .

الحادي عشر : الإعلام من الله – تعالى – لرسوله محمد ﷺ بأنه سيبعث على اليهود من يذلهم ويضطهدهم عقوبة منه تعالى لهم على خبث قلوبهم وسوء أفعالهم إلا من تاب منهم أو كان بجوار دولة قوية تحميه ، وهذا مفهوم قول الله تعالى ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٢] وهو الإسلام ، وحبل من الناس : وهو ما ذكرناه ، وقد تحقق ذلك حيث سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب كلما عصوا الله وابتعدوا عن دينه – وهذا ما سنعرض له في المبحث التالي .

---

(١) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٣٧٣" .
(٢) انظر : (أحكام من القرآن) ص"٢٧٤" .
(٣) تفسير القاسمي (٧/٢٨٨) .

المبحث الرابع

عقوبة بني إسرائيل في أول سورة الإسراء

المطلب الأول : الآيات التي تناولت ذلك:

سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإسراء:١-٨] .

لطائف الآيات :

أولاً : كثيراً ما يقرن الباري - عز وجل - بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى - عليه السلام - فلم ذلك ؟

والجواب : لأن كتابيهما أفضل الكتب ، وشريعتيهما أكمل الشرائع ، ونبوتيهما أعلى النبوات ، وأتباعهما أكثر المؤمنين[1] .

ثانياً : في هذه السورة وبعد ذكر نبوة محمد ﷺ وذكر نبوة موسى - عليه السلام - ذكر بعدهما ثناءً ومدحاً لنوح - عليه السلام - فهل لذلك من معنى ؟

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٩٦/٣) ؛ وانظر : (التفسير الكبير للرازي) (١٥٣/٢٠) ؛ تفسير ابن كثير (٢٦/٣) .

والجواب : أن الآيات الثلاث تتحدث عن ثلاثة من أولي العزم الخمسة من الرسل.

وذكرت العبودية في حق كل من محمد ﷺ ونوح - عليه السلام - فقال في حق محمد ﷺ في معرض المن ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ .

وقال في حق نوح - عليه السلام - في معرض الثناء ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[1] [الإسراء:٣] وحينما يكون الأب عبداً لله - تعالى - فمن باب أولى أن تتصف الذرية بهذه الصفة وفي مقدمتهم محمدٌ ﷺ[2] .

ثانياً : لم خصّ بنو إسرائيل بالذكر في قوله ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الإسراء:٢] دون غيرهم ؟

والجواب : لأنهم هم المخاطبون بشريعة التوراة دون غيرهم[3] .

ثالثاً : لم خص نوح بالذكر هنا من بين الأجداد الآخرين مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام ؟ .

والجواب : أن ذرية نوح — عليه السلام — كانوا شقين : شق بار مطيع وهم الذين حملهم معه في السفينة ، وشق متكبر كافر وهو ولده الذي غرق . فكان نوح — عليه السلام — مثلاً لأبي فريقين . فبنو إسرائيل من ذرية الفريق البار ، فإن اقتدوا به نجوا ، وإن حادوا فقد نزعوا إلى الفريق الآخر فيوشك أن يهلكوا[4] .

رابعاً : قوله تعالى ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ [الإسراء:٤] ما المراد بالكتاب هنا أهو التوراة التي ذكرها الله بقوله ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ [الإسراء:٢] أم غيرها ؟ والجواب :

أنه يجوز أن يكون المراد بالكتاب التوراة ، والتعريف للعهد ؛ لأنه ذُكر آنفاً ويوجد في مواضع منها ما هو قريب مما في هذه الآية لكن بإجمال ، فيكون العدول عن

---

(١) وفي الحديث « **كان نوح إذا طعم أو لبس حمد الله فسمي عبداً شكوراً** » انظر : (فتح الباري) برقم [٤٧١٢] ، وصححه ابن حبان من حديث سلمان وله شاهد عن ابن مردويه و أبي فاطمة الليثي واسمه : أنيس ، وقيل : عبد الله بن أنيس . انظر : (تهذيب الكمال) (١٨٢/٣٤) .

(٢) التفسير الكبير (١٥٤/٢٠) ؛ التفسير البسيط للقرآن الكريم (٦٤/١٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/١٥) مجلد (٧) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/١٥) م ٧ .

الإظهار إلى لفظ الكتاب لمجرد الاهتمام .

ويجوز أن يكون « الكتاب » بعض كتبهم الدينية ، فيكون التعريف للجنس وليس للعهد الذكرى ؛ إذ ليس هو الكتاب المذكور آنفاً ؛ لأنه لما أظهر اسم الكتاب أشعر بأنه كتاب آخر من كتبهم وهو الأسفار المسماة بكتب الأنبياء[١] .

ثم ليعلم أنه أي معنى « الكتاب » لايمكن أن يرادبه اللوح المحفوظ أو علمه ؛ لأن ضمائر الخطاب تمنع ذلك[٢] .

وأرجح أنه التوراة ؛ لأن التوراة ذكرت في القرآن بلفظ الكتاب أكثر من مرة منها : قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام:٩١] .

وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٤] .

خامساً : أنه قال ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ [الإسراء:٥] و لم يقل : عبادي فلماذا ؟

والجواب : لأنهم أهل كفر وشرك وفسق فلم يشرفهم بالإضافه إليه ، ووصفهم بأنهم من ملكه فسخرهم لتأديب عباده الخارجين عن أمره وطاعته[٣] .

سادساً : تعرض بنو إسرائيل لملاحم عديدة ابتلاءً وامتحاناً من الله لهم ، فكلما صلحوا مكن لهم ، وكلما خربوا وأفسدوا سلط الله عليهم عدوهم فقتلهم وأسرهم وهكذا[٤] .

سابعاً : إن قيل كيف قال تعالى ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾ [الإسراء:٧] و لم يقل : فعليها كما قال ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ [فصلت:٤٦] ؟

والجواب : أن اللام هنا بمعنى « على » كما في قوله تعالى ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾

(١) التحرير والتنوير (٢٨/١٥) م ٧ .

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/١٥) م ٧ .

(٣) أيسر التفاسير (١٧٥/٣) .

(٤) سنذكر تفصيل ذلك في سبب العقوبة ونوعها .

[الصافات:١٠٣] وقوله ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ [الإسراء:١٠٩] وقيل : معناه : فلها رجاء الرحمة ، أي : فلها مخلص بالتوبة والاستغفار ، والصحيح أن اللام هنا على بابها لأنها للاختصاص ، وكل عامل مختص بجزاء عمله حسنُه - كان - أو سيئُه[1] .

ثامناً : إن قيل : لم عزا الإساءة التي بمعنى الحزن في قوله ﴿ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ [الإسراء:٧] إلى الوجوه مع أنها تكون في القلب والنفس الداخلية ؟

والجواب : عزا الإساءة إلى الوجوه لأن آثار الأعراض النفسانية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه ، فإن حصل الفرح في القلب ظهرت النضرة والإشراق في الوجه ، وإن حصل الحزن والخوف في القلب ظهر الكلوح والغبرة على الوجه[2] .

تاسعاً : في قوله تعالى ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٨] .

اجتمع عطف ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ وعطف ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ على قوله ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ .

والمعنى بعد أن يرحمكم ربكم ويؤمنّكم في البلاد التي تلجأون إليها إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم .

والعطف الثاني أفاد أن ما ذكر قبله من عقاب إنما هو عقاب دنيوي وأن وراءه عقاب الآخرة[3] .

---

(١) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص"٢٧٥" .

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٥٩/٢٠) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٨/١٥ ، ٣٩) مجلد (٧) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة :

إفساد اليهود في الأرض وقتل الأنبياء والصالحين .

قال تعالى ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ [الإسراء:٤] في هذه الآية ذكر مجمل لتاريخ بني إسرائيل بدءاً من دولة يوشع بن نون بعد فتحه لبلاد القدس وطرد الجبارين منها وإقامة دولة فيها لأول مرة وختاماً بطردهم على أيدي الرومان بعد ميلاد عيسى عليه السلام[1] ، ففي المرة الأولى وقع كما أخبر الله - تعالى - حيث أفسدوا في الأرض بارتكاب المعاصي وغشيان الذنوب والعلو في الأرض بالجرأة على الله - تعالى - وظلم الناس ومن ثم قتلوا أنبياء الله تعالى مثل أشعياء ، أرمياء ، زكريا ويحيى ، وقتل الأنبياء كفر ، فسلط الله عليهم من قهرهم إلى أن تابوا ورجعوا .

وأما المرة الثانية فإنهم عادوا للإفساد في الأرض وانغمسوا في الفجور والشر فسلط الله عليهم من قهرهم ، ثم رحمهم الله - تعالى - فصلحوا واستقاموا ، ثم عادوا إلى الفسق والفجور فعاد الله عليهم فسلط عليهم من قهرهم وقتلهم ، وهذا مصداق قول الله تعالى فيهم ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ وقوله ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾[2] [الأعراف:١٦٧] وانظر إلى ما سنذكره في نوع العقوبة تاريخياً دون التعرض لما يذكر من إسرائيليات أو أسماء أو تواريخ ؛ لأن الغرض هو العبرة التى تتجلى في سياق الوقائع ولايتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة هؤلاء الأقوام[3] .

نوع العقوبة :

قال تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدٗا مَّفْعُولٗا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٩/١٥) ؛ تفسير القاسمي (٢٠٥/١٠) .

(٢) نفس المصدر (٣٩/١٥) .

(٣) انظر : (التفسير الكبير) (١٥٩/٢٠) ؛ وانظر : تفسير القاسمي (٢٠٥/١٠ : ٢٠٦) حيث قال : سلط عليهم البابليون سنة ٦٠٦ قبل المسيح ، ثم سلط عليهم (بختنصر) سنة ٥٥٨ قبل المسيح ، ثم سلط عليهم الرومان سنة ١٣٥ بعد الميلاد ـ انظر : (التحرير والتنوير) (٢٩/١٥ ، ٣٨) ، وانظر : من كتب التاريخ : الطبري (٥٣٢/١ : ٥٣٩) ؛ البداية والنهاية (٣٤/٢ : ٣٩) .

أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإسراء:٥-٨] فهنا الآيات قسمت تاريخهم إلى قسمين كما في قوله تعالى ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ [الإسراء:٤] : أما المرة الأولى فكانت البداية من زمن يوشع بن نون – عليه السلام – واستمرت زمناً طويلاً حتى عاثوا (أي : بنى إسرائيل) في الأرض فساداً وكثر فيهم الفسق والفجور ، فسلط الله عليهم البابليين فأسقطوا دولتهم ومزقوا ملكهم ، حتى هيأ الله لهم ملكاً جديداً على يد طالوت فهزموا جالوت البابلي ، واستمر ملكهم في عهده وعهد داود وسليمان – عليهما السلام – قال تعالى ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ [الإسراء:٦] ثم فسقوا وفجروا وظلموا فسلط الله عليهم بختنصر البابلي أيضاً فقتلهم وأسر منهم وخرب ديارهم وهذه هى المرة الآخرة ، ثم تابوا وأنابوا فجمع الله ملكهم ورحمهم وإلى ذلك تشير آية ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ [الإسراء:٨] فاستمر ملكهم فترة من الزمن وعادوا بعدها إلى سابق عهدهم من الفسق والعصيان فعاد الله عليهم بعذابه فسلط عليهم الرومان بعد نبوة عيسى – عليه السلام – فقتلوهم وساموهم سوء العذاب وشردوهم في الأرض ، ثم تجمع فئات منهم في الجزيرة العربية وأفسدوا فيها فسلط الله عليهم نبيه محمداً ﷺ فأجلى بني قينقاع وبني النضير وقتل بني قريظة ، ثم عادوا للإفساد فسلط الله عليهم ملوك أوربا ، حيث سامهم (هتلر) سوء العذاب ، ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة (إسرائيل) فأذاقت العرب (أصحاب الأرض) الويلات وذبحوا المسلمين في كثير من بقاع فلسطين حين غابوا عن الالتزام بالمنهج الإسلامي وتركوا الجهاد ، واليوم يطلبون منهم السلام ... وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، تصديقاً لوعده ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء:٨] ووفاقاً لسنته التي لا تتخلف ..وإن غداً لناظره قريب[1] .

(١) انظر لذلك : تفسير الطبري (٣٥٦/١٧ : ٣٥٨) ؛ التفسير الكبير (١٥٥/٢٠ ، ١٥٧ ، ١٥٨) ؛ تفسير القاسمي (٢٠٥/١٠ : ٢٠٦) ؛ التحرير والتنوير (٢٩/١٥ ، ٣٢ ، ٣٨) ؛ في ظلال القرآن (٢٢١٤/٤) ؛ أيسر التفاسير (١٧٥/٣ : ١٧٨) ؛ التفسير البسيط للقرآن الكريم د/حسن باجودة (٢٧/١٥ : ٢٨) ؛ وانظر من كتب التاريخ : تاريخ الطبري (٥٣٢/١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩) ؛ البداية والنهاية (٣٤/٢ : ٣٩) .

المطلب الرابع: الدروس المستفادة من عقوباتهم:

أولاً : أخبرت الآيات عن حال بني إسرائيل حين يطيعون وحالهم حين يفسدون .

ففي حال طاعتهم يعفو الله عنهم وينعم عليهم بالأموال والبنين . وفي حال عصيانهم يغضب الله عليهم فيسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب . وفي ذلك درسٌ ينبغي أن تعيه الأمة المسلمة وهو الشكر في حال الرخاء ، وبحفظ نعم الله علينا وأكبرها نعمة الاسلام والإيمان ، والتركيز على تحقيق ذلك في عالم الواقع من التواصي بالحق والتواصي بالصبر . وإظهار شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا تفسد الأمة فيكون فيها شبهاً من بني إسرائيل الملعونين على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ ﴾ الآية [المائدة:٧٨-٧٩] .

الدرس الآخر : أن سبب تسلط الأعداء وتكالبهم علينا إنما يأتي من ابتعادنا عن المنهج الإسلامي الصحيح وترك فريضة الجهاد في سبيل الله قال ﷺ « **يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذٍ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ، فقال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت** »[1] .

ثانياً : في تكرار العذاب على بني إسرائيل مرتين والإنقاذ من الذل والعذاب مرتين أيضاً رحمة من الله بعباده ؛ لأن العقاب قد يكون سبيلاً للإصلاح والتربية والتهذيب ، ثم إن التخلص من أسباب ومسببات الذل والإهانة فيه تجديد للنفس وفتح باب الأمل في وجه كل مطرود يائس . فها هم قد عوقبوا على يد البابليين في أول الأمر وعوقبوا أخيراً على يد الروم لإفسادهم وقتلهم لأنبيائهم ، وكانت النجاة بأن أعاد الله لهم عزتهم ودولتهم وأمدهم بأموال وبنين فأصلحوا من حالهم وتابوا وأنابوا فكان ذلك إكراماً من الله لهم وجزاء حسناً على طاعتهم[2] .

وفي ذلك درس عظيم لكل عاص انغمس في أوحال المعصية أو حاد الله ورسوله أو جاهر بما يفعل ، أن يتوب ويرجع ، فباب التوبة مفتوح والله – تعالى – يفرح بتوبة

---

(١) الحديث رواه أحمد – (٥/٢٧٨) برقم [٢٢٤٥٠] ؛ ورواه أبو داود – كتاب الملاحم – باب في تداعي على الإسلام (٤٠/٤٨٣) برقم [٤٢٩٧] ، وصححه الألباني (٢/٦٨٤) برقم [٩٥٨] .

(٢) انظر : (التفسير المنير) (١٥/٢٥) .

عبده كما ورد في الحديث « **لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة** »[١] .

ثالثا : أن نفع الإحسان والاستقامة يعود عليه بالأجر والثواب في الآخرة وبالطمأنينة والحياه الطيبة في الدنيا قال تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] .

رابعا : تشير آية ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ ﴾ [الإسراء:٧] على أن رحمة الله – تعالى – غالبة على غضبه بدليل تكرار الإحسان ، و لما حكى عنهم الإساءة ذكرها مرة واحدة ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾ [الإسراء:٧] ولو لم يكن جانب الرحمة غالبا لما فرق[٢].

خامسا : يدل قوله تعالى ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء:٨] على عدل الله – تعالى – في أن من عاد إلى المعصية عاد الله إليه بالعقاب ، ومن مقتضيات رحمته تعالى أن من عاد إلى التوبة والرشد والهداية عاد الله عليه بالرحمة والمغفرة[٣] .

سادسا : ما يحصل للعصاة الفاسقين من عذاب في الدنيا كقتل و تشريد وإهانة وإذلال على يد من هو أظلم منهم ما هو إلا شئ يسير مع ما ادخره الله لهم من عذاب في الآخرة يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٨] أي : سجنا وفراشا ، والمعنى : إن عذاب الله لهم في الدنيا بما وصفنا وإن كان شديدا فإنه قد يتفلت منه بموت أو بطريق آخر ، وأما عذاب الآخرة فإنه يكون حاصرا للإنسان محيطا به لا رجاء في الخلاص منه[٤] .

سابعا : إن عودة اليهود اليوم وتجمعهم في أرض فلسطين واستيلائهم على أولى القبلتين وثالث المسجدين الشريفين وتشريد وتقتيل أهلها وإفسادهم في الأرض ؛ ليذكرنا بماضيهم الغابر وتاريخهم الأسود ويعطينا الأمل في فتح باب الانتصار عليهم فقد كثر شرهم وزاد فجورهم وفشا ظلمهم ، وقد آن الأوان للمسلمين أن يعدوا العدة لاستعادة القدس الشريف وسائر المقدسات الإسلامية من أيدي اليهود وإذلالهم تحقيقا لما كتب عليهم من الذلة والصغار إلى يوم القيامة .

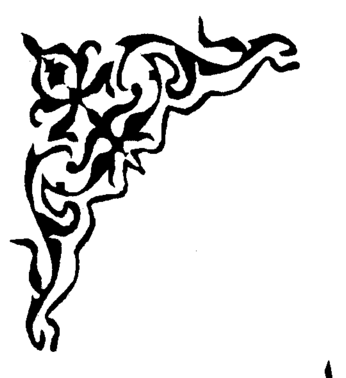
---

(١) رواه البخاري – كتاب الدعوات – باب التوبة (١٥٤/٤) برقم [٦٣٠٨ : ٦٣٠٩] ؛ ورواه مسلم – كتاب التوبة – باب الحض على التوبة والفرح بها (٢١٠٥/٤) برقم [٢٧٤٧] .

(٢) انظر : (تفسير الرازي) (١٥٨/٢٠) .

(٣) انظر : (تفسير المنير) (٢٦/١٥) .

(٤) انظر : (التفسير الكبير) (١٦٠/٢٠) .





الفصل الخامس

عقوبات بني إسرائيل في عهد عيسى - عليه السلام - وبعده

وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : عقوبة من كفر بالمائدة وأراد قتل عيسى - عليه السلام - .

المبحث الثاني : عقوبة صاحب الجنتين .

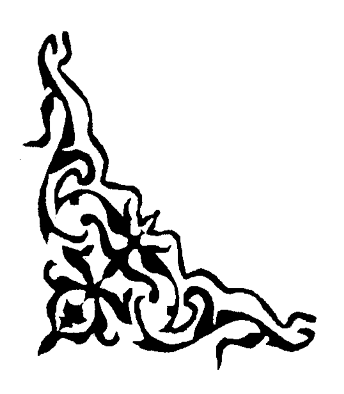
المبحث الثالث : عقوبة أصحاب الجنة .

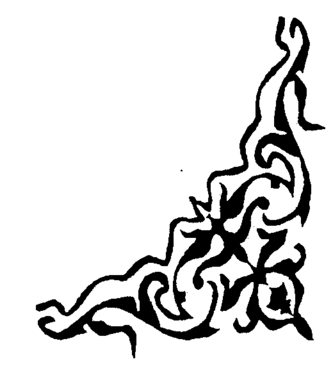
المبحث الرابع : عقوبة أصحاب الأخدود .

المبحث الخامس : عقوبة أهل سبأ .

المبحث السادس : عقوبة أصحاب الرس .

المبحث السابع : عقوبة أصحاب الفيل .





تمهيد :

أرسل الله عيسى – عليه السلام – إلى بني إسرائيل على فترة من الرسل حين ساء حال بني إسرائيل وانتشر الضلال وعُبد غير الله ، فدعا الناس إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ، وأيده بعدد كثير من المعجزات كان منها : معجزة إنزال المائدة على بني إسرائيل ، وما أصاب من كفر بها من عذاب الله ، ثم آخرها معجزة رفعه إلى السماء حياً ، وما أصاب من أراد قتله من اختلاف في شأنه ، وسوف نتناول هذين الأمرين بالبحث والمناقشة لما فيهما من قصد العقوبة ، ثم نتناول ما قصه الله من عقوبات حدثت بعده إلى ما قبل الرساله المحمدية .

المبحث الأول

عقوبة من كفر بالمائدة وأراد قتل عيسى عليه السلام

المطلب الأول : الآيات التي تناولت عقوبتهم من سورة المائدة :

قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المائدة:١١١-١١٥] .

لطائف الآيات من سورة المائدة :

أولاً : قصة مائدة حواري عيسى – عليه السلام – لم تذكر إلا مرة واحدة في سورة المائدة المسماة باسمها .

ثانياً : أن معنى الإيحاء في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ الإلهام كما في قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ [القصص:٧] وقوله ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ [النحل:٦٨] .

ثالثاً : إن قيل : كيف قال الحواريون ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ؟ إنهم شكوا في قدرة الله على بعض الممكنات ووصفوه بالاستطاعة وهذا تشبيه والحواريون خُلّص أتباع عيسى لايصح أن يصدر منهم مثل ذلك .

والجواب : إن هذا استفهام عن الفعل لا عن القدرة كما يُقال للغني : هل تقدر أن تعطي فلاناً شيئاً ؟ وهذه تسمى استطاعة المطاوعة لا استطاعة القدرة[1] .

وهذا يدل عل التلطف والتأدب في السؤال وليس شكاً ، كما سأل إبراهيم ربه حين قال ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٠] إنما أحبوا الانتقال من

(١) تفسير الرازي والمسمى أنموذج جليل ص"١٢٨" .

الدليل العقلي إلى الدليل الحسي الذي تأنس إليه القلوب أكثر[1] .

رابعا : إن كان المراد ما سبق ذكره فلم أنكر عليهم عيسى – عليه السلام – بقوله ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة:١١٢] ؟

فالجواب : إنكاره عليهم ؛ لأنهم أتوا بلفظ يحمل المعنى الذي لا يليق بالمؤمن المخلص وإن كانوا لم يريدوه[2] .

خامسا : اشتمل قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً ﴾[3] [المائدة:١١٤] على ندائين ، إذ قوله ﴿ رَبَّنَآ ﴾ بتقدير حرف النداء مع ما سبقها من قوله ﴿ ٱللَّهُمَّ ﴾ فلم كرر النداء ؟

والجواب : كرره مبالغة في الضراعة والاستعطاف لله –تعالى- ليجيب دعاءهم[4].

سادسا : في قوله تعالى ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا ﴾ [المائدة:١١٤] أسند الكون للمائدة مع أن المقصود ﴿ اليوم ﴾ فكيف ؟

والجواب : أن إسناد الكون عيدا للمائدة إسناد مجازي ، والعيد هو اليوم الموافق ليوم نزولها ، وعلامة صحته أنه قال ﴿ لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ [المائدة:١١٤] أي : لأول أمة النصارى وآخرها[5] .

الآيات التي تحدثت عن رفع عيسى – عليه السلام – من سورة آل عمران والنساء .

أولا : سورة آل عمران :

قال الله تعالى ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧ ﴾ [آل عمران:٥٥-٥٧] .

---

(١) انظر : (التحرير والتنوير) (١٠٥/٧) م ٤ ، وهذا هو أحد الرأيين وهو الراجح ؛ لأنهم لو كانوا متعنتين كما قال بعض المفسرين لما طالب الله أصحاب النبي ﷺ أن يكونوا مثلهم في مناصرة الله – تعالى – وما جعلهم مثلا صالحا يتأسى بهم ويقتدي بعملهم ، انظر : (دعوة الرسل) ص"٣٦٨" .

(٢) انظر : (تفسير الرازي) المسمى « أنموذج جليل » ص"١٢٨" .

(٣) انظر : (التحرير والتنوير) (١٠٨/٧) م٤ .

(٤) انظر : (التحرير والتنوير) (١٠٨/٧) .

(٥) انظر : (التحرير والتنوير) (١٠٨/٧) .

ثانياً : سورة النساء :

الآيات التي تحدثت عن عيسى – عليه السلام – وادعاء اليهود قتله وتكذيب الله لهم من سورة النساء .

قال الله تعالى ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ [النساء:١٥٦-١٥٩] .

لطائف آيات سورة آل عمران والنساء[١] .

أولاً : إن قيل : ما فائدة إعادة الكفر في الآية بقوله تعالى ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ بعد قوله تعالى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [النساء:١٥٥] .

فالجواب : لأنه قد تكررالكفر منهم ؛ فإنهم كفروا بموسى وعيسى ثم محمد ، فعطف بعض كفرهم على بعض[٢] .

ثانياً : في قوله تعالى على لسان اليهود ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ [النساء:١٥٧] يرد سؤال هو : أن اليهود – عليهم لعائن الله – كانوا كافرين بعيسى فكيف أقروا أنه رسول الله ؟ .

فالجواب : أنهم قالوه على طريق الاستهزاء كما قال فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾[٣] [الشعراء:٢٧] .

ثالثاً : قال هنا في سورة النساء ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ ﴾ [النساء:١٥٨] وقال في سورة آل عمران﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران:٥٥] والله تعالى رفعه و لم يتوفه فكيف ؟

والجواب من وجوه : **الأول** : أن الله بشره بقبض روحه بالوفاة لا بالقتل ، والواو لاتفيد الترتيب حتى يلزم من الآية موته قبل رفعه .

الثاني : أن معناه متوفي نفسك بالنوم من قوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر:٤٢] فلا تستيقظ إلا وأنت في السمآء آمن مقرب .

---

(١) ذكرتها مؤخرة لذكر خبر المائدة .

(٢) عند القرطبي : أنه كرر (بكفرهم) ليخبر أنهم كفروا كفرا بعد كفر . وقيل : المعنى وبكفرهم بالمسيح عليه السلام فحذف لدلالة ما بعده عليه . وانظر الرازي في تفسير «أنموذج جليل» ص"١٠٤" كلهم عن الكشاف (٥٨٦/١) .

(٣) تفسير الرازي (أنموذج الجليل) ص"١٠٤" .

الثالث : أن فيه تقديماً وتأخيراً ؛ تقديره : إني رافعك ومتوفيك[1] .

رابعاً : أنه وصفهم بالشك مرة بقولـه ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ ﴾ [النساء:١٥٧] ثم وصفهم بالظنّ أخرى بقولـه ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ ﴾ [النساء:١٥٧] فكيف يكونون شاكّين ظانين[2] ؟ وكيف استثنى الظنّ من العلم ، وليس الظنّ فرداً من أفراد العلم بل هو قسيمه ؟

والجواب : استعمل الظنّ بمعنى الشك مجازاً ؛ لما بينهما من المشابهة في انتفاء الجزم .

وأما أنه استثنى الظنّ من العلم فهذا استثناء من غير الجنس كما في قوله تعالى ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ ﴾[3] [مريم:٦٢] .

خامساً : في قولـه تعالى ﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ ﴾ [النساء:١٥٩] إشكال هو أن ﴿ وَإِن ﴾ في الآية معناها (ما) النافية كقوله تعالى ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾ [مريم:٧١] فيكون التقدير : وما أحدٌ من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به ، ثم إننا لم نسمع أن يهودياً آمن بعيسى عند موته فكيف ؟

والجواب من وجهين :

الأول : إن روحه لا تخرج حتى يؤمن بعيسى .

فعن علي بن طلحة ، عن ابن عباس قوله ﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ ﴾ [النساء:١٥٩] قال : لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى[4] .

الوجه **الثاني** : أن قوله ﴿ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ ﴾ أي : قبل موت عيسى ، أي : في زمان نزوله آخر الزمان ولابد وأن يؤمنوا به [5] .

---

(١) تفسير الرازي (أنموذج الجليل) ص"٦٣" .

(٢) الشك تساوي الطرفين والظنّ : رجحان أحدهما على الآخر ، انظر : الكتاب (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ص"٥٢٨" ط: الأولى . دار الرسالة .

(٣) انظر : (تفسير الرازي) (أنموذج جليل) ص"١٠٥" .

(٤) تفسير الطبري (٣٨٢/٩) ؛ انظر : (الدر المنثور) (٤٢٦/٢ ، ٤٢٧) والأثر صحيح .

(٥) رواه الطبري بسنده قال : حدثنا الحسن بن يحيى قال : أخبرنا عبدالرزاق قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ ﴾ قال : قبل موت عيسى ومثله عن الحسن والآثار بأسانيدها صحيحة ، انظر : (تفسير الطبري) (٣٨٠/٩) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة :

طلبهم المائدة ثم كفر منهم .

قال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:١١٢] الآيات .

قصة المائدة :

قد تقدم في النص القرآن أن الحواريين طلبوا من عيسى ﷺ مائدة من السماء يأكلون منها . وهذه من طآمّات بني إسرائيل الكثيرة . لكنها البشرية التي لا تزال تتطلع إلى كل غريب ، والحواريون بشر ممن خلق الله أكرمهم الله بأن جعلهم أنصارَ دينه ونبيه عيسى بن مريم عليه السلام .

فهذا النص القرآني يذكر أنهم دخلوا في محاورة ساخنة مع نبيهم يطلبون آية لزيادة اطمئنان قلوبهم بما جاءهم على لسان نبيهم .

فذكرهم المسيح بتقوى الله الدال على توحيده المخلص من كل شائبة تؤدي إلى الشك في قدرة الله عز وجل ، فهم بسؤالهم هذا يعيدون إلى الأذهان الدعوة الأولى حين قال لهم المسيح – عليه السلام – ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢] .

وكأن الإيمان لم يرسخ بعد ، فلابد من تذكيرهم بتقوى الله – تعالى – لعلهم يكفون عن التكلف في طلب مالا يعني !

إلا أن القوم أصروا ؛ بل حددوا أغراضهم منها في أربع نقاط :

الأكل منها ، ولتطمئن قلوبهم ، وليعلموا صدق نبيهم فيما جاءهم به ، وليكونوا عليها عند بني إسرائيل من الشاهدين على صدق نزولها لتكون لهم آية .

هنا توجه المسيح – عليه السلام – إلى ربه يدعوه ويطلب منه أن ينزل عليهم مائدة من السماء لتكون لهم عيداً يعتاده بنو إسرائيل كل عام (الأولون والآخرون) .

ولتكون آية حية أخرى تضاف إلى الآيات السابقات منك للتدليل على كمال قدرتك وعظيم مشيئتك ، وارزقنا يا الله منها رزقاً يعيننا على طاعتك واتباع مرضاتك إنك خير من يرزق عباده ويتولاهم ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة:١١٥] .

فأخبر الله – عز وجل – عيسى – عليه السلام – بأنه منزل عليهم المائدة المطلوبة ، وعبّر باسم الفاعل ﴿ مُنَزِّلُهَا ﴾ لتحقيق الوعد بالإنزال وأن من يكفر بعد رؤيته لهذه الآية الباهرة والمعجزة القاهرة فإن الله سيعذبه عذاباً لم يعذب مثله في شدته أحداً من العالمين .

إذ اشترط الله للاستجابة شرطا وهو أن من آمن بها نجا ومن كفر بها عذب عذابا شديدا . فهل استجابوا للشرط أم وقفوا ؟ وهل نزلت المائدة أم لم تنزل ؟ .

هذا ما لم ينص عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة إلا أن هناك إشارات قوية تدل على أنها نزلت بالفعل .

حيث أكد الله – تبارك وتعالى – تنزيلها عليهم بجملة تأكيدات منها أنه قال ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة:١١٥] فأسند القول إلى نفسه المقدسة ثم أكد تنزيلها (بإن) بأن قال ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾[١] .

قال ابن جرير في ذلك « إن الله – تعالى ذكره – لا يخلف وعده ، ولا يقع في خبره الخلف ، وقد قال – تعالى ذكره – مخبرا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى ﷺ حين سأله ما سأله من ذلك ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ وغير جائز أن يقول الله – تعالى ذكره – ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا ﴾ ثم لا ينزلها ، لأن ذلك منه – تعالى ذكره – خبر ، ولا يكون منه خلاف ما يخبر ، ولو جاز أن يقول ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ ثم لا ينزلها عليهم جاز أن يقول : فمن يكفر بعد منكم فإني معذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين يكفر منهم بعد ذلك فلا يعذبه ، فلا يكون لوعده ولا لوعيده حقيقة ولا صحة ، وغير جائز أن يوصف ربنا – تعالى ذكره – بذلك[٢] ، هذا ، وقد ذكر المفسرون لكيفية نزول المائدة أوصافا معينة نزلت عليها ، وفيما احتوته من ألوان الطعام وأسمائه أقوالا كثيرة لم يثبت شيء منها بخبر صحيح عن رسول ﷺ .

قال ابن جرير « وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فغير نافع العلم به ولا ضار الجهل به إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل »[٣] .

---

(١) تهذيب التفسير (٤/٢٩٠ ، ٢٩١) .

(٢) تفسير ابن جرير (١١/٢٣١ ، ٢٣٢) .

(٣) تفسير ابن جرير (١١/٢٣٢) .

المطلب الثالث : نوع العقوبة

قال تعالى ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:١١٥] .

قال ابن جرير في تفسير ذلك « وهذا جواب من الله - تعالى ذكره - القوم فيما سألوا نبيهم عيسى مسألة ربهم من إنزاله مائدة عليهم ... إني منزلها عليكم ... فمن يجحد بعد إنزالها عليكم ... وينكر نبوة عيسى ﷺ ويخالف طاعتي فيما أمرته ونهيته ﴿ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ... ففعل القوم ، فجحدوا وكفروا بعد ما أنزلت عليهم ... فعذبوا فيما بلغنا بأن مسخوا قردة وخنازير »[١] .

وروى أيضاً بسنده[٢] إلى قتادة قوله ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة:١١٥] الآية ، ذكر لنا أنهم حوّلوا خنازير .

هذا ما كان من أمرهم في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن عذابهم أشد لما حصل من الكفر بعد نزولها . روى ابن جرير من حديث عبدالله بن عمرو قال : « إن أشد النّاس عذاباً يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون »[٣] وبعد كل هذا أخذ اليهود يناصبون عيسى - عليه السلام - العداء ، ويكيلون له ولأمه

---

(١) انظر : (تفسير ابن جرير) (٢٣٢/١١) .

(٢) سنده : حدثنا بشر بن معاذ قال : حدثنا يزيد بن زريع قال : حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة . وقد سبق أن ذكرنا صحة هذا السند ؛ وفي الدر : أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة مثله انظره (٦١٤/٢) ، وعند الترمذي بسند فيه ضعف عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ش «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً ، وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا لغدٍ ، فمسخوا قردة وخنازير » . انظر : سنن الترمذي كتاب التفسير باب (ومن سورة المائدة) (٢٦٠/٥) برقم [٣٠٦١] حيث قال : « هذا حديث غريب » ورواه أبو عاصم وغير واحد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن خلاس بن عمرو عن عمار موقوفاً ولا نعرفه مرفوعاً إلامن حديث الحسن بن قزعة ثم ذكر نحوه عن سعيد و لم يرفعه وقال «وهذا أصح من حديث الحسن بن قزعة ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً وكذا قال ابن كثير بعد ذكر حديث عمار : الموقوف أصح وهو الصواب انظر البداية والنهاية (٨٦/٢ - ٨٧) ، وانظر : ميزان الاعتدال في ترجمة خلاس بن عمرو (٦٥٨/١) .

(٣) قال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير عن الحافظ بن كثير (٢٦٣/٤) : إسناده صحيح ولكنه موقوف من كلام عبد الله بن عمرو بن العاص .

الاتهامات . وإليك بعضا من ذلك :

عيسى عليه السلام ومكائد اليهود ونهايته :

قال تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران:٥٢-٥٤] .

لقد ناصب اليهود عيسى – عليه السلام – العداء ؛ لأنه جاءهم بما لا تهوى أنفسهم من دعوة التوحيد وترك مالم يأمر به الله والرجوع إلى شرع الله الذي دعا إليه موسى – عليه السلام – والأنبياء من بعده .

فلما أدرك بعد كل دعوة لهم إدراكا قويا جري مجرى العيان بأن القوم يأتمرون به ليقتلوه مع إدراكه إيضا لكفرهم وعتوهم ومكابرتهم وأن أي وسيلة من وسائل اللين والدعوة الحسنة لن تجدي . أخذ يبحث عن أنصار ينصرونه في دعوته ويدفعون عنه كيد الكائدين ، فاستجاب له الحواريون ومكر به الكفرة اليهود بأن احتالوا لقتله خفية ، ولكن الله – عز وجل – مكر بهم وأخزاهم ورد كيدهم في نحورهم ورفع نبيه إليه وألقى شبهه على آخر فأخذوه وصلبوه وقتلوه .

قال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [آل عمران:٥٥-٥٧] .

ففي هذه الآيات الكريمات بيان واضح لما آل إليه أمر المسيح – عليه السلام – في الدنيا ، حيث وعده الله بوعود أربعة :

الوعد الأول : أن يتوفاه الله إليه فلا يقتل مصلوبا ولا غير مصلوب بعد أن يتم ما أمره الله به من دعوة بني إسرائيل .

الوعد الثاني : تطهيره من المشركين الكافرين ، من أن يلحقوا به أدنى أذى ، وقد

تحقق ذلك ؛ حيث لم يتمكنوا من الوصول إليه مطلقاً .

الوعد الثالث : أن يرفعه حياً من الأرض إلى السماء في موضع كريم .

الوعد الرابع : أن يجعل أتباعه المؤمنين برسالته فوق الذي كفروا إلى يوم القيامة .

وهذا صادق على أتباعه الحقيقيين الذين آمنوا به واتبعوا ما جاء به ، فلما ظهر محمدٌ ﷺ آمنوا به فجمع الله لهم الأجر مرتين كما صح ذلك عن الرسول ﷺ(١) .

وأما الذين بدلوا وغيروا وحرفوا في دين الله - عز وجل - فإن الموعد هو المرجع إلى الله - عز وجل - فيحكم بينهم بالعدل فيما كانوا فيه يختلفون .

وما يحصل من عقاب دنيوي هو نتيجة ابتعادهم عن الإيمان الحقيقي بدين محمد ﷺ الذي جمع الله به دين الأنبياء من قبله ؛ حيث يسلط الله عليهم القلق والخوف من المستقبل واليأس والحسد والقنوط من رحمة الله وغير ذلك من الأمور التي يُعَذّبُ بها الكافر والمشرك .

حتى إذا ما جاء يوم القيامة لقي كل جزاءه ، فالكافر والمشرك مآله جهنم وساءت مصيراً ! .

وأما من آمن بالله وعمل صالحاً فإن الله يوفيه أجره ويجزيه أحسن الجزاء ويضاعف له حسناته ويدخله جنته ودار كرامته .

وأما عن نهاية المسيح - عليه السلام - على الأرض فقد قال الله - تعالى - فيها ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨] .

تبين الآيات الكريمات أن اليهود قد أجمعوا أمرهم على التخلص من عيسى - عليه السلام - ويزعمون في كتبهم أنهم وشوا به إلى ملكهم الروماني متهمينه بمحاولة السطو على الملك وقلب نظام الحكم فهجموا عليه وعلى أتباعه وأخذوه من بينهم

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ [مريم:١٦] (٢/٤٩٠) برقم [٣٤٤٦] .

وصلبوه وقتلوه[1] فكذبهم الله بقوله ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء:١٥٧] وحفظ الله نبيه ورفعه إلى السماء ، ثم اختلفوا في أمره اختلافاً كثيراً لم يجزموا برأي حول حقيقة المصلوب ، أكان المسيح أو غيره ؟ فإذا كان المسيح فأين صاحبنا الذي دلنا عليه؟ وإذاكان صاحبنا فأين المسيح؟ وكفى بها عقوبة يتحيرون فيها إلى يوم القيامة وصدق الله إذ يقول ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ ﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨] إلى سمائه وكرامته ، وعيسى – عليه السلام – حيّ في السماء الثانية لما ثبت في الصحيح « **أن النبي ﷺ رأى عيسى – عليه السلام – في السماء الثانية ، وهو هناك حتى ينزله الله إلى الأرض ، ويقتل الدجال كما جاءت بذلك الأخبار** »[2] .

أخرج الشيخان عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ « **والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم عدلا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها** » ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٥٩] ، وعنه أيضا قال رسول الله ﷺ « **كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم** »[3] .

وقد أخبر الله تعالى أن كل نبي سيكون يوم القيامة شاهدا على أمته ، قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١] .

---

(١) انظر : (تفسير الكشاف) (٥٨٧/١) .

(٢) انظر : (تفسير ابن عطية) (٢٨٧/٤) .

(٣) صحيح البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب نزول عيسى ابن مريم (٤٩٠/٢، ٤٩١) برقم [٣٤٤٨ ، ٣٤٤٩]، ورواه مسلم – كتاب الإيمان – باب نزول عيسى بن مريم – (١٣٥/١ ، ١٣٧) برقم [١٥٥] .

المطلب الرابع: الدروس المستفادة من عقوبتهم.

أولاً : من نعم الله – تعالى – على الدعاة إلى الله – تعالى – أن يهيئ لهم أعواناً على الدعوة وذلك بأن يستجيبوا لدعوتهم ثم يعملوا بها معهم .

وانظر لحواري عيسى حين ألهمهم الله الاستجابة لدعوته والعمل معه لدينه قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١] وقوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [الصف:١٤] وعلى هذا فمن هدى الله إنساناً على يده فعليه أن يشكر الله على ذلك ، ثم ليحرص على أن يتعاهده بين كل حين وآخر لأمرين :

الأول : لئلا يرجع إلى ما كان عليه .

والثاني : يفقهه في الدين ليكون عوناً له فيما بعد على الدعوة وعلى نصرة دين الله . فإذا كثر الأنصار لدين الله فعلى الدعاة إلى الله – تعالى – أن يشكروا الله – تعالى – على هذا التآلف والترابط الإيماني والتعاون على نصرة دين الله والدعوة إليه ، بعد أن كان هؤلاء المستجيبون معارضين أو معرضين عنها ولكن الله هداهم إلى دعوته وألف بينهم فلولاه ماكان ذلك قال تعالى ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] [الأنفال:٦٣] .

ثانياً : قصة المائدة نعمة من النعم التي عددها الله وامتن بها على عيسى – عليه السلام – وقومه ، والذي عليه الجمهور من العلماء أنها نزلت كما بيّنا ذلك ، والعبرة المستفادة منها : أن الله – تعالى – استجاب لعبده عيسى – عليه السلام – دعاءه ، وهي آية بينة على قدرته تعالى ، وآية تدل على أن يستجيب دعاء عباده المخلصين . وتدل أيضاً على أن عيسى – عليه السلام – عبدالله ورسوله ، ولوكان إلهاً كما زعم النصارى لما كان بحاجة إلى أن يطلب شيئاً ، ثم إن إجابة الدعاء فيها دليل على أن الكل محتاج إلى الله – عز وجل – حتى عيسى – عليه السلام – ، وأن الله ليس محتاجاً إلى أحد ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [يونس:٦٨] وقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥][2] .

(١) انظر المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (١/٥٠٣-٥٠٤) .

(٢) وانظر : (التفسير المنير) (١١٧/٧) .

ثالثاً : مشروعية الدعاء ، وأن الإكثار منه والإلحاح فيه مع إخلاص النية من أسباب إجابته ، ومن هنا يُعْلَم أن استجابة الله – تعالى – لعبده ورسوله عيسى – عليه السلام – كانت رحمة وفضلاً ومنة من الله عليه وعلى قومه ، وإلاّ فإنه يلاحظ أن القوم ألحوا على عيسى في الطلب و لم يكن البادئ بالدعاء ومن ثم كانت المسؤلية واقعة عليهم . ثم إن الشق الآخر من الآية الكريمة ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:١١٥] يبيّن أبعاد هذه المسؤلية ويقرر أن من يكفر بعد نزول المائدة فإن الله – سبحانه وتعالى – سوف يعذبه عذاباً لا يعذبه أحداً من عالمي زمانهم[١] .

رابعاً : مشروعية الأعياد الدينية « لعبادة الله بالصلاة والذكر شكراً لله تعالى » ولا يوجد في الإسلام إلا عيدان : عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، وأن غيرهما من الأعياد المحدثة بدعة في الدين .

خامساً : تحريم تهنئة الكفار بأعيادهم كقول : عيدكم مبارك أو ليهنكم عيدكم ونحوه ، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات . فمن هنأ عبداً بمعصية أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه ، وقد كان أهل الورع من أهل العلم يتجنبون تهنئة الظلمة بالولايات ، وتهنئة الجهال بمنصب القضاء والتدريس والإفتاء ؛ تجنباً لمقت الله وسقوطهم من عينه . وإن ابتلي الرجل فتعاطاه دفعاً لشر يتوقعه منهم فمشى إليهم و لم يقل إلا خيراً ودعا لهم بالتوفيق والتسديد فلا بأس بذلك[٢] .

سادساً : كفران نعمة المائدة وجحودها (كآية) من قبل بني إسرئيل شيء آخر يضاف إلى رصيدهم من قبل ، وفي الإسلام نهى الله عباده أن يسألوا عن أشياء غيبية أو خفية أو ما لا فائدة فيه أو عن تكاليف سكت عنها الشرع لئلا يشدد عليهم فيها – أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال « **ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه** »[٣] .

---

(١) انظر : (تفسير الطبري) (٢٣٢/١١) ؛ وانظر : (تأملات في سورة المائدة) – حسن باجودة ، ط نادي مكة ص"٤٧٤" .

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم (٢٠٥/١ – ٢٠٦) لشمس الدين ابن عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية تحقيق الصالح .

(٣) رواه مسلم – كتاب الحج – باب فرض الحج مرة في العمر – (٩٧٥/٢) برقم [١٣٣٧] .

سابعاً : بيان جرائم اليهود وأنهم قالوا على مريم بهتاناً عظيماً ؛ حيث رموها بالفاحشة . لعنهم الله ! ثم ادعاؤهم قتل المسيح — عليه السلام — فكذبهم الله في ذلك كله فقال ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾(١) [النساء:١٥٦-١٥٧] .

ولذلك استحقوا غضب الله بتسليط أعدائهم عليهم بتقتيلهم وتشريدهم في الأرض(٢) ، فعلى المسلم أن يتنبه لمكائدهم فيما يبثونه في وسائل الإعلام من التعدي على مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ثامناً : بطلان عقيدة النصارى في أن عيسى - عليه السلام - صُلب وقتل ، أما اليهود فإنهم وإن لم يقتلوا عيسى - عليه السلام - فهم مؤاخذون على قصدهم ؛ حيث صلبوا وقتلوا من ظنّوه عيسى عليه السلام(٣) .

تاسعاً : الحقيقة التى ستمر لا محالة على كل يهودي ونصراني حين الموت ووقت رؤية الملك عندها يؤمن بأن عيسى عبد الله ورسوله ؛ ولكن لاينفعهم ذلك ؛ لأنه إيمان اليأس وقت الاحتضار .

روى البخاري عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ « ... **ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حُضر بُشّر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شئ أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه** »(٤) .

وسيفاجأ النصارى يوم القيامة بشهادة عيسى - عليه السلام - المتضمنة تكذيب من كذبه وتصديق من صدقه ، وبراءته من ادعاء النصارى أنه ابن الله أو أنه هو الله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً !!(٥) .

---

(١) انظر ما كتب عنهم عند الحديث عن عقوبات بني إسرائيل في سورة الإسراء .

(٢) أيسر التفاسير (٥٧٢/١) .

(٣) أيسر التفاسير (٥٧٢/١) .

(٤) رواه البخاري - كتاب الرقاق - باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (١٩٢/٤ ، ١٩٣) برقم[٦٥٠٧] .

(٥) انظر : (التفسير المنير) (٢٤/٦) .

المبحث الثاني

عقوبة صاحب الجنتين

المطلب الأول : الآيات التي تناولت ذلك :

قال تعالى ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف:٣٢-٤٤] .

لطائف الآيات :

أولاً : اختلف في القوم الذين ضرب لهم المثل ، والأقرب أنه مثل ضربه الله لجميع من آمن بالله وجميع من كفر(١) ، وأما الرجُلان فقد روي عن عطاء عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنهما من بني إسرائيل وهو الظاهر(٢) ؛ لما عُلم من سياق قصتهما في سورة الصآفات حين بين حالهما في الآخره(٣) .

---

(١) انظر : (تفسير القرطبي) (١٠/٣٩٩) .

(٢) انظر : (تفسير الماوردي) (٣/٣٠٥ ، ٣٠٦) ؛ تفسير زاد المسير (٥/٩٧) ؛ تفسير البيضاوي (٢/١١) ، وانظر : (التحرير والتنوير) (١٥/٣١٦) م٧ .

(٣) عند قوله تعالى ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الصافات:٥١] .

ثانياً : من سياق القصة قد يظنّ أن حال الرجلين المضروب بهما المثل حالاً مفروضاً ، والأظهر من سياق الكلام وصنع التراكيب مثل قوله ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ [الكهف:٣٧] إلخ فقد جاء (قال) غير مقترن بفاء وذلك من شأن حكاية المحاورات الواقعة فيكون هذا المثل قصة معلومة ؛ لأن ذلك أوقع في العبرة والموعظة مثل المواعظ بمصير الأمم الخالية[١] .

ثالثاً : ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾ [الكهف:٣٣] فهنا ترى أنه ثنّى الجنتين وبعدها بقليل قال ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ [الكهف:٣٥] فكيف أفرد بعد التثنية؟ .

والجواب : أنه أفردها ليدل على الحصر ، ومعناه : ودخل ما هو جنته لاجنّة له غيرها ولانصيب له في الجنّة التي وعد المتقون ؛ بل ملكه في الدنيا هو جنته لا غير ؛ ولم يقصد جنّة معينة فيهما ؛ بل جنس ما كان له[٢] .

رابعاً : في قوله تعالى ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف:٣٦] يرد سؤال هو : كيف ينكر البعث ويحكم أنه يعطى خيراً منهما ؟ .

والجواب : أن المعنى : ولئن رددت إلى ربي – على قولك[٣] – وقد أعطاني في الدنيا فهو يعطيني في الآخرة .

خامساً : في هذه السورة قال ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف:٣٦] . وفي سورة فصلت قال ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت:٥٠] لك أن تسأل : قوله في الآية الأولى (رددت) وفي الثانية (رجعت) وهل كان يجوز إحدى اللفظتين مكان الأخرى في الاختيار ؟

والجواب : أن في لفظ (الرد) من الكراهية للنفوس ما ليس في لفظ (الرجوع) ، فلما كان الأول الذي قال (ولئن رددت) يُنقل عن جنته على غير مايجب كان استعمال اللفظ الدال على الكراهة أولى .

أما الثاني الذي قال (ولئن رجعت) فإنه لم يتقدمها[٤] مثل ماتقدم في قوله (ولئن

---

(١) تفسير الرازي ص (٢٩٩) المسمى « أنموذج جليل » .

(٢) معاني القرآن الكريم للنحاس (٤/٢٤١) .

(٣) ومعنى على قولك : أي على سبيل الفرض والتقدير .

(٤) لأن ما قبلها قوله تعالى ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت:٤٩]

رددت) من الكراهة ليقع في كل سورة ما يليق بها[١] .

سادساً : في قوله تعالى ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٣٨] .

وهذا تعريض ، فإن أخاه مشرك وليس في كلام أخيه ما يقتضي الشرك بل الكفر وهو قوله ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ ؟ [الكهف:٣٦] .

والجواب : إشراك أخيه حين اعتقد أن جنته وزكاءها بحوله هو وقوته لا بقوة أحد غيره ، يدل على ذلك قوله أخيرا ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٢] فاعترف بالشرك[٢] .

سابعا : في قوله تعالى ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ يرد بحث وسؤال هو :

أن (**لكنا**) أصله (**لكن أنا**) فحذف الهمزة وألقيت حركتها على نون (**لكن**) فاجتمعت النونان وادغمت نون (**لكن**) في النون التي بعدها . فإن قيل : (**لكن**) استدراك لماذا ؟ قلنا لقوله (**أكفرت**) كأنه قال لأخيه أكفرت بالله لكني مؤمن موحد[٣] .

ثامنا : في قوله تعالى ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ ﴾ [الكهف:٣٩] ما فائدة أنا هنا ؟

والجواب : أن (أنا) في مثل هذا الموضع يفيد حصر الخبر في المخبر عنه ، ومنه قوله تعالى ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ [طه:١٢] وقوله ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ [طه:١٤] .

تاسعا : إن قيل : مامعنى قوله ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الكهف:٤٣] .

فالجواب : أن (دون) تستعمل في كلام العرب بمعنى (غير) وبمعنى (قبل) ، فأما ماجاء بمعنى غير مثل (لفلان مال دون هذا) ، من دون هذا أي : غير هذا ؛ ونظيره قوله تعالى ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ [المؤمنون:٦٣] أي : من غيره وهي هنا بمعنى (غير) .

وما أتى بمعنى قبل مثل (المدينة دون مكة) . أي : قبلها .

---

(١) انظر : (درة التنزيل) ص"٢٢٦ ، ٢٢٧" ، البرهان في متشابه القرآن .

(٢) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص (٣٠٠) .

(٣) التفسير الكبير (١٢٦/٢١) ، وانظر : (التحرير والتنوير) (٣٢٢/١٥ ، ٣٢٣) .

لا أقوم من مجلسي دون أن تجيء . ولا يوجد في القرآن بمعنى (قبل) إنما بمعنى (غير)[١] .

عاشراً : قوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف:٤٤] أي : يوم القيامة ، والولاية : (بكسر الواو) الملك والسلطان ، وبفتح الواو : التولي والنصرة ، وكل ذلك لله – تعالى – في الدنيا والآخرة ، فما فائدة تخصيص يوم القيامة ؟

والجواب : فائدته أن الدعاوَى المجازية مثل صفة (الملك والرحمة والرزق) وغيره كثيرة في الدنيا ويوم القيامة تنقطع كلها ويسْلَمُ الملك لله — تعالى – عن كل منازع[٢] .

الحادي عشر : في قوله تعالى ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف:٤٤] يرد سؤال هو :

أي عاقبة هي ؟ وغير الله لا يثيب ليكون الله — تعالى – خيراً منه ثواباً ؟

والجواب : هذا على الفرض والتقدير ؛ معناه : لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل ، ولكانت طاعته أحمد عاقبة وخيراً من طاعة غيره[٣] .

---

(١) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص"٣٠٠ ، ٣٠١" .

(٢) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص"٣٠١" .

(٣) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٣٠١ ، ٣٠٢" .

المطلب الثاني : سبب العقوبة :

الشرك بالله والكبر واحتقار الفقراء وإنكار البعث والجزاء قال تعالى ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الكهف:٣٢-٤١] .

هذا مثل ضربه الله للمشركين وأمثالهم من المستكبرين الذين أرادوا من النبي ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، وهو للمؤمنين عبرة .

وهذان الرجلان أحدهما مؤمن معتز بإيمانه صادق في نصح إخوانه وأقرانه ، والثاني كافر مغرور بدنياه آتاه الله خيراً كثيراً كان منه جنتان محفوفتان بنخل تتوسطهما الزروع ، ويتفجر بينهما نهر ..إنه منظر بهيج ، ترتاح لرؤيته النفوس .

﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ ﴾ [الكهف:٣٣] ولكن الرجل هو الذى ظلم نفسه فبطر ولم يشكر ، وازدهى وتكبر - فقال يوماً لصاحبه وهو يحاوره شأن كل غني مغرور مع مؤمن فقير ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف:٣٤] ثم دخل جنته وهو ظالم لنفسه معجبٌ بما أوتي مفتخرٌ به كافر بالنعمة ، ظانٌ أن هذه الجنة المثمرة لن تبيد أبداً منكرٌ قيام الساعة أصلاً مقسمٌ بأنه لو رجع إلى ربه على سبيل الفرض أو كما يزعم هذا الذى ينصحه فإنه سيجد الرعاية والعناية ، فصاحب الجنان في الدنيا كما يظن هو صاحبها في الآخرة - ولربما زلت من بعض

الجهلة كلمة فقالوا كما قال صاحب الجنتين أو كما قال قارون ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص:٧٨] أو قال غيره ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت:٥٠] أو كما قال غيره ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم:٧٧] هذه حالة المغرورين المعجبين بما هم عليه من زخرف الدنيا ، وما علموا أن الدنيا لاتساوي عند الله جناح بعوضة ، وإلاّ لما سقى منها كافراً جرعة ماء[1] .

فما كان من المؤمن الفقير (صاحبه) إلا أن ذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، محذراً ومنذراً له عاقبة بطره وتكبره فما عند الله خير منها وأبقى ، وخير من أعراض الدنيا وزخارف الحياة وحيوية المال والمتاع ؛ فمن كان طامعاً فيما عند الله فليكن طائعاً قبل أن تحل نقمته بعد نعمته وعذابه بعد رحمته .

فما كان منه إلا أن عصى وتجبر وأدبر واستكبر فدعا عليه صاحبه بقوله ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الكهف:٤٠-٤١] لكونها أطغته وغرته واطمأن إليها فلعله يراجع رشده ويتبصر في أمره .

(١) انظر : (تفسير ابن كثير) (٤/١١٢ ، ١١٣) .

المطلب الثالث : نوع العقوبة :

قال تعالى ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف:٤٢-٤٤] .

وحدث ما توقعه الرجل المؤمن ؛ حيث تحقق ما كان يرجوه أحيط بثمره كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء ، إنه مشهد مؤثر ؛ الجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة لا تكاد ترى منها شيئا يصلح .

يراها صاحبها فيتملكه الفزع والتحسر ، يقلب كفيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب بين عشية وضحاها ، الغني أصبح فقيراً ، القوي أصبح عاجزاً عن دفع ما حصل ، إنه نادم على إشراكه بالله يقول ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ وذلك أنه تذكر موعظة صاحبه المؤمن فعلم أن هلاك ثمر بستانه سببه شركه وكفره بربه ، ويتمنى الآن أنه لم يشرك بالله حتى تسلم له جنته ؛ ولكن فات وقت التمنى ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الكهف:٤٣] إذ هو القادر وحده على دفع العذاب ، الذى لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شئ منه لم يقدروا .

ولا يُستبعَد من رحمة الله ولطفه أن صاحب هذه الجنة تحسنت حاله ورزقه الله الإنابة بدليل أنه أظهر الندم ، وذهب عنه ما يطغيه وعاقبه الله في دنياه ، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا ، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول ولاينكره إلا ظالم جهول[١] .

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف:٤٤] لمن كان مؤمناً به تقياً كان له ولياً يكرمه بأنواع الكرامات ويدفع عنه الشرور والمثلات ، ومن لم يؤمن بربه فقد خسر دينه ودنياه ، وأغضب مولاه ، فيا لسوء عاقبته في أخراه![٢] .

---

(١) انظر : (تيسير الكريم الرحمن) (١٦٠/٣) .

(٢) انظر : نفس المرجع (١٦٠/٣ ، ١٦١) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها :

أولاً : قصة الرجلين ضربت مثلاً مع حقيقة وقوعها للوصول بمعانيها الخفية إلى الأذهان .

وذلك أن قصتهما تُضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله ، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من النّاس ، فصاحب الجنتين نموذج للرجل الثري تذهله الثروة وتبطره النعمة فينسى المالك الحقيقى لها وهو الله ، فيحسب أنها لا تفنى وإن رجع إلى الله كما هو غير متوقع عنده فسيجد أفضل مما هو فيه لأنه الأولى .

وأما صاحبه المعتز بإيمانه فهو النموذج الآخر الذاكرُ لربه يرى النعمة دليلٌ على المنعم موجبة للحمد والثناء لمسديها لا لكفرانه وجحوده[1] .

ومن هنا نأخذ أنه لا دلالة على أن كثرة مال الإنسان أو قلته دليلاً على إكرامه أو إهانته ؛ لأن الله يعطي المال الكثير للمؤمن والكافر ، وكل ذلك إنما هو للابتلاء والاختبار ، ثم إنه لا دلالة في هذا العطاء سواءً كان كثيراً أو قليلاً على الإهانه أو الإكرام[2] ، إنما ليظهر مدى شكر العبد في حال غناه ومدى صبره في حال فقره ، وهذا ما لم يفقهه صاحب الجنتين . فعلى الدعاة إلى الله — تعالى — الاستشهاد بمثل هذا القصص على تقريب المثل المعقول بالمحسوس وخاصة في مثل هذه الأيام التى طغت فيه المادة وكثر الأغنياء وبخلوا في إخراج زكاة أموالهم ووضعوه في غير محله إلا من رحم الله .

ثانياً : نعمة الإيمان والتقوى لا تقدر بثمن ، فمن أوتيها لايتأثر بفقر ولاغنى ؛ لأنه يملك ماهو أعز وأفضل من المال والأولاد ، ولهذا لا يتزعزع إيمان المؤمن إذا افتقر هو واغتنى الكافر ؛ فمتاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ، ولأن الغنى والفقر مما يمتحن الله به عباده ، ولا يجوز للعبد أن يعترض على الاختبار الذى يبتلي الله به عباده ؛ فعلى الدعاة إلى الله – تعالى – غرس مثل هذه الأمور في نفوس مدعويهم ؛ لئلا يظن أحدٌ أن المال هو السعادة كلها وهو الحياة ، فكم من غني افتقر ، وكم من فقير اغتنى .

قال تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ

---

(١) انظر : (في ظلال القرآن) (٣/٢٢٧٠) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٥٤٤) ؛ وانظر : (تفسير القرطبى) (١٤/٣٠٥) .

ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦] .

على هذا فإن الاعتبار بحال من أنعم الله عليهم نعما دنيوية فألهتهم عن آخرتهم وأطغتهم وعصوا الله كان مآلها الانقطاع والحرمان منها ، وأن من تمتع بها قليلا فإنه يحرمها طويلا[١] .

رابعا : على المؤمن ألا يستكين أمام عزة الغني الكافر ، وعليه نصحه وإرشاده إلى الإيمان بالله ، والإقرار بوحدانيته ، وشكر نعمه وأفضاله عليه[٢] حتى وإن تعرض للأذى ؛ لأن المؤمن الداعية همه هداية الناس مهما كانت مناصبهم ووجاهتهم .

خامسا : في قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف:٣٩] قال القرطبي[٣] « قال مالك : ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا » . وقال ابن وهب [٤] :قال لي حفص بن ميسرة[٥] : رأيت على باب وهب بن منبه مكتوبا ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف:٣٩] وروى عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة : « **ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ، أو قال : كنز من كنوز الجنة ؟** » قلت : بلى ، قال : « **لاحول ولا قوة إلا بالله ، إذا قالها العبد قال الله – عز وجل – : أسلم عبدى واستسلم** »[٦] . أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي

---

(١) انظر : (تيسير الكريم الرحمن) (١٦١/٣) .

(٢) التفسير المنير (٢٥٧/١٥) .

(٣) تفسير القرطبي (٤٠٦/١٠) .

(٤) ابن وهب هو : عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم ، أبو محمد المصري الفقيه ، ثقة حافظ عابد ، قال عنه الأمام أحمد : ما أصح حديثه وأثبته ، مات سنة سبع وتسعين (٩٧) – انظر : الجرح والتعديل (١٨٩/٥ ، ١٩٠) ؛ التقريب ص"٣٢٨" .

(٥) حفص بن ميسرة العقيلي أبو عمر الصنعاني ، نزيل عسقلان ، وثقه ابن أبي حاتم ، وقال عنه في التقريب : ثقة ربما وهم ، قال عنه الإمام أحمد : ليس به بأس ثقة ، مات سنة إحدى وثمانين(٨١). انظر : (الجرح والتعديل) لابن أبي حاتم (١٨٧/٣) ؛ التقريب ص"١٧٤" .

(٦) تفسير القرطبي (٤٠٦/١٠) ، والحديث رواه أحمد (٣٣٣/٢) برقم [٨٣٨٧] ، ورواه الترمذي – كتاب الدعوات – باب فضل لا حول ولا قوة إلا بالله – (٥٨٠/٥) برقم [٣٦٠١] قال أبو عيسى : ليس إسناده بمتصل ؛ لأن مكحولا لم يسمع من أبي هريرة – له شواهد من حديث سعد بن عبادة برقم [٣٥٨١] ومن حديث أبي موسى الأشعري برقم [٣٤٦١] . وصححه الألباني لكثرة شواهده في الصحيحة برقم [١٥٢٨] .

موسى وفيه فقال : « **يا أبا موسى ، أو يا عبد الله بن قيس ، ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة** – في رواية – **على كنز من كنوز الجنة ؟** » قلت : ماهي يا رسول الله ، قال : « **لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم** »[١] .

ومما يدفع الإصابة بالعين قول : ماشاء الله لا قوة إلا بالله كما في الآية ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف:٣٩] .

روى هشام بن عروة[٢] عن أبيه[٣] أنه كان إذا رأى شيئاً يعجبه ، أو دخل حائطاً من حيطانه ، قال : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله[٤] .

سادساً : مشروعية الدعاء على الكفار إذا دُعوا فلم يستجيبوا كما في قوله ﴿ فَعَسَىٰ[٥] رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا[٦] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا...﴾ [الكهف:٤٠] الآيات .

سابعاً : على الدعاة إلى الله – تعالى – تبصير الناس بعاقبة من جعل ماله وثروته وسيلة إلى احتقار المؤمنين الفقراء ، ووسيلة لمحاربة الله ورسوله بالربا ، ووسيلة إلى إعانة الكفار بها بتخزينها في مصارفهم ومؤسساتهم (وبنوكهم) أو أي وسيلة أخرى لا ترضي الله – تعالى – أن عاقبتها الخسران إما في الدنيا بتلفها أو في الآخرة بالحساب عليها ، وإذا نزل البلاء فإنه لا مفر منه ولن تستطيع قوة في الأرض على دفعه أو رفعه ألا ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣] .

---

(١) رواه البخاري – كتاب الدعوات – باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله – (١٧٤/٤) برقم [٦٤٠٩] ، ورواه مسلم – كتاب الذكر والدعاء – (٢٠٧٦/٤) برقم [٢٧٠٤] .

(٢) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام ، ثقة إمام في الحديث ، روى له الأئمة (الثوري ومالك وشعبة ..) وغيرهم ، مات سنة خمس أو ست وأربعين ، انظر : (الجرح والتعديل) (٦٣/٩-٦٤) .

(٣) الزبير بن العوام : الصحابي الجليل المعروف .

(٤) زاد المعاد (١٧٠/٤) .

(٥) عسى للرجاء وهو : طلب الأمر القريب الحصول ، وأراد به هنا الدعاء لنفسه وعلى صاحبه الكافر المشرك . انظر : (التحرير والتنوير) (٣٢٤/١٥) .

(٦) حسبانا : أي : عذاباً من السماء – ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أي : أرضاً ملساء لا يثبت فيها قدم . انظر : تفسير ابن جرير (٢٥/١٨) ؛ تفسير ابن كثير (٨٩/٣) .

ثامناً : الدنيا جنة للكافر يتمتع فيها بما شاء من ملذات وشهوات ويجمع المال لذلك من حله وحرمته ليقضي وطره ظاناً أن الحياة الدنيا هي المتعة ، فإذا مات انقطعت متعته كما قال الله عنهم ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾ [الجاثية:٢٤] ، وفي الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ « **الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر** »[١] .

قال الثوري في شرحه « معناه : أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة ، فكُلف فعل الطاعات الشاقة[٢] ، فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعدّ الله – تعالى – له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان ، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات ، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد »[٣] .

تاسعاً : يستفاد من ذكر الصاحب في القصة جواز صحبة المؤمن للكافر ولكن يشترط أن لا يتأثر المؤمن بهذه الصحبة ، وأن يبقى ثابتاً على إيمانه ، وأن ينكر على صاحبه الكافر إذا نطق أو عمل ما يستوجب الإنكار ، وأن يكون قصده العمل على إصلاحه وهدايته قدر طاقته ، أما إذا كان المؤمن لا يقوى على صحبة الكافر وخاف على إيمانه بسبب هذه الصحبة وبسبب ما يراه من مغريات وفتن ؛ فإنه لايجوز له أن يستمر في صحبته . فعلى الدعاة أن يلاحظوا ذلك جيّداً لتكون صحبتهم في الأصل للمؤمنين ؛ حيث يُتقوى بهم ويُطمأن إليهم ، أما الكفار فلا يصاحبون إلا بمقدار ماذكرنا من حب هدايتهم وإنكاره عليهم إذا صدر منهم ما يدعو إلى ذلك[٤] .

---

(١) رواه مسلم – كتاب الزهد والرقائق – (٢٢٧٢/٤) – برقم [٢٩٥٦] .

(٢) الشاقة : ليست من باب تكليف مالا يطاق – وإنما من باب حديث «... وإسباغ الوضوء على المكاره» ومن باب حفت الجنة بالمكاره : ومعناه لا يوصل إلى الجنّة إلا بارتكاب المكاره – مسلم (٢١٧٤/٤) .

(٣) شرح النووي على مسلم (٩٣/١٨) .

(٤) انظر : (المستفاد من قصص القرآن) (٦١٠/١) .

المبحث الثالث

عقوبة أصحاب الجنة

المطلب الأول : الآيات التي تناولت عقوبتهم :

قال تعالى ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [القلم:١٧-٣٣] .

لطائف الآيات :

أولا : المال والبنون نعمة عظيمة امتن الله بها على عباده ، فمن أعطيها وجب عليه شكرها وصرفها فيما يرضي الله - عز وجل - فإن لم يفعل فإن الله يقطع عنه تلك النعم ، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات إما عاجلا أو آجلا ، والآية الأولى ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [القلم:١٧] مستأنفة استئنافا ابتدائيا دعت مناسبة قوله قبلها ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [القلم:١٤-١٥] وفي الآية ضرب الله للمشركين مثلا بحال أصحاب هذه الجنة لعلهم ينتبهون من غفلتهم وغرورهم . كما ضرب المثل بما ذكرناه سابقا في سورة الكهف ، وضرب مثلا بقارون في سورة القصص[1] .

ثانيا : في قوله تعالى ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [القلم:١٨] أي : ولا يقولون إن شاء الله ، فسمى الشرط استثناء فكيف ؟

---

(١) التحرير والتنوير (٧٩/٢٩) .

والجواب : إنما سماه استثناءً لأنه في معناه[1] .

والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار حالتهم العجيبة من بخلهم على الفقراء والأيتام[2] .

وقال عكرمة : المراد به حقيقة الاستثناء أي : أنهم لايستثنون حق المساكين ، والجمهور على الأول[3] .

ثالثاً : في قوله تعالى ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [القلم:١٩] أن الطائف لا يكون إلا بالليل ، يدل عليه قوله بعده وهم نائمون وهو تأكيد لوقت الطائف ، وفائدته : تصوير الحالة .

ثم إنه أسند فعل (طاف) إلى (طائف) ليكون بمنزلة إسناد الفعل المبني للمجهول كأنه قيل : فَطِيفَ عليها وهم نائمون[4] .

رابعاً : في قوله تعالى ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ [القلم:٢٥] إن كلمة (حرد) تطلق على عدة معان :

١ - تطلق على المنع .

٢ - تطلق على السرعة .

٣ - تطلق على الغضب .

وفي إيثار كلمة (حرد) على غيرها نكتة من نكت الإعجاز وهو : أن كلمة (حرد) يكون لها معنى (المنع) إذا تعلقت بـ قادرين ، فيكون المعنى أي : قادرين على المنع ، أي : منع الخير أو منع ثمر جنتهم .

ويكون معناها (السرعة) إذا تعلقت بـ (غدوا) مبيناً لنوع الغدو ، أي : غَدَوْا غدوَّ سرعة واعتناء ، فتكون (على) بمعنى المصاحبة والمعنى : غدوا بسرعة ونشاط .

ويكون معناها (الغضب) والحنق إذا قيل (حَرَدَ) بالتحريك وحَرْد بسكون الراء . إذا تعلقت بالمجرور بـ (قادرين) وتقديمه للحصر .

---

(١) تفسير الرازى أنموذج جليل ص"٥٢٣" .

(٢) التحرير والتنوير (٨١/٢٩) .

(٣) تفسير الرازى (أنموذج جليل) ص"٥٢٣" .

(٤) التحرير والتنوير (٨١/٢٩) .

فيكون المعنى : غدوا لا قدرة لهم إلا على الحنق والغضب على المساكين ؛ لأنهم يقتحمون عليهم جنتهم كل يوم فتحيلوا عليهم بالتبكير إلى جذاذها ، أي : لم يقدروا إلا على الغضب والحنق و لم يقدروا على ما أرادوا من اجتناء ثمر الجنة[1] .

خامساً : في قوله تعالى ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم:٢٨] أي : لولا تستثنون ، فكيف سمى أوسطهم الاستثناء تسبيحاً ؟

والجواب : إنما سماه تسبيحا لاشتراكهما في معنى التعظيم . هذا **أولاً** .

ثانياً : أن استثناءهم هو قول سبحان الله .

ثالثاً : أن معناه : لو تنزهون أنفسكم وأموالكم عن حق الفقراء[2] .

و (أوسطهم) أفضلهم وأقربهم إلى الخير ، والوسط يطلق على الأخير الأفضل لقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] .

سادساً : إن في قوله لهم ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ... ﴾ [القلم:٢٨] إشارة إلى أنه وعظهم فعصوه وأجبروه على أن يقسم معهم على صرمها مصبحين ، والدليل أنهم سبحوا وندموا على الأخذ بنصيحته فقالوا ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [القلم:٢٩] فيكون التسبيح على ظاهره[3] .

---

(١) انظر : (التحرير والتنوير) (٨٤/٢٩ : ٨٥) .

(٢) تفسير الرازى أنموذج جليل ص"٥٢٣" .

(٣) فيكون المعنى الثاني أقوى المعاني الثلاث السابق ذكرها عاليه .

المطلب الثاني : سبب العقوبة :

العزم على حرمان المساكين حقهم .

القصة باختصار :

اعتاد المساكين أيام والد أصحاب الجنة أن يكون لهم حظ في ثمرها حين حصادها ، وها هو قد مات وقد ضاق الورثة ذرعا بهؤلاء المساكين وآن الأوان في وضع حد يقطع مجيئهم . فأقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون شيئا للمساكين ، ولا يقولون : إن شاء الله ، فنصحهم ناصح منهم فأبوا النصيحة ، فنزل على إرادتهم مكرها وعقدوا العزم على تبييت نيتهم السيئة ليصرمنها بدون علم المساكين ، وظنوا أنهم قادرون على منعهم ، وناموا ولكن الله لا ينام يدبر غير ما يدبرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ، أنها دمرت بعذاب ليلي ذهب بكل ثمرها فأصبحت كالليل الأسود لاحتراقها ، فلما أصبحوا نادى بعضهم بعضا ﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ [القلم:٢٢] فانطلقوا يوصي بعضهم بعضا ويهمس بعضهم بعضا يتحدثون ؛ ولكن في خفية ليجتاحوا الثمر كله ، ويأتي المساكين فلا يجدون شيئا ، ويمضون في سرعة ويصلون ولكن كانت المفاجأة رأوها ولكن ياليتهم ما رأوها ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ [القلم:٢٦] الطريق ، ما هذه جنتنا! الطريق هي الطريق ولكن الجنة ليست هي! ويعودون فيوقنون أنهم محرومون من ثمارها ومن أجرها ، هنا يعود الناصح الأول ويقول لهم ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم:٢٨] هنا تستيقظ فطرتهم فيقولون بعد فوات الأوان ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [القلم:٢٩] لسوء نيتنا وتدبيرنا لكن من الذى بدأ وأشار بهذا القول ومن سمع له وأصغى ؟ إنهم هم جميعا ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴾ [القلم:٣٠] ثم يرجعون إلى صوابهم فيعترفون بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ [القلم:٣١] لكن عسى الله أن يغفر لنا ويعوضنا ما هو خير منها ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ [القلم:٣٢] متجهون إليه بقلوبنا عاقدون العزم على ذلك بصلاح نياتنا ، وها نحن نطلب منه الخير ونرجو منه العفو عما فرط منا والتعويض عما فاتنا[1] .

---

(١) عند القرطبى : ذكر أن ابن مسعود قال : « إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم ⇦

المطلب الثالث : نوع العقوبة :

قال تعالى ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القلم:١٩-٢٠] أي : عذاب نزل عليها ليلاً ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ فأبادها وأتلفها ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي : كالليل المظلم(١) مسودة محترقة قد ذهبت أشجارها وثمارها ، فلما رأوها علموا أن ذلك أصابهم دون غيرهم لعزمهم على قطع ما كان ينتفع به الضعفاء من قومهم عندها أظهروا ندمهم(٢) .

= جنة يقال لها : « الحيوان » ، قال أبو خالد اليماني : « دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم – انظر : (القرطبي) (١٨/٢٤٥) ؛ والنسفي (٤/٢٨٢) ؛ انظر : (اللباب في علوم الكتاب) لأبي حفص (عمر بن علي الدمشقي الحنبلي) (١٩/٢٩٣) توزيع مكتبة عباس أحمد الباز – دار الكتب العلمية ، الألوسي : (٢٩/٣٣) والتحرير والتنوير (٢٩/٨٩) .

(١) كما روى ذلك عن ابن عباس وقتادة – ذكره السيوطي في الدر (٦/٣٩٥) وقال : أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس . انظر : تفسير ابن جرير (٢٣/٥٤٤) .

(٢) انظر : (التحرير والتنوير) (٢٩/٨٠) .

المطلب الرابع : الدروس المستفاده من ذلك :

أولاً : في القصة أدب رفيع سام وهو : أن من كان له من الزرع أو الثمر ما يجد ينبغي أن لا يجذه ليلاً حتى لا يحرم الفقراء من الأكل منه ، وعليه أن يواسي من حضر الجذاذ والقطع شيئاً يسيراً من ذلك كما ذكر الله تعالى ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ...﴾ إلى قوله ﴿ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾[1] [النساء:٨] .

ثانياً : المعاصي سبب لعقاب الله الدنيوي .

لأن من سنة الله أن المعاصي من أسباب حلول المصائب والنكبات التي يمكن اعتبارها من أنواع العقاب في الدنيا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب قال تعالى ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[2] [الشورى:٣٠] .

قال ابن كثير : « أي : مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما عن سيئات تقدمت لكم ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠] أي : من السيئات ، فلا يجازيكم عليها ؛ بل يعفو عنها »[3] فلا يعاقبكم عليها عاجلاً ، قيل : وآجلاً .

ألا فليحذر الداعون إلى الله — تعالى – من ارتكاب المعاصي حتى يكون لدعوتهم نورٌ في قلوب مدعويهم ، وإذا أذنبوا فعليهم الإسراع بالتوبة والاستغفار .

ثالثاً : في قوله تعالى : ﴿...إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [القلم:١٧-١٨] دليل على أن العزم الأكيد يؤاخذ به الإنسان ؛ لأنهم عزموا على أن يحرموا الفقراء نصيبهم فعاقبهم الله على فعلهم .

وبذلك يتبين أن الإنسان إذا عزم على فعل الشر أو على منع الغير حقه أو نحو ذلك من المعاصي القلبية فإنه يؤاخذ عليها .

ويؤيد ذلك ما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ قال : « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار** » قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : « **إنه كان حريصاً على قتل صاحبه** »[4] ومعناه هنا : العزم على قتل صاحبه .

---

(١) وانظر الكلام في ذلك في القرطبي (١٨/٢٣٩) .

(٢) رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ص"٣١" .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/١٢٥) .

(٤) رواه البخاري – كتاب الديات – باب قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ [المائدة:٣٢] – ⇦

وعند الترمذي وصححه مرفوعا « **إنما الدنيا لأربعة نفر : رجل أعطاه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو نيته فأجرهما سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل به رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل ، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو نيته فوزرهما سواء** »[١] ...

قال القرطبى[٢] :

« ولا يلتفت إلى خلاف من زعم أن ما يهم الإنسان به وإن وطن عليه لا يؤاخذ به ، ولا حجة له في قوله عليه السلام « **من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة** »[٣] لأن معنى (فلم يعملها) فلم يعزم على عملها بدليل حديث البخارى (إذا التقى) وحديث الترمزي (إنما الدنيا ..) ».

رابعا : يستدل بهذه القصة على أن من تعمد نقص النصاب قبل الحول للفرار من الزكاة أو خالط غيره أو فارقه قبل الخلطة أوفرق ماله فإن ذلك لا يسقط الزكاة عنه ، ووجه ذلك : أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم[٤] .

خامسا : مشروعية الاستثناء في اليمين وأنه تسبيح لله - تعالى - وأن تركه يوقع في الإثم ؛ ولذا إذا حنث الحالف و لم يستثن وقع في الإثم الذى لا يمحى إلا بالكفارة الشرعية التي حددها الشارع[٥] .

سادسا : صلاح الآباء ينفع الأبناء ؛ ولذا انتفع أصحاب الجنة بصلاح أبيهم الذى

= (٢٦٧/٤) برقم [٦٨٧٥] ، ورواه أيضا في كتاب الفتن - باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما - (٢٢١٣/٤) برقم [٢٨٨٨] .

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . كتاب الزهد - باب (١٧) ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٥٦٢/٣ ، ٥٦٣) برقم [٢٣٢٥] .

(٢) تفسير القرطبي (٢١٥/٤) .

(٣) جزء من حديث رواه البخاري - كتاب الرقاق - باب من هم بحسنة أو بسيئة (١٨٩/٤) برقم[٦٤٩١] ، ورواه مسلم - كتاب الإيمان - باب إذا هم العبد بحسنة وإذا هم بسيئة لم تكتب (١١٧/١) برقم [١٢٨] .

(٤) تفسير القاسمي (٢٦١/١٦) ؛ التحرير و التنوير (٨٩/١٤) .

(٥) وهى أي الكفارة : إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ؛ فإن لم يقدر على واحدة منها صام ثلاثة أيام ـ انظر : أيسر التفاسير (٤١٣/٥) .

كان يتصدق على المساكين ، وعلامة ذلك انتفاعهم بالتوبة[1] ، فمن أراد صلاح ذريته من بعده فما عليه إلا أن يتقى الله — تعالى — ويخشاه ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء:٩] .

وقوله تعالى في قصة الغلامين اليتيمين الذين بنى الخضر – عليه السلام – جدارهما قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف:٨٢] الآية ، فما أجمل أن يكون العبد صالحاً فيحفظه الله في نفسه ، وفي ذريته من بعده! .

سابعاً : الثبات على الحق منّة وتوفيقٌ من الله يثبت بها أولياءه قال تعالى ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧] فإذا علم ذلك وجب على أهل الحق الثبات عليه وإن كثر المخالفون والمبطلون والمرجفون ، وعليه أن يدافع عن مبدئه بكل ما أوتي من وسيلة مع بيان الحق بالأدلة الدامغة من كتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح ، ولا يسكت حتى لا يظن أنه موافق لهم فإن رجعوا للحق فالحمد لله وإن استنكفوا عنه فإن عليه أن يعتزلهم .

استفدنا ذلك من نصح أوسطهم لهم حين قال ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم:٢٨] الدال على أنه نصحهم لكنهم غلبوه فخرج معهم مكرهاً .

وعلى الدعاة إلى الله – تعالى – توحيد كلمتهم ومعتقدهم المبني على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة السلف الصالح والابتعاد عن التفرق والتحاسد والجدال بالباطل ، فإن اختلفوا في شيء ردوه إلى الله والرسول وإلى أولي الأمر منهم من علماء ومصلحين – قال تعالى ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩] وقال تعالى ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ الآية [النساء:٨٣] .

(١) نفس المصدر (٥/٤١٣) .

المبحث الرابع

عقوبة أصحاب الأخدود

المطلب الأول : الآيات التي تناولت ذلك :

قال تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ ﴾ [البروج:١-١٠] .

لطائف الآيات :

أولاً : على قول من قال : إن جواب القسم ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ فيكون المعنى : أقسم الله – تعالى – بالسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود[١] .

ثانياً : السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان[٢] ، وإشعار المسلمين أن قوة الله عظيمة وسيلقى المشركون جزاء صنيعهم .

ثالثاً : في قوله تعالى ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ [البروج:٧] جملة في موضع الحال من الضمير ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ [البروج:٦] كأنه قيل : قعود شاهدون على فعلهم بالمؤمنين ، وفائدة هذه الحال تفظيع ذلك القعود وتعظيم جرمه ؛ إذ كانوا يشاهدون تعذيب المؤمنين دون رحمة بهم[٣] .

رابعاً : في قوله تعالى ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ ﴾ [البروج:٨-٩]

(١) انظر : (تفسير الكشاف) (٧٢٩/٤) ؛ التفسير الكبير (١١٦/٣١) .
(٢) تفسير الكشاف (٧٣٠/٤) ؛ انظر : (التحرير و التنوير) (٢٣٦/٣٠) .
(٣) انظر : (التحرير و التنوير) (٢٤٣/٣٠) .

إجراء الصفات الثلاث (العزيز ، الحميد ، الذى لـه ملـك السـماوات والأرض) علـى اسم الجلالة لزيادة تقرير أن ما نقموه منهم ليس من شأنه أن ينقم ؛ بل هو حقيـق بـأن يمدحوا به ؛ لأنهم آمنوا برب يحب الإيمان به ونبذ ما عداه ؛ لأنه ينصر مواليـه ويثيبـهم ولأنه يملكهم ، وما عداه ضعيف العزة لايضر ولا ينفع ولا يملك منهم شيئا[1] .

خامساً : آيـة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البروج:١٠] ليسـت خاصـة بأصحـاب الأخدود ولا بكفار قريش ، وإنما هـى عامـة في كـل مـن يفـتن المؤمنـين والمؤمنـات في دينهم إلا من تاب قبل موته .

(١) انظر : (التحرير والتنوير) (٢٤٤/٣٠) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة :

فتنتهم للمؤمنين وتعذيبهم .

قال الله تعالى ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ ﴾ [البروج:٤-٩] .

هذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأضرموا فيها النيران وأعدوا لها كل ما يستطيعون من وقود ثم جاءوا بالمؤمنين وفتنوهم ؛ فمن لم يرجع عن دينه قذفوه فيها لقساوة قلوبهم ، وغلظ أكبادهم .

﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ﴾ [البروج:٧-٨] ذنبهم أنهم قالوا : ربنا الله القادر على ما يريد ، الحميد المستحق للحمد ، الذى من لاذ بجانبه عز وإن كان قد قدّر على عباده هذا الذى وقع بهم ، فهو العزيز الذى لا يقهر ، الحميد في جميع أقواله وأفعاله ، وقدرة المالك لجميع ما في السموات والأرض وما بينهما ، لا يخفى عليه شيء من أمر عباده ، الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود ينتقم منه عاجلاً أو آجلاً [١] .

هذا ، وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم ؟

والروايات كلها تقتضي أن المفتونين بالأخدود قوم اتبعوا النصرانية في بلاد اليمن على أكثر الروايات ، أو في بلاد الحبشة على بعض الروايات ، وذكرت فيها روايات متقاربة تختلف بالإجمال والتفصيل ، والترتيب والزيادة والتعيين ، وأصحها ما رواه مسلم والترمذي عن صهيب « **أن النبي ﷺ قص هذه القصة على أصحابه** »[٢] .

---

(١) انظر : (تفسير ابن كثير) (٥٢٦/٤) .

(٢) التحرير و التنوير (٢٤١/٣٠) ، ذكرها الترمذي في تفسير سورة البروج (٤٣٧/٥) كتاب التفسير - باب ومن سورة البروج برقم [٣٣٤٠] . ولولا خشية الإطالة لذكرت جميع الروايات ؛ ولكن نكتفي بما رود في الصحيح .

روى مسلم عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال « **كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلى ، وإذا خشيت أهلك ، فقل : حبسني الساحر ، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم ! الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أي بني ، أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما ها هنالك أجمع إن أنت شفيتني . فقال : إني لا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال : ربي . قال : ولك رب غيري ؟ قال : ربي ربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجيء بالغلام فقال له الملك : أي بني ، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل . فقال : إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجئ بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقة حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل . فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا**

فاقذفوه ، فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله : فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : باسم الله ربّ الغلام ، ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع النّاس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في موضع السهم فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأتي الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت ، وأضرم النيران . وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام يا أمه ، اصبري فإنك على الحق »[1] .

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الزهد ـ باب قصة أصحاب الأخدود و الساحر و الراهب و الغلام (٢٢٩٩/٤) برقم [٣٠٠٥] .

المطلب الثالث : نوع العقوبة[1] :

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج:١٠] .

أي : نالوا بالأذى وحرقوهم بالنار لثباتهم على إيمانهم ورفضهم العودة إلى ماكانوا عليه من الكفر ، ثم لم يتب أولئك الكفرة عما فعلوه بالمؤمنين والمؤمنات فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق في نار جهنم ، وبنفس اللفظ الذى يدل على الحدث ، ولكن أين حريق من حريق ؟ في شدته أو في مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق . وحريق بنار الآخرة بنار يوقدها الخالق ! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي ، وحريق الآخرة آبادٌ لايعلمها إلا الله ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين ، وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم ، ومع حريق الآخرة غضب الله .

فكان الجزاء من جنس العمل – قال الحسن البصرى : « انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة »[2] .

---

(١) لم ينص على العقوبة الدنيوية لا من كتاب ولا سنة صحيحة صريحة غير أن ابن جرير – رحمه الله – روى بعد ذكر الحديث الصحيح السابق ذكره أثراً يذكر فيه أن أصحاب الأخدود عذبوا بالنار في الدنيا حيث قال : حدثت عن عمار عن عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : « كان أصحاب الأخدود قوماً مؤمنين اعتزلوا الناس في الفترة ، وإن جباراً من عبدة الأوثان أرسل إليهم ، فعرض عليهم الدخول في دينه ، فأبوا ، فخد أخدوداً وأوقد فيه ناراً ، ثم خيرهم بين الدخول في دينه ، وبين إلقائهم في النار ، فاختاروا إلقاءهم في النار على الرجوع عن دينهم ، فألقوا في النار فنجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار من الحريق بأن قبض الله أرواحهم قبل أن تمسهم النار ، وخرجت النار إلى من على شَفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم فذلك قول الله تعالى ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ في الآخرة ، ولهم عذاب الحريق في الدنيا – تفسير ابن جرير (٣٤١/٢٤) ؛ التفسير الكبير (١٣١/٣١) وللأثر متابعة عند ابن أبي حاتم فقد تابع عماراً أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي به (٣٤١٣/١٠) .

وهذا الاستدلال يعترض عليه بأن في الآية قرينة وهي : أن الضمائر راجعة إلى الكفار الذين قتلوا المؤمنين و أحرقوهم ، وهي : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ حيث رتب العذاب المذكور على عدم التوبة ، وجاء بـ (ثم) التي هي للتراخي ، مما يدل على أنهم لم تحرقهم نارهم انتقاماً منهم حالاً ؛ بل أمهلوا ليتوبوا من فعلتهم الشنيعة ، وإلا فلهم العذاب المذكور في الآخرة . و الله أعلم . انظر : (أضواء البيان) (١٤٥/٩) .

(٢) انظر : (تفسير ابن كثير) (٥٢٩/٤ ، ٥٣٠) ؛ في ظلال القرآن (٣٨٧٤/٦) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها :

أولاً : أعلم الله – تعالى – عباده المؤمنين من هذه الأمة ما حصل لأصحاب الأخدود من عذاب في الدنيا على أيدى الطغاة يؤنسهم بذلك ، ويذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التى كانوا عليها ، ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق . وتمسكه وبذل نفسه في حق إظهار دعوته ، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره ، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار[١] .

ثانياً : حكم إفشاء السر تحت وطأة التعذيب .

رأينا في القصة أن الرجل الأعمى الذي رد الله عليه بصره قد أفشى السر تحت التعذيب حين دل على الغلام ، والغلام كذلك دل على الراهب فقتل الراهب وقتل الأعمى ثم قتل الغلام حين دلهم على طريقة قتله ، فما حكم فعلهم ذلك ؟

والجواب : أنه لا يجوز للمكره أن يدفع عن نفسه القتل بقتل غيره ؛ لأن التسبب في قتل الغير عمداً كبيرة من الكبائر . فعلى الدعاة إلى الله – تعالى – كتمان سرهم وعدم البوح به للطغاة المفسدين مهما كانت النتائج ، ما دام يعلم أن مصيرهم القتل ، ولقد ضرب الصحابة – رضي الله عنهم – أروع الأمثلة في الصبر على التعذيب حتى فارقوا الحياة دون أن يتنازلوا قيد أنملة لأعداء الله ، أمثال خبيب بن عدي حين عذبه أهل مكة حتى قتل ، وحبيب بن زيد حين عذبه مسيلمة الكذاب ثم قتله وغيرهم . قال القرطبي : أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره ، ويصبر على البلاء الذي نزل به ، ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية ، أما من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان[٢] لقوله تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل:١٠٦] .

ثالثاً : في قصة الغلام عدد من العبر نلخصها فيما يلي[٣] :

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/٢٩٣) .

(٢) المصدر نفسه (١٠/١٨٢) .

(٣) انظر أضواء البيان (٩/١٤١ : ١٤٢) .

١ - أن السحر بالتعلم ، وتعلمه كفر كما قال الله تعالى ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة:١٠٢] وحده في الاسلام القتل كما في الحديث « **حد الساحر ضربه بالسيف** »(١) ، وكما جاء في كتاب عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — « اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال الراوي : فقتلنا ثلاث سواحر »(٢) .

٢ - إمكان اجتماع الخير مع الشر ، إذا كان الشخص جاهلاً بحال الشر ، كاجتماع الإيمان مع الراهب مع تعلم السحر من الساحر .

٣ - إمكان حدوث خوارق العادات على أيدي دعاة الخير . لبيان الحق والتثبيت في الأمر ، كما قال الغلام « اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر » ؟

٤ — أنه كان أميل بقلبه إلى أمر الراهب ، إذ قال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك ، فسأل عن أمر الراهب و لم يسأل عن أمر الساحر .

٥ - اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه كاعتراف الراهب للغلام .

٦ - إسناد الفعل كله لله « إنما يشفي الله » .

٧ - غباوة الملك المشرك بالله ؛ حيث ظن في نفسه أنه هو الذى شفى جليسه الأعمى وهو لم يفعل شيئاً وكيف يكون وهو لا يعلم ؟

٨ — اللجوء إلى البطش والانتقام عند العجز عن الإقناع والإفهام أسلوب الجهلة والجبابرة .

٩ - غلظ قلوب الجبابرة وشدة قساوتها ؛ حيث نشروا الرجلين المؤمنين وشقوهما نصفين بدون أدنى رحمة .

---

(١) رواه الترمذي - كتاب الأحدود - باب ما جاء في حد الساحر - (٦٠/٤) برقم [١٤٦٠] قال الترمذي : والصحيح أن هذا الحديث موقوف على رواية (جندب) والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم ، ورواه الدار قطني (علي بن عمر) في سننه (١١٤/٣) برقم [١١٢] ط دار إحياء التراث العربي . ورواه الطبراني (١٦١/٢) برقم [١٦٦٥] ، ورواه البيهقي - كتاب القسامة - باب تكفير الساحر وقتله - (١٣٦/٨) .

(٢) مسند الإمام الشافعي (محمد بن إدريس) ص"٣٨٣" ط دار الريان للتراث ، ورواه أحمد (١٩٠/١-١٩١) برقم [١٦٥٧] ، وسنده صحيح ، صححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند (١٢٣/٣) ، وشعيب الأرناؤوط وآخرون في تعليقه على المسند (١٩٧/٣) .

١٠ – منتهى الصبر الذى التزم به كل من الرجلين المؤمنين حتى فارقا الحياة ، وبيان فضل الله على هذه الأمة إذ جاز لها التلفظ بما يخالف عقيدتها وقلبها مطمئن بالإيمان .

١١ – إجابة دعوة الغلام ونصرة الله لعباده المؤمنين حيث قال « اللهم اكفنيهم بما شئت » .

١٢ – التضحية بالنفس في سبيل نشر دعوة الله ؛ حيث دل الغلام الملك على الطريقة التى يتمكن الغلام بها من إقناع الناس بالإيمان بالله ولو كان الوصول لذلك على حياته ، وعلى هذا يجوز للمسلم أن يعرض نفسه للموت إذا غلب على ظنه أن في فعله مصلحة للمسلمين ، وقد كان الصحابة ينغمسون في العدو بحضرة النبي ﷺ ولا ينكر عليهم[1] .

رابعاً : عظم منة الله على عباده ؛ حيث يدعوهم بعد فعل الذنب إلى التوبة والرجوع إليه حيث قال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ ﴾ [البروج:١٠] وفي هذا تصريح بأن التوبة تسقط أثر الذنب وترفع العقوبة[2] .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٧٩/٢٥) .

(٢) التفسير المنير (١٦٣/٣٠) .

المبحث الخامس

عقوبة أهل سبأ

المطلب الأول : الآيات التي تحدثت عن عقوبتهم :

قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [سبأ:١٥-١٩] .

لطائف الآيات :

١ – إن قصة أهل سبأ لم تذكر في القرآن إلا مرة واحدة .

٢ – سبأ : اسم رجل ، لما روى ابن عباس – رضى الله عنهما – أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ، أرجل أم امرأة أم أرض ؟

قال ﷺ « **بل هو رجل ، ولد له عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير ، وأما الشامية : فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان** »[1] .

---

(١) رواه أحمد – (١ /٣١٦) – برقم[٢٩٠٠] ، وذكره الطبري (٣٧٥/٢) ورواه الترمذي – كتاب تفسير القرآن – باب (ومن سورة سبأ) (٣١٦/٥) برقم [٣٢٢٢] وقال : حسن غريب ، وله طرق متعددة يقوى بعضها بعضاً ، قال عنه ابن كثير في تفسيره (٥٣٨/٣) : وهذا حديث حسن ، وقال ابن حجر في الفتح (٦٨٦/٨) قلت : حديث ابن عباس وفروة صححهما الحاكم – وفروة هو ابن مسيك عند الترمذي . وانظر : تهذيب التهذيب (٢٣٨/٨) .

– مذحج : اسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، سمي مذحج لأنه ولد على أكمة باليمن يقال لها مذحج انظر : (عجالة المبتدئ وفضالة المنتهي في النسب) للحازمي الهمذاني (أبو بكر بن أبي عثمان) ص"١١١" .

– كندة : اسمه ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد (وذكره) وسمي كندة لأنه كند أباه نعمته أي : كفرها – المرجع السابق ص"١٠٧" .

– الأزد : هم بنو دراء بن الغوث بن نبت بن مالك بن أدد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

انظر : نفس المصدر ص"١٠" .

٣ – قال علماء النسب منهم محمد بن إسحاق :

اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وسمي سبأ لأنه أول سبأ في العرب ، وكان يقال له الرائش ؛ لأنه أول من غنم فأعطى قومه فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال ريشاً ورياشاً[1] .

٤ – قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ ﴾ [سبأ:١٥] ولم يقل آيتان جنتان ، وكل جنّة كانت آية فلِمَ ؟

والجواب : لما تماثلتا في الدلالة ، واتحدت جهتها فيهما جعله آية واحدة ، ونظيره قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾[2] [المؤمنون:٥٠] .

٥ – في قوله تعالى ﴿ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا... ﴾ [سبأ:١٨] قدمت الليالي على الأيام للاهتمام بها في مقام الامتنان ؛ لأن المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار ؛ لأن الليل تعترضهم فيه القطاع والسباع[3] .

٦ – أشارت آية ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ:١٩] إلى التفرق الشهير الذي أصيبت به قبيلة سبأ حتى ضرب بهم المثل في قولهم (تفرقوا أيدي سبأ)[4] .

٧ – جمع كلمة الآيات في قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ:١٩] .

=

– الأشعريون : نسبة إلى الأشعر واسمه أنبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ . انظر نفس المرجع ص"١٦" .

– وحمير : هو حمير بن الغوث بن سعد بن عوف بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير بن سبأ الأصغر بن لهيعة بن حمير بن سبأ بن يشجب وهو حمير الأكبر – وإلى حمير بن الغوث تنسب اللغة الحميرية – معجم البلدان (٣٥٢/٢) – برقم [٣٩٣٣] .

– لخم : مالك بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن يشجب ، سمي لخما لأنه لطم ، واللخمة هي اللطمة : نفس المرجع ص"١٠٩" .

– جذام : هي أمه ، واسمه عمرو بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد .. نفس المرجع ص"٣٩" .

– عاملة : اسمه الحارث بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب . نفس المرجع ص"٨٣" .

– غسان : هو مازن بن الأزد بن الغوث ... انظر نفس المرجع ص"٩٨" .

(١) انظر : (تاريخ الطبري) (٢١١/١) ؛ البداية والنهاية (١٥٨/٢) ؛ تاريخ ابن خلدون (٥٢/٢) .

(٢) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص"٤١٨ ، ٤١٩" .

(٣) التحرير والتنوير (١٧٦/٢٢) .

(٤) انظر : (تهذيب اللغة) لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (١٠٥/١٣) ط الدار المصرية، لسان العرب (١٣٦/٦) .

لأنه في القصه عدة آيات وعبر ، ففي مساكنهم آية على قدرة الله ورحمته وإنعامه ، وفيه آية على أنه الواحد بالتصرف ، وفي إرساله سيل العرم آية على انفراده بالتصرف ، وعلى أنه المنتقم وعلى أنه واحد ، فلذلك عاقبهم على الشرك.

وفي تبدل حالهم من الرفاهة إلى الفقر آية على تقلب الأحوال وتغير العالم ، وآية على صفات الأفعال لله – تعالى – من خلق ورزق وإحياء وإماتة .

وكان من عمران إقليمهم واتساع قراهم إلى بلاد الشام آية على مبلغ العمران وعظم السلطان من آيات التصرفات ، وآية على أن الأمن أساس العمران ، وفي تمنيهم زوال ذلك آية على ما قد تبلغه العقول من الانحطاط المفضي إلى اختلال أمور الأمة وذهاب عظمتها ، و فيما صاروا إليه من التروح عن الأوطان والتشتت في الأرض آية ما يلجئ الاضطرار إليه الناس من ارتكاب الأخطار والمكاره[1] .

٨ – ما سر الجمع بين صبار وشكور في الوصف ؟

والجواب : لإفادة أن واجب المؤمن التخلق بالخلقين وهما : الصبر على المكاره ، والشكر على النعم[2] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٨٠/٢٢) .

(٢) التحرير والتنوير (١٨٠/٢٢) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة :

كفران النِّعمة .

بعد ما ذكر الله من حال الشاكرين لنعم الله المنيبين إليه وهما داود وسليمان – عليهما السلام – بيّن تعالى حال الكافرين بأنعمه ، بذكر قصة أهل سبأ تذكيراً وتحذيراً لقريش ووعيداً لكل من يكفر بنعم الله – تعالى – عليه .

وبداية كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس صاحبة سليمان – عليه الصلاة والسلام – من جملتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وأمروا بأن يأكلوا من رزق الله ويشكروه ويوحدوه ويعبدوه فكانوا كذلك ما شاء الله – تعالى – ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد .

وكان من خبرهم ما قصه الله علينا في سورة سبأ ؛ حيث أنعم الله عليهم ببساتين عن يمينِ واديهم وشماله ، وكانت مساكنهم في الوادي ، وكان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه سيول أمطارهم وأوديتهم ، فبنوا بينهما سداً عظيماً حتى ارتفع الماء ، فخصبت أرضهم ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية مايكون من الكثرة والحسن ﴿ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ﴾ [سبأ:١٥] هذا الإنعام بتوحيده وعبادته وطاعته واجتناب معاصيه (بلدة طيبة) لكثرة أشجارها وطيب ثمارها ، واعتدال هوائها ، وطيب مناخها ، والله – تعالى – المنعم عليكم بهذه النعم رب غفور لذنوبكم متى أذنبتم واستغفرتم ، وقد ذكر غير واحد من السلف[1] أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذي تخترف فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف ؛ لكثرته ونضجه واستوائه . وذكروا أنه لم يكن فيها شئ مؤذٍ لطيب هوائها[2] ، ومن مظاهر نعم الله عليهم أيضاً : أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض

---

(١) منهم قتادة والسدى وابن زيد وغيرهم ، انظر : (الدر المنثور) (٤٣٤/٥ ، ٤٣٥) ؛ تفسير ابن أبي حاتم (٣١٦٥/١٠ ، ٣١٦٧) .

(٢) انظر : (تفسير ابن جرير) (٣٧٦/٢٢) وسنده حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ...الخ .

المباركة هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها ، بغاية السهولة ، من الأمن ، وعدم الخوف ، وتواصل القرى بينهم وبينها حتى لا يحصل لهم مشقة بحمل الزاد ، وهذا من تمام نعمة الله عليهم .

فأعرضوا عن المنعم وعن عبادته وبطروا النعمة وملّوها ، حتى إنهم دعوا على أنفسهم فطلبوا وتمنوا ، أن تتباعد أسفارهم ﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [سبأ:١٩] بكفرهم بالله وبنعمته .

المطلب الثالث : نوع العقوبة :

قال الله تعالى ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ[١] وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ:١٦-١٧] .

وقال سبحانه : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ:١٩]

هذا هو كفر الإعراض عن توحيد الله وعبادته وطاعته وشكره على ما أنعم به عليهم ، فأرسل الله عليهم سيل العرم بأن تحطم سد مأرب ، فملأ الماء الوادي وأغرق البساتين الخضراء ثم يبست ودفنت البيوت تلك الجنّات ذات الحدائق المعْجَبة ، والأشجار المثمرة إلى أشجار لانفع فيها ، فكان ذلك جزاءً لهم ، والجزاء من جنس العمل ، فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح ، بُدلوا بالنعمة فتفرقوا وتمزقوا، بعد ما كانوا مجتمعين ، وجعلهم الله أسماراً للناس يتحدث بهم من يتحدث ، ويشمت بهم من يشمت ، ويتعِظ من يتعظ ، فكان يُضرب بهم المثل في التفرق فيقال (تفرقوا أيدي سبأ) ولكن لا ينتفع بالعبرة إلا من قال الله فيهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ:١٩] صبار على المكاره والشدائد يتحملها لوجه الله ، ولا يتسخطها بل يصبر عليها ، شكور لنعمة الله تعالى يُقِرُّ بها ويعترف ، ويثني على من أولاها ويصرفها في طاعته[٢] ويعتبر بما أصاب غيره من نقمة وعذاب ؛ فيكون صباراً على المصائب والمكاره شكوراً على النعم والعطايا . وهكذا كان من أكبر أسباب زوال النعمة كفرانها .

ولهذا قيل (من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها)[٣] .

---

(١) العرم : جمع عَرِمَة - بفتح الراء وكسرها - وهي السد الذي يحبس الماء وعن ابن عباس : الشديد . وقال ابن الأعرابي : السيل الذي لا يطاق - وقال قتادة ومقاتل : إنه اسم الوادي . انظر : (لسان العرب) (١٧٢/٩) ؛ معجم البلدان (٣ /١٢٣) . وانظر : (الوسيط في تفسير القرآن المجيد) (٤٩١/٣) . وقد وصفه الهمداني في كتابه (وصف جزيرة العرب ص (١٤٧ ، ٢٢١) ط دار اليمامة سنة (١٣٩٧هـ) وانظر : (تفسير المراغي) (٧١/٨) ، وياقوت في معجمه (٤١/٥) باب الميم مع الألف ؛ التحرير والتنوير (١٦٩/٢٢ ، ١٧٠) .

(٢) انظر : (تفسير ابن كثير) (٥٤٠/٣ : ٥٤١) ؛ انظر : تيسير الكريم الرحمن (١٨٤/٤ ، ١٨٥)؛ انظر : تفسير المراغي (٧٠/٨) ؛ تفسير القاسمي (١٤/١٤ ، ١٥) ، أيسر التفاسير (٣١٣/٤ ، ٣١٤) .

(٣) التحرير والتنوير (١٧٦/٢٢) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة من عقوبتهم :

أولاً : التحذير من الإعراض عن دين الله ، فإنه متى حصل لأمة نزلت بها النقم وسلبها الله النعم ، وحاسبها عليها لتهلك في الآخرة .

قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦] .

ألا فليتق الله أناس يتعمدون الإعراض عن دين الله لا يتعلمونه ولا يريدون تعلمه ولايعملون به . وقد حقق الشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذه المسألة فجعلها من كفر الإعراض[1] بدليل قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة:٢٢] .

ثانياً : قال القرطبي في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ:١٧] في هذه الآية سؤال ليس في السورة أشد منه ، وهو أن يقال: لم خصّ الله – تعالى – المجازاة بالكفور ، ولم يذكر أصحاب المعاصي ؟ فتكلم العلماء في هذا فقال قوم : ليس يجازى بهذا الجزاء الذي هو الإستئصال والإهلاك إلا من كفر . قال مجاهد : يجازى بمعنى : يعاقب ؛ وذلك أن المؤمن يُكفِّر الله — تعالى — عنه سيئاته ، والكافر يجازى بكل سوءٍ عَمِلَه ؛ فالمؤمن يُجزَى ولا يُجازى ؛ لأنه يثاب . وقال طاووس : هو المناقشة في الحساب ، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب . وقال قطرب[2] خلاف هذا حيث جعلها في أهل المعاصي غير الكفّار وقال : المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر .

وقال النحاس[3] : وأولى ما قيل في هذه الآية وأجل ما روي فيها : أن الحسن

---

(١) كتاب مجموعة التوحيد – لأحمد بن تيمية الحراني ، محمد بن عبد الوهاب النجدي ص"٣٣" ط دار اليقين .

(٢) محمد بن مستنير أبوعلي النحوي لقّبه استاذه سيبويه بقطرب ، له تصانيف الكثير منها : إعراب القرآن ومجازه ، والعلل في النحو ، والنوادر ، وغيرها . انظر : (بغية الوعاة) (٢٤٣،٢٤٢/١) .

(٣) النحاس : هو الإمام أبو جعفر : أحمد بن إسماعيل بن يونس المرادي المفسر النحوي المعروف بالنحاس أو بابن النحاس ، ولد بمصر وتوفي بها ، إمام محقق صاحب التصانيف التي تربو على ⇦

قال : مثلاً بمثل . وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من حوسب هلك** » فقلت : يا نبي الله ، فأين قوله جل وعز : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق:٨] ؟ قال : « **إنما ذلك العرض ومن نوقش الحساب هلك** »[١] وهذا إسناد صحيح ، وشرحه : أن الكافر يجازى على أعماله ويحاسب عليها ويُحبط ما عمل من خير ؛ ويبيّن هذا قوله تعالى في الأول ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا ﴾ [سبأ:١٧] فأما المؤمن فيجزى ؛ لأنه يزاد ويتفضل عليه ولا يجازى ، ألا ترى أنه قال ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم ﴾ ولم يقل (جازيناهم)[٢] .

ثالثاً : الشكر موجبٌ للمزيد[٣] ، والإجحاف في إيفائها حقها من الشكر يعرض بها للزوال ، فعلى العبد الحذر من كفر النعم بالاسراف فيها وصرفها في غير مرضاة الله ؛ بل على العبد شكر الله – تعالى – بقلبه ولسانه وجوارحه ، فأما شكر القلب فبأن يعتقد الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من فضل الله وليست بحول أحد وقوته ، وأما شكر اللسان فالتحدث بهذه النعمة لقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى:١١] .

وأما شكر الجوارح فبأن يقوم الإنسان بالعمل الصالح بجوارحه[٤] . قال تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢] .

=

الخمسين ، رحل إلى بغداد لطلب العلم ، ثم عاد إلى مصر إلى أن مات بها سنة (٣٣٨ هجرية) – الأنساب للسمعاني (٤٤/١٣) ؛ اللباب ، ابن الأثير (٣٠٠/٣) .

(١) رواه البخاري – كتاب العلم – باب من سمع شيئا فراجع حتى يعرفه (٥٤/١) برقم [١٠٣] وأطرافه في (٤٩٣٩ ، ٦٥٣٦ ، ٦٥٣٧) ، ورواه مسلم – كتاب الجنة وصفه نعيمها – باب إثبات الحساب (٢٢٠٤/٤) برقم [٢٨٧٦] .

(٢) انظر : معاني القرآن (للفراء) يحيى بن زياد (٣٥٩/٢) ، ط دار السرور ؛ تفسير القرطبي (٢٨٩/١٤) .

(٣) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب – ابن القيم ص (١٤٤) ط مكتبة المؤيد .

(٤) انظر : (الأحكام من القرآن) ص"٢٢٥" ، وفي كتاب عدة الصابرين لابن القيم (فصل شكر الله تعالى) ص"١٤٠" ط دار الكتب العلمية .

رابعا : قوله تعالى ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا ﴾ الآية [سبأ:١٩] أنهم دعوا على أنفسهم وظلموها فوافقت من الله الإجابة على ما هم عليه من كفران بالله ونعمته ؛ فعلى ذلك ينبغي للمسلم الحذر من الدعاء على نفسه وعلى أولاده وأهله في وقت شدة أو ساعة غضب ، فلربما وافقت من الله ساعة يستجاب فيها الدعاء .

وفي الحديث « ... **لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة سئل فيها عطاء فيستجيب لكم** »[1] .

خامسا : في الآية دلالة واضحة على تأمين الطريق وتيسير المواصلات لتيسر تبادل المنافع واجتلاب الأرزاق ، من أجل ذلك كان حقا على ولاة أمور المسلمين أن يسعوا جهدهم في تأمين البلاد وحراسة السبل وتيسير الأسفار وإقرار الأمن في سائر نواحي البلاد ، فهو من أهم ما تنفق فيه أموال المسلمين وما تبذل فيه أموال أهل الخير من الموسرين[2] لقوله ﷺ « **ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** »[3] .

سادسا : عاقبة من بدل وغير بعد أن بلغ التدمير الشامل أو بعضه وتغير نمط الحياة من رفاه ونعومة إلى تعب وكد وشظف وخشونة عيش ، وإن فيها لعبرة ودلالة لكل صبار عن المعاصي شكور لنعم الله تعالى .

---

(١) رواه مسلم - كتاب الزهد - باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٢٣٠١/٤) برقم [٣٠٠٩] .

(٢) انظر : (التحرير والتنوير) (١٨١/٢٢) .

(٣) رواه البيهقي في سننه - باب ما على الوالي من أمر الجيش (٤١/٩) وبسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورواه الترمذي في كتاب البر والصلة باب (١٦) ما جاء في رحمة المسلمين (٣٢٣/٤) برقم [١٩٣٤] وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الحاكم (١٧٥/٤) ورقمه [٧٢٧٤] لما له من الشواهد ووافقه الذهبي . وانظر : كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس - إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (١٠٩) ، وذكره الألباني في الصحيحة برقم [٩٢٥] . ورواه البخاري في الأدب المفرد بلفظ « ارحموا ترحموا » - باب رحمة البهائم ص"١٥١" برقم [٢٩٣] صحيح الأدب المفرد .

المبحث السادس

عقوبة أصحاب الرس[1]

تمهيد :

أصحاب الرس أنموذج عجيب في التعدي على الأنبياء ممن كذب قبلهم من الأمم ، حيث اكتفى بعضهم بالتهديد قولاً وآخرون جادلوا أنبياءهم وأمهلوهم حتى بلّغوا دعوة الله ثم أرادوا قتلهم فأنجاهم الله منهم . كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب .

أما أصحاب الرس فقد كذبوا من أول وهلة وأخذوا نبيهم ورموه في بئر لهم أو حفرة عميقة حفروها ، وتركوه فيها حتى مات ، فجاءهم عذاب الله بغتة دون إمهال ؛ حيث قطع الله دابرهم . وسوف ترى أيها القارئ أن سياق الآيات في الحديث عنهم لا يطيل ذكرهم ولا يعدد أفعالهم السيئة ، وهذا والله أعلم يؤيد ما ذكرنا أنهم قتلوا نبيهم بسرعة ، فكان الجزاء من جنس العمل .

زمنهم الذي عاشوا فيه :

الحقيقة أنه ليس في التعرف على أصحاب الرس وفي الكشف عن موطنهم وزمنهم ورسلهم ما يزيد في حجم أو أثر العبرة والعظة من مهلكهم[2] .

أما ما قصدناه من وضعهم هنا بعد زمن عيسى – عليه السلام – فبناءً على ما يلي :

أولاً : أن في قوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ

---

(١) الرّس : (بفتح أوله والتشديد) وهي البئر المطوية بالحجارة ، انظر : (تاج العروس) (١٦١/٤) .
وفي اللسان : أهل الرس الذين يبتدئون الكذب ويوقعونه في أفواه الناس ، والرس : الإفساد وإثبات العداوة ، وكل ذلك صادق فيهم . انظر : (لسان العرب) (٢٠٩/٥) .
وانظر : (مجاز القرآن) ، لأبي عبيدة (معمر بن المثني التيمي (٧٥/٢) تحقيق د/ محمد فؤاد سزكين ، ط مؤسسة الرسالة ؛ وانظر : (تفسير الطبري) (٢٧٠/١٩) ؛ وانظر : فتح الباري (٦٣٠/٨) .

(٢) انظر : (التفسير القرآني للقرآن) عبدالكريم الخطيب (٢٦/٢٠) .

كَثِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٨] بيان أنهم كانوا متأخرين جداً عن عاد وعن ثمود بدليل ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾[1] فهناك كثير من الرسل بعثهم الله تعالى إلى أقوام عديدين في تلك الحقبة بين نوح ، وبين عادٍ وثمود وأصحاب الرس أهلكهم الله .

ثانياً : ذكر كثير من السلف أن نبي أصحاب الرس هو (حنظلة بن صفوان) – عليه السلام – وقد جاء ترتيبه تحت أسماء من ولد مختوناً بعد عيسى – عليه السلام – قال محمد بن حبيب الهاشمي[2] : من ولد مختوناً من الأنبياء أربعة عشر آدم ، شيث ، ونوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، ويوسف ، وموسى ، وسليمان ، وزكريا ، وعيسى ، وحنظلة بن صفوان نبي أصحاب الرس[3] .

وقد ذكر القرطبي بعد تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ [الأنبياء:١١] أن أهل التفسير والأخبار قالوا : إنه أراد أهل حضور وكان بعث نبي اسمه (شعيب بن مَهْدَم) وقبره بجبل يقال له : (ضنن) كثير الثلج ، وليس بشعيب صاحب مدين ؛ لأن قصة حضور قبل مدة عيسى – عليه السلام – وبعد مئتين من السنين من مدة سليمان – عليه السلام – ، وأنهم قتلوا نبيهم ، وقتل أصحاب الرس في ذلك التاريخ نبياً لهم اسمه (حنظلة بن صفوان)[4] والشاهد معنا قوله (وقتل أصحاب الرس...) وهذا يقتضي أنهم بعد عاد وثمود بدهور طويلة جداً .

وفي الإكمال[5] حنظلة بن صفوان نبي أهل الرس .

---

(١) أي : وأهلكنا قروناً كثيرة بين عاد وأصحاب الرس – انظر : (تفسير البغوي) (١٧٩/٦) ، اللباب في علوم الكتاب ، لأبي حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي (٥٣٤/١٤) ط دار الكتب العلمية .

(٢) محمد بن حبيب الهاشمي : علامة بالأنساب والأخبار واللغة والشعر كان عالماً لا يُملُّ مجلسه صاحب مصنفاتٍ كثيرة ، مات بسامراء سنة خمس وأربعين ومائتين ، انظر : بغية الوعاة (٧٣/١) ، الأعلام (٧٨/٦) .

(٣) تفسير القرطبي (١٠٠/٢) .

(٤) تفسير القرطبي (٢٧٤/١١) .

(٥) انظر : (الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب ، للأمير الحافظ علي بن هبة الله أبي نصر بن ماكولا (٥٧/٧) ط دار الكتب العلمية ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (١٥/٢) .

وفي مسائل الإمام أحمد[(١)] حنظلة بن صفوان نبي أصحاب الرس حيث ذكره تحت أسماء من خُلق مختوناً منهم حنظلة بن صفوان .

وعند ابن حجر[(٢)] أن نبي أصحاب الرس خالد بن سنان - بعث مبشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وردت ابنة له عجوز على النبي صلى الله عليه وسلم فتلقاها بخير ، وأكرمها وقال لها : « **مرحبا بابنة نبي ضيعه قومه** »[(٣)] .

وعن سعيد بن جبير قال : جاءت ابنة خالد بن سنان العبسي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « **مرحبا بابنة نبي ضيعة قومه** » .

ثم ذكر أنه لم يكن في بني إسماعيل نبي غيره ، قبل محمد صلى الله عليه وسلم[(٤)] .

والمقصود أنه إن كان نبي أصحاب الرس خالد بن سنان أو حنظلة بن صفوان فما يهمنا هنا إلا إثبات أن أصحاب الرس كانوا بعد عيسى - عليه السلام - .

ولايمنع ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:٦] للفرق بين الرسول والنبي[(٥)] ، ثم لما ثبت من وجود أنبياء بشروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم قبل وبعد عيسى عليه السلام .

أما ماجاء عند الطبري[(٦)] من أن أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود فسنده ضعيف[(٧)] هذا **أولا** .

---

(١) مسائل الإمام أحمد (١٣/١) بتحقيق : د/فضل الرحمن دين محمد .

(٢) الإصابة (١٧٨/٣-١٨١) وقال رجاله ثقات إلا أنه مرسل .

(٣) ذكره المتقى الهندي في كنز العمال (١٤٩/١٢) برقم [٣٤٤٢٩] وقال : ذكره في أماليه عن سعيد بن جبير مرسلا ورجاله ثقات ، وذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٩٩/٢) وأورده الهيثمي في الزوائد (٢١٤/٨) عن خالد بن سنان ، وقال رواه الطبراني وفيه قيس بن الرفيع وثقة شعبة والثوري وضعفه أحمد مع ورعه وابن معين .

(٤) الإصابة (١٧٩/٣) .

(٥) انظر : (شرح العقيدة الطحاوية) ص"١٥٤" ، ولا يرد عليه بقوله ﷺ : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ليس بيني وبينه نبي» ، قال المناوي : أي من أولي العزم ، فلا يرد خالد بن سنان بفرض تسليم كونه بينهما . انظر : فيض القدير (٤٧/٣) .

(٦) تفسير الطبري (٢٦٩/١٩) وسنده حدثنا القاسم ، قال حدثنا الحسين ، قال حدثني حجاج عن ابن جريج قال ابن عباس .

(٧) ضعفه الشيخ محمود شاكر لضعف الحسين بن داود (سنيد) ثم إن هذه الرواية جاءت من طريق ابن جريج عن ابن عباس ، وتوثيقها يحتاج إلى دقة في البحث ؛ فإن ابن جريج لم يقصد الصحة في كل ما جمع ، وإنما روى ما ذكر في كل آية من الصحيح والسقيم . انظر : (التفسير والمفسرون) (٧٩/١) .

ثانياً : أن ابن كثير[1] رد ذلك وذكر أن الحافظ بن عساكر[2] ذكر في أول تاريخه أن أصحاب الرس كانوا بحضور[3] فبعث الله إليهم نبياً يقال له : (حنظلة بن صفوان) فكذبوه ، وقتلوه ، فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرس فنزل الأحقاف ، وأهلك الله أصحاب الرس ، وانتشروا في اليمن كلها ، وفشوا في الأرض كلها... فبعث الله هوداً إلى عاد فكذبوه ، فأهكهم الله ، فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة – فالله أعلم – .

وهذا اجتهاد منه يرده ما ذكرناه سابقاً من أن حنظلة بن صفوان أو خالد بن سنان نبيا أصحاب الرس ، وقد جاء ذكرهما بعد عيسى – عليه السلام – . إلاّ إذا كان ابن كثير على إمامته وفضله في هذا العلم ارتضى هذا بناءً على أن أصحاب الرس بُعث إليهم أكثر من نبي كما أرسل إلى نبي إسرائيل أنبياء كثيرون ، فذكروا مرة قبل عاد وثمود وذكروا أخرى بعد عيسى – عليه السلام – ، ولا مانع أن تتعدد العقوبة عليهم كما تعددت على بني إسرائيل .

ثالثاً : أن الله تعالى قال : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٨] أي : أهلك الله أمماً كثيرة ما بين عاد وأصحاب الرس ، وهذا يقتضي أن أصحاب الرس بعد عاد بدهور طويلة .

رابعاً : لا يوجد نصٌ قاطع يبين زمن أصحاب الرس ، وكل ذلك اجتهاد يحتاج إلى دليل .

(١) البداية والنهاية (١/٢٢٧) .

(٢) الحافظ ابن عساكر هو : (علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين ، أبوالقاسم الدمشقي الشافعي) عاش في بيت علم وسمع من كثير من العلماء وكان معروفاً بالفطنة والذكاء عرف بعد ذلك بمؤرخ الشام وحافظ العصر له مؤلفات كثيرة منها : (تاريخ مدينة دمشق) وت سنة (٥٧١هـ) ، انظر : (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي (عبدالوهاب بن علي) (٧/٢١٥) ط دار إحياء الكتب العربية .

(٣) حضور : بلدة باليمن من أعمال زبيد . انظر : (معجم البلدان) (٢/٣١٤) .

المطلب الأول: الآيات التي تحدثت عنهم

أولاً : سورة الفرقان .

قال تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الفرقان:٣٧-٣٩] .

ثانياً : سورة ق .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ق:١٢-١٤] .

لطائف الآيات :

أولاً : أخر ثمود هنا في الآية للفاصلة .

ثانياً : جاء ذكر أصحاب الرس في معرض ذكر الأقوام المكذبين مما يدل على أن كل قوم منهم خصهم الله ببعثة رسول .

هذا وقد اختلف أهل التفسير في ما ذكره الله من شأن أصحاب الرس وأحسن من جمع الأقوال في ذلك صاحب زاد المسير[١] حيث قال :

إن في تسميتها بالرس قولين :

أحدها : أنهم رسوا نبيهم في البئر ، قاله عكرمة ، قال الزجاج : رسوه ، أي : دسوه فيها .

الثاني : أن كل بئر لم تطو فهي رس ، قاله ابن قتيبة[٢] .

---

(١) زاد المسير (١٥/٦) ؛ وانظر : (المحرر الوجيز) (٤٠/١١) ؛ تفسير البغوي (٨٤/٦) ؛ تفسير أبي حبان (٤٥٧/٦) ؛ والفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخضية ، سليمان بن عمر العجلي الشافعي الشهير بالجمل (٢٥٧/٣) ، ط البابي الحلبي ؛ تاريخ القضاعي ص"٨٨" .

(٢) عبدالله بن مسلم كان رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ثقة دين فاضلاً ، قال عنه الذهبي : ما علمت أحداً أتهم القتيبي في نقله له مصنفات كثيرة منها : إعراب القرآن . انظر : (بغية الوعاة) (٦٣/٢،٦٤) ط المكتبة العصرية .

ثم اختلفوا في أصحاب الرس على خمسة أقوال :

أحدها : أنهم قومٌ كانوا يعبدون شجرة ، فبعث الله إليهم نبياً من ولد يهوذا ابن يعقوب فحفروا له بئراً وألقوه فيها ، فهلكوا ، قاله علي بن أبي طالب[1] .

الثاني : أنهم قوم كان لهم نبيٌّ يقال له : حنظلة بن صفوان ، فقتلوه فأهلكهم الله ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : أنهم كانوا أهل بئر ينزلون عليها وكانت لهم مواشٍ ، وكانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فتمادوا في طغيانهم ، فانهارت البئر ، فخسف بهم وبمنازلهم ، قاله وهب بن منبه[2] .

الرابع : أنهم الذين قتلوا حبيباً النجار ، قتلوه في بئر لهم ، وهو الذي قال : ﴿ يَـٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [يس:٢٠] قاله السدي .

الخامس : أنهم قوم قتلوا نبيهم وأكلوه ، وأول من عمل السحر نساؤهم ، قاله ابن السائب الكلبي .

نلاحظ ما يلي : اجتماع الأقوال في أنهم قتلوا نبيهم هذا **أولاً** .

ثانياً : أكثر الأقوال تذكر أنهم رموا نبيهم في بئر .

ثالثاً : اختلفوا في تحديد مكان البئر ، فمنهم من قال : إنها بئر بأذربيجان .

---

(١) ومثله أنهم قومٌ أخذوا نبيهم فرموه في بئر وأطبقوا عليه صخرة ، روى ذلك عن عكرمة ، ومحمد بن كعب القرظي . ذكره صاحب المحرر في الحاشية ، وقال : أخرجه ابن إسحاق وابن جرير ، عن محمد بن كعب ونصه «روى عكرمة ومحمد بن كعب القرظي عن النبي ﷺ « **أن أهل الرس قوم أخذوا نبيهم فرموه في بئر وأطبقوا عليه بصخرة ، فكان عبدٌ أسود قد آمن به يجيء بطعام إلى ذلك البئر فيعينه الله على تلك الصخرة فيقلعها ، وهو مؤمن بذلك النبي ، فيعطيه ما يغذيه ، ثم يرد تلك الصخرة ، إلى أن ضرب الله على أذن ذلك الأسود نوماً أربع عشرة سنة ، وأخرج أهل القرية نبيهم فآمنوا به**» . اهـ قال الطبري (١٩/٢٧٠،٢٧١) : فيمكن أنهم كفروا به بعد ذلك فذكرهم الله تعالى في هذه الآية ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٨] وفي الحاشية أخرجه ابن إسحاق ، وابن جرير مطولاً ، عن محمد بن كعب القرظي اهـ . وذكره السيوطي في الدر (٦/٢٥٧) ؛ وابن كثير في البداية والنهاية (١/٢٢٨) وضعفه بقوله : « إنه حديث مرسل ومثله فيه نظر » ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظي والله أعلم .

(٢) وهب بن منبه بن كامل اليماني ، أبو عبد الله الأبناوي ، ثقة من الثالثة . انظر : (التقريب) (٥٨٥) .

روي ذلك عن ابن عباس[1] .

ومنهم من قال : إنهم كانوا أهل فلج[2] وآبار كانوا عليها ، روي ذلك عن قتادة[3] . ولم يرد ذكر لمكانهم .

ومنهم من قال : الرس ماء ونخل لبني أسد ، وقيل : نهر من بلاد المشرق ، بعث الله إليهم نبياً من أولاد يهوذا بن يعقوب فكذبوه[4] .

ومنهم من قال : إن أصحابها كانوا بقرية باليمامة قتلوا نبيهم[5] .

نلاحظ ما يلي :

١ - الاختلاف في مكان البئر ، بل إن بعضهم قال عنه : نهر ، ومعنى ذلك أنه لم يصح عنده قول من قال : إنها بئر .

٢ - بعد دراسة سند كل منها رأيت أن أصح الأسانيد السند الذي رُوي عن قتادة[6] ، ويجتمع مع ما قاله جعفر بن محمد (الصادق) فيقوي بعضها بعضاً .

٣ - والصواب - والله أعلم - أنهم كانوا أهل فلج وآبار كانوا عليها ، ومكانهم باليمامة كما فسره الواحدي السمرقندي بقوله : قال قتادة : حُدثنا أن أصحاب الرس كانوا أهل فلج باليمامة[7] .

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢٦٩٥/٨) ؛ وذكره ابن حجر في فتح الباري (٦٣٠/٨) كتاب التفسير سورة الفرقان ، وقال : رواه شبيب عن عكرمة عن ابن عباس . اهـ ، وعند صاحب زاد المسير (١٥/٦) عن عكرمة عن ابن عباس ؛ وعند السيوطي (١٢٩/٥) عن ابن عباس ؛ والشوكاني (٧٨/٤) عن ابن عباس ونسباه إلى ابن أبي حاتم ؛ والقرطبي (٣٢/١٣) عن ابن عباس ، وسنده : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل ، حدثني أبي ، أنبأ شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس . وشبيب هذا قال عنه ابن حجر : صدوق يخطيء . ص"٢٦٣" التقريب .

(٢) فَلَج : اسم بلد . وقال ياقوت : (بفتح وسكون) اسم بلد ، ويقال : بطن فلْج أول الدهناء .

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٢٦٩٥/٨) ؛ وقد أخرجه ابن جرير (١٠/١٩) من طريق ابن وهب ، عن جرير بن حازم ، عن قتادة . وذكره ابن حجر في فتح الباري (٦٣٠/٨) عن قتادة ، ونسبه إلى ابن أبي حاتم ؛ وذكره ابن كثير (١١٩/٦) عن قتادة .

وسنده عن ابن أبي حاتم قال : حدثنا محمد بن يحيى ، أنبأ العباس بن الوليد ، ثنا يزيد بن زريع ، ثنا سعيد عن قتادة (وهو صحيح) لأن محمد بن يحيى ثقة ، العباس ثقة ، يزيد بن زريع ثقة ثبت .

(٤) تفسير أبي حيان (٤٥٧/٦) ، وهذا القول قاله قتادة أيضاً .

(٥) انظر : (تفسير الماوردي) ، وانظر : (تفسير الوسيط) (٣٤١/٣) ؛ في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٦٤) .

(٦) انظر السند حاشية رقم (١) وكذلك ذكره الماوردي في تفسيره (١٤٥/٤) عن قتادة . وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة كما في الدر (١٢٩/٥) .

(٧) اليمامة : كان اسمها قديماً (جوت) فسميت باليمامة بنت سهم بن طسم أحد الملوك ، وبين اليمامة والبحرين مسيرة عشرة أيام للراكب على الجمال . معجم البلدان (٤٤٢/٥) .

المطلب الثاني : سبب عقوبتهم

تكذيبهم لنبيهم ثم قتله .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان:٣٨-٣٩] .

ذكر الله – تعالى – أصحاب الرس ضمن الأقوام المكذبين ، حيث بعث الله إليهم نبياً لم يرد في القرآن ذكرٌ لاسمه[1] ، فكذبوه وقتلوه .

فعند ابن جرير بسنده[2] عن عكرمة قال : كان الرس بئراً رسوا فيها نبيهم ، ثم قال بعد ذلك : « ولا أعلم قوماً كانت لهم قصة بسبب حفرة ، ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود ، فإن يكونوا هم المعنيين بقوله ﴿ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ فإنا سنذكر خبرهم بعد ذلك ، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبراً إلا ما جاء عنهم أنهم رسوا نبيهم في حفرة »[3] .

من كل ما سبق يتبيّن لنا أن هذا طرف مما ذكره المفسرون مما يوافق ظاهر القرآن ، وفيها آثار منكرة لا تصح ، نبه عليها الحافظ ابن كثير رحمه الله[4] .

قال صاحب محاسن التأويل : ويروي هنا بعضهم آثاراً منكرة لا تصح ، ولا يحل الجراءة على رواياتها ، ولا تنزيل الآية عليها ؛ لأنه من قَفْو ما ليس للمرء به علم . ومثله يحظر الخوض فيه »[5] .

---

(١) ذُكر في تفسير الخازن (٣/٣١٤) . وانظر : (تفسير أبي حيان) (٦/٤٥٧) .

(٢) حدثنا ابن بشار (محمد بن بشار) قال : ثنا عبد الرحمن هو (ابن مهدي) ، قال : ثنا سفيان (الثوري) ، عن أبي بكر (الهذلي) عن عكرمة ، وأبوبكر هذا ضعّفه العلماء إلاّ أن الأثر يتقوّى بغيره . انظر : (تفسير الطبري) (١٩/٢٧٠) ، وزار المسير (٦/١٥) .

(٣) تفسير ابن جرير (١٩/٢٧٠) ؛ ومثله الأثر الذي أخرجه ابن كثير عن عكرمة وسكت عنه (٣/٣٣١) ؛ وأخرجه السيوطي في الدر (٥/١٢٩) من رواية ابن أبي شيبة ؛ وابن المنذر عن ابن عباس أنه سأل كعباً عن أصحاب الرس قال : هو صاحب البئر الذي قال لقومه ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس:٢٠] فرسه قومه أي : دفنوه في بئر بالأحجار . اهـ

قلت : وقد قال ابن عباس قبلها : إنها قرية من قرى ثمود ، وقد هلكوا جميعاً بالصيحة ، ونجى الله صالحاً ولم يقتل . فالله أعلم .

(٤) تفسير ابن كثير (٣/٣٣١) ؛ وانظر : (البداية والنهاية) (١/١٢٨) .

(٥) تفسير القاسمي (١٢/٢٦٢) .

المطلب الثالث : نوع العقوبة

ذُكرت عقوبة أصحاب الرس مجملة ضمن عقوبة الأقوام المكذبين دون تفصيل ، وحسبنا ما ذكره الله – تعالى – من أنه أهلكهم بقوله : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٩] أي : وكل هؤلاء أوضحنا لهم حججنا وبيّنا لهم أدلتنا، وأزحنا عنهم الأعذار ، وأجبناهم على كل الشبه والاعتراضات ، فتمادوا في كفرهم وطغيانهم فأهلكناهم هلاكاً تاماً[١] . قال أبو حيان بعد ذكره للأقوال : « وملخص هذه الأقوال أنهم قومٌ أهلكهم الله بتكذيب من أرسل إليهم »[٢] .

---

(١) تفسير المراغي (١٧/٧) ؛ التفسير الواضح (٢٠/٢) . هذا ، وقد ذكر ابن كثير – رحمه الله – أن أبا بكر : محمد بن الحسن النقاش قال : إن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفي أرضهم جميعاً ، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة ، فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيماً ، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته ، وقال : إني لم أمت ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم ، ففرحوا أشد الفرح، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه ، وأخبرهم أنه لا يموت أبداً ، فصدق به أكثرهم وافتتنوا به وعبدوه ، فبعث الله فيهم نبياً ، وأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ، ونهاهم عن عبادته ، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له .

قال السهيلي : وكان يوحى إليه في النوم وكان اسمه (حنظلة بن صفوان) فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ، وييست أشجارهم ، وانقطعت ثمارهم وخربت ديارهم ، وبدلوا بعد الأنس بالوحشة ، وبعد الاجتماع بالفرقة ، وهلكوا عن آخرهم ، وسكن مساكنهم الجن والوحوش ، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسد ، وصوت الضباع . فالله أعلم . انظر : (البداية والنهاية) (٢٢٨/١) .

هذا ، وقد ترجم ابن كثير لأبي بكر : محمد بن الحسن النقاش (٢٤٢/١١) في البداية والنهاية ، وقال عنه : كان رجلاً صالحاً في نفسه عابداً ناسكاً . ووثقه الدارقطني ثم رجع وصرح بعضهم بتكذيبه .

قلت : فإن صح ما ذكره السهيلي فيكون ذلك عقوبة بتدرج حتى هلكوا .

وقال وهب بن منبه : كان أهل بئر الرس نزولاً عليها ، وكانوا أصحاب مواش يعبدون الأصنام ، فبعث الله إليهم شعيباً يدعوهم إلى الإسلام ، فتمادوا في طغيانهم وآذوا شعيباً ، فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت البئر وخسف بهم وبديارهم ورباعهم . تفسير الخازن (٣١٤/٣) ، ط دار الكتب العلمية .

وعند أبي حيان : أنهم بعد رمي نبيهم وموته أظلتهم سحابة سوداء أذابتهم كما يذوب الرصاص .

قلت : إذاً هذه ثلاثة آثار مختلفة تؤيد ما قاله القاسمي – رحمه الله – من أنها آثار لا تصح ويحظر الخوض فيها . فالله أعلم .

(٢) تفسير أبي حيان (٤٥٨/٦) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة من عقوبة أصحاب الرس

١ – بيان سنة الله – تعالى – في إهلاك الأمم أمة ، بعد أمة ولكن بعد الإنذار والإعذار لها .

٢ – بيان عاقبة المكذبين وما حل بهم من دمار وعذاب عاجل لينتقلوا إلى العذاب الآجل .

٣ – بيان أن آيات الله وعبره في الأمم السابقة إنما يستفيد ويستنير منها المؤمنون . أما المكذبون المعاندون فلا ينفعهم ذلك ولو جاءتهم كل آية ، كما ذكر الله في قوله تعالى في شأن كفار قريش : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام:١١١] .

المبحث السابع
عقوبة أصحاب الفيل

المطلب الأول : الآيات التي تحدثت عن ذلك :

سورة الفيل : قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾ [الفيل:١-٥] .

لطائف الآيات :

أولاً : لم تذكر قصتهم إلا مرة واحدة فقط ، ولم تتكرر خلافاً لقصص غيرهم من الأمم لوجهين :

أحدهما : أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله .

ثانيهما : أن لا يتخذ المشركون من تكراره غروراً بمكانة لهم عند الله[١] .

ثانياً : لم قال ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ مع أن هذه الواقعة وقعت قبل بعثة النبي ﷺ ؟

والجواب : المراد العلم والتذكير ، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر ، فكان العلم الحاصل به ضرورياً مساوياً في القوة والجلاء للرؤية[٢] .

ثالثاً : لم قال (كيف) دون غيره من أسماء الاستفهام أو الموصول ؟ فلم يقل : ألم تر ما فعل ربك ، أو الذي فعل ربك .

والجواب : للدلالة على حالة عجيبة يستحضرها من يعلم بتفصيل القصة[٣] .

رابعاً : لم قال (فعل) دون غيرها من جعل أو خلق أوعمل ؟

والجواب : لأن مدلول هذا الفعل يعم أعمالاً كثيرة لايدل عليها غيره ؛ حيث ذكر لفظاً واحداً يشمل الكل[٤] .

خامساً : جئ في تعريف الله – سبحانه – بوصف رب مضافاً إلى ضمير النبي ﷺ إيماءً إلى أن المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبي ﷺ لنبوءته ؛ إذ كان ذلك عام مولده[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٥٤٤/٣٠) م (١٥) .

(٢) التفسير الكبير (٩٧/٣١) .

(٣) التحرير والتنوير (٥٤٥/٣٠) م (١٥) .

(٤) لأن خلق يستعمل لابتداء الفعل ، وجعل للكيفيات مثل ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام:١] ، وعمل بعد الطلب ، وفعل عام ، فكان أولى ؛ لأنه تعالى (خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه ، وسألوه أن يحفظ البيت ولعله كان فيهم من يستحق الإجابة فلو ذكر الألفاظ الثلاثة لطال الكلام . التفسير الكبير (٩٨/٣١) .

(٥) التحرير و التنوير (٥٤٦/٣٠) .

سادساً : في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [الفيل:١] مذكورٌ في معرض التعجب فما حكمته ؟

والجواب : أن الكعبة قبلة صلاتك ، وقلبك قبلة معرفتك ، فإذا حفظ الله قبلة عملك عن الأعداء أفلا يحفظ قبلة دينك عن الآثام والمعاصي[١] ؟

سابعاً : لم قال ﴿ أَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ ولم يقل أرباب أو ملاّك الفيل ؟

والجواب : أن الصاحب يكون من الجنس فقوله ﴿ أَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل في البهيمة ؛ بل فيه دقيقة وهي : أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين ، فيقال للأدون : إنه صاحب الأعلى ولا يقال العكس ، ولذلك يقال لمن صحب الرسول — عليه الصلاة والسلام — إنهم الصحابة ، فقوله ﴿ أَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حالاً وأدون منزلة من الفيل وهو المراد من قوله تعالى ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤] ومما يؤكد ذلك كما سيأتي أنهم كلما وجهوا الفيل إلى جهة الكعبة كان يتحول عنه ويفر كأنه يقول : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، عزمي حميد فلا أتركه ، وهم ما كانوا يتركون تلك العزيمة السيئة ، فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالاً منهم[٢] .

تاسعاً : في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ [الفيل:٢] والكيد : هو إرادة مضرة بالغير على وجه الخفية ، فلِمَ سماه كيداً وأمره كان ظاهراً ؟ فإن أبرهة الأشرم كان يصرح أنه يريد هدم البيت ؟ .

والجواب : نعم كان يصرح بذلك لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهره ، لأنه يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم ، إلى نفسه وإلى اليمن التي يحكمها[٣] .

---

(١) التفسير الكبير (٩٨/٣١) .

(٢) المصدر نفسه (٩٨/٣١) .

(٣) التفسير الكبير (٩٩/٣١) .

عاشراً : في قوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل:٣] فلم قال طيراً على التنكير ؟

والجواب : إما للتحقير ، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر ، أو التفخيم كأنه يقول : طيراً وأي طير ترمي بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل[١] .

الحادي عشر : في قوله تعالى (أبابيل) هل هو واحد أو جمع ؟

والجواب : معناها جماعات متفرقة ؛ أي : حلقة حلقة ، وقيل : هي التي يتبع بعضها بعضاً ، وقيل : الكثيرة ، وقيل : المختلفة الألوان ، فهي جمع لا واحد لها من لفظها مثل كلمة (إبل) وهي مؤنثة ؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم[٢] .

الثاني عشر : في قوله تعالى ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الفيل:٤] .

اختلف في معنى السجيل ، فقيل : معناها : النار وهو (السجين) أبدلت النون لاماً ، قيل : مأخوذٌ من السّجل ، كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار يعني ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ [المطففين:٧] واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ، ومنه السّجْل : الدلو المملوء ماء ، وهي حجارة مرسلة ، لقوله ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل:٣] وقد رجح صاحب أضواء البيان أنها من طين شديد القوة ، وهذا مايشهد له القرآن لما في سورة الذاريات ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات:٣٢-٣٤] فنص على أنها من طين[٣] .

---

(١) التفسير الكبير (٩٩/٣١) .

(٢) قال الفراء وأبو عبيدة : لا واحد لها ، وقيل : واحدها إبال وإبول ، وأبيل فأبابيل بمنزلة عبابيد وشماطيط و شعاليل ، وإبول وإبيل مثل عجول وعجاجيل . وأما إباله فهي من الحطب والحشيش ، وفي المثل : ضغث على إباله أي : زيادة على وقر . انظر : لسان العرب (٤٩/١ و ٥٠) . مادة (أبل) ، وانظر : معاني القرآن للفراء (٢٩٢/٣) ؛ مجاز القرآن لأبي عبيدة (٣١٢/٢) ؛ معاني القرآن للزجاج (٣٦٣/٥) ومن التفاسير : تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٥٧٨" ، التحرير والتنوير (٥٤٩/٣٠) .

(٣) انظر : (تفسير ابن جرير الطبري) (٦٠٩/٢٤) . أضواء البيان (٥٢١/٩ ، ٥٢٢) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة :

عزم (**أبرهة**) قائد جيش الحبشة على هدم بيت الله وكعبته .

وخلاصة ذلك :

أن الحبشة قد ملكوا اليمن بعد واقعة الأخدود[١] ، وصار أمير الحبشة على اليمن رجلاً يقال له (**أبرهة الأشرم**) فرأى حقداً منه على العرب أن يبني كنيسة يصرف بها الناس عن قصد مكة ، وليحول التجارة وطرقها ومكاسبها من مكة إلى اليمن ، وعرض ذلك على ملك الحبشه فوافق وسره ذلك ، ولما بنى (**الكنيسة**)[٢] نادى بذلك في مملكته ؛ فكرهت العرب ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً . فقصدها بعضهم ودخلها ليلاً فتغوط فيها ولطخ جدرانها بالعذرة ، وكر راجعاً من حيث أتى ، فلما رآها (**أبرهة**) استشاط غيظاً وأقسم ليذهبن إلى بيت مكة (**الكعبة**) وليخربنه حجراً حجراً ، وفعلاً جهز جيشاً كبيراً يتقدمهم فيل عظيم لم ير مثله ، وساروا ، ما يقف في وجههم حي من العرب إلا قاتلوه وغلبوه ؛ لما يريد الله بهم حتى وصلوا إلى الطائف فدله أهلها لطريق مكة وأرسلوا معه من يدلهم حتى وصلوا إلى مكان يسمى (**المغمّس**)[٣] ، وجرت بينهم وبين شيخ مكة وسيدها عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ سفارات وانتهت بأن يرد (**أبرهة**) إبل عبد المطلب التى أخذها جيشه ويخلي بينه وبين الكعبة ، ففعل ورجع عبد المطلب إلى مكة وأمر رجال مكة أن يخلوا البلد ويلتحقوا برؤوس الجبال بنسائهم وأطفالهم خشية المعرة التى قد تلحقهم من الجيش الظالم الذي لا يستطيع أحد من البشر ردّه ، ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٨٧) .

(٢) سماها القليس . انظر : (تفسير ابن جرير الطبري) (٢٤ م ٦٠٩) ؛ البداية والنهاية (٢/١٧٠).

(٣) موضع فسيح يقع بعد عرفة قليلاً من جهة الشرق على طريق الطائف السيل ، وبقي على اسمه إلى اليوم . انظر : معجم البلدان (٥/١٨٨) برقم [١١٤٢٨] .

نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه وكان مما قال فيما اشتهر عنه[1] :

لاهُـــم إن العبـــد يمـــ	**ـنع رحله فـا منـع رحـالك**
لايغلـــبن صليبـــهم	**ومحـــالهم غــدواً محـــالك[٢]**
إن كنــت تاركـــهم وقبـــ	**ـلتنا فـأمرٌ مـا بـدا لـك**

وهنا تتدخل قوة الله التى لاتقهر ، لحماية بيته وحرمه . فتحول القوة إلى ضعف ، والنصر إلى هزيمة فكيف كان ذلك ؟ .

---

(١) انظر : سيرة ابن إسحاق المسماة : المبتدأ و المبعث والمغازي - محمد بن إسحاق بن يسار ص"٣٩" ؛ سيرة ابن هشام (٥١/١) ؛ الروض الأنف للسهيلي (٢٦٢/١) ؛ البداية و النهاية (١٧٢/٢، ١٧٣) .

(٢) مِحَالك : المحال بكسر الميم هو الكيد ومَحِلَ به يمحَلُ مَحْلاً : كاده بسعاية إلى السلطان ومنه قوله تعالى ﴿ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد:١٣] وقال الأزهري المحال القوة والشدة ، وما حلت فلاناً أي قاويته حتى يتبين أيّنا أشد وقال أبو عبيدة : (المحال) العقوبة والمكروه . انظر : (لسان العرب) (٤٠/١٣) مادة محل .

المطلب الثالث : نوع العقوبة :

قال تعالى ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ﴾ [الفيل:٣-٥] .

فلما أصبح هيأ جيشه لدخول مكة ووجه فيله الكبير إليها ، ولكن الفيل لم يعد الفيل المعروف لقد برك ، والقوم في أول أمرهم لم ينالوا خيراً ، وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة فقالوا : خلأت[١] القصواء .

فقال النبي ﷺ « **ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل** »[٢] ، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة « **إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب** »[٣] فهي حادثة ثابتة بنص الحديثين السابقين .

ثم كان ما أراده الله – عز وجل – من إهلاك أبرهة وجيشه ؛ حيث أرسل الله عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين ، ما يسقط الحجر على الواحد منهم إلا ذاب وتناثر لحمه ، وهلك منهم من هلك وهرب من هرب ولحمه يتناثر ، منهم (أبرهة) خرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وهلك وهلك جيشه ؛ حيث جعلهم الله كورق أكلته الدواب وداسته بأرجلها ، فكانت آية عظيمة من آيات الله وإرهاصا ينبئ عن قرب حدث عظيم آن لمكة أن تتهيأ لاستقباله وتستعد لرؤية أنواره ألا وهو ولادة خير البرية ومنقذ البشرية محمد ﷺ[٤] . وهكذا كانت حادثة الفيل نصرة من الله لسكان حرمه وحماة بيته[٥] .

---

(١) خلأت : أي تركت السير .

(٢) رواه البخاري – كتاب الشروط – باب الشروط في الجهاد – (٢/٢٧٩) برقم [٢٧٣١ ، ٢٧٣٢] .

(٣) رواه البخاري – كتاب اللقطة – باب كيف تعرف لقطة أهل مكة ، ورواه مسلم – كتاب الحج – باب تحريم مكة وصيدها – (٢/٩٨٨) برقم [١٣٥٥] .

(٤) يذكر المؤرخون أن النبي ﷺ حين حادثة الفيل كان حملا في بطن أمه ، وولد بعد حادثة الفيل بخمسين يوما ، وهو أشهر الأقوال . انظر : (البداية والنهاية) (٢/٢٦٢) .

(٥) انظر القصة في سيرة ابن إسحاق ص"٣٨-٤٢" ؛ تهذيب سيرة ابن هشام ص (٢٦-٢٩) ؛ البداية والنهاية (٢/١٧٠-١٧٦) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها :

أولاً : دلت حادثة الفيل على عظيم قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ، ودلت على شرف محمد ﷺ ؛ لأنه يجوز تقديم خوارق العادات على زمان البعثة تأسيساً وإرهاصاً[١] كما في تظليل الغمامة له ﷺ[٢] .

ثانياً : العبرة من هزيمة جيش أبرهة لأهل مكة هي كون القصة قريبة العهد ، فذكرهم الله بها ليخافوا من أن يعاقبهم الله بمثلها إذا استمروا في تكذيب النبي ﷺ .

ثالثاً : دلت القصة وما حصل فيها من عقوبة لأولئك البغاة على تكريم الله لكعبته وحرمه وإنعامه على أهله بدفع العدو عنهم ، فكان يجب عليهم المبادرة إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ وعبادة الله وشكره على نعمائه[٣] .

رابعاً : من سنة الله – تعالى – دفع العذاب الدنيوي عن قوم لأجل غيرهم ، وقد يكون هذا (الغير) حرمة الكعبة وصيانتها من التخريب ، وقد يكون (الغير) الضعفاء في الأمة كالأطفال والشيوخ كما جاء في الحديث « **أبغوني الضعفاء ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم** »[٤] أي : يرد عنكم الأذى ، ويرد عنكم اعتداء العدو لا بقوتكم ، ولكن رحمة بالضعفاء منكم بأن لا يمسهم أذى من العدو إذا استولى على البلاد فيردهم عنكم لهذا السبب ، وهذا تنبيه للنّاس بالعناية بالضعفاء وعدم إهمالهم ،

---

(١) كان إرسال الطير إرهاصاً للنبي ﷺ ، وأما بعد النبوة فلم يكن له حاجة لذا لم يُعذب الحجاج بن يوسف الثقفي بتخريب البيت لأنه لم يكن قاصداً ذلك ، وإنما أراد قتل ابن الزبير ثم أصلح بناء البيت بعد ذلك ، انظر : (البداية والنهاية) (٨/٣٤١) .

(٢) التفسير الكبير (٣٢/٩٧) .

(٣) التفسير المنير (٣٠/٤٠٩ ، ٤١٠) .

(٤) رواه أحمد (٥/١٩٨) برقم [٢١٧٧٩] .

وأبو دواد – كتاب الجهاد – باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة – (٣/٧٣) برقم [٢٥٩٤] .

النسائي – كتاب الجهاد – باب الاستنصار بالضعيف – (٦/٤٦) – برقم [٣١٧٩] .

الترمذي – كتاب الجهاد – باب ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين (٤/٢٠٦) برقم [١٧٠٢] وقال : حديث حسن صحيح .

ابن حبان – كتاب السير – باب ذكر استحباب الانتصار بضعفاء المسلمين – (١١/٨٥) برقم [٤٧٦٧] . الحاكم ، كتاب الجهاد (٢/١١٦) برقم [٢٥٠٩] ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي والألباني . انظر الصحيحة (٢/٤٢٢) برقم [٧٧٩] .

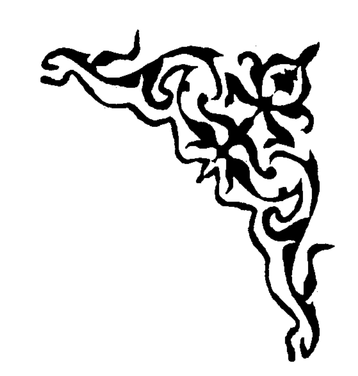
فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك ويعلموا الناس ألا يستهينوا بالضعفاء أو يحتقروهم[1] . فربما دعوة منهم ينصر الله بها المؤمنين على عدوهم ، أو يدفع الله بها نقمته عن بلدهم ...

خامساً : على المسلم ألاييأس أبداً من نصر الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، مهما طال الليل وادلهمت الخطوب وكثرت الفتن ؛ لأن الله قد أخذ على نفسه أن ينصر عباده والله لا يخلف الميعاد قال تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر:٥١] وقال سبحانه : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧] ثم ليعلم المسلمون اليوم أن معركتنا مع اليهود تحتاج إلى قوة إيمان وزيادة يقين أن الله حقاً هو الذي ينصر عباده ؛ بل ويعينهم على ذلك مع الأخذ بالأسباب من إعداد القوة والالتزام بالمنهج الاسلامي الصحيح السليم الخالي من إقامة الشعارات المعادية لشعار « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** »[2] مع الابتهال والتضرع إلى الله تعالى .

فهذا عبد المطلب على كفره لما علم بجيش أبرهة وأنهم لايستطيعون دفعه أخذ بحلق الكعبة يدعو الله هو ومن كان معه ويستنصرونه على أبرهة وجيشه ، فحمى الله بيته ومزق أبرهة وجيشه . فعلى الدعاة إلى الله - تعالى - توعية الناس ودعوتهم إلى أن يثقوا بالله تعالى ، ويتوكلوا عليه مهما كانت قوة عدوهم ، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ [يوسف:٢١] - ونحن لو صدقنا الله - تعالى - لهيأ لنا من أسباب النصر والعزة ما لا يخطر لنا ببال وصدق الله عز وجل إذ يقول : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور:٥٥] .

(١) انظر : (تفسير القاسمي) (٩/١٥) ؛ القصص القرآني (٦١٦/١) .

(٢) سبق تخريجه ص"١٢٢" .

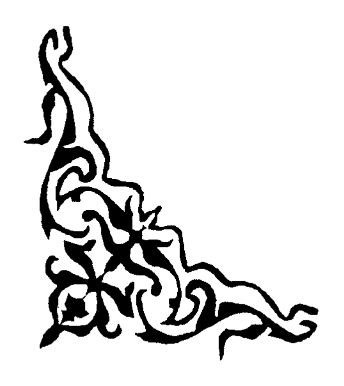
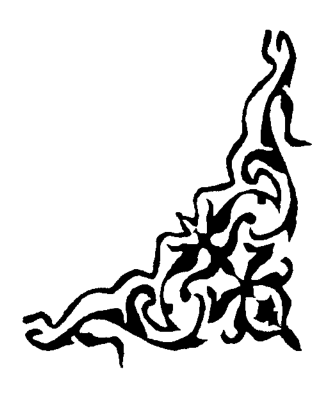



الخاتمة

وفيها أهم نتائج البحث :

أولاً : الأسباب التي أهلك الله بها الأقوام المكذبين أو حذر منها الأنبياء أقوامهم ثم وقعت .

ثانياً : التوصيات والمقترحات .

الأسباب التي أهلك الله بها الأقوام

أهلك الله – تعالى – الأمم المكذبة بجمع من الأسباب حذر منها الرسل أقوامهم فانتهكوها وكذبوا رسلهم ، وإليكها متتالية حسب الأهم فالأهم لأن بعضها لا ينفصل عن بعض ، وإن كان عذاب كل أمة اختص بسبب معيّن إلا أنها قد تشترك أمة أخرى معها في نفس الذنب الذي هلكت بسببه .

أولاً : الكفر بالله تعالى :

الكفر بالله – تعالى – من الأسباب التي يعاقب الله عليها الأمم بعد الإعذار والإنذار .

والكفر في **اللغة** : الستر والتغطية .

وسمي الكافر كذلك لأنه يغطي بكفره ما يجب أن يكون عليه من الإيمان ، وسُمّي الليل كافراً لستره الناس ، وسُمّي الزراع كفاراً لسترهم الحبَّ وتغطيته قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾[1] [الحديد:٢٠] .

وأما في **الاصطلاح** : فمعناه ستر الحق بالجحود[2] .

والكفر ضد الإيمان الذي معناه التصديق والاعتقاد والإقرار بأركانه .

وقد يأتي الكفر بألفاظ أخرى مثل التكذيب والشرك والظلم وإن كان بينها عموم وخصوص[3] ، ويتبين ذلك بذكر الآيات التي تبيّن أن سبب العقاب جاء بهذه المعاني كلها .

فعن الكفر وأنه سبب للعقاب :

قال تعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنفال:٥٢] .

وقال أيضاً : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ [التغابن:٥-٦] .

وقد يأتي الكفر بمعنى نفي الإيمان قال تعالى : ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء:٦] .

أما **الشرك** فقد ذكر الله – تعالى – أنه سبب للعقاب في قوله تعالى : ﴿ قُلْ

---

(١) وانظر : (مفردات الراغب) ص"٤٣٢" ، وانظر : (تفسير المنار) (١/١٤٠) .

(٢) تفسير النسفي (١/١٥) .

(٣) انظر : الفروق اللغوية – للعسكري ص"١٩٠" .

سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[1] [الروم:٤٢] فكان سبب عقابهم أنهم كانوا مشركين .

وقوله تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:١٥١] .

فالشرك في هذا الموضع سبب للعقاب ، وعقوبته في الآية إلقاء الرعب في قلوب الكفرة[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود:١٠١] .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة:٥٤] .

فكان شركهم بالله – تعالى – سبباً في قتل أنفسهم ليتوب الله عليهم .

وأما عن **الظلم**[3] وأنه سبب في العقاب فيقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [التوبة:٧٠] .

فهؤلاء الأقوام الذين ظلموا أنفسهم بعد قيام الحجة عليهم حل عليهم عقاب الله . كما هي سنته عز وجل في خلقه[4] .

وأما **التكذيب** برسل الله – تعالى – فيقول الله سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ق:١٢-١٤] .

---

(١) **الشرك معناه** : هو أن يجعل لله نداً يدعوه ويرجوه ويخافه كما يخاف الله . فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لـ عبد الرحمن بن حسن بن عبد الوهاب ص"٣١٩" .

(٢) انظر : (تفسير القرطبي) (٥٣٣/٤) .

(٣) **الظلم معناه** : نقصان الحق أو بعضه . الفروق اللغوية ص"٩١،٩٢" .

(٤) انظر : (تفسير القرطبي) (٢٠٢/٨) .

وعن التكذيب بآيات الله يقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٢] وهذا التكذيب (تكذيب الرسل والتكذيب بآيات الله) أكثر أسباب العقاب وروداً في القرآن .

قال تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [فاطر:٢٥] .

وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ حيث يقول له : يا محمد ، إن يكذبك مشركوا مكة فاعلم أن الرسل قبلك كذبوا فاستأصل من استأصل وأهلك من أهلك بإنزال العذاب عليهم وفق سنته - تعالى - وفي ذلك تحذير للكافرين من قريش وغيرهم في كل زمان ومكان من إنزال عذاب الله الذي لا يرد عن القوم الظالمين[1] .

ومن صور التكذيب أيضاً : إنكار البعث والجزاء يوم القيامة :

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سبأ:٣٤-٣٥] .

وكما قال قوم هود : ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الشعراء:١٣٧-١٣٨] .

ففي الآية الأولى يحذر الله الكافرين الذين ينكرون البعث والجزاء من عقابه الذي أعده لمنكريه ، وأن أموالهم وأولادهم ليست هي التي تقربهم عند الله ، وليست هي التي تنجيهم من عذابه لظنهم أن من أحسن الله إليه في الدنيا فلن يعذبه ، فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾[2] [سبأ:٣٦] أي : يوسعه لمن يشاء ويقدر ، فهو الذي يفاضل بين عباده ابتلاءً واختباراً[3] .

ومن صور **التكذيب** : تكذيب الأمة بعد مجيء الآيات التي تطلبها :

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٣٤١/١٤) ؛ تفسير ابن كثير (٥٦٠/٣) ؛ تفسير المراغي (١٥٧/٩) ؛ وتفسير القاسمي (١٥) ١٥٦) .

(٢) مثل قوله تعالى عن صاحب الجنتين : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف:٣٦] ، و ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر:١٥-١٦] .

(٣) تفسير القرطبي (٣٠٥/١٤) .

فعندها يحل بها العقاب كما جرت سنته تعالى بذلك ، قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[١] [الإسراء:٥٩] .

قال المفسرون : **إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم جبال مكة ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان ما سأل قومك، ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا وإن شئت استأنيت بهم ، فأنزل الله هذه الآية**[٢] .

والمعنى : وما يمنعنا من إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين ، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا و لم يمهلوا كما هي سنة الله – سبحانه – في عباده[١] .

ثانياً : المعاصي والذنوب :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام:٦] .

يبيّن الله لنبيه في هذه الآية أن سبب انتقامه من أولئك الهالكين إنما كان بسبب الوقوع فيما حرم الله من ارتكاب الذنوب ؛ لأن كل مخالفة لأمر الله ذنب يعاقب الله عليه ، وإذا تجمعت الذنوب على أمة حل بها الهلاك وأنشأ الله أمماً أخرى غيرها[٣] .

وهكذا كلما عصت أمة أجّلها الله مدة من الزمن لعلهم يتوبون ويذكرون فيرجعون ؛ فإن أبوا أغدق الله عليهم النعم ليستدرجهم من حيث لا يعلمون كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام:٤٤] .

---

(١) فتح القدير (٣/٢٣٧) ، وانظر : (تفسير الطبري) (١٧/٤٧٦ ، ٤٧٧) .

(٢) فتح القدير (٣/٢٣٧) ، انظر : تفسير ابن جرير (١٧/٤٧٦) ، وانظر : أسباب النزول لـ(الواحدي النيسابوري) أبي الحسن علي بن أحمد ص (٢٣٧) ط دار الريان للتراث . وأصله حديث ، رواه الإمام أحمد (١/٢٥٨) برقم [٢٣٣٣] قال عنه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٥٢) : سنده جيد . ورواه الحاكم ، كتاب التفسير ، تفسير سورة بني إسرائيل (٢/٣٩٤) برقم [٣٣٧٩] وقال : صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، وأقره الذهبي . وقال الهيثمي في المجمع (٧/٥٠) : رجاله رجال الصحيح .

(٣) انظر : (تفسير ابن جرير) (١١/٢٦٣) .

يقول ابن جرير رحمه الله تعالى : فإن قال قائل : وكيف قيل ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٤٤] وقد علمت أن باب الرحمة وباب التوبة لم يفتح لهم ، وأبواب أخر غيرهما كثيرة ؟ قيل : إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننت من معناه ، وإنما معنى ذلك : فتحنا عليهم استدراجاً منا لهم ، أبواب كل ما كنا سددنا عليهم بابه ، عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا إذا لم يتضرعوا وتركوا أمر الله تعالى لأن آخر هذا الكلام مردود على أوله وذلك كما قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[1] [الأعراف:٩٤-٩٥] .

وهذا منه كما ذكرنا استدراج وإملاء لهم عياذاً بالله من مكره ، فإذا هم آيسون من كل خير![2] .

يقول صاحب المنار : والذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان :

أحدهما : معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به .

ثانيهما : كفر النعم بالبطر والأشر ، وغمط الناس حقوقهم ، واحتقارهم ، وظلم الضعفاء منهم ، ومحاباة الأقوياء ، والإسراف في الفسق والفجور والغرور بالغنى والثروة[3] .

فما الذي أغرق قوم نوح وحصد قوم عاد بالريح وأهلك قوم ثمود بالصيحة وقلب قرى قوم لوط فجعل عاليها سافلها وحصبهم بحجارة من سجيل وأغرق قوم فرعون في البحر وغيرهم كثير إلا معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به ، وهذا مشترك بين الأمم ثم اختصاص كل أمة بظلم معين مما ذكرنا في القسم الثاني .

قال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

---

(١) ومعنى عفوا : كثروا وكثرت أموالهم . معاني الزجاج (٣٥٩/٢) ؛ تفسير القرطبي (٢٥٢/٧) .

(٢) انظر : (تفسير ابن جرير) (٣٥٨/١١) ؛ تفسير ابن كثير (١٣٧/٢) .

(٣) تفسير المنار (٣٠٨/٧) .

وفي الحديث : « **لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم** »[(١)] .

ومن آثار الذنوب والمعاصي على الفرد والمجتمع أنها سبب للانتقام وزوال النعم ، وأكبر هذه النعم نعمة الإيمان ؛ لأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعاصي[(٢)] ، وتزيل نعمة المال والرزق[(٣)] وفي الحديث « **إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه** »[(٤)] . كما أنه يزيل نعمة الأمن في الأوطان قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢] .

فبيّن هنا أنه بسبب الكفر بأنعم الله العديدة التي منها الأمن أذاقهم لباس الجوع والخوف بسبب ما حصل منهم . كما أنها تزيل نعمة العافية في الأبدان لقوله ﷺ من حديث طويل رواه ابن عمر « **لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا** »[(٥)] ، كما أنها تلقي الرعب في القلب ، وتمرض القلب وتعمي البصيرة ، وتُصْغِر النفوس ، وتسقط الكرامة ، وتجلب الذم ، وتؤثر في العقل ، وتوجب القطيعة بين العبد والرب ، وتمحق البركة ، وتجعل صاحبها من السفلة ، وتجرئ الأعداء عليه ، وتضعف العبد أمام نفسه ، وتجلب له الهلاك إلى غير ذلك[(٦)] .

---

(١) رواه أحمد (٤/٣١٩) برقم [١٨٣١٩] ، (٥/٢٤٥) برقم [٢٢٥٦٧] .
ورواه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي (٤/٥١٥) برقم [٤٣٤٧] ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/٨٢٠) .
ومعنى (يعذروا) أي : تكثر ذنوبهم وعيوبهم فيستوجبون العقوبة ، ويكون لمن يعذبهم العذر إذا علموا بعد ذلك . انظر : (النهاية في غريب الحديث والأثر) (٣/١٩٧) ؛ متخصر سنن أبي داود للحافظ المنذري (٦/١٩١) بتحقيق محمد حامد الفقي ورقم [٤١٨١] .

(٢) كما هو مذهب أهل السنة . انظر كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص"٣٩٣" .

(٣) كما سبق ذكره من قصة صاحب الجنتين وأصحاب الجنة وأهل سبأ .

(٤) رواه أحمد (٥/٢٧٧ ، ٢٨٠) ، ورواه الحاكم (١/٦٧٠) برقم [١٨١٤] ووافقه الذهبي ورواه ابن ماجه (١/٣٥) برقم [٩٠ ، ٤٠٢٢] وقال في الزوائد سألت شيخنا أبا الفضل القرافي عن هذا الحديث فقال حسن ، وحسّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لشرح مشكل الآثار (٨/٧٩) .

(٥) رواه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب العقوبات (٢/١٣٣٢) [٤٠١٩] ، ورواه الحاكم (٤/٥٤٠) وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في الصحيحة (١/١٦٨) برقم [١٠٦] .

(٦) انظر : (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي من ص"٧٤ - ١٤٨" .

وإذا كان فيها تلك الآثار وتلك العقوبات فحري بالمؤمن الابتعاد عنها والحذر من الوقوع فيها وخاصة في مثل هذه الأيام التي كثر فيها البلاء ، واشتد فيها الإغراء بالمنكر ، وقل الناصحون ، وكثر السامدون ، وشجع المبطلون ، وزكي المفسدون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ثالثاً : استعجال العذاب .

لقد طلب المكذبون من أنبيائهم العذاب فلبى الله لهم طلبهم كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب فهلكوا جميعاً إلا من آمن ، وما كان من طلب قريش العذاب إلا من قبيل التحدي والاستكبار والعناد ؛ بل إن منهم من كان يطلب العذاب من الله حتى وإن كان النبي ﷺ على حق ليظهر لهم الحق سريعاً بزعمهم .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال:٣٢] وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس:٤٨] فرد الله عليهم مهدداً لهم ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يونس:٥٠] فإنه إذا وقع فلن يرفع عنكم وحينها تؤمنون ولا ينفعكم إيمانكم وقد كنتم تستعجلونه[1] ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يونس:٥١] وقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر:٨٤-٨٥] .

ومع أن طلبهم العذاب كان تحدياً وتعجيزاً للأنبياء إلا أن سنة الله - تعالى - في خلقه ألا يعذب إلا الظالمين ولا ينتقم إلاّ من المجرمين المصرين .

وفي هذا تحذير قوي للمصرين من العصاة في أن يراجعوا دينهم ؛ لئلا يكونوا عرضة لعقاب الله وعذابه في الحياة قبل الممات ، وفي الحديث « **بينما رجل يجرُّ إزاره إذ خُسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة** »[2] .

---

(١) انظر : (تفسير الطبري) ١٠١/١٥ ؛ تفسير القرطبي (٣٥١/٨) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب اللباس ، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥٤/٤) برقم [٥٧٩٠] .

رابعاً : ادعاء الألوهية والربوبية .

قال تعالى عن فرعون : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص:٣٨] .

لقد نصّب فرعون نفسه آمراً ناهياً بحق وبغير حق ، وأوجب على الناس طاعته ، وطغى وبغى في الأرض ، وذبح أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم ، وسخر رجالهم لخدمته في أشق الأعمال وأرذلها ، ونصّب نفسه إلهاً يُعبد ليلاً ونهاراً ، فدعاه موسى – عليه السلام – للإيمان بالله وترك عبادة ما سواه ، فأبى وتأبى ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النازعات:٢٥] وانتقم منه ، فكان عبرة لغيره في الدنيا ونكالاً يُعذب عليه في الآخرة أشد العذاب[1] قال تعالى : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦] .

خامساً : الاستكبار .

يقول تعالى مخبراً عن الأمم التي عاقبها وأن الكبر كان من جرائمها ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٣٨-٤٠] .

والاستكبار معناه : الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً[2] ، وأعظم الكبر التكبر على الله عز وجل .

وقد بيّن سبحانه في آية أخرى أن العذاب لا يقتصر على تلك الأقوام فقط ؛ بل إن سنته مطردة في عقاب الأمم التي تستكبر عن عبادته وتتكبر على الحق ولا تقبله قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ

(١) انظر : (تفسير ابن كثير (٣/٤٠١) .

(٢) لسان العرب (١٢/١٣)، وانظر : الفروق اللغوية ص"٢٠٦" .

وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر:٤٢-٤٣].

وأعلم أن من علامتهم الاشمئزاز عند ذكر الله والاستكبار عند سماع « لا إله إلا الله » ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ[1] قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر:٤٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات:٣٥].

فكان جزاؤهم أن صرفهم الله عن الحق ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٦] .

سادساً : قتل الأنبياء وإيذاؤهم بشتى أنواع الإيذاء .

رأينا مما سبق في الحديث عن أصحاب الرس وعن محاولة النصارى قتل عيسى – عليه السلام – أن ذلك كان سبباً في عقوبتهم هم وغيرهم قال تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة:٦١] .

وقتل الأنبياء أعظم الذنوب عند الله وأقبحها ، وقد يكفر بعض الناس بالرسل ولكن أن يصل إلى قتل ذلك الرسول أو النبي فهذا يدل على الحقد والغيظ الشديدين للأنبياء وبما أتوا به من هداية للبشر .

وأشهر من وقع في ذلك بنو إسرائيل ؛ حيث قتلوا كثيراً من الأنبياء كزكريا ويحيى — عليهما السلام[2] — وحاولوا قتل عيسى بن مريم — عليه السلام – فنجاه الله برفعه إليه ، ومع هذا فهم يزعمون إلى اليوم أنهم قتلوه ويتباهون به ، قبحهم الله ولعنهم .

---

(١) أي نفرت من توحيد الله . انظر معاني القرآن ، الزجاج (٣٥٦/٤) ؛ تفسير ابن جرير الطبري (٣٠٠/٢١) .

(٢) انظر : حاشية الجمل على الجلالين والمسمى (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (٥٩/١) (سليمان عمر العجلي الشهير بالجمل) ، ط عيسى البابي الحلبي بمصر .

أخرج الإمام أحمد من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبياً** ... الحديث »[١].

وعند الطبري : كانوا يقتلون رُسُل الله بغير جناية جناها الرسل ، منكرين رسالتهم جاحدين نبوتهم ، وحمى الله - عز وجل - من أراد حمايته من أنبيائه ورسله من القتل ؛ لتقوم الحجة على المعاندين والجاحدين ؛ ويؤمن من أراد الله به خيراً حكمة بالغة وقوة قاهرة ، ولا يظلم ربك أحداً! وحمى الله نبيه محمداً ﷺ من كيد الأعداء ؛ وإلا فقد حدث له قريب مما حدث لأنبياء الله وأصفيائه وأكثر بأن عصمه الله وتولى حمايته بنفسه قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة:٦٧] .

وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحرس كما عند الإمام أحمد أن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت : فقلت ما شأنك يا رسول الله ؟ قال : « **ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة!** » قالت : فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال « **من هذا ؟** » فقال : أنا سعد بن مالك ، فقال : « **ما جاء بك؟** » قال : جئت لأحرسك يا رسول الله ، قالت فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه[٢] .

وعند الترمذي من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت : كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة:٦٧] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال لهم : « **يا أيها الناس انصرفوا ، فقد عصمني الله** »[٣] .

---

(١) رواه أحمد (١/٤٠٧) برقم [٣٨٦٨] ، وأخرجه البزار (٥/١٣٨) برقم [١٧٢٨] ط مكتبة العلوم والحكمة ، وأورده الهيثمي في المجمع (٥/٢٣٦) وقال : رواه البزار ورجاله ثقات .
وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠/٢١١) برقم [١٠٤٩٧] وحكم عليه الألباني في صحيح الجامع الصغير بأنه حسن (١/٣٣٥) برقم [١٠١١] وكذلك شعيب الأرناؤوط وآخرون . انظر تحقيقه لمسند الإمام أحمد (٦/٤١٣ - ٤١٥) ط مؤسسة الرسالة .

(٢) رواه أحمد (٦/١٤١) برقم [٢٥١٣٦] .
والحديث في الصحيحين . رواه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢/٣٢٧) برقم [٢٨٨٥] .
ورواه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (٤/١٨٧٥) برقم [٢٤١٠] .

(٣) ورواه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب (ومن سورة المائدة) (٥/٢٥١) برقم [٣٠٤٦] ، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/٤٦) برقم [٢٤٤٠] .

ومن عصمة الله لرسوله ﷺ حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها ؛ مع شدة العداوة له ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً بما يهيئه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته ، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش ؛ حيث أودع الله في قلبه محبة فطرية لرسوله ﷺ ، ولو أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ولكن كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر فهابوه واحترموه ، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون ، ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم (وهي المدينة) فلما صار إليها منعوه ، وكلما همّ أحدٌ من المشركين وأهل الكتاب بسوء له رد الله كيده عليه ؛ حيث حماه الله من اليهود حين سحروه وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء ، ولما وضعوا له السم في ذراع الشاة أخبره الله به وحماه ، ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها[1] .

وأما إيذاؤهم له فما أكثر ما أوردوا به من استهزاء وازدراء وسب وشتم وتهديد مرة بالإخراج وأخرى بالرجم وتشاؤم وتطير ... الخ !

وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد:٣٢] وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجر:١٠-١١] و [سورة الأنعام:١٠] و [سورة الأنبياء:٤١] .

وعن الإخراج يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم:١٣] .

ويقول تعالى مخبراً عن كفار قريش ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الإسراء:٧٦-٧٧] .

وعن التهديد بالرجم يقول تعالى عنهم ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس:١٨] وقولهم لنوح عليه السلام ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء:١١٦]

---

(١) انظر : (تفسير ابن كثير) (٢/٨١ ، ٨٢) .

وقولهم لشعيب ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود:٩١] الآية ، وغيرهم ...

فصدقت سنة الله فيهم فاستحقوا عذابه وأليم عقابه .

سابعاً : الإسراف والترف والبطر .

الإسراف : مجاوزة القصد .

وأما السرف الذي نهى الله عنه فهو ما انفق في غير طاعة الله قليلاً كان أو كثيراً .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [الأنفال:٣٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧] .

والإسراف هنا : أكل مالا يحل أكله . وقيل : هو مجاوزة القصد في الأكل مما أحله الله[1] .

وأما كونه من أسباب العقاب الإلهي فلأنهم تجاوزوا الحد في الكفر والمعاصي قال تعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنبياء:٩] .

ويقول عن قوم لوط ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات:٣٣-٣٤] وقال عن فرعون : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس:٨٣] وقال عن مجموعهم ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:١٢] ونهى الله عن طاعتهم فقال : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الشعراء:١٥١] .

وقد يأتي الإسراف بمعنى الشرك كما جاء في تفسير ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنبياء:٩] والمسرفون في الآية هم المشركون[2] .

وعلى هذا فكل من تجاوز حد الاعتدال فإن عمله ذلك يكون سبباً في العقاب إلا أن يتوب .

---

(١) انظر : (لسان العرب) (٢٤٣/٦ ، ٢٤٤) مادة " سرف " .

(٢) انظر : (تفسير الطبري) (٤١٥/١٨) ؛ وفتح القدير (٣٩٩/٣) .

وأما الترف : فهو التنعم ، والمترف : الذي أطغته النعمة وسعة العيش[١] ، والمترف أيضاً : المتقلب في لين العيش يصنع ما يشاء لا يُمنع[٢] .

قال تعالى : ﴿...وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود:١١٦] فهذه الآية تبيّن أن الترف والتنعم إذا أصاب أمة وانغمست في لذاتها كان ذلك سبباً في نزول العقاب بها .

وعند الطبري : أن الحسن البصري قال بعث الله هوداً إلى عاد فنجى الله هوداً والذين آمنوا معه ، وهلك المتمتعون ، وبعث الله صالحاً إلى ثمود ، فنجى الله صالحاً ، وهلك المتمتعون ، وذكر بقية الأمم .

ثم ذكر أن الذين ظلموا اتبعوا ما أسبغ عليهم ربهم من نعيم الدنيا ولذاتها إيثاراً على عمل الآخرة وما ينجيهم من عذاب الله .

أو واتبع الذين ظلموا ما تجبروا فيه من الملك والعتو عن أمر الله .

ثم قال : وأولى الأقوال عندي بالصواب : أن يقال : إن الله أخبر – تعالى ذكره – أن الذين ظلموا أنفسهم من كل أمة سلفت ، فكفروا بالله ، اتبعوا لذات الدنيا ، فاستكبروا وكفروا بالله وتجبروا وصدوا عن سبيله ، وذلك أن المترف في كلام العرب ، هو المُنعم الذي قد غذي باللذات[٣] .

وسبب الانتقام منهم أن من عادتهم المسارعة في تكذيب الحق ورده ؛ لما يفعله فيهم الترف من بطر النعمة والانغماس في ملذات وشهوات الدنيا لأن الإيمان معناه في نظرهم[٤] : ترك ماهم عليه من النعيم ، ترك ماهم فيه من الجاه والسلطان وكثرة الاتباع وعلو منزلتهم عند الناس ، ترك ماهم فيه من حب التجبر والتسلط ، ترك ماهم عليه من حب الظهور والاستشراف وقمع حرية الآخرين ؛ وإلا لو أنهم آمنوا لانطوى في أيديهم خيري الدنيا والآخرة ؛ ولكنهم اهتموا بالتنعم والانغماس في الشهوات ورفضوا ما وراء ذلك مما ينفعهم في الآخرة ونبذوه وراء ظهورهم[٥] .

---

(١) لسان العرب (٣٠/٢) مادة " ترف " .

(٢) انظر : القاموس المحيط (١٠٦/٢) فصل التاء ؛ وانظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن (٥٣٧/١) ط دار الفكر العربي .

(٣) تفسير الطبري (٥٢٩/١٥) .

(٤) أي : لو آمنوا فإن معناه التنازل عن النعيم والوجاهة والسلطان

(٥) انظر : (تفسير الكشاف) (٤٣٧/٢) ؛ روح المعاني (١٦١/١٢) .

وأما **تخصيص المترفين بالتكذيب** في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سبأ:٣٤-٣٥] لأنهم في الأغلب أول المكذبين للرسل – عليهم السلام – لما شغلوا به أنفسهم من زخرفة الدنيا وما غلب على قلوبهم منها[١] .

وأما طاعة سفلتهم فتبع لهم ؛ لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول ، ألا ترى إلى قوله تعالى عنهم في محاجة بعضهم بعضاً : ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾[٢] [سبأ:٣١] .

ولذا مضت سنة الله – تعالى – في المترفين الذين أبطرتهم النعمة كما رأينا من قارون ، وفرعون ، وهامان ، وغيرهم من قساة القلوب الذين كذبوا رسل الله وعادوا أولياءه فمسخت قلوبهم من كل خير ؛ لأن الترف كما يقول سيد قطب « يغلظ القلوب ويفقدها الحساسية ويفسد الفطرة ويغشيها ، فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل ولا تنفتح للنور »[٣] عندها يقصمها الله — تعالى — ويذيقها العذاب في الدنيا قبل الآخرة قال تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَٰلِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنبياء:١١-١٣] أي : يا من بطرتهم النعمة فردوا الحق الذي جاءهم به الرسل من عند ربهم ، فظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم فاستحقوا العذاب ، قيل لهم على وجه التهكم بهم لما رأوا مقدمات العذاب : لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة لعلكم أن تكونوا مقصودين في أمور الدنيا كما كنتم سابقاً مسئولين من مطالب الدنيا وهيهات ، لقد فات الأوان وحل بكم العقاب[٤] ! قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦] .

---

(١) انظر : (روح المعاني) (١٤٧/٢٢) .

(٢) انظر : (التفسير الكبير) (٢٦١/٢٥) .

(٣) في ظلال القرآن (٢٩١٠/٥) ، وانظر نفس المصدر (٢٢١٧/٤ ، ٢٢١٨) .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير (١٨٣/٣) ؛ تيسير الكريم الرحمن (٢٧٠/٣) .

لأنهم أبوا الحق واستحقوا نقمة الله ؛ عندها يسلط الله شرارهم فيعصون فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم[1] .

وأما البطر : فمعناه الطغيان عند النعمة وعدم القيام بشكرها[2] ، ويطلق أيضاً على كفران النعمة أي سترها بترك أداء شكرها[3] .

والحاصل أن البطر هو الطغيان وكفر النعم .

وسنة الله في البطر وأهله تخريب ديارهم وإهلاكهم ، كما رأينا في قصة أهل سبأ وصاحب الجنتين وأصحاب الجنة وغيرهم ، فكما أهلك أولئك أو مزقهم في الأرض عقوبة لهم فهو القادر - عز وجل - أن يجري سنته على من كان مثلهم في كل زمان ، وما يحصل في هذه الأزمان من دمار ، وحروب ، وزلازل ، وتشريد ، وجوع ، وخوف ... ماهو إلا من سنة الله - تعالى - التي لا تختلف عن موعدها إذا توفرت أسبابها .

قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢] .

وقال عن أهل سبأ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ:١٧] وقال أيضاً : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] أي : لا يغيّر ما بقوم من النعمة والعافية بأن يسلبها منهم حتى يغيروا ما بأنفسهم مما اتصفوا به من الطاعات إلى كثرة المعاصي واقتراف المناهي[4] .

وقال سبحانه : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٥٨] .

---

(١) انظر : (تفسير الطبري) (٤٠٦/١٧) ؛ وانظر : تفسير القرطبي (٢٣٢/١٠) ومعنى (أمرنا) في الآية أي : أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها فحق عليها القول . انظر : نفس المصدر (٤٠٦/١٧) .

(٢) انظر : (لسان العرب) (٤٣٠/١) مادة " بطر " .

(٣) انظر : (مفردات) الراغب ص"٤٥١" .

(٤) انظر : (تفسير الكشاف) (٥١٧/٢) .

والأمم التي أهلكها الله بسبب بطرها كثيرة ، ولازالت بعض آثارها إلى اليوم ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ، وكان الوارث لها هو الله - عز وجل- فلم يكن لمساكنهم وارث . وعادت كما كانت قبل سكناهم فيها ، لا مالك لها إلا الله الذي له ميراث السماوات والأرض[1] .

ثامناً : المكر .

المكر : هو الاحتيال في خفية[2] .

وفي تفسير المنار : هو في الأصل التدبير الخفي المفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسب[3] .

وما نقصده هنا : المكر الذي يصد عن سبيل الله وعن الدعوة إليه ، أو المكر بأنبياء الله أو إيذائهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٣] .

والمعنى : وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لذلك[4] .

وإنما خصهم بالذكر هنا لأنهم أقدر على الفساد وأقوى من غيرهم على حمل الناس على اتباعهم في باطلهم[5] .

وقال سبحانه : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل:٢٦] .

والمعنى : قد مكر الذين من قبلهم (أي : مشركي مكة) فدمر الله بنيانهم من أصولها وجاءهم العذاب من مأمنهم[6] .

---

(١) انظر : (تفسير الطبري) (١٩/٦٠٢) .

(٢) لسان العرب (١٥٩/١٣) مادة " مكر " وانظر : (الفروق اللغوية) للعسكري ص (٢١٥) وانظر : (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز) للفيروزأبادي ، محمد بن يعقوب (٥١٦/٤) بتحقيق : محمد علي النجار ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

(٣) تفسير المنار (٣١٥/٣) .

(٤) تفسير الكشاف (٤٨/٢) .

(٥) تفسير ابن كثير (١٧٢/٢) ؛ القرطبي (٧٠/٧) ؛ الألوسي (٢٢/٨) .

(٦) تفسير الطبري (٩٦/١٤) .

قال الشوكاني : أكثر المفسرين على أن المراد بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ في الآية هو (النمرود بن كنعان) عندما بنى بناءً عظيماً في بابل أراد به الصعود إلى السماء ومحاربة أهلها فدمّر الله بنيانه من القواعد[1] . ثم قال والأولى أن الآية عامّة في جميع المبطلين[2] .

ومثل حال هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله بتبليغ شرعه حال من كان قبلهم حين دبروا الحيل ونصبوا الحبائل ليمكروا برسل الله ، كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بأعمدة فضعفت ، فسقط عليهم سقفها فهلكوا تحته جميعا . فما ظنوه سبب القوة والتحصين صار سبب هلاكهم ، فكذلك كانت عاقبة مكرهم وبالا عليهم[3] .

أمثلة :

رأينا مما سبق كيف مكر الكفرة برسولهم بقتله وقتل أهله ما قصه الله علينا من أخبار ثمود مع نبيهم صالح – عليه السلام – وكيف أن رهطا منهم اتفقوا على قتله قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[4] [النمل:٤٨-٥١] .

ورأينا مدى مكر اليهود بعيسى – عليه السلام – وكيف أرادوا قتله غيلة[5] ، فرفع الله نبيه إليه وألقى شبهه على آخر قال تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨] .

ومكر كفار قريش برسول الله ﷺ وتنادوا فيما بينهم بقتله أو حبسه أو إخراجه من مكة .

---

(١) فتح القدير (١٥٧/٣) .

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر : (تفسير المراغي) (٧٠/١٤ – ٧١) .

(٤) انظر : (تفسير الزمخشري) (٣٧٢/٢ ، ٣٧٣) .

(٥) تفسير الكشاف (٣٦٦/١) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠] ونجى الله رسوله من مكرهم وحاق بهم مكرهم يوم بدر وغيرها قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ ﴾ [فاطر:٤٣] .

وعند ابن كثير في تفسيره والسيوطي في الدر[1] قال محمد بن كعب القرظي : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به : من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها في كتاب الله ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ ﴾ ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ ﴾ [يونس:٢٣] ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ ﴾ [الفتح:١٠] .

والمقصود من كل هذا : أن سنة الله في المكر والماكرين ماضية إلى يوم القيامة يمحق الله بها الباطل وأهله .

قال الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف:٨] ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١] .

تاسعا : الصد عن مساجد الله .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة:١١٤] .

وهذه من المعاصي العظيمة التي يعاقب الله عليها ، وتكون سببا في انتقام الله تعالى ممن يفعل ذلك .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها . فالآية مشعرة بأن ظلمه من أعظم الظلم بعد الشرك بالله تعالى[2] .

وقد ذكر المفسرون أسبابا لنزول هذه الآية لا يصح شيء منها[3] ، والصحيح أن العبرة بعموم اللفظ كما قال الزمخشري : إن الآية وإن كانت في مسجد معين لكن الحكم عام في كل المساجد[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٥٦٩/٣) ؛ الدر المنثور (٤٨٠/٥) .

(٢) صفوة الآثار (٣١٤/٢) .

(٣) نفس المصدر (٣١٤/٢) .

(٤) تفسير الكشاف (١٧٩/١) .

والمقصود أن الآية تتناول كل من منع من مساجد الله شيئا أو خرب مدينة من مدن الإسلام ؛ لأنها مساجد وإن لم تكن موقوفة ؛ إذ الأرض كلها لهذه الأمة لحديث : « **جعلت لي الأرض مسجدا** »[1] .

وما أكثر من يخرب بيوت الله في بلاد المسلمين في هذه الأيام ؛ إما بمنع المصلين من الصلاة فيها كالمسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي في فلسطين أو بمنع خطباء مساجد الله من الصدع بكلمة الحق ، أو باتخاذها هدفا لتحصيل ما يريد حكامها وسلاطينها[2] ، أو بإغلاقها كلية بزعم اتخاذها غرضا تعادي به الدول ، أو تركها كما يقال آثارا تاريخية عفى عليها الزمن ، وكل هذا في نظري من الصد عن سبيل الله وعن مساجده التي قال الله عنها ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [النور:٣٦] .

وقد توعد الله الذين يكبتون الدعاة ويمنعونهم من ذكره وتوحيده في مساجده ، ويسعون في خرابها حسيا ومعنويا ، توعدهم أعظم الوعيد بأن لا يدخلوها إلا خائفين سواء كانوا من المشركين أو من عصاة المسلمين أو المحسوبين عليهم ، لا يدخلون المساجد إلا وهم خائفون محرومون من أمن المسجد الذي هو مكانه ؛ لأن ذنوبهم تخيفهم وتحرمهم من المكث فيه .

وأما خزي الدنيا فهو أن يكون الحاكم الظالم للمساجد ولأهلها مخذولا في حكمه ، والمحتل الظالم كاليهود وغيرهم غير آمن في احتلاله كما هي عاقبة العرب المشركين ثم الصليبيين حين احتلالهم لبيت المقدس ، وكما انقرض حزب القرامطة[3] المجرمين بالخزي واللعنة بعد تخريبهم في المسجد الحرام وإخافة أهله بسرقة الحجر الأسود كما هو مشهور في كتب التاريخ .

وأما عذاب الآخرة لهم فيكفينا وصف الله بأنه عظيم ، عظيم الهول ، عظيم الإيلام ، عظيم الحسرة[4] .

---

(١) المحرر والوجيز (٣٩٦/١) والحديث رواه البخاري ، كتاب التيمم ، باب إذا لم يجد ماء ولا ترابا (١٢٦/١) برقم [٣٣٥] . ورواه مسلم ، كتاب المساجد ، الباب نفسه (٣٧٠/١) برقم [٥٢١] .

(٢) انظر : (صفوة الآثار) (٣١٣ ، ٣١٤) .

(٣) القرامطة : حركة باطنية ، ظاهرها التشيع لآل البيت ، وحقيقتها الإلحاد وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية ، تنسب إلى حمدان قرمط بن الأشعث .
انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص (٣٩٥) ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ط الثانية ١٤٠٩ هـ ، أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن ، د/ سهيل زكار ص"١٨٧ - ٥٠٣ ، ٥٠٨" ط دار الكوثر الرياض سنة ١٤١٠ هـ .

(٤) انظر : (صفوة الآثار) (٣١٦/٢) .

ثانيا : التوصيات والمقترحات .

١ - الالتزام بأوامر الله - عز وجل - والبعد عن معاصيه خير عمل ينجو به العبد من عقاب الله الدنيوي والأخروي ؛ لذا فإني أوصي نفسي وإخواني المسلمين وخاصة الشباب منهم بالالتزام بالدين الإسلامي الالتزام الحق والبعد عن التقليد والتشبه بالكفار سواء كان ذلك في العادات أو اللباس أو الكلام أو غير ذلك ففي الحديث « **من تشبه بقوم فهو منهم** »[1] والناظر في حال شبابنا اليوم يجد ما يندى له الجبين من تغير الحال ، وسفاهة المقال ، وسهر الليالي الطوال ، نسأل الله - تعالى - صلاح الحال . وأقترح على هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إيجاد حل لمثل هذه الأمور ففي يدها سلطات كثيرة تستطيع بإذن الله القضاء عليها إما بتوجيههم الوجهة الصحيحة أو دعوتهم أو استعمالهم في مهامها أو غير ذلك .

٢ - أوصي كل داع إلى الله - تعالى - بما وصى الله به أنبياءه - عليهم الصلاة والسلام - في قوله سبحانه لموسى - عليه السلام - ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤] وقوله لمحمد ﷺ ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥] وقوله ﷺ « **ما يكون الرفق في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه** »[2] .

وأقترح على وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف توجيه الدعاة وتدريبهم على كيفية الدعوة اللينة ، والموعظة الحسنة ، والاستفادة مما كتبه العلماء في ذلك ؛ فقد يكون الداعية إلى الله ذا علم لكن لا يستطيع إيصال ما يريد للناس بالطريقة الحسنة الشيقة .

٣ - سبق وأن ذكرنا أن دين الأنبياء جميعا هو الإسلام وأنهم جميعا يدعون إلى عبادة الله وحده كما في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥] .

وكما رأينا من أن كل رسول من الرسل جاء يقول لقومه ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف:٥٩،٦٥،٧٣،٨٥] و [وسورة هود:٥٠،٦١،٨٤] و [وسورة المؤمنون:٢٣،٣٢] لأنها حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله .

---

(١) سبق تخريجه ص"٢٠٤" .

(٢) سبق تخريجه ص"١٣٦" .

وفي ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج (الأديان المقارنة) مع المنهج القرآني ، وأنه لم يكن هناك تطور في مفهوم العقيدة الأساسي ، الذي جاءت به الرسل كلها من عند الله وأن الذين يتحدثون عن ذلك إنما يقولون غير ما يقوله الله سبحانه[1]! ويفترون على الله الكذب . إنما جاءت الرسل رسولا بعد رسول بالتوحيد الخالص ، وما حصل من إنحراف في الأقوام إنما حصل حين اجتالتهم الشياطين ، وطال عليهم الأمد ، وكثرت المعتقدات الجاهلية ، وفتحت عليهم الدنيا وغيروا وبدلوا ، عندها يرسل الله رسولا آخر ليردهم إلى الإسلام إلى الدين الحق إلى الحنفية السمحة .

٤ - أوصي نفسي وإخواني طلاب العلم بالاستفادة من وقتهم وذلك بإعطاء الأولوية لكتاب الله - عز وجل - وسنة نبيه ﷺ ودراسة كتب السلف الصالح وخاصة في العقيدة والتوحيد .

وأقترح أن يلزم الإنسان نفسه ببرنامج معين يسير عليه مرة في دراسة كتاب الله - تعالى - وأخرى في سنة نبيه ﷺ ، وثالثة في كتب العقيدة الصحيحة ، وهكذا ليكون العلم نورا له في الدنيا يرفع به الجهل عن نفسه وعمن يريد إصلاحه ، ونورا له في قبره ونورا له في الآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد:١٩].

وقال ﷺ : « **إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** »[2] .

وأن ما يدعو إليه بعض الناس اليوم بما يسمى (بزمالة الأديان) ، أو باسم التقريب بين الأديان ، وأحيانا باسم جمعيات الصداقة بين الأديان ؛ إنما هو إنحراف عن العقيدة وبعد عن الدين الحق ورد لقول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾ [آل عمران:١٩] ورد لقوله ﷺ : « **والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي**

(١) انظر : (في ظلال القرآن) ٣/١٣٠٤ ، ١٣٠٥ .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٢٥٥/٣) برقم[١٦٣١] .

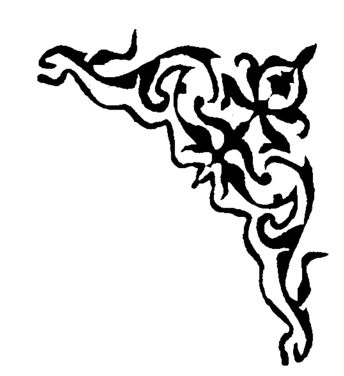
أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »[1] ولقد جاور النبي ﷺ يهود المدينة سنين طوالا قبل أن يجليهم عنها جادلوه خلالها وخاصموه ، ودعاهم بدوره إلى كلمة الإيمان والإسلام ، و لم يدعهم ولا مرة واحدة إلى التقريب بين الإسلام واليهودية ، وكذلك لما جاء وفد نجران إلى المدينة والتقى بالنبي ﷺ وحاجوه في النصرانية فدعاهم إلى المباهلة فخافوا وأبوا أن يباهلوا ، وأمره الله أن يقول لهم ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤] ولو علم النبي ﷺ أن في القرب منهم خيرا لفعله .

إذا فالدعوة من هنا وهناك إلى (زمالة الأديان) دعوة خبيثة هدفها حب اليهود والنصارى وموالاتهم وتركهم يعيشون في الأرض الإسلامية فسادا ، بل دعوة إيضا إلى ترك الجهاد في سبيل الله والله تعالى قال عنهم : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴾ الآية [البقرة:١٢٠] .

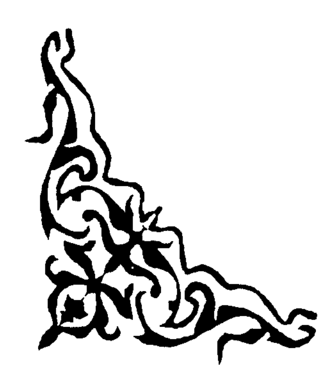
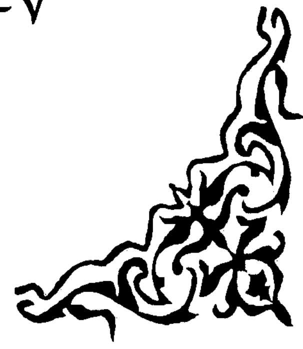
ولعل عذرنا في الحكم عليهم ما دهم العالم الإسلامي من الاستشراق والاستعمار في وقت من الأوقات ، وهذه آثاره تنضح علينا بين الفينة والأخرى، لتشويه صورة الدين الإسلامي في أذهان وقلوب الناس الذين يفكرون في الخروج من الخواء الروحي الذي يعيشونه في ظل الماديات المقيتة والشهوات الرخيصة ؛ لتفقد الدعوة إلى العقيدة الصحيحة تميزها وصفاءها ونقاءها ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ [يوسف:٢١] ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الصف:٨-٩] .

لذا أدعو نفسي وإخواني المسلمين إلى الالتزام بالدين والتمسك به والعض بالنواجذ على مثله وقيمه العليا ، والبعد عن سفاسف الأمور ، وأن يكون هناك فئة من علماء المسلمين تتولى الرد على ما يثار اليوم في الصحافة والإذاعة والبث التلفزيوني وما يسمى (بالإنترنت) من زوبعة حول تطبيق الشريعة الإسلامية ، أو حول حدودها وأحكامها وإظهار الصورة الحقيقية للإسلام ، وأنه دين المحبة والسلام . والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا . وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١/١٣٤) برقم[١٥٣].

الفهارس

فهرس الآيات

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾	٨٤	٢٤٣، ٢٥٧
﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾	٨٥-٩٣	٢٧٨، ٢٩٢
﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ﴾	٨٥	٢٧٦، ٢٧٩، ٢٩٠، ٢٩٣
﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾	٨٦	٢٧٩، ٢٨٦، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣١٠
﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ ﴾	٨٨	٢٧٩، ٣٠٣
﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا ﴾	٨٩	٣٠٤، ٣٠٦، ٣١٢
﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ ﴾	٩٠	٢٠٠
﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا ﴾	٩٢	٢٠٠، ٢٨٠، ٣٠٧
﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ ﴾	٩٣	٣٠٨، ٣١٥
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ ﴾	٩٤، ٩٥	٦٤٧
﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ ﴾	٩٦	١٨٥، ٥١٤
﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾	١٠٣-١٣٧	٣٤٦، ٣٤٧
﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾	١٠٤-١١٢	٣٩٥، ٣٩٧
﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾	١٠٩، ١١٠	٣٤٨، ٣٦٦، ٤٠٢
﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ ﴾	١١١	٣٦٧
﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ ﴾	١١٢	٣٦٨
﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾	١١٣	٣٦٨
﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾	١١٤	٣٦٨
﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾	١١٥	٤٠٨
﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾	١١٦	٤٠٨
﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَـٰغِرِينَ ﴾	١١٩	٣٤٨، ٤٠٩
﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴾	١٢٠	
﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾	١٢١، ١٢٢	٣٤٩، ٣٥٨
﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾	١٢٣	٣٥٩، ٣٦٩، ٤٠٩

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾	١٧	٩١
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾	٢٥-٤٨	٨٩،٩٠،٩١
﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾	٢٦	٩١
﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾	٢٧	١٣٧،١٣٩،١٥٨
﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ ﴾	٢٨	٩٢،١٣٧،١٩٨،٢٩١
﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ﴾	٢٩	٩١،٩٢،٩٩،١٤٠
﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾	٣٠	١٤١
﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾	٣١	٩٢
﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا ﴾	٣٢	١١١
﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾	٣٣	١١١
﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ ﴾	٣٥	٩٢
﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ ﴾	٣٦	٨٣،١٠٦،١١٢،٣٥٢
﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾	٣٧	١١٥
﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ ﴾	٣٨	١١٦
﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾	٣٩	١١٦
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ ﴾	٤٠	٩٢،١٠١،١١٦،١١٧
﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾	٤١	١١٦
﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾	٤٢-٤٣	١١٦،١١٧،١١٨
﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾	٤٣	٩٣،١١٧،١٨٢
﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾	٤٤	٩٣،١١٣،١١٨
﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ ﴾	٤٥-٤٧	١١٨،١١٩
﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾	٤٥	٩٤،١١٩،٥٠٦
﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾	٤٦	٩١،١١٩،١٢٠، ١٤٥،١٦١
﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾	٤٧	١٢٠

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا ﴾	٤٨	١٢١،٩٥
﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾	٥٠ : ٦٠	١٨٣،١٧٤،١٦١،١٥٥
﴿ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾	٥١	١٨٤،١٧٤
﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾	٥٢	١٨٤،١٧٩،١٧٥،١٦٢
﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾	٥٣	١٦٥،١٦٢
﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾	٥٤ : ٥٧	١٧٦
﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ ﴾	٥٤	٢٩١،١٨٨،١٦٣
﴿ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾	٥٥	١٨٨
﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾	٥٦	١٧٦
﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم ﴾	٥٧	١٩٩،١٨٢،١٦٣
﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾	٥٨	٢٨٣،١٩٩،١٦٣
﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ ﴾	٥٩	٣٤٣،١٧٦
﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾	٦٠	٣٤٠،١٦٤
﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ﴾	٦١-٦٨	٢٠٩،١٩٨
﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾	٦١	٢٠٨،١٩٨
﴿ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا ﴾	٦٢	٢٢٢،٢١٠
﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾	٦٣	٢١٠،١٩٩،١٩٨، ٢٩١
﴿ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾	٦٤	٢٩١،٢١٢،٢٠٠،١٩٥
﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ ﴾	٦٥	٢٠٠،١٩٩،١٩٥، ٢١٦،٢١٥
﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا ﴾	٦٦-٦٧	٢٠٠،١٩٩،١٩٦، ٢٨٣،٢١٩،٢١٢
﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾	٦٧	٢٠٠،١٩٦
﴿ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ﴾	٧٦-٨٣	٢٥٤،٢٣٦
﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ ﴾	٧٧	٢٥٥،٢٤٤

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾	١١٠	١٢٢
سورة مريم (١٩)		
﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾	١٦	٥٨٣
﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾	٢١	١٩٩
﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ﴾	٤٢-٤٥	٣٣١
﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ﴾	٥١	٤٤٥
﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾	٦٢	٥٧٨
﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾	٧٧	٥٩٢
سورة طه (٢٠)		
﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾	١٠	٣٧٩
﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾	١٢	٥٩٠
﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾	١٤	٣٣٧، ٥٩٠
﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾	١٥	٣٣٧
﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾	٢٢	٣٨٠
﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى ﴾	٢٤-٣٦	٣٣٧، ٣٣٨
﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى ﴾	٢٤-٨٢	٣٥٣
﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾	٤١	٣٥٦
﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ ﴾	٤٣ : ٥٨	٣٩٥، ٣٩٦
﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾	٤٤	٣٥٦، ٣٩٠، ٦٦٢
﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ ﴾	٤٦	٤٠٠
﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾	٤٧	٣٥٦، ٣٦٤
﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾	٤٨	٣٥٧
﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ ﴾	٥٠	٣٩٧، ٣٩٨
﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾	٥١	٣٩٨
﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾	٥٢	٣٥٩، ٣٩٨

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾	٥٤،٥٣	٣٩٩
﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾	٥٥	٣٩٩
﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾	٥٦	٣٩١
﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا ﴾	٥٧	٤٠٢،٣٥٩
﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾	٥٨-٦٠	٤٠٤
﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾	٥٩	٤٠٥
﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ﴾	٦٠	٤٠٥،٣٩٣
﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم ﴾	٦٢	٤٠٧
﴿ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾	٦٣	٤٠٧
﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ﴾	٦٤	٤٠٧،٣٥٤
﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾	٦٦،٦٥	٣٥٧،٣٥٤
﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ ﴾	٦٦	٤٠٨
﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ﴾	٦٩	٤٠٩
﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾	٧٠	٤٠٩،٣٥٨
﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾	٧١	٤٠٩،٣٦٩،٣٦٠
﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾	٧٢	٤١٠،٣٦٠
﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا ﴾	٧٣	٤١٠
﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾	٧٣	٤١١
﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا ﴾	٧٤	٤١١،٤١٠
﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾	٧٥	٤١٠
﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾	٧٦	٤١٠
﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾	٧٧	٤٣١
﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾	٧٨	٤٣٢
﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ ﴾	٧٩	٤١٥،٣٦١
﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم ﴾	٨١،٨٠	٥٠٠

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ ﴾	٨٣-٩٨	٤٦٤
﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾	٨٤	٤٦٤
﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ ﴾	٨٥	٤٦٤
﴿ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ ﴾	٨٦	٤٨٤
﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ ﴾	٨٧	٤٦٤
﴿ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلًا جَسَدًا ﴾	٨٨	٤٦٤، ٤٨٤
﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلًا ﴾	٨٩	٤٦٤
﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾	٩٠	٤٦٤، ٥٠٣
﴿ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِى ﴾	٩١ : ٩٤	٤٦٤
﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾	٩٥	٤٦٦، ٤٨٤، ٤٨٥
﴿ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ ﴾	٩٦	٤٦٤، ٤٨٤
﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ﴾	٩٧	٤٦٢، ٤٨٥
﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ...﴾	٩٨	٤٦٤
﴿ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾	١٠٨	١٥
﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ ﴾	١١٥: ١٢٣	١٤، ٢٩، ٤٧، ٥٢
﴿ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾	١١٧	٣٠، ٤٩، ٥٠
﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾	١٢٠	٢٧، ٣٠، ٣١
﴿ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ ﴾	١٢١	٢٩، ٤٧، ٥٣
﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾	١٢١	١٤، ٢٩، ٣١، ٥٤
﴿ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ ﴾	١٢٢	٥٤، ٦١
﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا ﴾	١٢٣	٢٩، ٣١
﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾	١٢٣	١٤، ٢٩
﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِى ﴾ ... ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾	١٢٤-١٢٦	١٣٤، ٤٩٤، ٦٢٢
سورة الأنبياء (٢١)		
﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ ﴾	٦	٦٤٣

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ ﴾	٩	٦٥٤
﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾	١١-١٥	٦٢٦،٦٥٦
﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾	٢٣	٣٣،١١٥
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا ﴾	٢٥	٦٦٢
﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾	٣٥	٥٥٩
﴿ أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾	٣٦	٢٧
﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾	٤٨	٤٦٠
﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً ﴾	٧٣	٣٨٢
﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾	٧٦،٧٧	٨٥
﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ﴾	٧٩	٤٧٧
﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾	٩٤	٧٥
﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾	١٠٣	١٣
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾	١٠٧	١٠٣
﴿ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾	١١٢	٤٧٠
سورة الحج (٢٢)		
﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾	١١	٧٢
﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾	٣٤	٧٥
﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	٤١	٤٢٣
﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾	٤٢-٤٤	١٥٦،١٩٣،٢٣٣، ٢٧٧،٣٤١
سورة المؤمنون (٢٣)		
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾	١٧	٩١
﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾	٢٢	٩١
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾	٢٣-٣٠	٩٠،٩٥،٩٦
﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾	٢٤	٩٧،١٣٧،١٤٢

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾	٢٩	٩٥
﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا ﴾	٣٠	٩٧
﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ﴾	٣١ : ٤١	١٦٤،١٦٦
﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾	٣٢	١٦٥
﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾	٣٣	١٦٥
﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ ﴾	٣٧	١٦٦
﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	٤١	١٦٦
﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ﴾	٤٢	١٦٦
﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾	٤٤	١٦٦
﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ ﴾	٤٥-٤٩	٣٤٥
﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾	٤٧	٧٦
﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾	٥٠	٦١٧
﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾	٦٣	٥٩٠
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ﴾	٩٩،١٠٠	٥٣٠
سورة النور (٢٤)		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾	٢١	٥٧
﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾	٣٠	٢٧٥
﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾	٣٦	٦٦١
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ﴾	٤٣	٥٠٧
﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	٥١	٤٢
﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾	٥٥	٦٤٢
﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾	٦٣	٥٩٧
سورة الفرقان (٢٥)		
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ ﴾	٢١	٤٩٠
﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾	٣٥،٣٦	٣٤١

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ ﴾	٣٥	٣٦٦،٣٦٧،٣٦٨، ٤٠٢،٤٠٣
﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ ﴾	٣٦	٣٦٧
﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾	٣٧	٣٦٨
﴿ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ ﴾	٣٩-٤٠	٤٠٦
﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا ﴾	٤١	٣٦٨
﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾	٤٢	٣٦٨
﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾	٤٦-٤٨	٤٠٩
﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ ﴾	٤٩	٣٥٩،٣٦٩،٣٧٠،٤٠٩
﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ﴾	٥٠	٣٧٠
﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا ﴾	٥١	٤١١
﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ ﴾	٥٢	٤٢٩
﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ ﴾	٥٣	٣٧٠،٤٢٩
﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ ﴾	٥٤-٥٦	٤١٢،٤٢٩
﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾	٥٧-٥٩	٤٣٤
﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾	٥٩	٣٨٩
﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾	٦٠	٤٣٠
﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾	٦١	٤٣٠
﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾	٦٢	٤٣٠،٤٣١
﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب ﴾	٦٣	٤٣١
﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴾	٦٤	٤٣١
﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾	٦٥	٤٣٢
﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾	١٠٥-١٢٢	٩٧،٩٨،٢٢١
﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾	١٠٦	١٠٨
﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾	١٠٨-١١٠	٩٧،٩٨،٢٥١

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	٤٢	٦٤٤
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	٤٧	٣٠٨، ٦٤٢
سورة لقمان (٣١)		
﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾	١٣	١١٣، ٤٨٧
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾	٢٥	١٦٢
﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا ﴾	٢٨	٥٣٨
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾	٣٤	٥٠٧
سورة السجدة (٣٢)		
﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾	١٤	٢٩
﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم ﴾	١٧	٤٥١، ٥٢٣
﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾	٢١	٣٣٣
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ ﴾	٢٢	٦٢٢
﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾	٢٤	٣٨٢، ٤٤٩
سورة الأحزاب (٣٣)		
﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ ﴾	٦٣	٢٣٨
﴿ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ ﴾	٦٦، ٦٧	٣٥٨
﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾	٦٩	٤٤٥، ٥١٠
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ ﴾	٧٠، ٧١	١ ، ١٢٣
سورة سبأ (٣٤)		
﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾	١٣	٥٣٨
﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾	١٥-١٩	٦١٦، ٦١٧، ٦١٩
﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾	١٦، ١٧	٦٢١
﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ﴾	١٧	٦٢٢، ٦٢٣، ٦٥٧
﴿ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ ﴾	١٨	٦١٧

الآية	رقمها	الصفحة
سورة ق (٥٠)		
﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾	١٢-١٤	٨٦،١٥٧،١٩٣،٢٧٧، ٢٨٧،٦٢٩،٦٤٤
﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾	١٧	٦٧
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾	٣٧	٢٢٢
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾	٣٨	٥٥٧
سورة الذاريات (٥١)		
﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ ﴾	٣٢-٣٤	٢٥٤،٦٣٧،٦٥٤
﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا ﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾	٣٥،٣٦	٢٦١
﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً ﴾	٣٧	٢٦٨
﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ ﴾	٣٨-٤٠	٣٤٢
﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ ﴾	٤٠	٣٤٢
﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ...﴾	٤٢	١٧٠
﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾	٤٣ : ٤٥	٢٠٤،٢٠٥
﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾	٤٤	٢٠٥
﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾	٤٦	٨٦
﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ ﴾	٥٣	١٣٨،٣٠١
﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾	٥٥	١٣٠
﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	٥٦	٥٥،١٧٤
سورة النجم (٥٣)		
﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾	٣٢	٤٣
﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾	٥٠،٥١	١٥٧،١٩٣
﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾	٥٣،٥٤	٢٣٣،٢٥٨
سورة القمر (٥٤)		
﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾	٩ : ١٧	١٠٢

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾	٦٠	٥٠٩
سورة الحديد (٥٧)		
﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ ﴾	١٠	٤٧٧
﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾	٢٠	٦٤٣،١٣٤
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾	٢٦	٨٦
سورة المجادلة (٥٨)		
﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾	١٠	٢٢٥
﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾	١١	١٢٤
﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾	١٩	٥١٤
﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ ﴾	٢٢	١٤٣
سورة الحشر (٥٩)		
﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾	٩	٧٨
سورة الممتحنة (٦٠)		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى ﴾	١	١٤٦
﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾	٣	١٤٦
سورة الصف (٦١)		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾	٣،٢	٣١٠،١٢٨
﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾	٦	٦٢٧
﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾	٨	٦٦٤،٦٦٠
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ﴾	١٠-١٣	١٣٣
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾	١٤	٥٨٥
سورة الجمعة (٦٢)		
﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾	٥	٥٥٩
﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾	٨	٥٣٧
سورة المنافقون (٦٣)		
﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾	٤	٥٦٢،١٠٥

الآية	رقمها	الصفحة
سورة العلق (٩٦)		
﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ...﴾	٦، ٧	٥٢٤
سورة البينة (٩٨)		
﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾	٥	١٢٢
سورة الفيل (١٠٥)		
﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾	١-٥	٦٣٥، ٦٣٦
﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾	٣	٦٣٧، ٦٤٠
﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾	٤	٦٣٧
سورة الكافرون (١٠٩)		
﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾	٣	٣٦٥

فهرس الأحاديث

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ص

ط

ف

ق

ك

م

ن

و

هـ

لا

ي

فهرس آثار الصحابة

فهرس الأعلام

ي

الكنى

فهرس الشواهد الشعرية

البيت		رقم الصفحة
ب		
فلمـــا شـــارفت أعـــلام طـــي	وطـــيٌّ في المفـــاروفي الشـــعابِ	٥٤٧
ســـقيناهن مـــن ســـهل الأداوي	فمصطبـح علـى عجـلٍ وآبـي	
لـدوا للمـوت وابنـوا للخـراب	فكلكــم يصــير إلى تبــاب	٢٢
ت		
يـا أيـها الراكـب المزجـي مطيتـه	سائل بني أسد مـا هـذه الصـوت	٢٠٠
د		
سبحانه ثـم سـبحاناً يعـود لـه	وقبلنـا سـبح الجـودي والجمـد	١١٨
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه	فكـل قريـن بالمقـارن يقتـدي	١٤٨
ومـا أنـا إلاّ مـن غزيـة إن غـوت	غويت وإن ترشـد غزيـة أرشـد	١٨٧، ٥٢٨
ع		
ومـا المـرء إلاّ كالشـهاب وضوئـه	يحـور رمـاداً بعـد إذ هـو سـاطع	٣٢٨
ك		
لا هـــم إن العبـــد يمـــ	ـنـع رحلـه فـامنع حلالـكْ	٦٣٩
لا يغلـــبن صليبـــهم	ومحـــالهم غـــدواً محـــالكْ	٦٣٩
إن كنـــت تاركـــهم وقبـــ	ـلتنا فـأمر مـا بـدا لـكْ	٦٣٩
ل		
فقلـت يمـين الله أبـرح قـاعداً	ولـو قطعـوا رأسي لديك وأوصـالِ	٦٧
لعـل عتبـك محمـود عواقبـه	وربمـا صحـت الأجسـام بـالعللِ	٦٣
لقد كذب الواشون ما بحت عندهم	بسـر ولا أرسـلتهم برسـولِ	٣٦٤
م		
وأعلـم مـا في اليـوم والأمـس قبلـه	ولكنـني عـن علـم مـا في غـد عـم	٨٨

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- إبطال الحيل ، لابن بطة (أبو عبدالله عبيد الله محمد بن بطة العكبري الحنبلي) ، تحقيق/سليمان بن عبدالله العمير ، ط الأولى ١٤١٧هـ ، مؤسسة الرسالة .

٣- الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي (جلال الدين عبدالرحمن) ، ط دار التراث ، ت/محمد أبوالفضل إبراهيم .

٤- أحكام أهل الذمة ، لابن القيم (شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية) ، تحقيق د/صبحي الصالح .

٥- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، لأبي الحسن علي بن محمد البصري ، ط دار الكتب العلمية .

٦- أحكام القرآن ، لابن العربي (أبوبكر محمد بن عبدالله) ، ط دار الفكر ، تحقيق/علي محمد البجاوي .

٧- أحكام من القرآن الكريم ، محمد بن صالح العثيمين ، ط دار طويق .

٨- أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن ، د/سهيل ذكار ، ط دار الكوثر ، الرياض ١٤١٠هـ .

٩- الأخلاق الإسلامية وأسسها ، عبدالرحمن الميداني ، ط دار القلم .

١٠- أدب الدنيا والدين ، للماوردي (أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري) ، ط دار ابن كثير .

١١- الأدب المفرد ، للبخاري (أبوعبدالله محمد بن إسماعيل) ترتيب كمال يوسف الحوت . ط الثانية ١٤٠٥هـ ، عالم الكتب .

١٢- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، للشوكاني (محمد بن علي) ، ط الأولى ١٤١٣هـ ، المكتبة التجارية ، ت - د/شعبان محمد إسماعيل .

١٣- الأساس في التفسير ، سعيد حوى ، ط دار السلامة .

١٤- أسباب النزول ، للواحدي النيسابوري (أبي الحسن علي بن أحمد) . ط دار الريان ، ت - د/السيد الجميلي .

١٥- أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين ، عبدالله التليدي ، ط دار البشائر الإسلامية .

١٦- الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه ، عبدالقادر عودة ، ط دار القرآن الكريم ١٤٠٠هـ .

١٧- أصول الدعوة ، د/عبدالكريم زيدان ، ط مؤسسة الرسالة .
١٨- أصول الفقه ، محمد أبوزهرة ، ط دار الفكر .
١٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن ، محمد الأمين الشنقيطي ، ط عالم الكتب .
٢٠- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، محمد كامل عبدالصمد ، ط الدار المصرية اللبنانية .
٢١- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، ط دار العلم للملايين .
٢٢- إعلام الموقعين ، لابن القيم ، ط دار إحياء التراث .
٢٣- أفغانستان الجريحة ، محمد محمد توفيق ، ط مؤسسة الجزيرة .
٢٤- إقامة الدليل على إبطال التحليل ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، ط دار الكتب العلمية .
٢٥- الاكتساب في الرزق المستطاب ، محمد بن الحسن الشيباني ، ط دار الكتب العلمية . تحقيق محمد عرنوس .
٢٦- اقتضاء الصراط المستقيم ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، دار مصر .
٢٧- اقتضاء العلم والعمل ، للخطيب البغدادي ، ت محمد ناصر الدين الألباني ، ط المكتب الإسلامي .
٢٨- الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف في الأسماء والكنى والأنساب ، لابن ماكولا (علي بن هبة الله) ، ط الأولى دار الكتب العلمية ١٤١١هـ .
٢٩- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ت د/محمد السيد الجنيد ، ط دار المجتمع .
٣٠- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، د/ محمد عبدالقادر ، دار الفرقان .
٣١- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان) ط مكتبة السنة المحمدية – توزيع مكتبة ابن تيمية ، ت/ محمد حامد الفقي .
٣٢- الأنبياء في القرآن ، سعيد صادق محمد ، ط دار اللواء .
٣٣- أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل ، محمد بن أبي بكر الرازي ، ط دار الفكر المعاصر ، دار الفكر دمشق .
٣٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاوي (القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر) ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت .
٣٥- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، لأبي بكر : جابر الجزائري ، ط مكتبة العلوم والحكم .
٣٦- الإيمان ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، خرج أحاديثه الألباني ، ط المكتب الإسلامي .

ب

٣٧- البحر المحيط ، وبهامشه (النهر الماد) ، لأبي حيان (محمد بن يوسف) ط دار المؤيد .
٣٨- البحر المحيط ، لأبي حيان ، ط دار الكتب العلمية .
٣٩- بدائع الصنائع ، للكاساني (علاء الدين أبي بكر بن مسعود) ، ط المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان .
٤٠- البرهان في متشابه القرآن ، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ، ط دار الوفاء .
٤١- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للسيوطي ، ط المكتبة العصرية ، بتحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ، صيدا لبنان .

ت

٤٢- تاريخ ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون) ، ط الأولى ١٤٠١هـ ، دار الفكر .
٤٣- تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي (أبي بكر أحمد بن علي الخطيب) .
٤٤- تاريخ الطبري ، لابن جرير الطبري ، ط الثانية ، دار المعارف - مصر .
٤٥- التاريخ الكبير ، للإمام البخاري ، ط دار الكتب العلمية ، ط أخرى مؤسسة الكتب الثقافية .
٤٦- تاريخ مدينة دمشق ، لابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسين ابن هبة الله بن عبدالله الشافعي) ، ط دار الفكر .
٤٧- تأملات في سورة المائدة ، حسن باجودة ، ط نادي مكة .
٤٨- تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق للزيلعي (عثمان بن علي فخر الدين) ، ط دار المعرفة .
٤٩- التبيين في أنساب القرشيين ، لابن قدامة المقدسي ؛ (موفق الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد بن محمد) ، ط عالم الكتب .
٥٠- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، ط مكتبة ابن تيمية - القاهرة .
٥١- تذكرة الأريب في تفسير الغريب ، أبوالفرج بن الجوزي ، ط الأولى ، مكتبة المعارف ، ١٤٠٧هـ الرياض ، تحقيق : د/ علي حسن البواب .
٥٢- تذكرة الحفاظ للذهبي ، (أبوعبدالله شمس الدين) ، ط أم القرى للطباعة والنشر ، القاهرة .
٥٣- الترغيب والترهيب ، للمنذري (عبدالعظيم بن عبدالقوي) ، ط مؤسسة التاريخ العربي .
٥٤- التسهيل لعلوم التنزيل ، لابن جزي الكلبي ، ط دار الكتاب العربي .

٥٥- التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي ، عبدالقادر عودة ، ط مؤسسة الرسالة .

٥٦- التعريفات ، للجرجاني ، (علي بن محمد بن علي) ، ط دار الكتاب العربي ، بتحقيق إبراهيم الأبياري .

٥٧- تفسير ابن عطية ، المسمى المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (لأبي محمد عبدالحق بن غالب) ، ط أمير قطر بتحقيق عبدالله الانصاري والسيد عبدالعال .

٥٨- تفسير الجلالين : جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ، ط دار المعرفة ، بيروت .

٥٩- تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل) لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي ، ط دار الكتب العلمية .

٦٠- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، لنظام الدين الحسن ، دار الباز .

٦١- تفسير القرآن ، لأبي المظفر السمعاني ، (منصور بن محمد بن عبدالجبار التميمي المروزي الشافعي السلفي) ، ط دار الوطن .

٦٢- تفسير القرآن العظيم ، لابن أبي حاتم (عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي - ت أسعد الطيب ، ط مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، الرياض .

٦٣- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير (أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي) ، ط دار المعرفة ، ١٤١٣هـ .

٦٤- تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي ، دار الفكر .

٦٥- تفسير معاني القرآن الكريم ، للإمام أبي جعفر النحاس ، ت/محمد علي الصابوني ، ط معهد البحوث العلمية .

٦٦- تفسير المنار ، لمحمد رشيد رضا ، ط دار الفكر .

٦٧- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، د/ وهبه الزحيلي ، ط دار الفكر المعاصر .

٦٨- التفسير الواضح ، محمد محمود حجازي ، ط العاشرة مكتبة دار التفسير بالزقازيق .

٦٩- التفسير والمفسرون ، د/محمد بن حسين الذهبي ، ط دار إحياء التراث العربي .

٧٠- تقريب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني (أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد) ط دار الرشيد .

٧١- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ، لابن حجر العسقلاني ، بتحقيق د/شعبان محمد إسماعيل ، نشر مكتبة ابن تيمية ، القاهرة .

٧٢- التمهيد لابن عبدالبر (أبي عمر يوسف عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري الأندلسي) ، ط وزارة الأوقاف بالمغرب .

٧٣- تهذيب التفسير وتجريد التأويل ، عبدالقادر شيبة الحمد ، ط مكتبة المعارف ، الرياض .

٧٤- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي ، ط دار المدني - جدة .

٧٥- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير المنان ، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ط دار طيبة .

٧٦- تيسير المنان في قصص القرآن ، أحمد فريد ، ط دار ابن الجوزي .

ج

٧٧- جامع الأصول في أحاديث الرسول ، محمد بن الأثير الجزري ، ط الثانية ١٤٠٣هـ ، المكتبة التجارية .

٧٨- جامع بيان العلم وفضله ، لابن عبدالبر ، ت/أبي الأشبال الزهيري .

٧٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لابن جرير الطبري ، (أبي جعفر محمد بن جرير الطبري) ، ط الثانية ، دار المعارف ، ت/محمود شاكر .

٨٠- الجرح والتعديل ، لابن أبي حاتم (عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي) ، ط دار الفكر .

٨١- جمهرة الأمثال ، للنيسابوري الميداني (أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد) ، ط الأولى ، دار الكتب العلمية .

٨٢- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ت/مجدي قاسم ، توزيع مكتبة البلد الأمين .

٨٣- الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، لأبي محمد عبدالقادر بن محمد القرشي الحنفي ، ط مؤسسة الرسالة .

٨٤- الجهاد ضد الإلحاد ، أحمد الحصين ، نشر مكتبة البخاري .

ح

٨٥- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الأصفهاني (أحمد بن عبدالله) ، ط دار الكتاب العربي .

٨٦- الحماسة ، لأبي تمام الطائي ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود .

خ

٨٧- خطبة الحاجة ، محمد ناصر الدين الألباني ، ط المكتب الإسلامي .

د

٨٨- الداء والدواء ، لابن القيم ، ط دار الحديث .

٨٩- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للسيوطي ، دار الكتب العلمية .

٩٠- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز ، لأبي عبدالله الإسكافي ، ط دار السعادة ، بجوار محافظة مصر .

٩١- دعوة الرسل إلى الله تعالى ، محمد أحمد العدوي ، ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٤هـ .

٩٢- ديوان امرئ القيس ، ط دار صادر .

٩٣- ديوان زهير بن أبي سلمى ، ط دار صادر .

٩٤- ديوان طرفة بن العبد ، ط دار صادر .

٩٥- ديوان كثير عزة ، ط دار صادر .

٩٦- ديوان لبيد ، ط دار صادر .

ذ

٩٧- ذم الهوى ، لابن الجوزي (أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي) ، ت/مصطفى عبدالواحد .

ر

٩٨- الرؤية ، للحافظ أبي الحسن الدارقطني ، ط مكتبة المنار .

٩٩- رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها ، د/أحمد بن ناصر الحمد ، ط معهد البحوث العلمية جامعة أم القرى .

١٠٠-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي (أبي الفضل السيد محمود الألوسي البغدادي) ، ط دار إحياء التراث الإسلامي .

ز

١٠١-زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجوزي (أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي) ط دار الفكر .

١٠٢-زاد المعاد في هدي خير العباد ، لابن القيم ، ط مؤسسة الرسالة .

س

١٠٣–سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ، ط المكتب الإسلامي .

١٠٤–سنن ابن ماجة ، أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ، ت/محمد فؤاد عبدالباقي ، ط دار البيان .

١٠٥–سنن أبي داود ، (سليمان بن الأشعث السجستاني) ، ط دار الحديث ، تحقيق عزت الدعاس .

١٠٦–سنن الترمذي ، ت/كمال يوسف الحوت ، المكتبة التجارية .

١٠٧–سنن الدار قطني ، ط دار إحياء التراث العربي .

١٠٨–سنن الدارمي ، (أبي محمد عبدالله بن عبدالرحمن بن بهرام الدارمي) ط دار الكتاب العربي .

١٠٩–السنن الكبرى ، للبيهقي ، (أبي بكر أحمد بن الحسين) ، ط دار المعرفة .

١١٠–السنن الكبرى للنسائي ، ط دار الكتب العلمية .

١١١–سنن النسائي بشرح السيوطي ، ط دار المعرفة .

١١٢–سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ط مؤسسة الرسالة .

١١٣–سيرة ابن هشام ، ط دار التراث .

ش

١١٤–شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي (عبدالحي) ، ط دار ابن كثير .

١١٥–شذرات الذهب ، لابن هشام النحوي ، ط المكتبة العصرية ، توزيع دار الفكر – صيدا بيروت .

١١٦–شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، ط المكتبة العصرية – صيدا بيروت .

١١٧–شرح ديوان جميل بثينة ، جميل بن معمر ، ط دار صادر – بيروت .

١١٨–شرح السنة للإمام البغوي (الحسين بن مسعود البغوي) تحقيق : شعيب الأرناؤوط ط المكتب الإسلامي .

١١٩–شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز ، ت/عبدالله التركي وشعيب الأرناؤوط ، ط الثانية ، مؤسسة الرسالة .

١٢٠–الشرح الكبير على متن المقنع ، لابن قدامة المقدسي ، ط دار الفكر .

١٢١–شرح مشكل الآثار ، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي ، ت/شعيب الأرناؤوط .

١٢٢-شرح المعلقات العشر ، أحمد بن الأمين الشنقيطي ، ط دار الكتاب العربي ١٤١٣هـ .

١٢٣-شرح النووي على مسلم ، ط دار الكتاب العربي .

١٢٤-شعب الإيمان ، للبيهقي ، ط دار الكتب العلمية .

١٢٥-شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، ابن القيم ، مكتبة السوادي للتوزيع .

١٢٦-الشواهد الشعرية في تفسير القرطبي ، د/عبدالعال سالم مكرم ، ط الأولى عالم الكتب .

ص

١٢٧-صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، للقلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي) ط وزارة الثقافة والإرشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة .

١٢٨-صحيح الأدب المفرد ، للألباني ، ط دار الصديق .

١٢٩-صحيح البخاري المسمى (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) . المطبعة السلفية .

١٣٠-صحيح الجامع الصغير للألباني ، ط المكتب الإسلامي .

١٣١-صحيح سنن ابن ماجة للألباني ، ط مكتبة التربية العربي لدول الخليج .

١٣٢-صحيح أبي داود للألباني ، ط مكتبة التربية العربي لدول الخليج .

١٣٣-صحيح سنن الترمذي للألباني ، ط مكتبة التربية العربي لدول الخليج .

١٣٤-صحيح سنن النسائي للألباني ، ط مكتبة التربية العربي لدول الخليج .

١٣٥-صحيح القصص النبوي د/عمر سليمان الأشقر ، ط دار النفائس .

١٣٦-صحيح مسلم بشرح النووي ، ط دار الكتاب العربي .

١٣٧-صحيفة علي بن طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن العظيم ، اعتنى بها راشد عبدالمنعم الرجال ، ط مكتبة السنة .

١٣٨-صفة جزيرة العرب ، للهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب) بتحقيق محمد بن علي الحوالي ط دار اليمامة . الرياض ، سنة ١٣٩٧هـ .

١٣٩-صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ، عبدالرحمن بن محمد الدوسري ، ط الأولى مكتبة دار الأرقم .

ط

١٤٠- طبقات الشافعية الكبرى ، للسبكي ، ط دار إحياء الكتب العربي .

١٤١- طريق الهجرتين وباب السعادتين ، لابن القيم ، ط دار الكتب العلمية .

ع

١٤٢- العبرة من قصة موسى ، محمد خير عدوي ، رسالة ماجستير .

١٤٣- العجاب في بيان الأسباب ، لابن حجر العسقلاني ، ط دار ابن الجوزي .

١٤٤- عجالة المبتدئ وفضالة المنتهي في النسب ، للحازمي الهمذاني ، ط القاهرة الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية ١٣٨٤هـ .

١٤٥- عدة الصابرين ، لابن القيم ، ط دار الكتب العلمية .

١٤٦- العظمة ، لأبي الشيخ الأصبهاني (أبي محمد عبدالله ابن محمد بن جعفر بن حيان) ، ط دار العاصمة - الرياض ، ت/رجاء الله المباركفوري . تحقيق/رضاء الله بن محمد المباركفوري .

١٤٧- العقوبات الإلهية للأفراد والجماعات والأمم ، لابن أبي الدنيا (أبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد) ط/دار ابن حزم .

١٤٨- علل الترمذي الكبير ، بترتيب أبي طالب القاضي تحقيق - حمزة ديب مصطفى - ط مكتبة الأقصى .

١٤٩- العلمانية : نشأتها ، تطورها ، آثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ، سفر بن عبدالرحمن الحوالي ، ط مؤسسة قرطبة .

١٥٠- (علم المعاني ، البيان البديع) ، د/عبدالعزيز عتيق ، ط دار النهضة العربية .

١٥١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ابن رشيق القيرواني ، ط دار المعرفة .

١٥٢- عمل اليوم والليلة للنسائي ، (أحمد بن شعيب) ، ط دار الفكر .

١٥٣- عمل اليوم والليلة ، لابن السني (أبوبكر أحمد بن محمد بن إسحاق) ، ط دار الجيل ، بيروت ١٤٠٤هـ .

١٥٤- عون المعبود شرح سنن أبي داود ، لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ، تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان ، ط مكتبة ابن تيمية سنة ١٤١٢هـ .

ف

١٥٥–فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، ط دار الكتب العلمية .

١٥٦–فتح القدير ، لكمال الدين محمد بن الواحد ، ط دار إحياء التراث العربي .

١٥٧–فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، للشوكاني ، ط أم القرى .

١٥٨–الفتن ، لأبي عبدالله نعيم بن حماد المروزي ، ط دار التوحيد .

١٥٩–الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، سليمان بن عمر العجلي الشافعي الشهير بالجمل ، ط البابي الحلبي .

١٦٠–الفردوس بمأثور الخطاب ، للديلمي الهمذاني (أبي شجاع شيرويه بن شهردار) ، ط الأولى ، دار الكتب العلمية ، سنة ١٩٨٦هـ ، بيروت ، تحقيق : السعيد بن بسيوني زغلول .

١٦١–الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ط الرابعة ، المكتب الإسلامي ١٣٩٧هـ .

١٦٢–الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لأبي محمد ابن حزم الظاهري ، ط دار الجيل .

١٦٣– الفوائد ، لابن القيم ، ط دار مصر للطباعة .

١٦٤–الفوائد البهية في تراجم الحنفية ، لأبي الحسنات الكنوي الهندي ، ط مكتبة خير كثير .

١٦٥–الفهرست ، لابن النديم (أبوالفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالوراق) ط الثالثة – دار المسيرة .

١٦٦–فيض القدير بشرح الجامع الصغير ، للمناوي (محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي) ، ط دار المعرفة – بيروت – لبنان .

١٦٧–في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ط دار الشروق .

ق

١٦٨–القاموس المحيط ، فيروز آبادي ، ط إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي .

١٦٩–قصص الأنبياء ((عرائس المجالس)) ، لأحمد بن محمد الثعلبي ، ط مصطفى البابي الحلبي .

١٧٠–القصص في القرآن بين الآباء والأبناء ، عماد زهير حافظ ، ط دار القلم – دمشق .

١٧١-قضية البوسنة والهرسك ، الأرقم الزعبي ، ط دار النفائس .
١٧٢-القول المفيد على كتاب التوحيد ، محمد بن صالح العثيمين ، ط دار العاصمة .

ك

١٧٣-الكامل في التاريخ ، لابن الأثير (محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني) تحقيق/عبدالله القاضي ط دار الكتب العلمية .
١٧٤-الكامل في ضعفاء الرجال ، لابن عدي ، ط دار الفكر .
١٧٥-كتاب التوحيد ، عبدالمجيد الزنداني ، ط دار المجتمع للنشر والتوزيع .
١٧٦-الكشاف ، للزمخشري ، ط دار التراث .
١٧٧-كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للعجلوني (إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي) ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان .
١٧٨-كشف المعاني في المتشابه من المثاني ، بدر الدين بن جماعة ، ط دار الوفاء - المنصورة .
١٧٩-الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) ، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكنوي ، ط الأولى ، دار الرسالة .
١٨٠-كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، علاء الدين علي المتقي البرهان فوري ، ط مؤسسة الرسالة .
١٨١-الكيد الأحمر : عبدالرحمن الميداني ، ط دار القلم ، دمشق .

ل

١٨٢-لسان العرب ، لابن منظور (محمد بن مكرم) ط دار إحياء التراث الإسلامي .
١٨٣-اللباب في علوم الكتاب ، لأبي حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي ، ط دار الكتب العلمية .

م

١٨٤-المبسوط ، للسرخسي (شمس الدين أبوبكر محمد بن أبي سهل السرخسي) ، ط دار المعرفة ١٤١٤هـ ، بيروت - لبنان .
١٨٥-مجاز القرآن ، لأبي عبيدة : معمر بن المثنى ، ت د/محمد فؤاد سزكين ، ط مؤسسة الرسالة .

١٨٦- مجلة رابطة العالم الإسلامي لشهر ذي القعدة ١٤٠٢هـ .

١٨٧- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، علي بن أبي بكر الهيثمي ، ط دار الفكر .

١٨٨- مجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ط بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين .

١٨٩- مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ، ط ((ق)) بمباي ، الهند ١٣٧٤هـ .

١٩٠- مجموعة التوحيد ، لابن تيمية الحراني ، ومحمد بن عبدالوهاب النجدي ، ط دار اليقين .

١٩١- محاسن التأويل ، للقاسمي (محمد جمال الدين) ، ط دار الفكر - بيروت .

١٩٢- المحلى ، لابن حزم الظاهري ، تصحيح/حسن زين طلبة ، ط مكتبة الجمهورية العربية .

١٩٣- محيط المحيط ، بطرس البستاني ، ط مكتبة لبنان .

١٩٤- مختار الصحاح ، لمحمد بن أبي بكر الرازي ، المكتبة التجارية .

١٩٥- مختصر استدراك الحافظ الذهبي على مستدرك الحاكم ، ط دار العاصمة ، ت/سعد آل حميد .

١٩٦- مختصر طبقات الحنابلة ، محمد جميل بن عمر البغدادي المعروف بابن الشطي ، ط دار الكتاب العربي .

١٩٧- مدارج السالكين ، لابن القيم ، ت/محمد حامد الفقي ، ط دار الكتاب العربي - بيروت .

١٩٨- مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، ط دار الشروق .

١٩٩- المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة ، عبدالله بن سليمان الأحمدي ، ط دار طيبة .

٢٠٠- مستدرك الحاكم (أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري) ، ط الأولى ، دار الكتب العلمية ، بتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ، ١٤١١هـ .

٢٠١- المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ، د/عبدالكريم زيدان ، ط مؤسسة الرسالة .

٢٠٢- مسند أحمد ، ط مؤسسة قرطبة .

٢٠٣- مسند البزار (البحر الزخار) لأبي بكر أحمد بن عمر بن عبدالخالق العتكي البزار ، بتحقيق د/محفوظ الرحمن زين الدين ، ط الأولى ، ١٤١٨هـ .

٢٠٤- مسند الشاميين ، للطبراني (أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي - ط الثانية - مؤسسة الرسالة بتحقيق حميد السلفي ١٤١٧هـ ، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة .

٢٠٥-مسند الشهاب ، (للقاضي أبي عبدالله محمد بن سلامة القضاعي) ، بتحقيق حمدي السلفي ، ط الأولى ، مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٥هـ .
٢٠٦-مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي (محمد بن عبدالله) بتحقيق الألباني ، ط الثالثة ١٤٠٥هـ ، المكتب الإسلامي .
٢٠٧-معارج الصعود إلى تفسير سورة هود ، لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، ط دار المجتمع .
٢٠٨-معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول ، حافظ أحمد الحكمي ، ط دار ابن القيم .
٢٠٩-معالم التنزيل (تفسير البغوي) (أبومحمد الحسين بن مسعود البغوي) ، بتحقيق محمد النمر وآخرون ، ط الثانية ، دار طيبة ، سنة ١٤١٤هـ .
٢١٠-مع الأنبياء في القرآن ، عفيف عبدالفتاح طيارة ، ط دار العلم للملايين .
٢١١-معاني القرآن للفراء (أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء) ، ط دار السرور ، بتحقيق أحمد نجاتي ، محمد النجار .
٢١٢-معاني القرآن وإعرابه للزجاج (أبي إسحاق إبراهيم بن السري) ، ت/عبدالجليل عبده شلبي ، ط عالم الكتب .
٢١٣-معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر) ، تحقيق محمد علي البجاوي ، ط دار الفكر العربي .
٢١٤-معجم البلدان ، يا قوت الحموي ، ط دار صادر ، بيروت ، ط أخرى ، دار الكتب العلمية .
٢١٥-معجم الصحابة ، لابن قانع ، ط مكتبة الغرباء الأثرية .
٢١٦-معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، عبدالعزيز البكري الأندلسي ، ت/مصطفى السقا ، ط عالم الكتب .
٢١٧-معجم مفردات القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ط دار الفكر .
٢١٨-معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، ط دار الفكر .
٢١٩-المعجم الوسيط ، د/إبراهيم أنيس وآخرون ، ط المكتبة الإسلامية باستانبول - تركيا .
٢٢٠-معونة أولى النهى شرح المنتهى د/عبدالملك بن دهيش ط دار الفكر ، الناشر المكتبة الإسلامية .
٢٢١-المغني ، لابن قدامة ، ط مكتبة الرياض الحديثة .
٢٢٢-مغني المحتاج ، للشربيني ، (محمد بن أحمد شمس الدين) ، ط دار الفكر الناشر المكتبة الإسلامية .

٢٢٣- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للرازي ، ط دار التراث العربي .
٢٢٤- مفتاح دار السعادة ، لابن القيم ، ط دار الكتب العلمية .
٢٢٥- المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ط دار الفكر .
٢٢٦- ملحمة البوسنة والهرسك ، د/عدنان النحوي ، دار النحوي .
٢٢٧- المنتخب في تفسير القرآن والسنة ، لجنة القرآن والسنة ، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .
٢٢٨- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، لابن الجوزي ، ط دار الكتب العلمية .
٢٢٩- منتهى الإيرادات ، ابن النجار ، (محمد تقي الدين ابن أحمد شهاب الدين) . ط دار العروبة .
٢٣٠- من صفات الداعية ، محمد لطفي الصباغ ، ط الثالثة - المكتب الإسلامي ١٤٠٠هـ .
٢٣١- من عاش بعد الموت ، لابن أبي الدنيا ، ط مكتبة السنة .
٢٣٢- من علم الفلك القرآني ، د/عدنان الشريف ، ط دار العلم للملايين .
٢٣٣- منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، محمد سرور بن نايف زين العابدين ، ط الأولى ، الكويت - دار الأرقم .
٢٣٤- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر) ، بتحقيق شعيب الأرناؤوط ، محمد العرقسوس ، ط الأولى ١٤١٤هـ ، مؤسسة الرسالة .
٢٣٥- الموسوعة العلمية الميسرة ، شاهين و د/يوسف دياب وأحمد الخطيب ، ط مكتبة لبنان .
٢٣٦- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ط الثانية ١٤٠٩هـ .
٢٣٧- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، للغرناطي ، ت/سعيد الفلاح ، ط دار الغرب الإسلامي .
٢٣٨- ميزان الاعتدال ، للذهبي ، بتحقيق علي البجاوي ، ط الأولى ، دار المعرفة ١٣٨٢هـ .

ن

٢٣٩- نصب الراية ، للزيلعي (جمال الدين أبي محمد عبدالله بن يوسف الحنفي) ، ط الثالثة ١٤٠٧هـ ، دار إحياء التراث العربي .
٢٤٠- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للبقاعي ، ط دار الكتاب الإسلامي .
٢٤١- النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ، ط دار الفكر .
٢٤٢- نهر الخير على أيسر التفاسير ، أبوبكر الجزائري ، ط مكتبة دار العلوم والحكمة .

و

٢٤٣-الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب ، ابن القيم ، ط مكتبة المؤيد .

٢٤٤-الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ، ط الأولى ١٤١٥هـ ، دار الكتب العلمية .

٢٤٥-وفيات الأعيان وإنباء الزمان ، لابن خلكان (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بتحقيق د/إحسان عباس ، ط دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .

٢٤٦-الولاء والبراء ، محمد سعيد القحطاني ، ط دار طيبة .

ي

٢٤٧-يتيمة الدهر ، للثعالبي (أبومنصور عبدالملك الثعالبي النيسابوري) تحقيق محمد عبدالحميد ، ط دار السعادة .

٢٤٨-اليهودية والماسونية ، للشيخ عبدالرحمن الدوسري ، ط دار السنة ١٤١٤هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة